A.U.B. LIBRARY

962
R13t
v.2

تاريخ الحركة القومية

وتطور نظام الحكم في مصر

سليمان
ابو غزالة

بقلم

عبد الرحمن الرافعى بك

الجزء الثانى

(من اعادة الديوان فى عهد نابليون)

(الى ارتقاء محمد على أريكة مصر بارادة الشعب)

ثمنه ٢٥ ص

حق الطبع محفوظ

الطبعة الاولى — ١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م

49648

مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الثانى

تقدمتُ فى العام الماضى لمواطنىَّ الأعزاء بالجزء الأول من تاريخ الحركة القومية ، واليوم أتقدم بالجزء الثانى ، حامداً الله على ما أسْدَى ويَسَّر ، وَعَلَى ما أعان ووَفَّق ، وله الحمد أولا وآخراً

أفردتُ الجزء الأول لدراسة الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، ومبدأ ظهورها ، فرجعتُ بها الى عصر المقاومة الاهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، وبسطتُ الكلام فى تأييد هذه الحقيقة وشرحها على ضوء الوقائع التاريخية ، وسردتُ حوادث تلك المقاومة فى مختلف أنحاء البلاد من الاسكندرية الى اسوان ، وانتهيتُ الى بيان وقائعها فى الوجه القبلى ، ثم وعدتُ القارئ فى ختام الفصل السابع عشر أن ننتقل الى القاهرة والوجه البحرى لنتابع الحوادث التى وقعت فيهما بعد إخماد ثورة القاهرة الأولى

***

وها هى تلك الحوادث مبسوطة فى الجزء الثانى ، فهو يتناول الكلام عن إعادة الديوان فى عهد نابليون ، ونظامه فى دوره الثانى ، ثم حملة نابليون على سورية ، وحوادث المقاومة الشعبية التى وقعت فى مصر أثناء غيبته ، ثم سياسته إزاء الشعب

حين عودته الى مصر حتى رحيله عنها ، واستخلافه الجنرال كليبر فى القيادة العامة ، ووصف حالة مصر السياسية والاقتصادية والشعبية على عهد كليبر ، ثم إبرام معاهدة العريش ونقضها ، ونشوب ثورة القاهرة الثانية وإخمادها ، ثم مقتل الجنرال كليبر ، وتطور نظام الحكم على عهد خلفه الجنرال منو ، وترادف الحوادث الى جلاء الفرنسيين عن البلاد ، والى هنا انتهينا من الكلام عن نتائج بزوغ العامل القومى فى أفق الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية ، ثم أفضينا الى الكلام عن نتائجه بعد انتهاء الحملة ، واستطردنا الى ترجمة حياة زعماء الشعب فى ذلك العصر مبتدئين بالسيد عمر مكرم الذى نعده أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر فى فجر النهضة القومية ، وبيّنا وجه الارتباط بين ظهور تلك النهضة وظهور محمد على باشا ، وبسطنا الحوادث التى تعاقبت على البلاد فى السنوات التى أعقبت جلاء الفرنسيين ، وتأثير العامل القومى فى تطورها ، وما كان من ثورة الشعب على حكم المماليك ، ثم ثورته على الوالى التركى ، وبها ختام الجزء الثانى ، وبتمامه تتم الحلقة الأولى من الكتاب ، ومن الجزأين الأول والثانى تتألف صفحة كاملة من حياة مصر القومية فى تاريخها الحديث ، بدأت بظهور الحركة القومية ، وختمت بارتقاء محمد على أريكة مصر بارادة الشعب

***

ولمناسبة ظهور الجزء الثانى أرى حقا علىّ أن أدوّن فى مقدمته آية الشكر لمن تفضلوا بتعضيدى فى العمل ، وأخصّ بالثناء الصحافة وأعلامها ، فان ما تفضلوا به علىّ من التنويه بكتابى والعناية به ، وبحثه وتحليله ، وما أسدوه إلىّ من العطف وجميل الرعاية كان له أحسن الوقع فى نفسى ، فلهم علىّ بذلك فضل لا أنساه ، وإنى لأعده منهم أكبر مشجع لى على المضى فى عملى ، ولا غرو فالصحافة من أكبر دعائم الحركة

القومية وأقوى أركان النهضة السياسية والعلمية فى البلاد

وكذلك أقدم شكرى للذين تفضلوا علىّ وشجعونى برسائلهم الخاصة التى لم تنشر فى الصحف ، وأحفظ تلك الرسائل ذخيرةً عنـدى وتذكاراً لشريف عواطفهم وكريم إحساسهم

***

و إذْ يظهر هذا الجزء فى يوم الذكرى الثانية لانتقال فقيد الوطن المرحوم أمين بك الرافعى الى الرفيق الأعلى ، فانى أحيّ ذكراه المجيدة ، وأرسل من أعماق قلبى الى روحه الطاهرة آيات المحبة والاخاء ، فلتدم ذكراك العزيزة يا أمين ، يجدّدُها مَرُّ الأيام وكَرُّ السنين ، ولتخـلد أعمالك فى مآثر قومك ، ولتطمئن نفسك فى السماء بين الصدّيقين والشهداء « وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ، ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً »

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٩

عبد الرحمن الرافعى

خلاصة الجزء الاول

نذكرهنا خلاصة فصول الجزء الاول لنضع أمام القارئ صورة موجزة منه قبل قراءة الجزء الثانى :

مقدمة الكتاب واهداؤه .

الفصل الاول — يتناول الكلام عن نظام الحكم فى عهد المماليك . وفيه بيان لنظام الحكم السياسى ، ونظام الملكية والضرائب ، والنظام القضائى ، ونتائج تلك النظم فى حالة مصر من الوجهة السياسية والاقتصادية والصحية ، والكلام فى العلوم والآداب ، والحالة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر عند مجىء الحملة الفرنسية

الفصل الثانى — تطور نظام الحكم فى عهد الحملة الفرنسية ، وفيه بيان أسباب الحملة ومقدماتها وتطورها فى خلال العصور ، وانفاذ الحملة على يد نابليون بونابرت ، وموقف انجلترا ، ومعدات الحملة ووقائعها الاولى ، وسياسة نابليون ازاء الشعب وقاعدة الحكم التى وضعها فى منشوره الى المصريين ، والمفاوضات بين نابليون وزعماء الشعب غداة معركة الاهرام

الفصل الثالث — نظم الحكم التى أسسها نابليون فى مصر ، ديوان القاهرة ، دواوين الاقاليم ، الديوان العام .

الفصل الرابع — المجمع العلمى ، نظامه وأعضاؤه وداره ، طائفة من أعضاء المجمع ولجنة العلوم والفنون . علماء الرياضيات والمهندسون . علماء الطبيعيات . الاقتصاديون . القواد والضباط . الاطباء والجراحون الادباء والمترجمون والفنانون . أعمال المجمع العلمى ، نظرة عامة فى نظام الحكم الذى أسسه نابليون فى مصر

الفصل الخامس — المقاومة الاهلية فى عهد الحملة الفرنسية ، كلمة عامة . المقاومة فى الاسكندرية . الحالة النفسية للشعب عند مجىء العمارة الفرنسية . دفاع أهالى الثغر واحتلال الاسكندرية . سياسة نابليون فى الاسكندرية وأوامره وتعليماته قبل

مغادرته اياها . موقف الجنرال كليبر في الاسكندرية . مسألة السيد محمد كريم والقبض عليه ومحاكمته ثم اعدامه .

الفصل السادس — فى البحيرة . معركة شبراخيت . نهب القرى

الفصل السابع — فى القاهرة . حالة الافكار فى القاهرة عند مجىء الحملة الفرنسية والتفير العام . سوء استعداد المماليك وضعف وسائل الدفاع . واقعة امبابه أو معركة الاهرام ونصيب المصريين فيها .

الفصل الثامن — عود الى الاسكندرية . واقعة (أبو قير) وتأثيرها فى مركز الفرنسيين . ديوان الاسكندرية

الفصل التاسع — فى رشيد . احتلال رشيد . حادثة السالمية . حادثة شباس عمير

الفصل العاشر — عود الى البحيرة ورشيد . الاضطرابات فى البحيرة . حول رشيد وفى دمنهور

الفصل الحادى عشر — فى القليوبية والشرقية . توزيع القوات الفرنسية فى الوجه البحرى . المعارك بين الخانكه وأبى زعبل . انسحاب الفرنسيين من الخانكه ثم احتلالها . احتلال بلبيس . معركة الصالحية . عودة نابليون الى القاهرة . الاضطرابات فى الشرقية

الفصل الثانى عشر — عود الى القاهرة . سياسة الحفلات . مهرجان وفاء النيل . حفلة المولد النبوى . تعيين أمير الحج . عيد الجمهورية الفرنسية

الفصل الثالث عشر — ثورة القاهرة الأولى

الفصل الرابع عشر — فى المنوفية والغربية . المقاومة فى غمرين وتنا . المحلة الكبرى . الثورة فى طنطا . احتلال عشما

الفصل الخامس عشر — فى الدقهلية ودمياط . واقعة المنصورة . الحملة على سنباط وميت غمر . فيضان الثورة . الحملة على البحر الصغير . حسن طوبار . سير الحملة على البحر الصغير . معركة الجمالية . فى دمياط . واقعة الشعراء . تفاقم الثورة وفظائع الجنرال فيال . الحملة الثانية على البحر الصغير . سير الحملة والاستيلاء على

المنزلة . احتلال المطرية . تحصين منطقة دمياط

الفصل السادس عشر — المقاومة فى الوجه القبلى . احتلال بنى سويف . احتلال البهنسا . تعقب أسطول المماليك الى أسيوط . واقعة سدمنت . حادثة الفقاعى . احتلال أسيوط . الثورة فيما بين أسيوط وجرجا . معركة سوهاج . معركة طهطا . معركة سمهود . وصول الفرنسيين الى اسوان . المقاومة فى جزيرة فيله . تجدد القتال بين جرجا واسوان . معركة الردسية . معركة قنا . معركة (أبو مناع) . معركة اسنا

الفصل السابع عشر — استمرار المقاومة فى الوجه القبلى . موقف المماليك . معركة الصوامعة . كارثة السفن الفرنسية فى النيل . من اسوان الى قوص . معركة قفط . معركة أبنود . حالة الشعب النفسية . رجوع ديزيه الى قنا . معركة بئر عنبر . تجدد الثورة بين قنا وجرجا . واقعة برديس . واقعة جرجا . واقعة جهينة . الثورة فى بنى عدى . فى المنيا وبنى سويف . واقعة (أبو جرج) . الثورة فى المنيا . الثورة فى اطفيح . حركات الجنرال ديزيه . مشروع الحملة على القصير . تنظيم البريد . اعتقال الرهائن . واقعة اسوان . احتلال القصير . الحالة النفسية للشعب

الفصل الثامن عشر — وثائق تاريخية

الفصل التاسع عشر — مراجع البحث

تمت خلاصة الجزء الاول ويليها الفصل الاول من الجزء الثانى .

الفصل الاول

إعادة الديوان

تعطل الديوان بعد اخماد ثورة القاهرة واشتدت وطأة الارهاب فيها ، فضج الناس مما أصابهم من ترادف المظالم وتوالى المحن، فكسدت الأسواق، و بارت التجارة، وانقبضت ايدى الناس عن العمل ، و بدأ نابليون يفكر فى عواقب الغاء الديوان واستمرار حكم الارهاب وما يفضى اليه من تعطيل دولاب الحكومة وشلل الادارة

كان من نتائج حكم الارهاب أن شح المال وأخذ معينه ينضب فى خزانة الحكومة والجيش و بدأ الارتباك يظهر فى الادارة وفروعها

كتب المسيو سوسى Sucy مدير مهمات الجيش الى الجنرال (منو) Menou فى هذا الصدد يقول « إن الحوادث الاخيرة قد حبست ضرائب البيوت، وصار إيراد الجارك فى حكم العدم » فهذه العبارة منبئة بما صارت اليه حالة الخزانة من الارتباك ، وبديهى أن هذه النتيجة لم تكن لترضى نابليون أو تحقق آماله ، فأدرك أن استمرار حكم الارهاب لا يضر الشعب وحده بل يعود بالو بال والخسران على المصالح الفرنسية ، وعلم من جهة أخرى أن تركيا تعبىء جيشا للزحف على مصر ، فرأى من الحكمة أن يعمل من جديد على استرضاء المصريين وأن يعيد الى البلاد حالتها الطبيعية بقدر المستطاع ، وأدرك ان استمرار حكم الفزع والارهاب فى القاهرة يجعل البلاد كلها فى هرج الثورة ومرجها ، و يزعزع الاحتلال الفرنسى، و يصمه بالعجز عن إقرار الخواطر وتهدئتها ، ورأي بثاقب نظره أن ليس فى مقدوره حكم البلاد بقوة السيف والنار ، وتبين له من تجربة تعطيل الديوان أن لاسبيل الى حكم الشعب دون وساطة زعمائه وكبرائه ، فعاد يفكر فى اعادة الديوان بعد أن استمر معطلا أكثر من شهرين .

على أن ارجاع الديوان لم يكن من شأنه إعادة السكينة والرجوع بالبلاد الى حالتها الطبيعية ، لكنه كان بلا جدال وسيلة تخفف من هياج الخواطر وثورة النفوس

قال (ريبو) فى هذا الصدد « لقد تجدد الشعور بضرورة إحداث هيئة نيابية تكون سبيل التفاهم بين الفرنسيين والشعب المصرى ، وظهر خطأ الفكرة القائلة بابطال الديوان ، وكان نابليون أول من شعر بضرورة اعادته ، لقد تردد فى ارجاعه أملا فى أن يتعود المصريون اتصال علاقتهم مباشرة بالسلطات الفرنسية ، لكنه لاحظ أن شعور العداء والكراهية لا يزال يطغى ويزداد كل يوم قوة فيفسد العلاقات بين الفرنسيين والاهالى ، فعزم من ثَمَّ على الرجوع الى برنامجه القديم واعادة الهيئة النيابية المصرية ، ولم يشأ أن يفهم الشعب أنه مكره على اعادة الديوان ولا أنه قد أعاده من ضغط واضطرار ، فاجتهد فى أن يصنع عمله بصبغة الكرم والسخاء » (١)

هذا مايقوله (ريبو) تعليلا لاعادة الديوان ، ونزيد عليه أن نابليون كان لا يفتأ يفكر فى تحقيق مشروعاته العظيمة التى كانت الغرض من الحملة الفرنسية ، وأهمها ضرب السياسة الانجليزية فى الهند ، وانشاء دولة عربية عظيمة تحقق أطماعه فى الشرق ، وبالرغم مما أثارته ثورة القاهرة فى نفسه من الحنق وخيبة الرجاء فانه لم يفقد الأمل فى أن يجتذب اليه قلوب المصريين ، وكان معتقدا أنه فى حاجة الى اكتساب رضاهم ليمضى مطمئنا فى تحقيق مشروعاته الكبيرة ، وأول ذلك الحملة على سورية ، فلما اعتزم إنفاذها رأى من الحكمة أن يتقرب الى المصريين باعادة الديوان قبل أن يغامر بجيشه فى حملة بعيدة المدى منهكة للقوى ، واذا قابلت تاريخ تلك الحملة بتاريخ اعادة الديوان وجدت بين الحادثتين تقاربا تستنتج منه أن نابليون أعاد الديوان اجتذابا لقلوب المصريين بعد أن اعتزم الزحف على سورية حتى لا يدع وراءه أمة غضبى ، فقد أمر باعادة الديوان فى ٢١ ديسمبر سنة ١٧٩٨ فى الوقت الذى كان يعد فيه معدات الحملة ، ثم ارتحل الى السويس فى ٢٤ ديسمبر لاكتشاف موقعها وارتياد شبه جزيرة سيناء ، وكانت فكرة الزحف على سورية قد اختمرت فى ذهن نابليون قبل رحلته الى السويس بوقت طويل ، قال الجنرال (برتييه) رئيس أركان حرب

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الرابع

الحملة الفرنسية فى كتابه (١) « إن معدات الحملة على سوريا دخلت فى دور التنفيذ قبل رحلة نابوليون الى السويس » ، ويقول الجنرال كليبر فى يومياته لمناسبة رحلة السويس هذه واستخلافه على القيادة العامة مدة غيبة نابليون « لقد دار الكلام حول الحملة على سورية والاستعداد لها ، وكانت الفكرة السائدة أن قيادتها ستعهد لى ، لكن نابليون عزم على أن يتولى قيادتها بنفسه ، وقد عرض على الجنرال (كافريللى) يوم ٢ نيفوز (٢٢ دسمبر سنة ١٧٩٨) قيادة تلك الحملة فأجبت بالقبول » ، ثم ذكر كليبر أن نابليون دعاه قبل رحيله الى السويس أن يصحبه اليها فأجابه كليبر بأن الجنرال كافريللى أخبره بقرب سفره الى دمياط وقطية للزحف على سورية ، فكان جواب نابليون أن فى الوقت سعة بعد عودتهم من السويس ، ثم رجاه كليبر فى أن يبقى هو بالقاهرة الى أن يرجع من رحلته ، فأقره نابليون وأنابه عنه فى القيادة العامة (٢) ، ويقول الكولونيل جاكوتان Jacotin إن الحملة على سورية كانت تهيأ معداتها قبل تحركها بنحو شهرين (٣) ، كل هذا يدل على أن نابليون قد أعاد الديوان بعد أن اعتزم تجريد الحملة على سورية ، وأنه أمر باعادته قبل رحلته الى السويس ، فلننقل اذن كلمة عن هذه الرحلة وعن أهمية السويس وعلاقتها بمشروعات نابليون

احتلال السويس

ورحلة نابليون اليها

كانت للسويس أهمية حربية كبيرة لم تفت نابليون وبخاصة لان لها صلة وطيدة بمشروعاته فى الشرق ، فقد كان بالرغم من تحطيم أسطوله فى واقعة (أبو قير) لا ينفك يبتكر الوسائل ويرسم الخطط لينال من انجلترا عدوته اللدودة ، ولم يفقد الأمل فى

---

(١) ذكر حروب الجنرال بونابرت فى مصر وسوريا

(٢) يوميات الجنرال كليبر

(٣) كتاب (تخطيط مصر) الجزء السابع عشر

تجريد حملة برية تخترق آسيا وتصل الى الهند ، وكان يرى من جهة أخرى أن السويس تصلح لأن تكون قاعدة بحرية على شاطىء البحر الاحمر يصل منها الى الهند، وفكر كذلك فى وصل البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر بقناة تجرى بينهما، وجدّ فى انفاذ هذا المشروع وكان غرضه منه محاربة انجلترا وزعزعة قوائمها فى الهند ، لكنه لم يفلح فى تحقيق فكرته وصرفه عنها سير الحوادث وتقلب الأحوال

فالسويس كانت إذن قاعدة لمشروعات جمة طافت برأس نابليون ، ولاغرو ان وجه عنايته الى احتلالها عسكريا واكتشاف موقعها وارتياد الجهات المجاورة لها ، فعهد الى الجنرال (بون) Bon أن يحتلها (١) فسار هذا اليها من القاهرة سالكا طريق الحجاج وعسكر بها فى أوائل شهر دسمبر سنة ١٧٩٨

رواية الجبرتى

قال الجبرتى عن احتلال السويس « إن أهل السويس لما بلغهم مجيء الفرنساوية هربوا واخلوا البلدة فذهبوا الى الطور ، وذهب البعض الى العرب بالبادية ، فنهب الفرنسيس ماوجدوه بالبندر من البن والمتاجر والامتعة وغير ذلك، وهدموا الدور وكسروا الاخشاب وخوابى الماء ، فلما حضر كبيرهم وكان متأخراً عنهم كلمه التجار الذاهبون معه وأعلموه أن هذا الفعل غير صالح ، فاسترد من العسكر بعض الذى أخذوه ووعدهم باسترجاع الباقى أو دفع ثمنه بمصر وأن يكتبوا قائمه بالمنهوبات »

وهذه الرواية تؤيدها رسالة الجنرال (بون) التى بعث بها من السويس بتاريخ ٧ دسمبر سنة ١٧٩٨ الى نابليون يبلغه فيها نبأ احتلاله اياها ، فقد ذكر فيها « أن بعض أغنياء المدينة قد هجروها عند اقترابنا وانسحبوا الى السفن التى فى الميناء وعددها تسع » وقال فى موضع آخر من رسالته إنه أمر قوميسير

---

(١) أمر نابليون المؤرخ أول ديسمبر سنة ١٧٩٨ . مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٦٩٦ ورقم ٣٦٩٧

الحرب « أن يفتش بيوت البكوات والاغنياء الفارين وأن يأخذ ما فيها من مواد الوقود وينقل مابها من الدقيق والغلال الى مخزن الجيش » ، وهذا هو النهب الذى أشار اليه الجبرتى ، وقال فى موضع آخر من رسالته ان الاخشاب القديمة كثيرة فى المدينة وهى تصلح للوقود ، وأنه أمر قوميسير الحرب أن يحملها الى مخزن الجيش وانه أصدر تعليماته مشددة بعدم التعرض لاخشاب البناء الموجودة بكثرة فى هذا البلد

اعتزم نابليون أن يرتاد بنفسه تلك المواقع التى كان يبنى عليها آمالا كباراً ، فخرج من القاهرة يوم ٢٤ دسمبر سنة ١٧٩٨ (١) فى جماعة من كبار القواد والمهندسين وبعض الاعيان المصريين ذكر (ريبو) أسماءهم وهم الجنرال برتييه ، وكافريللى ، ودومارتان ، والكونتر أميرال جانتوم قومندان البحرية ، والقوميسير (دور) مدير مهمات الجيش ، (٢) والمسيو برتوليه ، والمسيو مونج ، ولوبير ، ودوترر ، وبوريين ودوكوتيل ، وكوستاز من أعضا المجمع العلمى والسيد أحمد المحروقى كبير تجار القاهرة وابراهيم افندي كاتب جمرك البهار ، فبلغ نابليون وصحبه السويس يوم ٢٦ دسمبر ليلا وجاب نواحى طورسيناء وبرزخ السويس واستطلع آثار ترعة الفراعنة القديمة وخليج أمير المؤمنين ، وعهد الى المهندس لوبير Le Père كبير مهندسى الطرق والجسور أن يدرس مشروع حفر ترعة تصل البحر الابيض بالبحر الاحمر وان يضع تقريراً عنه (٣) وعاد الى القاهرة فى اليوم السادس من شهر يناير سنة ١٧٩٩

رواية الجبرتى

قال الجبرتى عن رحلة نابليون الى السويس «وفى يوم الاثنين سادس عشر رجب سنة ١٢١٣ سافر سارى عسكر بونابارته الى السويس وأخذ صحبته السيد أحمد

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٩٠

(٢) عينه نابليون بدلا من المسيو (سوسى) الذى رحل الى فرنسا مستشفياً من الاصابة التى نالته فى أول عهد الحملة الفرنسية (أنظر الجزء الاول ص ٣١٧)

(٣) راجع ما كتبناه عن هذا المشروع بالجزء الاول ص ١٢٥

المحروقى (كبير تجار القاهرة) وابراهيم افندى كاتب (جمرك) البهار وأخذ معه أيضاً بعض المدبرين والمهندسين والمصورين وجرجس الجوهرى (كبير المباشرين) ، وأنطون أبوطاقية، وغيرهم، وعدة كثيرة من عساكر الخيالة والمشاة ، وبعض مدافع ، وعربات ، وتخترروان، وعدة جمال لحمل الذخيرة والماء والقومانية (المؤونة) » وقال فى موضع آخر «وفى مدة اقامته بالسويس صار يركب ويتأمل فى النواحى وجهات ساحل البحر والبر ليلا ونهاراً »

منشور نابليون

باعادة الديوان

قبل أن يغادر نابليون القاهرة الى السويس أصدر منشوره باعادة الديوان فى ٢١ دسمبر سنة ١٧٩٨ وبين فيه أنه عطل الديوان منذ شهرين عقابا لاهل القاهرة على الثورة التى نهضوا فيها ، وأنه رأى بعد أن سكنت الاحوال وهدأت الخواطر اعادة الديوان سيرته الاولى ، وقد ملأ منشوره بعبارات جوفاء تعود أن يكررها فى بياناته ومنشوراته اظهاراً لسطوته ، وأغرق فى هذه العبارات حتى ادعى انه اطلع الغيب وأنه يعلم أسرار النفوس وما تخفى الصدور ، وزعم أن احتلاله مصر مذكور فى بعض آيات القرآن الكريم ....

أراد نابليون بهذا الأسلوب أن يشعر الناس شدة بأسه وقوته ويأتيهم من ناحية الخوارق التى اعتادوا أن يسمعوها فى ذلك العصر، لكنه فى الحقيقة لم يؤثر فى حالة الشعب النفسية ولم يغير من شعورهم حيال الفرنسيين بل زاد فى كراهيتهم ، وهذا يفهم مما ذكره الجبرتى عن هذا المنشور فقد وصفه بقوله :

« وقد أوردت ذلك وان كان فيه بعض طول للاطلاع على ما فيه من التمويهات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد

التخيلات التى تنادى ببطلانها بديهة العقل فضلا عن النظر ، وهى مقولة على لسان بونابرتة كبير الفرنسيس »

أوردنا نص المنشور فى قسم الوثائق التاريخية [١] بصيغته العربية نقلا عن الجبرتى ، وقد رجعنا لمعرفة نظام الديوان الى الاصل الفرنسى للمنشور الوارد فى جريدة (كوريبه دليجبت) [٢] التى كانت تصدر على عهد الحملة الفرنسية ، وهو يشمل أمر التأسيس الذى أصدره نابليون ثم المنشور الوارد تعريبه فى الجبرتى ونظام الديوان العمومى والديوان الخصوصى وأسماء أعضاء الديوان العمومى ، ورجعنا كذلك الى مراسلات نابليون [٣] فوجدناها مطابقة لماجاء فى جريدة (كوريبه دليجبت) غير أنه لم يرد بها أسماء الاعضاء

نظام الديوان الجديد

وضع نابليون للديوان نظاما جديدا أوسع نطاقا من نظامه القديم ، فجعله مؤلفا من هيئتين : (الديوان العمومى) ويسميه نابليون الديوان الكبير ، و (الديوان الخصوصي) [٤]

الديوان العمومى

فالديوان العمومى مؤلف من ستين عضواً عينهم الفرنسيون تعيينا من بين أعيان المصريين وممثلى طبقاتهم ، وهؤلاء ينتخبون من بينهم رئيس الديوان واثنين من السكرتيرين ، ويكون انتخابهم بالأغلبية النسبية ، ويجتمع الديوان العمومى بناء على دعوة حاكم القاهرة ، وموعد اجتماعه كما حدده أمر التأسيس فى اليوم السابع من

---

(١) وثيقه رقم ١ (٢) العدد ٢٣ (٣) الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٨٥

(٤) عبارة (الديوان العمومى) و (الديوان الخصوصى) هى التسمية الواردة فى الجبرتى أى التى كانت معروفة فى عصره فابقيناها كما هى لانها صارت من المصطلحات التاريخية لنظام الحكم فى ذلك العصر ، وفى الجبرتى أن (الديوان الخصوصى) يسمى ايضا (الديمومى) ولعلها مأخوذة من كلمة دائم لانه ينعقد دائما وهذا يطابق اسمه بالفرنسية Divant permanent اى الديوان الدائم

شهر نيفوز (يوافق اليوم الثامن عشر من شهر رجب — ٢٧ دسمبر) الساعة التاسعة صباحا ، فيبتدىء الديوان جلساته من هـذا اليوم و يستمر انعقاده ثلاثة أيام ثم ينفض ولاينعقد بعد ذلك الا بدعوة أخرى من حاكم العاصمة، وعُين للديوان قوميسير فرنسى وهو المسيو جلوتييه Gloutier وقوميسير مسلم وهو الامير ذو الفقار كتخدا (وكيل) نابليون .

وقد اجتمع الديوان العمومى فعلا يوم ٢٧ دسمبر سنة ١٧٩٨ ، واليك أسماء أعضائه الستين كما هى واردة فى الامر الصادر بتأسيسه :

من المشايخ والعلماء : السيد البكرى ، الشيخ الدمرداشى ، السيد حسين الرفاعى ، الشيخ عبـد الله الشرقاوى ، الشيخ محمد المهدى ، الشيخ مصطفى الصاوى ، الشيخ موسى السرسى ، الشيخ محمد الامير ، الشيخ سليمان الفيومى ، الشيخ احمد العريشى الشيخ ابراهيم بن المفتى ، الشيخ صـالح الحنبلى ، الشيخ محمد الدواخلى ، الشيخ مصطفى الدمنهورى .

من الوجاقليـة (الجهادية) : محمد أغا شوربجى فلاح ، على كخيا المجدلى ، خليل أغا شوربجى فلاح ، احمد ذو الفقار أوضاباشى فلاح .

من الانكشارية : يوسف شوربجى باشجاويش التفكجية ، يوسف شوربجى باشجاويش الهجانة ، مصطفى افندى الشركسى ، الامير سليم شرابى .

من وجاق العزب : مصطفى افنـدى عاصى ، مصطفى كخيا باش اختيار ، حسن شوربجى بركاوى .

من تجار الغورية : الحاج محمد العشوبى شيخ الغورية ، الحاج محمـد ابوالنصر، الحاج سيد شيخ المغاربة .

من تجار البهار والبن — الحاج احمـد محرم ، الحاج احمـد المحروقى ، ابراهيم أفندى كاتب جمرك البهار ، الحاج حسين جاد ابراهيم ، المعلم ميخائيل كحيل ، المعلم يوسف فرحات، الحاج احمد حسين

من تجار البضائع التركية — السيد احمد العقاد المحروقى ، الحاج مصطفى شيخ

العقادين ، الحاج احمد القازانجى

من تجار العطارة — السيد محمد شيخ العطارين

من تجار السكر — درويش عبد القادر البغدادلى ، ابراهيم قرموط ، محمد الهمشرى .

من تجار النحاس — السيد مصطفى مصباح ، الحاج حسين النحاس

من الصاغة والجواهرجية — الحاج سالم الجوهرى ، محمد البغدادلى

من تجار الورق — على بن الحاج خليل الوراق

من تجار الأقمشة — الحاج ابراهيم المسيرى ، على السلاطجى

من تجار الصابون — السيد احمد الزرو ، السيد يوسف فخر الدين

من تجار الدخان والاقمشة السورية — احمد نظام

من مشايخ الأخطاط — شيخ جزارى الحسينية ، شيخ العطوف

من الاقباط — المعلم لطف الله المصرى ، المعلم ابراهيم جر العايط ، الشيخ ابراهيم مقار ، الشيخ ابراهيم كاتب الصرة .

من الأجانب — المسيو ولمار Wolmar ، المسيو كاف Caffe ، المسيو بودوف Baudeuf

يتبين من هذا الاحصاء ان الديوان العمومى كان يمثل طبقات الهيئة الاجتماعية فمنهم :

١٤	من العلماء والمشايخ
٢٦	من التجار والصناع
١١	من رجال العسكرية
٢	من مشايخ الأخطاط
٤	من الاقباط
٣	من الأجانب

وكان نابليون يعنى بجعل الديوان العمومى ممثلا لسكان القاهرة على اختلاف طبقاتهم، يدل على ذلك الامر الذى أصدره بتاريخ ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٩ الى القوميسير الفرنسى لدى الديوان بأن يبلغه إذا كانت فى الديوان مراكز خالية ليشغلها بأعضاء جدد لأنه يبغى « ان يتألف الديوان من هيئة تكون ممثلة تمام التمثيل لسكان القاهرة بحيث اذا خاطبت الحكومة الديوان تتحقق انها تواجه فيه الرأى العام (١) »

الديوان الخصوصى

قضى أمر التأسيس بأن ينتخب أعضاء الديوان العمومى من بينهم أربعة عشر عضواً يتألف منهم (الديوان الخصوصى) ويكون انتخابهم بالاغلبية النسبية ، ولا يكون انتخابهم باتا إلا بتصديق القائد العام ، وهـذا الديوان يجتمع كل يوم « للنظر فى مصالح الناس وتوفير أسباب السعادة والرفاهية لهم ومراعاة مصالح الجمهورية الفرنسية (٢) »

وينتخب أعضاء الديوان الخصوصى من بينهم رئيساً وسكرتيراً (كاتم سر) ويعينون التراجمة اللازمين لاعمال الديوان من غير أعضائه ، ومحضراً (شاويشاً) ومقدماً ، وعشرة قواصين (حجاب)

ورتب امر التأسيس لرئيس الديوان الخصوصى وأعضائه رواتب شهرية فجعل مرتب الرئيس مائة ريال فى الشهر وباقى الاعضاء ثمانين ريالا ولكل من المترجمين ٢٥ ريالا ، والمحضر (الشاويش) ستين بارة كل يوم والمقدم ٤٠ بارة ولكل حاجب ١٥ بارة .

أما أعضاء الديوان الخصوصى فهم : —

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٢٨

(٢) عبارة « مراعاة مصالح الجمهورية الفرنسية » لم ترد فى الجبرتى ، لكنها واردة فى الأصل الفرنسى الذى نشر فى جريدة « كوربيه دليجبت » وفى مراسلات نابليون ، والأصل أحق بالثقة من البيان الموجز الذى أورده الجبرتى

من العلماء : الشيخ عبد الله الشرقاوى ، الشيخ محمد المهدى ، الشيخ مصطفى الصاوي ، الشيخ خليل البكري ، الشيخ سليمان القيومى .

ومن التجار — السيد احمد المحروقى كبير التجار ، السيد احمد محرم .

ومن الاقباط — المعلم لطف الله المصرى ، المعلم ابراهيم جر العايط .

ومن السوريين — يوسف فرحات ، ميخائيل كحيل .

ومن الاوروبيين — المسيو كاف ، المسيو بودوف وهما من التجار الفرنسيين ، والمسيو ولمار وهو طبيب سويدى الأصل كان يقيم بالقاهرة .

وانتخب الديوان الشيخ الشرقاوى رئيساً ، والشيخ المهدى سكرتيراً .

يتبين من أمر التأسيس ان انتخاب هيئة الديوان (الخصوصى) من حقوق أعضاء الديوان العمومى ، ولا ندرى هل جرى الانتخاب بطريقة صحيحة أم ان نابليون هو الذى فرض ارادته على أعضاء الديوان العمومى فى اختيار أولئك الاعضاء ، وهذا ما نرجحه لاننا نشك كثيراً لو ترك لهم أمر الانتخاب فى أن يقع اختيارهم على امثال كاف و بودوف وولمار ، إذ ما دخل العنصر الاوروبى فى هيئة نيابية أهلية ، لذلك نميل الى الاعتقاد بأن السلطة الفرنسية دخلا فى اختيار أعضاء الديوان الخصوصى وان نابليون أراد تمثيل العنصر الاوروبى فى الديوان فى أشخاص الاعضاء الثلاثة كاف و بودوف وولمار ليجعل منه هيئة مختلطة وأراد بتعيين المسيو جلوتييه قومبسيراً فرنسياً للديوان أن يكون رقيباً على الأعضاء الوطنيين كما كان الشأن فى الديوان الاول الذى أسسه فى يوليه سنة ١٧٩٨ (١) ، وأغلب الظن ان بعض الاعضاء الاوربيين لم يكونوا معروفين أصلا لأعضاء الديوان العمومى ، يؤيد ذلك ان الجبرتى نفسه أخطأ فى كتابة اسمائهم فذكر أنهم رواحة الانكليزى ، و بودنى ، وموسى كافر الفرنساوى ، أما (رواحه الانكليزى) فلم نجد له أثراً فى جميع المراجع الفرنسية ، وحقيقة الاسم ولمار Wolmar الطبيب السويدى الذى أشرنا اليه ، وكلمة رواحه ليست من الاعلام

(١) أنظر الجزء الاول ص ٩٦

الانكليزية ولا الاوربية، وأما (بودنى) فهو تحريف لاسم بودوف Baudeuf، وهو تحريف يغتفر للجبرتى لانه لا يأنس بالاعلام الاوربية، وكذلك (موسى كافر) نعتقد ان المراد به المسيو كاف Caffe التاجر الفرنسى، فحرفه الجبرتى من كاف الى كافر، وربما كان التحريف من ناقل النسخة الاصلية للجبرتى

هذا وقد أخذ الديوان الخصوصى ينعقد يوميا للنظر فى مصالح الناس، وأصدر بيانا للشعب فى ٢١ شعبان سنة ١٢١٣ (٢٨ يناير سنة ١٧٩٩) يتضمن الحث على الهدوء والسكينة ويعلن أن نابليون قد عفا عفواً شاملا عما وقع من الثوار وأعاد الديوان الخصوصى « لاجل قضاء حوائج الرعايا وحصول الراحة لاهل مصر من خاص وعام وتنظيمها على أكمل نظام واحكام » ونوه أعضاء الديوان فى بيانهم بما عمله نابليون من ايقاع القصاص بمن ارتكب التعديات من الفرنسيين وما وعدهم من رفع المظالم واجراء المشاريع التى تزيد من رفاهية البلاد، وذكروا مشروع نابليون فى ايصال البحر الابيض بالبحر الاحمر وعبروا عنه « بفتح الخليج الموصل من النيل الى بحر السويس » وبينوا مزاياه من تسهيل المواصلات مع الحجاز وفتح طرق التجارة مع بلاد الشرق، وقد نشرنا هذا البيان فى قسم الوثائق (١) ليرجع اليه القارىء زيادة فى البيان

والآن فلندع الديوان يعمل « لاجل قضاء حوائج الرعايا » ولننتقل الى الكلام عن الحملة على سورية

---

(١) وثيقة رقم ٢

الفصل الثانى

الحملة على سورية

مقدمات الحملة

علم نابليون وهو فى رحلته بالسويس أن عساكر أحمد باشا الجزار والى عكا قد احتلت قلعة العريش يوم ٢ يناير سنة ١٧٩٩، فكان هذا الاحتلال نذيراً بزحف الجيش العثمانى على مصر

لم تكن العريش فى يد الفرنسيين من قبل، لكنها كانت معتبرة من قديم العهد جزءا من الاراضى المصرية، فاحتلال الجنود العثمانية إياها كان عملا عدائيا بالنسبة للفرنسيين ودليلا قائما على بدئهم الزحف على القطر المصرى، لذلك رأى نابليون أن يعجل بانفاذ خطته فى الحملة على سورية وأخذ يواصل الليل بالنهار ليأخذ تركيا قبل أن تبغته

كان نابليون يعمل جهده لتجنب الحرب مع تركيا، وسعى بكل الوسائل فى مودتها والتفاهم واياها واجتذابها الى صفه، سعى الى ذلك قبل ان يغادر فرنسا وعهد الى المسيو (تاليران) وزير الخارجية الفرنسية أن يذهب الى الاستانة لاقناع الباب العالى بأن الحملة الفرنسية لا تعدو على حقوق السلطان ومصالحه فى مصر، لكن (تاليران) لم يذهب الى الاستانة وصرفته الحوادث الاوروبية عن القيام بهذه المهمة فعهد بها الى المسيو (روفين) Ruffin القائم بأعمال السفارة الفرنسية بالاستانة وكلفه التفاهم مع الباب العالى لاستبقاء العلاقات الودية بين فرنسا وتركيا واقناعه بأن الحملة الفرنسية لا تنطوى على مقاصد عدائية حيال تركيا، فلم يفلح (روفين) في مهمته واعتبر الباب العالى تلك الحملة كاعلان حرب واعتقل القائم بأعمال السفارة فى قلعة « يدى قلعة » بالاستانة

مع باقى موظفى السفارة ، واعتقل كذلك قناصل فرنسا ورعاياها بالاستانة وسائر مدن السلطنة العثمانية وصادر أملاكهم ، وبالرغم من ذلك فان نابليون لم ييأس من التفاهم مع الحكومة العثمانية وأرسل الادجودان جنرال (بوفوازان) Beauvoisins (١) الى احمد باشا الجزار برسالة مؤرخة ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ (١٠ ربيع الاول سنة ١٢١٣) يعرب له فيها عن موادته للدولة العثمانية وللمسلمين ويؤكد أنه لم يهبط مصر الا لمحاربة المماليك وأنه يحترم الاهالى والعلماء ثم يدعوه الى المفاوضة لفتح طريق التجارة بين البلدين مصر وسورية ، وقد سافر بوفوازان بهذه الرسالة ليقابل بها احمد باشا الجزار ولكن الجزار رفض مقابلته ورده على عقبيه فرجع خائبا الى مصر (٢) ثم أرسل نابليون رسولا آخر (٣) برسالة أخرى يدعوه فيها الى الصلح ويطلب منه ابعاد ابراهيم بك ومماليكه واحترام حرية التجارة بين مصر وسورية ، ولكن الرسول كان جزاؤه على حمل هذه الرسالة أن اعتقله الجزار ثم قتله أثناء الحملة الفرنسية على سورية

وكذلك أرسل نابليون غير مرة الى الصدر الاعظم بالاستانة يدعوه الى اعادة العلاقات الودية بين تركيا وصديقتها القديمة فرنسا ويؤكد فى رسائله أن الجيش الفرنسى لم ينزل مصر الا لمعاقبة المماليك والاقتصاص منهم لمظالمهم وعدوانهم على التجار الفرنسيين ، ويعرب عن نيات الجمهورية الفرنسية الودية نحو تركيا ويدعوه أن يرسل

---

(١) القوميسير لدى الديوان . انظر الجزء الاول ص ١٠١

(٢) ذكر الجبرتى هذه الواقعة فى حوادث شهر ربيع الاول سنة ١٢١٣ بقوله « وفيه حضر القاصد الذى أرسله كبير الفرنساوية بمكاتبات وهدية الى احمد باشا الجزار بعكا وذلك عند استقرارهم (الفرنسيين) بمصر وصحبته أنفار من النصارى الشوام فى صفة تجار ، ومعهم جانب أرز ، ونزلوا من ثغر دمياط فى سفينة من سفائن احمد باشا ، فلما وصلوا الى عكا وعلم بهم احمد باشا أمر بذلك الفرنساوى فنقلوه الى بعض النقاير (المراكب) ، ولم يواجهه ولم يأخذ منه شيئاً وأمره بالرجوع من حيث أتى ، وعوق عنده نصارى الشوام الذين كانوا بصحبته »

(٣) هو المسيو مايى Mailly

الى القاهرة مندوبا مفوضا أو يرسل جوازاً لمندوب يوفده نابليون الى الاستانة للاتفاق على مصير مصر وعلى الامور المعلقة بما يوافق مصلحة الدولتين

وقد سافر المسيو (بوشان) Beauchamps (١) باحدى هذه الرسائل (٢) الى الاستانة على ظهر السفينة التركية التى كانت راسية بالاسكندرية (٣) فكان الجواب عنها اعتقاله مع موظفى السفارة الفرنسية

لقد وقفت تركيا فى بدء الحملة الفرنسية وقفة المتردد فيما تتبعه حيالها الى أن تحطم أسطول الأميرال برويس فى واقعة (أبوقير) ورجحت كفة انجلترا فى البحر الابيض المتوسط ، فكانت هذه الواقعة من أهم الاسباب التى حدت بتركيا الى رفض المساعى التى بذلتها فرنسا فى سبيل التفاهم واياها وأعلنت عليها الحرب فى ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ وأخذت تحشد جيشين لفتح مصر الاول فى سورية ووجهته الزحف على القطر المصرى من طريق برزخ السويس ، والثانى فى رودس لمهاجمة سواحل مصر الشمالية ، لكن تركيا أبطأت فى إنفاذ حملتها الى مصر وتلكأت بسبب ارتباك أحوالها الداخلية وبعد المسافات ، وأخذت فى الوقت نفسه تولى وجهها شطر الدول المعادية لفرنسا لتعاقدهم فى محالفة دفاعية ، تم ابرام المحالفة بينها وبين الروسيا فى ٢٣ دسمبر سنة ١٧٩٨ (٤) وعقدت محالفتها مع انجلترا فى ٥ يناير سنة ١٧٩٩ (٥) ، ومنذ علم نابليون بمقدمات هذا التحالف عزم على أن يسبق خصومه الى العمل ويهاجمهم قبل أن يهاجموه ، ورأى أنه اذا تأخر فى إنفاذ الحملة وانتظر اجتياز الجنود العثمانية برزخ السويس تحرج مركزه فى وادى النيل بما يتجدد فى نفوس الشعب من الامل فى هزيمة الجيش الفرنسى وسقوط هيبته فى أنحاء البلاد ، فبيّت رأيه على مهاجمة الجيش العثمانى فى سورية

---

(١) أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون وكان قنصلا لفرنسا فى مسقط

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٤٧

(٣) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٤٤ رقم ٣٧٤٦

(٤) و(٥) مارتانس . مجموعة المعاهدات . الجزء السادس

فغرض نابليون من الحملة السورية كان اذن تثبيت قدم الاحتلال الفرنسي فى مصر وابعاد خطر الحملة العثمانية عليها واكراه تركيا على الاتفاق، وكان يرمى كذلك الى منع العمارة الانجليزية فى البحر الابيض المتوسط من أن تتزود من الثغور السورية ، ولم يكن يقصد هزيمة الجيش التركى فحسب بل كان يريد احتلال سورية واتخاذها موقعا حصينا للدفاع عن كيان مصر وجعلها جزءا من الدولة العربية التى عزم على انشائها على ضفاف النيل وشواطىء البحر الابيض المتوسط ، فقد رأى بثاقب نظره أن حدود مصر الطبيعية لا تنتهى بشبه جزيرة سيناء بل بجبال طوروس ، وهكذا كانت سورية مطمح انظار كل دولة قامت فى مصر لان الاستيلاء عليها يضمن سلامة القطر المصرى من كل اعتداء أو غارة تأتى من جهة آسيا ، وكذلك فعل محمد على الكبير عند ما أسس الدولة المصرية فانه رأى أن لا غنى له عن سورية ليضمن سلامة مصر

وكان نابليون يرمى الى مطامع أكبر اذا ما نجحت الحملة على سورية بأن يواصل زحفه على الهند ، وقد أرسل من قبل كتابا الى (تيبو صاحب) سلطان ميسور المشهور بعدائه للانجليز ينبئه بأنه جاء الى مصر فى جيش جرار وانه عازم على انقاذه من سيطرة الانجليز (١) ويطلب اليه أن يراسله ليقف على الحالة السياسية فى بلاده وأن يوفد اليه رسولا أمينا ليفاوضه ، وفى رواية أخرى أنه كان ينوى اذا فتح عكا أن يزحف شمالا فيحتل دمشق فحلب ثم يزحف على الاناضول ثم يحتل الاستانة ويقوض دعائم السلطة العثمانية وينشىء على أنقاضها امبراطورية شرقية عظيمة يكون عاهلها ثم يزحف من الاستانة فأدرنه الى النمسا فيكتسحها ثم يعود الى باريس بعد أن يملك الشرق والغرب ، ولم تكن هذه الآمال بعيدة عن نفس نابليون الطموحة فان حياته الحربية والسياسية تدل على أن مطامعه فى الفتح والسلطان لم تقف عند حد

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٠١، وقد قامت الحرب بين « تيبو صاحب » والانجليز وأغاروا على بلاده وظهروا عليه وحاصروا عاصمة ملكه وقتل أثناء الحصار فى مايو سنة ١٧٩٩

أخذ نابليون يدبر أمر الجنود الذين يزحف بهم على الشام ، وكانت فرقة الجنرال (ديزيه) فى ذلك الحين منهمكة فى الحملة على الصعيد كما فصلنا ذلك فى الجزء الاول،(١) وكان لا بد له من ترك حاميات قوية من الجنود فى القاهرة وفى الاسكندرية وفى مختلف العواصم لاخضاع مديريات الوجه البحرى ، فاختار نابليون قسما من الفرق التى تحت قيادة الجنرالات (رينييه) ، و (لان) و (كليبر) و (بون) و (مورا) التى كانت موزعة فى جهات مختلفة من القطر كالقاهرة ودمياط والصالحية و بلبيس بلغت عدتها نحو ١٣٠٠٠ مقاتل ، وتولى بنفسه قيادة الحملة ، وعهد بقيادة المدفعية الى الجنرال (دومارتان) و بفرقة الهندسة الى الجنرال (كافريللى)

احتياطات نابليون

وسياسته ازاء الشعب

كان نابليون يعلم أن نفوس الاهالى فى القاهرة متحفزة للهياج تتربص للانتقاض على السلطة الفرنسية، وأدرك أن قيام ثورة فى العاصمة أثناء الحملة على سورية يشعل نار الهياج فى سائر أنحاء القطر المصرى ويؤدى الى قطع خط الرجعة على الجيش الفرنسى ، لذلك اتخذ الاحتياطات الحربية لمنع وقوع أية ثورة ، فأمر بتقوية قلاع القاهرة واحكام الاتصال بينها وامدادها بالمدافع والذخائر والمهمات ، وجعلها فى حالة منيعة من الدفاع ، وكلف الجنرال (كافريللى) و (دومارتان) بأن يكتبا له تقريراً عن مركز الدفاع عن القاهرة فى حالة نشوب ثورة فيها عقب ارتحاله الى سورية ، وعين الجنرال (دوجا) الذى كان قومندانا لدمياط حاكما للقاهرة والوجه البحرى ووكيلا عنه فى غيابه (ويسميه الجبرتى القائممقام دوجا)

ووحد القيادة فى بعض المديريات، فجعل مديريتى الغربية والمنصورة تحت قيادة

---

(١) الفصل السادس عشر والفصل السابع عشر

الجنرال فوجيير، Fugières (١) ومديريتى بنى سويف والفيوم تحت قيادة الجنرال زايونشك، (٢) وجعل البحيرة ورشيد تحت قيادة الجنرال مارمون قومندان الاسكندرية

وعين الجنرال دستنج Destaing قومندانا لموقع القاهرة، وعهد الى المسيو بوسليج مدير المالية تولى الشؤون الادارية للحكومة، وعين المسيو فورييه سكرتير المجمع العلمي قوميسيرا (مندوبا) فرنسيا لدى الديوان بدلا من المسيو جلوتييه الذى صحبه في الحملة على سورية

وأخذ نابليون يبالغ في اجتذاب قلوب الأهالى والتودد اليهم، فعزم على أن يصطحب معه نفرا من زعمائهم ممن لهم مقام محمود فى البلاد، فاختار أربعة من أعضاء الديوان وهم الشيخ سليمان الفيومي، والشيخ مصطفى الصاوى، والشيخ أحمد العريشى والشيخ محمد الدواخلى، ومعهم قاضى قضاة مصر التركى ابراهيم أدهم افندى وأمير الحج مصطفى بك نائب الوالى التركى، ولعل نابليون قصد من اصطحابه هذا الوفد أن يفهم الشعب المصرى أن الحملة على سورية مرضى عنها من أعضاء الديوان، أولعله أراد أن يكونوا رسل التفاهم بينه وبين الشعب العربى فى سورية لما لعلماء الازهر من المقام والنفوذ فى سائر انحاء الشرق، وكان يؤمل أيضا أن يكونوا رسل التفاهم بينه وبين الحكومة العثمانية وخاصة لانه صحب القاضى التركى ونائب الوالى التركى، على أن منطق الظروف وماجرى بعد ذلك من الحوادث يدلان يقينا على أن أعضاء هذا الوفد لم يكونوا راضين عن الحملة على سورية ولاعن سيرهم فى ركبها، ولذلك انتهزوا أول فرصة عرضت لهم لينفصلوا منها كما سيجىء بيانه

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٢٢

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٢٣

اجتماع نابليون بأعضاء الديوان

دعا نابليون قبل أن يغادر القاهرة أعضاء الديوان (الخصوصى) للاجتماع به فلبوا الدعوة ولما اكتمل جمعهم(١) أنبأهم بعزمه على السفر وأفهمهم أن الغرض من الحملة على سورية هو محاربة المماليك وفتح طريق التجارة بين البلدين.

روى الجبرتى ما قاله نابليون فى ذلك الاجتماع « للمشايخ والوجاقلية » فى بيان غرض الفرنسيين من هذه الحملة « انهم قتلوا المماليك الفارين بالصعيد وأجلوا باقيهم الى أقصى الصعيد وانهم متوجهون الى الفرقة الأخرى بناحية غزة فيقصونهم ويمهدون البلاد الشامية لأجل سلوك الطريق ومشى القوافل والتجارات براً وبحراً لعمار القطر وصلاح الأحوال ، واننا نغيب عنكم شهراً ثم نعود ، وعند عودتنا نرتب النظام فى البلد والشرائع وغير ذلك ، فعليكم ضبط البلد والرعية فى مدة غيابنا، ونبهوا مشايخ الأخطاط والحارات أن كل كبير يضبط طائفته خوفاً من الفتن مع العسكر المقيمين بمصر »(٢)

فتعهد له أعضاء الديوان بذلك وكتبوا فى هذا المعنى منشوراً طبعوه كالعادة وألصقوه بالاسواق ذكروا فيه أن بونابارت سيغيب ثلاثين يوماً لمحاربة ابراهيم بك الكبير وبقية المماليك المصرية وانه يقصد من هذه الحرب استتباب الراحة لمصر وأهلها وتطهيرها من دولة المماليك ، ونصحوا فى منشورهم الى الاهالى بالاخلاد الى الهدوء والسكينة حتى يعود بونابارت.

وأوصى نابليون الجنرال دوجا قبل سفره أن لا يألوَ أعضاء الديوان اجلالا واحتراماً لما لهم من النفوذ فى نفوس الشعب ، وكلفه فى حالة حدوث اضطرابات فى القاهرة أن يستعين بأعضاء الديوانين الخصوصى والعمومى وأن يضع فيهم ثقته ويكل اليهم تهدئة الخواطر ، وألا يدع اتخاذ الاحتياطات العسكرية فى المدينة ،

---

(١) يوم ٨ فبراير سنة ١٧٩٩ — ٤ رمضان سنة ١٢١٣ .
(٢) الجبرتى الجزء الثالث

وأوصاه فى رسالته أن لا يلجأ الى ضرب المدينة بالمدافع إلا فى حالة الضرورة القصوى، قال فى هذا الصدد(١) « يجب أن لا تأمر بضرب المدينة بالمدافع من طابية ديبوى والقلعة إلا حين تعجزك الوسائل كلها فانك لتعلم مبلغ الاثر السيء الذى يحدثه هذا العمل فى مصر وفى سائر أنحاء الشرق » .

الاحتفال برؤية رمضان

وفى غضون ذلك حل موسم الرؤية لاثبات شهر رمضان (سنة ١٢١٣) فانتهزها نابليون فرصةً طيبة وكانت قبل سفره بأيام ، فأمر بالمبالغة فى الاحتفال وتفخيم موكب الرؤية تمليقاً لاحساس الاهالى ، وكان الاحتفال عظيما بالغاً سار فيه طوائف الصناع كالمعتاد وذهب المحتسب بهذا الموكب الى بيت نابليون بالازبكية وأبلغوه رؤية الهلال فبالغ فى الحفاوة بهم .

قال الجبرتى يصف ذلك « وفيه (٢٦ شعبان سنة ١٢١٣) عرض حسن أغا محرم المحتسب لسارى عسكر أمْرَ ركوبه المعتاد لاثبات هلال رمضان ، فرسم له بذلك على العادة القديمة ، فاحتفل لذلك المحتسب احتفالا زائداً ، وعمل وليمة عظيمة فى بيته أربعة أيام ، أولها السبت وآخرها الثلاثاء ، دعا فى أول يوم العلماء والفقهاء والمشايخ والوجاقلية (الجهادية) وغيرهم ، وفى ثانى يوم التجار والاعيان ، وكذلك ثالث يوم ، ورابع يوم دعا أيضاً كابر الفرنساوية وأصاغرهم ، وركب يوم الثلاثاء بالأبهة الكاملة زيادة عن العادة ، وأمامه مشايخ الحرف بطبولهم وزمورهم ، وشق القاهرة على الرسم المعتاد ، ومر على قائممقام وأمير الحج وسارى عسكر بونابارته ، ثم رجع بعد الغروب الى بيت القاضى بين القصرين ، فأثبتوا هلال رمضان ليلة الاربعاء(٢) ، ثم ركب من هناك بالموكب وأمامه المشاعل الكثيرة والطبول والزمور والنقاقير والمناداة بالصوم » .

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٥٠

(٢) أول رمضان سنة ١٢١٣ (٦ فبراير سنة ١٧٩٩)

ولم يفت الجبرتى ملاحظة تودد الفرنسيين الى الشعب في خلال تلك الايام وانحاؤه باللائمة على عامة الناس الذين غفلوا عما هم فيه من الضيق ورجعوا الى البدع القديمة التى كانوا عليها ، وفى كلام الجبرتى في هذا الصدد عظة وعبرة ، وفيه اشارة الى ضعف أخلاق لا يزال شيء منه مع الاسف موجوداً فينا الى اليوم ، فتأمل فيما يقول « وانقضى شهر شعبان وحوادثه ، فمنها أن أهل مصر جروا على عادتهم فى بدعهم التى كانوا عليها وانكشوا عن بعضها خوفا من الفرنسيس ، فلما تدرجوا فيها وأطلق لهم الفرنساوية القيد ورخصوا لهم وسايروهم رجعوا اليها وانهمكوا فى عمل موالد الاضرحة التى يرون فرضيتها وأنها قربة تنجيهم بزعمهم من المهالك ، وتقربهم الى الله زلفى فى المسالك ، فرحبوا فى غفلاتهم مع ما هم فيه من الاسر وكساد غالب البضائع وغلوها، وانقطاع الاخبار ومنع الجالب ، ووقوف الانكليز فى البحر وشدة حجزهم على الصادر والوارد ، حتى غلت أسعار جميع الاصناف المجلوبة من البحر الرومى (البحر الابيض) وانقطع أثر كثير من أرباب الصنائع التى كسدت لعدم طلابها ، واحتاجوا الى التكسب بالحرف الدنيئة كبيع الفطير ، وقلى السمك ، وطبخ الاطعمة والمأكولات ، والأكل فى الدكاكين ، واحداث عدة قهاوى ، وأما أرباب الحرف الدنيئة الكاسدة فأكثرهم عمل حمّاراً مكارياً حتى صارت الازقة خصوصاً جهات المعسكر مزدحمة بالحمير التى تكرى للتردد فى شوارع مصر » ، وفى هذا الوصف صورة لناحية من نواحى الحياة الاجتماعية فى ذلك العهد وفيه أيضا بيان جلى لسوء الحالة الاقتصادية وتقهقرها فى عهد الحملة الفرنسية

سير الحملة

بدأت الحملة تتحرك نحو الحدود السورية قبل أن يغادر نابليون القاهرة ، فقد عهد الى الجنرال (لاجرانج) Lagrange أحد قواد فرقة الجنرال (رينييه) المعسكرة بالشرقية باحتلال (قطية) فى شبه جزيرة سيناء وتحصينها لتكون نقطة ارتكاز وتموين للجيش الزاحف ، فاحتلها الجنرال لاجرانج ، وقضى نابليون بقية شهر يناير يتم

معدات الحملة ويصدر تعليماته لقواد الفرق بالزحف ، فسبقته قوات الجنرال (رينييه) والجنرال (كليبر) وارتحل هو من القاهرة يوم ١٠ فبراير (٥ رمضان سنة ١٢١٣)

قال الجبرتى عن سفر نابليون والترتيبات العسكرية التى أقرها قبل سفره « وفى يوم الاحد خامس رمضان ركب سارى عسكر الفرنسيس وخرج الى العادلية وذلك فى الساعة الرابعة وأبقى بمصر عدة من العسكر بالقلعة والابراج التى بنوها على التلول ، وقائممقام دوجاو بوسليك (المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية) وسارى عسكر ديزيه بجملة من العسكر فى الصعيد ، وكذلك سوارى عسكر الاقاليم كل واحد معه عسكر فى جهة من الجهات ، وأخذ معه المدبرين وأصحاب المشورة والمترجمين وأرباب الصنائع منهم كالحدادين والنجارين ومهندسى الحرب وكبيرهم أبو خشبة (الجنرال كافريللى رئيس فرقة الهندسة) وأبقى أيضا بعض أكابرهم ، ثم تراسل المتخلفون فى الخروج كل يوم تخرج منهم جماعة »

احتلال العريش

كانت القوات العثمانية والمماليك ممتنعة فى العريش فزحف عليها الجيش الفرنسى وواجه الجيش العثمانى بها ودار قتال شديد بين الفريقين انتهى بهزيمة العثمانيين ليلة ١٥ فبراير واستمرت قلعة العريش تقاوم مقاومة شديدة الى أن سلمت يوم ٢٠ فبراير سنة ١٧٩٩

احتلال يافا

ثم تابع الفرنسيون زحفهم على سورية فاحتلوا (خان يونس) وهى أول بلدة فى فلسطين ، وساروا منها قاصدين (غزة) واستولوا عليها دون مقاومة تذكر ، واستراح الجيش بها عدة أيام ، ثم استأنف سيره يوم ٢٨ فبراير فاحتل (الرملة) ثم (اللد) ووصل تجاه يافا يوم ٣ مارس وكان الجيش العثمانى بقيادة عبد الله باشا ممتنعا بها ، فحاصرها نابليون بجنوده واستولى عليها يوم ٧ مارس بعد معركة شديدة قتل فيها من الجنود العثمانية نحو ٢٠٠٠ قتيل ودخل الفرنسيون المدينة وأعملوا فيها السيف والنار.

نهب الجنود الفرنسية يافا وارتكبوا فيها من الفظائع ماتقشعر منه الابدان

باعتراف المؤرخين الفرنسيين، واستمر النهب والقتل يومين متواليين ، واضطر الجنرال روبان Robin الذى عينه نابليون قومندانا للمدينة أن يقتل بعض الجنود لاعادة النظام، فذهب جهده عبثا ، ولم ينقطع النهب الا بعد أن كل الجنود من الاعتداء وسفك الدماء ، ويقول بعض المؤرخين ان الدماء التى سفكت فى يافا واشلاء الجثث التى تركت بها عدة أيام كانت من أسباب انتشار الوباء بين العسكر وهو الوباء الذى كان من العوامل الرئيسية لاخفاق الحملة على سورية

ظهرت أعراض هذا الوباء فى دمياط بين جنود الفرقة المرابطة بها التى اشتركت فى الحملة على سورية ثم أخذت عدواه تنتقل الى الفرق الأخرى الى أن تفشى بعد دخول الفرنسيين يافا وأحدث فزعا بين الجنود ، وبذل نابليون قصارى جهده لمحاربته فذهب جهده سدى وعجز عن مقاومة تلك الآفة الرهيبة التى ألقت الرعب فى جيشه ، واضطر ليرد الى الجنود شجاعتهم أن يزور المرضى الذين اصيبوا بالوباء ويخاطبهم ويواسيهم ويعرض نفسه لخطر العدوى ليشدد عزائمهم ويقنع الجنود بأنه لا خوف عليهم من سريان العدوى اليهم

لم يكد ينقطع النهب حتى أعقبته مأساة أخرى أشد هولا وفظاعة ، ذلك أنه بعد انتهاء المعركة ودخول الفرنسيين المدينة كان بها من الجنود العثمانية نحو ثلاثة آلاف مقاتل آثروا التسليم والقاء السلاح فى يد الفرنسيين بشروط اتفقوا عليها مع اثنين من ياوران نابليون وهما بوهارنيه Beauharnais وكروازييه Croisier ومن هذه الشروط أن تضمن لهم أرواحهم بعد التسليم، وتعهد الياوران بذلك باسم القائد العام وتلقاهم الفرنسيون كأسرى حرب ، ولكن نابليون بعد أن فكر طويلا فى أمرهم وتردد فى شأنهم أمر باعدامهم جميعا رميا بالرصاص ، وحجته فى ذلك أنه كان عاجزا عن إطعامهم وحراستهم فى بلاد نائية لم يستتب له فيها الامر ، وهى حجة واهية تنطوى على نقض العهود وتنكرها المبادىء الانسانية وقواعد الحروب ، فسيق أولئك الاسرى الى شاطىء البحر وأعدموا جميعا رميا بالرصاص ، وكان إعدامهم بهذه الطريقة الوحشية من أسباب فشل الحملة الفرنسية فى سورية لأنه أثار فى نفوس

الجنود العثمانية عوامل السخط وحب الانتقام وأدركوا أن مصيرهم الى الاعدام اذا هم سلّموا فاستبسلوا فى الدفاع عن عكا وردوا هجوم الجيش الفرنسى وأرجعوه عن أسوارها خائبا، وبذلك أخفقت الحملة على سورية ، قال (ريبو) فى هذا الصدد « ان ثلاثة آلاف من الاعداء قتلوا مرة واحدة ولكن الجنود الباقين قد زاد عددهم وتضاعفت جهودهم للأخذ بالثأر ، ورأوا فى مصير إخوانهم الذين ذبحهم الفرنسيون نموذجا للانسانية الفرنسية ، فاصبح القتال بينهم وبين الجيش الفرنسى صراعا الى الموت ، وحصد نابليون تحت أسوار عكا ماغرسه على شاطىء يافا (١) »

المصريون فى يافا

وكان فى (يافا) عند احتلالها نحو أربعمائة من المصريين استثناهم نابليون من القتل ومن بينهم السيد عمر مكرم نقيب الاشراف الذى هاجر من مصر بعد معركة الاهرام ، فاكرم نابليون مثواه واعاده الى القاهرة ، قال الجبرتى فى هذا الصدد (٢) ماخلاصته « ان السيد عمر افندى نقيب الاشراف حضر الى دمياط وصحبته جمعة من أفندية الروزنامة وغيرهم وذلك أنهم كانوا بقلعة يافا فلما حاصرها الفرنساوية وملكوا القلعة والبلد لم يتعرضوا للمصريين وطلبهم (نابليون) اليه وعاتبهم على نقلهم وخروجهم من مصر وانزلهم فى مركب وأرسلهم الى دمياط من البحر »

وقال فى حوادث شهر صفر سنة ١٢١٤ أنه فى اليوم الثالث منه حضر السيد عمر افندى نقيب الاشراف سابقا من دمياط الى القاهرة « فحضر بعض الاعيان لملاقاته وركبوا معه بعد أن مكث هنيهة بزاوية على بيك التى بساحل بولاق حتى وصل الى داره وتوجه فى ثانى يوم مع الشيخ المهدى وقابل سارى عسكر فبش له ووعده بخير ورد اليه بعض تعلقاته ، واستمر مقيما بداره والناس تغدو وتروح اليه على العادة » وهذا يدلك على ما كان للسيد عمر مكرم من المنزلة فى قلوب الناس، نقول هذا

---

(١) كتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الرابع
(٢) فى حوادث شهر شوال سنة ١٢١٣

تمهيدا للكلام عما صار له من الشأن العظيم فى سير الحوادث بعد جلاء الفرنسيين كما نراه فى الفصل الرابع عشر

وقد سعى نابليون فى الحاق المصريين الذين أسرهم فى يافا بصفوف جيشه ولكنه أخفق فى سعيه ورفضوا الالتحاق بالجيش الفرنسى فأمر باعادتهم الى مصر

غنم الفرنسيون فى يافا كثيراً من الذخائر والمهمات والأقوات والمدافع واستخدموا المدافع فى حصار عكا ، وبادر نابليون بارسال نبأ استيلائه على يافا الى الجنرال (دوجا) ليخبر به الديوان ويذيعه فى البلاد ، فوردت هذه الأخبار الى القاهرة فى ١٣ شوال فانعقد الديوان وتليت رسالة نابليون وأصدر الديوان منشوراً بذلك الى الأهالى ، ويلاحظ أن نابليون فى رسالته للديوان أشار الى قتل أربعة آلاف من عسكر الجزار فى المعركة ، فهو اذن قد كتم عن المصريين ما أمر به من قتل أسرى الحامية بعد التسليم ، وفى هذا شعور منه بفظاعة اعدامهم بعد ان أمّنهم على أرواحهم

وقد كان لاستيلاء الجيش الفرنسى على يافا تأثير معنوى كبير فى مصر لأن الناس لم يكونوا يتوقعون أن يتم للفرنسيين هذا النصر بهذه السرعة ولكنهم قابلوا الخبر بالسكوت والتسليم

حصار عكا

والارتداد عنها

استأنف الفرنسيون زحفهم شمالا واحتلوا (حيفا) دون مقاومة ، ثم وصلوا تجاه (عكا) وهى بلدة محصنة ، عزم الجنود العثمانية بقيادة احمد باشا الجزار (١) على

---

(١) ترجمه الجبرتى فى وفيات سنة ١٢١٩ هجرية فذكر عن تاريخه ماخلاصته ان اصله من بلاد البوشناق (البوسنة) وخدم عند على باشا حكيم والى مصر وحضر معه الى الديار المصرية سنة ١١٧١ هجرية (١٧٥٧ ميلادية) فتشوقت نفسه الى الحج واستأذن مخدومه فاذن له فى ذلك وأوصى به أمير الحج صالح بك القاسمى ، وأخذه معه واكرمه رعاية لعلى باشا ، ورجع معه فوجد على

الدفاع عنها بكل ما لديهم من قوة فجعلها نابليون هدفا لهجومه اذ كان الاستيلاء عليها يفتح أمامه طريق سورية ويقضى على نفوذ الجزار فى تلك الجهات و بدأ يضرب عليها الحصار يوم ١٩ مارس سنة ١٧٩٩ ثم جعل يعد المعدات لاخذها عنوة ،فضرب أسوارها وأبراجها بالمدافع ودارت معركة طاحنة بين الفرنسيين وجنود الحامية ارتد على أثرها الفرنسيون بعد أن نالتهم خسائر فادحة ، وكان نابليون يعتقد ان الاستيلاء على عكا لا يكلفه أكثر من أخذ يافا ولكن تبين له من ارتداده عنها أنها ممتنعة حصينة وأنه فى حاجة إلى جهود كبيرة لفتحها ، وكان ارتداده عنها أول هزيمة مني بها جيشه فى الحملة على سورية، فأثرت فى نفسه تأثيراً كبيراً وخشى عواقبها فى مصر ، فشدد الحصار على المدينة وأعد المعدات لهجوم ثان أقوى من الأول وحاول اقتحامها بقوة المدفعية والجنود يوم أول ابريل ، واستطاع أن يفتح ثغرة فى أسوارها ولكن جنود الحامية دافعوا عنها دفاع المستميت فأمر نابليون جيشه بالارتداد عنها ، وخاب فى هذا اليوم مثل خيبته فى هجومه الأول

باشا قد انفصل عن ولاية مصر ، فاستمر الجزار فى مصر وتزيى بزى المصريين وخدم عبد الله بك تابع الامير على بك الكبير وتعلم الفروسية على طريقة المماليك وحدث ان على بك أرسل عبد الله بك بتجريدة الى عرب البحيرة فقتلوه ، فرجع المترجم مع باقى رجاله الى القاهرة فقلده على بك كشوفية البحيرة وطلب منه ان يثأر لاستاذه ممن قتلوه فذهب اليهم وخادعهم وجمعهم فى مكان واحد وقتلهم وهم نيف وسبعون رجلا ، ومن ذلك لقب بالجزار ، فالجزار هو اذن من أتباع على بك الكبير وكانت نشأته الأولى فى مصر، وذكر الجبرتى ان على بك طلب منه أن يعاونه على الغدر بصالح بك القاسمى فلم تطاوعه نفسه وخرج من مصر هاربا ، ثم عاد الى البحيرة وأقام مع عرب الهنادى وتزوج هناك ، ثم سار الى بلاد الشام واشتهر أمره فى تلك النواحى وقلد الوزارة واقام فى حصن عكا وعمر أسوارها وقلاعها واستكثر من شراء المماليك ، واشتهر بالقسوة والظلم ومات سنة ١٢١٩ هجرية (١٨٠٤ ميلادية)

قاومت عكا هجمات الجيش الفرنسى مقاومة شديدة واشتهر أحمد باشا الجزار بحسن بلائه فى الدفاع عنها ، وكان يظاهره من البحر الأسطول الانجليزى بقيادة الكومودور السر سدنى سميث Sidney Smith ، فكان لمعاونته أثر أي أثر ، كما أنه منع وصول مدافع الحصار الى الفرنسيين بطريق البحر ، ومما يؤثر عن نابليون أنه قال يوما عن السر سدنى سميث « لقد حرمنى هذا الرجل من حظى » وساعد الجزار رجل آخر لا يقل كفاءة عن السر سدنى سميث وهو ضابط فرنسى من ضباط المدفعية اسمه الكولونل فيليبو Philipeaux كان زميلا لبونابرت فى الدراسة وكان ملكياً وخصما للجمهورية الفرنسية فهاجر مع من هاجروا من فرنسا فراراً من فظائع اليعقوبيين ، وكان هذا الضابط على جانب عظيم من الكفاية الحربية ، فقدمه السير سدنى سميث الى الجزار ليشد به أزره فى الدفاع عن عكا ، فأدى له أحسن الصنيع فى أثناء الحصار ومات قبل ارتداد الفرنسيين عنها

ومن الحوادث التى ساعدت الجزار على الدفاع عن المدينة ان نابليون أصدر تعليماته بأن تنقل مدافع الحصار بحراً على السفن الفرنسية التى نجت من كارثة (أبو قير) الى يافا ، وكانت هذه المهمة شاقة تكتنفها المخاطر لأن بوارج الاسطول الانجليزى ما فتئت تراقب الشواطىء مراقبة دقيقة ، فسارت السفن على فرقتين أبحرت إحداهما من دمياط إلى شواطىء سورية ففاجأتها المراكب الحربية الانجليزية تجاه (حيفا) يوم ٢٢ مارس فأسرت منها سبعاً كانت تحمل مدافع الحصار والذخائر واقتادتها الى عكا فاستولى عليها الجزار واستخدمها لمحاربة الفرنسيين وغنم الانجليز السفن المأسورة ، ويقول نابليون فى مذكراته « ان فقد هذه السفن كانت له عواقب وخيمة ولو أنها نجت وأنزلت مدافع الحصار الى شاطىء حيفا لاستولى على عكا قبل أول ابريل ولخلص لهم طريق (دمشق) وكان فى استطاعتهم احتلالها فى منتصف ابريل واحتلال (حلب) فى أول مايو »

أما الفرقة الاخرى فقد أقلعت من الاسكندرية بقيادة الكونترا ميرال بيرى Perrée وهذه سلمت من الاسطول الانجليزى ورست فى يافا ثم أنزلت ما كان على

ظهرها من مدافع الحصار والذخائر ، وتسلمها الجيش الفرنسى واستعملها ولكنها لم تجدْ فى منعة عكا ، وفى غضون هذه الحوادث أنفذ نابليون بعض قواته للايغال فى سورية فاحتلت (صفد) و (صور) و (طبرية) وأمكنة أخرى ، وانتصر الجيش الفرنسى بقيادة الجنرال كليبر على الجيش التركى فى واقعة جبل طابور (ابريل سنة ١٧٩٩) ولكن هذا النصر لم يغير الموقف الحربى لان نجاح الحملة على سورية كان معلقا على فتح عكا

استمر الحصار أكثر من شهرين وعجز نابليون عن اقتحام عكا ، فعقد مجلسا حربيا من قواده وتداولوا فى الامر فاستقر رأيهم على رفع الحصار عنها ، وهكذا انتهى حصار طويل دام ٦٢ يوما (من ١٩ مارس الى ٢١ مايو سنة ١٧٩٩) بالاخفاق والفشل ، وكانت أهم الاسباب التى دعت الى الارتداد عن عكا فداحة الخسائر التى نزلت بالجيش الفرنسى من المعارك ومن فتك الوباء ، وفقد عدد كبير من الضباط والقواد ، واستحالة انتظار المدد من مصر ، ونقص الذخائر والمؤونة ، ووصول المدد الى الجزار ، واجتمع الى هذه الاسباب وصول الانباء المقلقة الى نابليون عن شروع تركيا فى تجريد حملة كبيرة على مصر ، فقد علم أن المدد العثمانى الذى جاء الى عكا لم يكن سوى جزء يسير من الحملة التى أعدها الباب العالى ليقذف بها الى الاسكندرية ، فتحارب الجنود الفرنسية الباقية بمصر فى الوقت الذى يحارب فيه الجزار جيش نابليون بسورية ، وأن معظم الجيش العثمانى قد احتشد فى رودس وفى شواطىء الاناضول ينتظر الامر ليتحرك صوب الشواطىء المصرية ، وجاءته فوق ذلك من القاهرة رسائل الجنرال دوجا والمسيو بوسليج تحمل اليه أنباء اضطراب الاحوال فى مصر وتجدد المعارك فى الصعيد وانتقاض أمير الحج وثورة المهدى فى البحيرة وظهور البوارج الانجليزية فى البحر الاحمر واقترابها من السويس ، ووصلته كذلك أنباء مزعجة عن الحالة فى أوروبا فتبين له من اجتماع ذلك أن الحالة أصبحت تحتم عليه الارتداد عن عكا والرجوع الى مصر مهما كان فى ذلك من الغضاضة على نفسه وتصدع هيبته العسكرية وهكذا صار لعكا شأن كبير فى مصير الشعوب لانه لولا ثباتها فى وجه نابليون

لاستطاع مواصلة زحفه فى سورية ولأجبر تركيا على أن تعقد الصلح معه وأن تذعن لشروطه ثم لأمكنه الزحف براً الى الهند أو الوصول الى القسطنطينية ، لكن عكا قضت على أحلامه فى انشاء دولة شرقية عظيمة ، ولقد روى نابليون انه قال عن هزيمته أمام عكا « لم أكن أعلم عند ما أقلعت بى السفينة الى مصر اذا كان وداعى لفرنسا سيكون أبديا ، لكنى ما شككت لحظة فى انها ستدعونى يوما ما اليها ، على أن آمالى قد اتجهت الى الشرق واستهوتنى فتوحاته العظيمة وصرفتنى عن التفكير فى أوربا ، لكن هذه الاحلام والآمال قد دفنت تحت أسوار عكا »

ان عكا كانت المدى الذى وصلت اليه فتوحات الفرنسيين فى آسيا والقلعة التى ارتدوا عنها منهزمين ، فهذه الهزيمة قد محت ماتركته انتصارات نابليون من الاثر فى النفوس وتبين للناس أن الجنود الفرنسية التى تعودت الانتصار فى المعارك الحربية قد تلاشت قوتها بازاء مدينة صغيرة لم يكن لها شأن يذكر

فالأثر المعنوى الذى أحدثته هزيمة نابليون أمام أسوار عكا كان عظيما ومن شأنه أن يضعضع هيبة فرنسا فى نظر المصريين والشرقيين عامة ويبعث فى نفوسهم روح الامل فى القوة الكامنة فى بلادهم ، وليس من المبالغة أن تعد هذه الهزيمة أكبر اثرا فى نفوس الشرقيين من كارثة الاسطول الفرنسى فى معركة (أبوقير) لان سفن الاميرال نلسن هى التى حطمت الاسطول الفرنسى فى تلك المعركة الكبيرة أى أن العمارة الفرنسية انما حطمتها عمارة أوروبية ، أما هزيمة الفرنسيين أمام عكا فكانت هزيمة دولة أوروبية أمام قوات شرقية يقودها حاكم عثمانى من الطراز القديم ، ولم تكن كارثة (أبوقير) لتؤثر فى هيبة نابليون وعبقريته الحربية بمقدار ماأثرت فيها هزيمة عكا لانه كان يتولى حصارها بنفسه ، فكم كان تأثير هزيمته كبيرا ووقعها فى نفسه أليما وهو ذلك القائد الذى قهر الجيوش فى أوروبا وفتح ايطاليا وأملى شروطه على النمسا ولم يألف فى الحروب التى خاض غمارها سوى النصر والظفر ! فهذا الفاتح العظيم رأى نفسه مضطرا بعد حصار شهرين أن ينقلب منهزما عن مدينة صغيرة تاركا تحت أسوارها عددا لايحصى من القتلى والموتى

خسائر الفرنسيين فى الحملة على سورية

ان الخسائر التي حلت بالجيش الفرنسى فى الحملة السورية تشعر بعظم الهزيمة التى أصابت نابليون وجيشه ، فقد بلغ عدد القتلى الفرنسيين ٢٫٢٠٠ قتيل منهم ١٢٠٠ قتلوا فى المعارك وخاصة فى حصار عكا و ١٠٠٠ ماتوا من الامراض ، وبلغ عدد الجرحى ٢٥٠٠ جريح ومريض، وهى خسارة فادحة خصوصا اذا لوحظ أنها أصابت خيرة جنود الحملة الفرنسية ، وفقد الجيش نخبة من قواده وضباطه منهم الجنرال (كافريللى) رئيس فرقة الهندسة ، قتل فى حصار عكا ، فكان مقتله من أكبر النكبات التى حلت بالجيش الفرنسى (١)

وقتل أيضاً من القواد الجنرال بون Bon أحد قواد الفرق ، والجنرال لوجييه، والجنرال ديتروا ، والجنرال رامبو Rambeaud ، والكولونل هوراس ساى Say رئيس أركان حرب الجنرال كافريللى ، وقتل معظم ضباط فرقة الهندسة فقد كان عددهم في بدء الحملة ١٧ ضابطاً فلم يسلم منهم عند انسحابها سوى ضابط واحد ومات تسعة وجرح سبعة منهم ، وقتل ثلاثون من ضباط أركان الحرب ، ومات معظم أطباء الجيش فى مكافحتهم للوباء ، ومات المستشرق فانتور Venture كبير تراجمة الجيش ومستشار نابليون فى المسائل الخاصة بالشرق والشرقيين وكانت وفاته بالدسنطاريا (٢)

موقف نابليون

بعد هزيمة عكا

لم يدع نابليون اليأس يعمل فى نفسه وفى نفوس الجند ، بل شدد عزائمهم

---

(١) أنظر ترجمته في الفصل الرابع من الجزء الأول ص ١٣٥ ، وقد حزن عليه نابليون حزناً شديدا ونعاه الى الجيش بقوله « انه ذهب الى القبر يحمل أسف الجميع فقد خسر الجيش فى شخصه قائدا من أشجع قواده وخسرت مصر أحد متشرعيها العظام وفقدت فرنسا وطنياً من أخلص ابنائها وخسرت العلوم ركناً من أركانها » وعين بدله الجنرال سانسون Sanson

(٢) أنظر ترجمته فى الجزء الاول ص ١٣٩

بمنشوراته الساحرة ، وهكذا برهن على رباطة جأشه فى أشد الاوقات خطراً ، وكذلك كان شأنه عند ماوصله قبل تسعة أشهر ونيف نبأ الكارثة التى حطمت الاسطول الفرنسى فى معركة (أبو قير) فقد اعتصم بشجاعته واستمر يعمل ويدبر الأمور ويبتكر المشروعات كأن لم تقع كارثة ، ولما دفنت آماله تحت أسوار عكا هيأ خطة الانسحاب على أن يدخل بجنوده مصر دخول الفاتح المنتصر استبقاءاً لهيبته فى النفوس .

أراد أن يبعث الحمية فى قلوب جنده بعد الانسحاب فأذاع بينهم نداء أشاد فيه بانتصاراتهم وأطنب فى نتائج جهادهم ، خاطبهم فيه بقوله[1] : « أيها الجنود لقد طويتم فدافد الصحراء التى تفصل بين أفريقية وآسيا بأسرع مما يطيقه جيش عربى ولد فيها ، والآن قد سحقتم الجيش الذى كان يزحف لاحتلال مصر وأسرتم قائده وغنمتم معداته وأخذتم المواقع الحصينة التى تحمى آبار المياه ، ومزقتم فى جبل طابور تلك الجموع التى أقبلت من سائر أنحاء آسيا لاقتناص مصر ، لقد شاهدتم منذ اثنى عشر يوماً ثلاثين سفينة أقبلت الى عكا ، فهذه السفن تحمل الجيش الذى كان معداً لاحتلال الاسكندرية ، ولكن هذا الجيش اضطر الى العدول عن مقصده الاول وجاء الى عكا لنجدتها ، وستزين الاعلام التى أخذتموها منه عودتكم الى مصر .

والان بعد مواصلة القتال ثلاثة أشهر فى قلب سوريةو بعد أن غنمنا من العدو أربعين مدفعاً وخمسين راية وأسرنا منه ٦٠٠٠ أسير (! !) ونسفنا استحكامات غزة ويافا وحيفا وعكا سنعود الى مصر لان وقت الرحيل دنا .

لقد كان أملنا وطيداً فى أن نأسر حاكم عكا (الجزار) فى عقر داره ، ولكن الاستيلاء على عكا فى هذا الفصل لايساوى ضياع عدة من الايام تحت أسوارها ، وانى فى حاجة الى الجنود الشجعان الذين يمكن أن أفقدهم فى هذا الهجوم ليقوموا بواجبهم فى معارك أخرى أهم وأكبر .

أيها الجنود لايزال أمامنا مهمات شاقة وأخطار نستهدف لها ، والآن بعد أن

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤١٣٨

صددنا هجمات الشرق سنقف غداً لنكافح هجمات تأتينا من الغرب ، وستتاح لكم فرص جديدة لاكتساب المجد والفخر ، واذا كان كل يوم من أيام المعارك يفقدنا بطلا فمن الواجب أن يحل بدله شجعان آخرون يتقدمون بدورهم فى ميادين القتال بين صفوف الابطال الذين يواجهون الاخطار ويحققون الفوز والانتصار » .

هذا النداء مؤرخ ١٧ مايو سنة ١٧٩٩ ، وقد أمر نابليون بطبعه على المطبعة التى جلبها معه فى الحملة ولم يدعه بين الجنود إلا يوم ٢٩ مايو بعد أن أتم معدات الرحيل ، وذلك حتى لا يصل خبر رفع الحصار الى الجزار فيداهم الفرنسيين قبل رحيلهم الاخير.

بهذا النداء البليغ أذكى نابليون نار الحماسة فى نفوس الجنود الذين أنهكتهم المتاعب وأذوتهم الامراض واكتنفتهم الاخطار والاهوال ، والحق انه يصعب على غير نابليون أن يرد الروح المعنوية الى نفوس الجنود بعد ما حل بهم من خيبة الآمال وما قاسوه من الاهوال فى حصار عكا

ولكن نابليون كان يعتمد على تأثيره الادبى فى جنده فلم يكن يشك في قوتهم المعنوية اذا أذكتها كلماته الحماسية

واذا تأملت فى نداء نابليون واستثارته لحمية جنوده واستفزازهم لخوض معارك جديدة فى القارة الاوروبية رأيت فى عباراته ما يدل على شعوره باضطراب الاحوال السياسية فى أوروبا ، ولا غرو فان هزيمة فرنسا فى الحملة على سورية ، كانت من الاسباب التى شدت من أزر الدول الملكية فى أوروبا وحفزتها الى التحرش بعدوتها القديمة كما سيجىء بيان ذلك فيما يلى

هذا هو موقف نابليون من جيشه ، أما موقفه من الشعب المصرى فقد اجتهد فى تعميته بستر الفشل الذى أصابه أمام عكا والظهور بمظهر المنتصر الذى أدرك أغراضه من الحملة على سورية والاعلان عن سطوته وقوته ، ولذلك بادر فهيأ رسالة بعث بها الى ديوان القاهرة بتاريخ ١٦ مايو حشاها بكثير من التمويهات وخلاصتها الزعم أنه محق دار الجزار بعكا وهدم البلد بالقنابل وان أهلها فروا الى البحر وأن الجزار جريح فى خطر الموت ، وقد وصلت هذه الرسالة الى مصر فى أول محرم سنة ١٢١٤ وقرئت بالديوان فلم يصدقها أحد

انسحاب الجيش الفرنسى الى مصر

أنفذ نابليون خطة الانسحاب وبعث المرضى والجرحى الى حيفا ، ثم رفع الحصار عن عكا فعلا يوم ٢٠ مايو سنة ١٧٩٩ الساعة العاشرة ليلا ، وبدأت فرق الجيش فى الرحيل ليلة ٢١ مايو بحيث لم يشعر المدافعون عن عكا برفع الحصار إلا صبحاً بعد ان تم انسحاب الفرنسيين

وصل الجيش فى ارتداده الى حيفا بعد منتصف الليل ، فمكث قليلا ليحمل جرحاه الذين كانوا بها ، ثم أخلاها ، واضطر الى ترك الجنود المصابين بالوباء خوفا من انتقال عدواهم الى الجيش ، وكان التراجع محفوفا بالمتاعب والمشاق ، واضطر نابليون وقواده وضباطه أن يمضوا فى السير على أقدامهم وترجلوا عن خيلهم ليركبها المرضى والجرحى ، ثم تابع الجيش طريقه جنوبا محاذياً شاطىء البحر فوصل الى الطنطوره ظهر يوم ٢١ مايو وكان بها كثير من مدافع الحصار التى جلبها من مصر أو غنمها فى يافا وأدرك صعوبة نقلها معه فى انسحابه لأن طريق الصحراء وعر لا يصلح لنقل المدافع الثقيلة وطريق البحر معرض لهجمات البوارج الانجليزية فاضطر الى اتلاف معظم تلك المدافع أو اغراقها فى البحر ، وكذلك فعل بالقنابل والذخائر ، واستعمل عربات المدافع فى حمل الجنود المرضى والجرحى ، ثم غادر الطنطوره يوم ٢٢ مايو ، وسار الجيش جنوبا فأخلى قيسارية ويافا والرملة وغزة ، وأمر نابليون بنسف حصون يافا وغزة واتلاف المدافع والمهمات التى لم يستطع الجيش حملها معه ، وأحرق القرى الواقعة بين يافا وغزة ، ونهب مواشى الأهالى وخرب تلك الجهات تخريباً تاما ليجعلها فى زعمه عراقيل تعطل زحف الجيش العثمانى على مصر

وبلغ الجيش فى تراجعه (خان يونس) يوم ٢١ مايو سنة ١٧٩٩ ، وقام منها يوم أول يونيه قاصداً العريش ، وقطع فى هذا اليوم المسافة من خان يونس الى العريش ماراً برفح والشيخ زويل ، ووصل الى العريش الساعة العاشرة ليلا وعسكر فى حدائق

النخيل ، وكانت هذه المسافة أشق مرحلة قطعها الجنود من يوم انصرافهم عن عكا ، فأمرهم نابليون أن يستريحوا فى العريش يوم ٢ يونيه، وقضى هو ذلك اليوم فى تعهد قلعة العريش التى كانت مفتاح مصر من الجهة الشرقية، وكان من يوم احتلاله العريش فى بدء الحملة على سورية شديد العناية بتحصينها لاهمية موقعها الحربى ولقربها من دمياط التى كانت ثغر مصر الشرقى، وكانت عنايته بتحصينها دليلا على نيته احتلال مصر الى ماشاء الله ، ولكن الحوادث أخلفت ظنونه

كتب المسيو كوستاز أحد مهندسى الحملة الفرنسية[1] الذين رافقوا نابليون فى حملته على سورية رسالة [2] عن أهمية العريش قال فيها « ان قلعة العريش تكسب من يحتلها مزايا عظيمة تضمن له الانتفاع بآبار المياه العذبة التى هى وان لم تكن فى عذوبة ماء النيل أو السين الا انها صالحة جداً للشرب ، ووجود هذه الآبار يسهل انشاء مخازن ومستودعات للجنود الذين يخترقون الصحراء من مصر الى سورية أو من سورية الى مصر ، وقد كانت العريش دائما جزءاً من مصر وهى ضرورية لضمان الدفاع عنها ، ولذلك استثناها نابليون من القلاع التى هدمها أثناء الحملة على سورية ، فاستبقاها وأمر بتقويتها ولم ينقطع العمل فيها منذ أربعة أشهر لجعلها أكثر مناعة ، وأنفذ لها أخيراً طائفة من المهندسين وفرقة من العمل لاصلاح استحكاماتها وزيادة قوة الدفاع فيها »

ترك نابليون بالعريش حامية من الجنود وزودها بالمدافع والذخيرة ، وسار الجيش يوم ٣ يونيه سنة ١٧٩٩ قاصداً الى قطية فوصلها يوم ٤ يونيه ومن هناك مضى الى القاهرة ماراً بالصالحية فبلبيس فالمرج ، أما فرقة كليبر فسارت الى دمياط واستقرت بها ، وبذلك انتهت الحملة على سورية وقد دامت ١٢٥ يوما، وعادت الى حيث بدأت دون أن يجنى منها الفرنسيون سوى الهزيمة والخسران

---

(١) أنظر ما كتبناه عنه بالجزء الأول ص ١٢٤

(٢) نشرت بجريدة كوربيه دليجيبت بالعدد ٣١ الصادر فى ٧ يولية سنة ١٧٩٩

الفصل الثالث

الحالة فى مصر

أثناء الحملة على سورية

كان معظم جنود نابليون موزعين فى وقت واحد فى ميدانين كبيرين تكتنفهما المشاق والمتاعب ، فكان نصف الجيش بقيادة نابليون منهمكا فى الحملة على سورية حين كان جيش الجنرال ديزيه منصرفا الى اخضاع الوجه القبلى (١) ، وكلاهما كان يواجه المصاعب فى طريقه ، فجيش الحملة يقاتل جيوشا عديدة ويطاحن قلاعا حصينة ، وجيش ديزيه يواجه ثورات ومعارك متتابعة

حالة الشعب النفسية

ولا جدال فى ان تغيب نصف الجيش الفرنسى عن مصر كان له أثر كبير فى حالتها الداخلية ، نعم ان اقدام نابليون على غزو الشام هو فى ذاته عمل يدل على القوة والبأس ومن شأنه ان يلقى فى نفوس المصريين حذراً وهيبة ، لأن القائد الذى يغامر بجيشه فى مثل هذه الحملة الشاقة ويقطع تلك المراحل الطويلة ويجتاز الصحارى والقفار لابد أن يكون معتداً بقوته مستصغراً شأن عدوه ، فهذه الظاهرة كان لها أثرها فى الحالة النفسية للشعب ، أضف الى ذلك أن اخماد ثورة القاهرة (٢) وما شهد المصريون من فتك مدافع الفرنسيين وما أعقب الثورة من انشاء القلاع المحيطة بالعاصمة لاخماد كل ثورة تقوم فيها ، كل ذلك قد جنح بالشعب الى الهدوء والسكينة ، هذا فضلا عن ان قلاع الاسكندرية ورشيد والرحمانية ودمياط والصالحية وبلبيس كانت معدة لقمع الثورات فى مختلف البلاد ، وقد ساعد على تهدئة الخواطر وقتاً ما فى القاهرة والوجه البحرى أن نابليون

---

(١) راجع الفصل السابع عشر من الجزء الاول
(٢) راجع الفصل الثالث عشر من الجزء الأول

ترك مقاليد الأمور لرجلين اشتهرا بالحكمة والدهاء ، أحدهما الجنرال دوجا الذى استخلفه فى ادارة الشؤون الحربية فى القاهرة والوجه البحرى ، والآخر المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية وقد ناط به التدابير الادارية للحكومة ، فهذان الرجلان لم يدخرا وسعاً فى اتباع سياسة الحكمة والمحاسنة إزاء الشعب ومجاملة أعضاء الديوان واحترامهم ورعايتهم مما حببهما اليهم ، والمعلوم ان أعضاء الديوان هم كبراء البلاد وزعماء الشعب ، ولهم من النفوذ الأدبى والدينى على الناس مالا يخفى ، وموضعهم فى ذلك موضعهم ، وكان لبوسليج خاصة الفضل الأكبر فى استتباب الهدوء والسكينة فى القاهرة فقد اكتسب بأناته ورزانته احترام أعضاء الديوان فكان له من أنفسهم موقع وكان له عليهم نفوذ كبير ، واتصل بروابط الود مع المهدى والشرقاوى والسادات (١) والبكرى والصاوى والقاضى التركى ومحافظ المدينة (الاغا) ، وكانوا يلقبونه بالوزير بوسليج ، وهو من جهته لا يألو جهداً فى اكتساب قلوبهم بالمودة والمجاملة والمباسطة ، ورعاية الحُرُمات ، ومبادلتهم الزيارة ، ومجالستهم فى أنديتهم ، واقتباس بعض تقاليدهم وعاداتهم ، فقد شوهد مراراً فى منزل السادات جالساً على الديوان يشرب القهوة على الطريقة المصرية ويدخن الشبك ويطارح جلساءه فنونا من الحديث فى شؤون العلم والعمران ونظام الحكومات فى الغرب والشرق ، وكانت له مطارحات طويلة مع الشيخ المهدى الذى يعده الفرنسيون أكثر أعضاء الديوان علما وفهما ومعرفة

وهكذا اكتسب الديوان نفوذاً كبيراً فى ادارة شؤون الحكومة بما كانت ترجع اليه السلطة الفرنسية فى مهمات الأمور ، فلم يكن يبرم الجنرال دوجا والمسيو بوسليج شأنا من الشؤون المتعلقة بادارة الأمن فى القاهرة أو بكل ماله مساس بالشريعة وادارة الضرائب أو بالتقاليد والعادات المرعية إلا بعد مفاتحة أعضاء الديوان واستشارتهم فى تلك المسائل ، وكانت تسمع آراؤهم فى معظم الشؤون ، وهذه سلطة لم يكن أحد

---

(١) لم يكن السادات عضوا بالديوان ولكن كان له من المكانة مالم يتوافر لاعضائه .

من الحكام الأقدمين على عهد الحكم العثمانى يخولها أية جماعة أو هيئة من علماء البلاد وأعيانها ، فالبكوات المماليك كانوا يقضون فى الأمور بسياسة أهوائهم وارادتهم، ولم يكن مع أمرهم أمر ولا مع سلطتهم سلطة

وكان المسيو بوسليج يتودد كذلك الى السيد المحروقى كبير تجار القاهرة وهو أيضا من أعضاء الديوان ، فكان الشيخ المهدى بين زملائه والسيد المحروقى بين التجار واسطة التفاهم مع الأهالى ، ولا جدال ان هذه الظروف قد جعلت من الديوان أداة لتهدئة الخواطر ، لكن عامة الناس والسواد الأعظم من الأهلين لم تصف قلوبهم يوما للفرنسيين ، ولم يكن يحول دون انتقاضهم على الحكم الفرنسى سوى القوه الحربية المتسلطة على المدينة ، وقد اتهموا أعضاء الديوان بموالاة الفرنسيين وممالأتهم وعزوا مسلكهم معهم الى ما كان ينالهم من المزايا المادية والأدبية

وكان الأهالى يتوقعون لنابليون الانكسار فى حملته على سورية ، فلاذوا بالسكينة وتربصوا حتى تتحقق تلك الأمانى، ولكن انتصارات نابليون الأولى ملأت القلوب يأسا ، وكان نابليون يفهم نفسية الأمة ويعرف انها لا تصفو للفرنسيين ، فأراد أن يؤثر فيها بالمظاهرات والاعلان عن انتصاراته ليشغلها بالامر الواقع ، فلما تم له احتلال قلعة العريش أرسل كتيبة من الجنود الى القاهرة تحمل الاعلام التى غنمها فى تلك القلعة وكلف الجنرال دوجا أن يرفعها على منارات الجامع الازهر كاعلان لانتصار الفرنسيين فى العريش ، وكتب اليه فى هذا الصدد يقول (١) « انى أرى أن تقابلوا الشيخ المهدى وأعضاء الديوان فتتفقوا واياهم على اقامة حفلة صغيرة لاستقبال الاعلام المرسلة اليكم ، واذا لم يكن من حرج فضعوها فى الجامع الأزهر إيذانا بالانتصار الذى حازه جيش مصر على عساكر الجزار وأعداء المصريين »

بهذه العبارة الرقيقة أراد نابليون أن يجتذب اليه قلوب المصريين وأن يشعرهم السرور بانتصار الفرنسيين، ولذلك تراه يعبر عن جيشه بأنه «جيش مصر» وانه انتصر

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٨٧

على الجزار وعلى « أعداء المصريين » ولا يمكن ان يعبر بأحسن من هذا الأسلوب لمحاولة اكتساب قلوب الشعب ، ولكن هيهات ان ينخدع الشعب عن ذات نفس بذات لسان .

وكان ضمن الأسرى فى قلعة العريش بعض المصريين والمماليك، فأمر نابليون باعادتهم الى مصر صحبة ضابط فرنسى وتسريح المصريين حين وصولهم الى بلادهم ، وأوصى الجنرال دوجا فى شأن المماليك أن يستقبلهم فى القاهرة ويرجعهم الى منازلهم ويحسن معاملتهم مع وضعهم تحت رقابة المحافظ والديوان

وفى أول مارس سنة ١٧٩٩ وصل الضابط الذى أوفده نابليون الى القاهرة ومعه كوكبة من الجنود يحملون أخبار فتح العريش والأعلام التى غنمها الفرنسيون ومعهم الأسرى المماليك، فاستقبلهم فى اليوم التالى الاغا (المحافظ) وبرتلمى الرومى (وكيل المحافظ) وثلة من الشرطة ودخلوا المدينة من باب النصر ومشوا معهم تتقدمهم الطبول الى الازبكية حيث مقر القيادة العامة، ودخلوا بالأسرى المماليك على الجنرال دوجا فأطلق سراحهم بعد أن أخذ أسلحتهم وسمح لهم بالذهاب الى بيوتهم، واحتفل الفرنسيون ذلك اليوم بانتصارهم فى العريش وأطلقوا المدافع من القلعة والأزبكية ابتهاجاً بهذا النصر ثم احتفل الجنرال دوجا برفع الأعلام على منارات الأزهر عصر يوم الخميس ٧ مارس (ليلة عيد الفطر) فاصطفت شراذم الجنود رجالا وركباناً تلقاء باب الجامع ودعوا الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان وسلموه الرايات التركية ليرفعها على منارات الأزهر، فأمر بنصب رايتين على المنارة الكبيرة وراية ثالثة على منارة أخرى، ولما رفعت هذه الرايات أطلق الفرنسيون المدافع من القلعة إظهاراً لسرورهم وأطلقوا المدافع كذلك عند الغروب إيذاناً بعيد الفطر .

واجتمع الديوان صباح هذا اليوم وقرئت عليه رسالة الجنرال (برتييه) رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية باستيلاء الفرنسيين على خان يونس وغزة، فأصدر الفرنسيون منشورا بالخبر وأذاعوه على الجمهور

وانقضى شهر على غياب نابليون والسكينة سائدة فى القاهرة .

قال الجبرتى يصف حالة العاصمة فى خلال هذا الشهر :

« انقضى شهر رمضان [١] ووقع به قبل ورود هـذه الاخبار (أخبار انتصار الجيش الفرنسى) من السكون والطمأنينـة ، وخلو الطرقات من العسكر ، وعدم مرور المتخلفين منهم الا فى النادر ، واختفائهم بالليل جملة كافية ، وانفتاح الاسواق والدكاكين ، والذهاب والمجىء ، وزيارة الاخوان ليلا ، والمشى على العادة بالفوانيس ودونها ، واجتماع الناس للسهر فى الدور والقهاوى ، ووقود المساجد ، وصلاة التراويح ، وطواف المسحرين ، والتسلى بالرواية والنقول ، وترجى المأمول ، وانحلال الاسعار ، فيما عدا المجلوبات من الاقطار ، وصار الفرنساوية يدعون أعيان الناس والمشايخ والتجار للافطار والسحور ، ويعملون لهم الولائم ، ويقدمون لهم الموائد على نظام المسلمين وعادتهم ، ويتولى أمر ذلك الطباخون والفراشون من المسلمين تطمينا لخواطرهم ، ويذهبون هم أيضا ويحضرون عندهم الموائد ويأكلون معهم فى وقت الافطار ، ويشاهدون ترتيبهم ونظامهم ويحذون حذوهم ، ووقع منهم من المسايرة للناس وخفض الجانب مايتعجب منه والله أعلم »

وذكر الجبرتى أنه لما كان يوم العيد أطلقت المدافع وركب أكابر الفرنسيس وطافوا على أعيان البلد وهنئوهم بالعيد « وجاملهم الناس بالمداراة أيضا »

وجاءت أنباء احتلال الفرنسيين يافا فعقدوا الديوان وقرءوا فيه رسالة الجنرال برتييه ونشروا بيانا على لسان الديوان بتفصيل الرسالة وأذاعوها فى القاهرة ، فقوبل هـذا النبأ بالدهشة لاستيلاء الفرنسيين على يافا بتلك السرعة ، قال الجبرتى فى هذا الصدد « فلما تحقق الناس هذا الخبر تعجبوا وكانوا يظنون بل يتيقنون استحالة ذلك خصوصا فى المدة القليلة ، ولكن المقضى كائن »

واحتفل الفرنسيون برفع الرايات العثمانية التى غنمها نابليون فى يافا على باب الجامع الازهر ليراها الناس ويتيقنوا صحة الخبر ، وسادت السكينة وقتاً ما فى انحاء مصر

---

(١) سنة ١٢١٣ ـ فبراير سنة ١٧٩٩

بوادر الثورة

على أن هـذا السكون الذى شمل البلاد كان وقتيا، فما لبث أن تزعزعت أركانه فى الاقاليم وأخذت بوادر التمرد والانتقاض تظهر من حين الى آخر وتنتقل من ناحية الى أخرى ، فالنفوس كانت متحفزة للثورة ، وكانت القوة الحربية هى الركن الركين لتوطيد دعائم السكينة فى البلاد ، فابتعاد أكثر من نصف الجيش الفرنسى عن مصر وتغيب نابليون الذى كان له من الهيبة مالم يكن لغيره من قواد الجيش الفرنسى كل ذلك من شأنه أن يحدث مع الزمن تغييراً فى حالة الشعب النفسية ويغرى النفوس بالجنوح للثورة وخاصة اذا وقعت حوادث تشعل نار الهياج والاضطراب

الثورة فى الشرقية

(مارس سنة ١٧٩٩)

بدأ هاتف الثورة يطيف بالنفوس فى أواخر فبراير، فظهرت بوادرها فى الشرقية، وكانت مظالم الفرنسيين سببا فى اشتعال جذوتها ، ذلك أنهم أخذوا يفرضون الاتاوات على البلاد وأخذ جنودهم يخوضون القرى لمصادرة الجمال والحمير والماشية، فثارت نفوس الاهالى ووقعت حوادث ومصادمات فى جهات عدة وخاصة فى بردين والعصلوجى والغار والزنكلون (١) كادت تفضى الى ثورة عامة

واقعة بردين

خرجت كتيبة من الجنود من بلبيس (التى كانت في ذلك الحين عاصمة الشرقية) يوم ٢٨ فبراير سنة ١٧٩٩ وأخذت تطوف القرى لمصادرة الجمال والحمير ، فلما نزلت تجاه بردين حمل الاهالى السلاح استعدادا لمقاومة النهب ، وانضم سكان البلاد المجاورة اليهم ، فاجتمع مئات من الناس مسلحين متحفزين للقتال.

---

(١) بمركز الزقازيق الآن

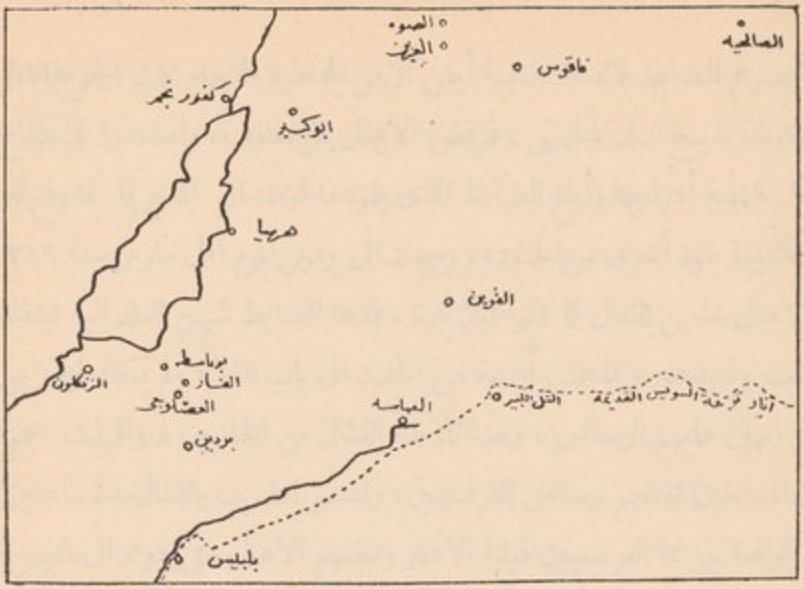

بين بلبيس والصالحية (تخطيط سنة ١٨٠٠)

وفيها مواقع البلاد التى ورد ذكرها بالصفحة ٤٨ وما بعدها

مصطفى بك أمير الحج سنة ١٧٩٨ (انظر ص ٥٠)

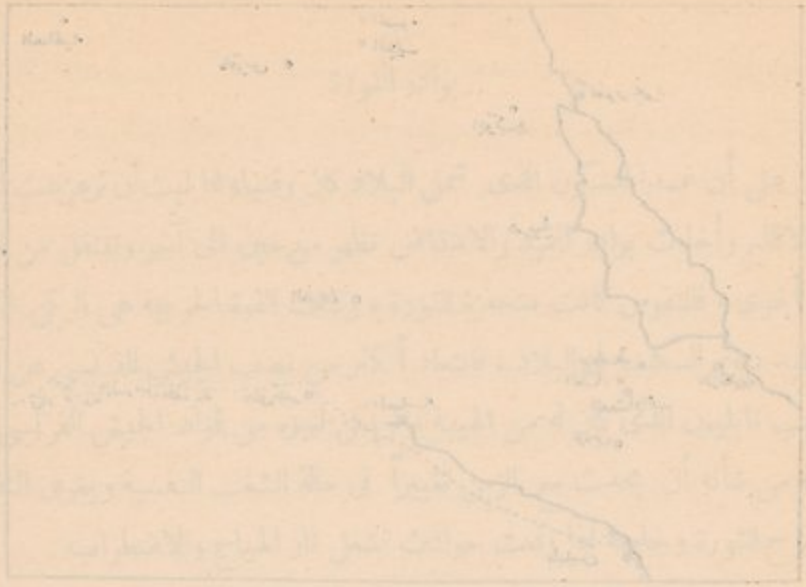

فلما أبصرهم الضابط قائد الكتيبة أيقن أن من المخاطرة اقتحام تلك الجموع الثائرة وأراد مفاوضة شيخ البلد بالحسنى ، فرفض الاهالى كل مفاوضة ، واستعدوا للكفاح ، فعادت الكتيبة أدراجها وأبلغ الضابط الذى يقودها قومندان المديرية بما وقع له ، فعزز الكتيبة بقوة أخرى من الجنود ، ورجعت الى بردين يوم أول مارس سنة ١٧٩٩ فألفت الاهالى معدين للقتال كما كانوا أول مرة ، فدعا الضابط شيخ البلد اليه ليتفاهم واياه فتخلف ولم يذعن ، فذهب أربعة من الجنود الى باب القرية ولم يكادوا يقتربون منها حتى انهال عليهم الرصاص ، وعندئذ بدأ القتال من الجانبين ، واقبلت جموع الفلاحين المسلحين تقتحم رصاص الفرنسيين ، واستمر الضرب والقتال مدة ساعتين ، وانتهت الواقعة بهزيمة الفرنسيين فولوا الادبار وتعقبهم الاهالى حتى ردوهم الى بلبيس ، وقتل من الفرنسيين فى هذه الواقعة خمسة وجرح اثنان ، فذاع فى بلاد الشرقية خبر الهزيمة ، وانسابت روح الثورة الى القرى دانية وبعيدة ، واعتزم الثائرون الزحف على بلبيس للاستيلاء عليها

ولما بلغت هذه الأنباء الجنرال دوجا فى القاهرة عهد الى الكولونل ديرانتو Duranteau أن ينتقم من القرى الثائرة وخاصة بردين والزنكلون ويمنع اندلاع الثورة الى البلاد الاخرى ، فانتقل ديرانتو الى بردين يوم ١٦ مارس ومعه الجند والاسلحة والمدافع ، فدار القتال بين الفريقين ، وانتهى باستيلاء الفرنسيين على بردين ونهبها واضرام النار فيها وسفك دماء عدد كبير من أهلها (١) ورجع ديرانتو الى بلبيس وانتقل يوم ١٧ مارس الى (الزنكلون) لينكل بها مثل مافعل ببردين ، فوجد أهلها قد أخلوها قبل حضوره تفاديا من أن يحل بهم مثل ما حل ببردين

كان لواقعة بردين من الشأن ما جعل الجنرال برتييه Berthier رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية يذكرها فى كتابه (٢) ضمن الحوادث الهامة التى وقعت فى مصر

---

(١) قدرهم الجنرال دوجا فى رسالته الى نابليون بتاريخ ١٣ يونية سنة ١٧٩٩ بثلثمائة قتيل

(٢) ذكر حروب الجنرال بونابرت فى مصر وسورية

أثناء الحملة على سورية ، فقال « ثارت قرية (بردين) بمديرية الشرقية فسار اليها الكولونل ديرانتو ، وهو ضابط كفء ، على رأس كتيبة من الجنود فأخمد ثورتها وأضرم النار فيها »

ثورة أمير الحج

استمرت الاضطرابات بالشرقية الى أن ظهرت بها ثورة أمير الحج ، وبيان ذلك أن نابليون كما علمت عين فى أوائل عهد الحملة الفرنسية مصطفى بك نائب الوالى التركى القديم أميراً للحج وقربه اليه (١) ، وبالغ فى الحفاوة به ليكسب نفوذه الادبى وينتفع بتأثيره فى الجماهير ، وقد طلب منه قبل ارتحاله عن القاهرة أن يصحبه فى الحملة على سورية كما طلب ذلك من القاضى التركى وأربعة من أعضاء الديوان وهم الفيومى ، والصاوى ، والعريشى ، والدواخلى ، فأذعنوا له ، وسار مصطفى بك صحبة القاضى وأعضاء الديوان ليلحقوا بالجيش فبلغوا بلبيس ، وهناك تخلفوا عن السير لان الفرنسيين احتاجوا الى جمالهم وأخذوها ، فأقام المشايخ ومصطفى بك بالعرين (٢) عدة أيام بحجة الزاد والمؤونة ، فأرسل نابليون الى مصطفى بك من قطية يستحثه على اللحاق به ، فبعث اليه يعتذر بأن جماله فقدت وان الطريق مخوفة لا أمن فيها ، ولم يلبث أن أعلن تمرده وانتقاضه على السلطة الفرنسية ، وكاشف زملاءه أعضاء الديوان والقاضى التركى بعزمه على شق العصا واعلان الخروج على الفرنسيين ، وطلب منهم أن يؤيدوه فى دعوته ، لكنهم خافوا العاقبة وحسبوا حسابا لانتقام الفرنسيين منهم كما انتقموا من زعماء ثورة القاهرة فلم يوافقوه على دعوته ، وشذ منهم الشيخ سليمان الفيومى فانه أقر أمير الحج على رأيه ، وكذلك القاضى التركى ، ولما رأى أمير الحج أن ثلاثة من أعضاء الديوان أنكروا عليه تظاهر بالتسليم وفى الوقت نفسه أخذ يعد العدة لنشر الدعوة الى الثورة فى أنحاء البلاد ، فبدلا من أن يتابع

---

(١) ص ٢٧٠ الجزء الاول

(٢) بمركز فاقوس بين أبو كبير وفاقوس

سيره الى قطية حيث كان ينتظره نابليون عاد الى داخلية البلاد فسار من العرين الى كفور نجم (١) يصحبه القاضى التركى والشيخ الفيومى ، وأما أعضاء الديوان الثلاثة الدواخلى ، والصاوى ، والعريشى ، فقد انفصلوا عنه وذهبوا الى القرين (بالقاف) (٢) ورجع الشيخ محمد الدواخلى الى القاهرة مريضا

رواية الجبرتى

ذكر الجبرتى هذه الواقعة فى حوادث شوال سنة ١٢١٣ فقال :

« قدم الشيخ محمد الدواخلى من ناحية القرين متمرضا ، وكان بصحبته الصاوى والفيومى (صح العريشى) متخلفين بالقرين ، وسبب تخلفهم أن كبير الفرنسيس لما ارتحل من الصالحية أرسل الى كتخدا الباشا (مصطفى بك) والقاضى والجماعة الذين بصحبتهم يأمرهم بالحضور الى الصالحية لانهم كانوا يباعدون عنه مرحلة ، فلما أرادوا ذلك بلغهم وقوف العرب بالطريق فخافوا من المرور فذهبوا الى العرين فأقاموا هناك واخذ عسكر الفرنسيس جمالهم فأقاموا بمكانهم ، فقلق هؤلاء الثلاثة وخافوا سوء العاقبة ففارقوهم وذهبوا للقرين وتخلف عنهم الفيومى فأقام مع كتخدا الباشا والقاضى ، فحصل للدواخلى توعك فحضر الى مصر وبقى رفيقاه فى حيرة »

امتداد الثورة

علم المسيو بوسليج بما حدث من أمير الحج ، فالتقى بالجنرال دوجا وتداولا معا فى اتخاذ الاسباب السريعة لقمع الثورة قبل أن يستفحل أمرها ، فأرسل الى أمير الحج والى الشيخ سليمان الفيومى يستوضحهما الحقيقة ويطلب منهما بيان الاسباب التى دعتهما الى التخلف عن اللحاق بالقائد العام ، فرد أمير الحج على رسالة بوسليج منكرا ما نسب اليه

ولكنه فى الوقت نفسه أخذ يدعو الى الثورة فى الجهات التى مر بها فانضوى الأهالى تحت علم الثورة وعلى رأسهم مشايخ البلاد (العمد)

---

(١) بمركز كفر صقر على بحر مويس

(٢) بالقرب من التل الكبير بمركز الزقازيق الآن

بدأت فكرة الثورة فى الشرقية وانتقلت الى الدقهلية من بلد الى بلد، وانضمت الجموع من الأهالى الى أمير الحج فسار من كفور نجم ومعه الآلاف الحاشدة من الناس، ومضى قاصداً الى دقادوس وميت غمر ، وكان عدد رجله يزداد بمن ينضم اليهم فى الطريق من المتطوعين، فوصل يوم ٢٥ مارس سنة ١٧٩٩ تجاه ميت غمر ، وكانت فكرة الثورة قد اختمرت فى الأذهان ، ولم يكن إلا أن تسنح لها الفرصة فتظهر بشكل فعلى ، وقد سنحت الفرصة بمرور بعض المراكب الفرنسية فى النيل تحرسها سفينة حربية ، كانت هذه المراكب قادمة من القاهرة تحمل الذخائر والاقوات والمدافع لامداد الجيش الفرنسى فى سورية بطريق دمياط ، فهجم أهالى ميت غمر والبلاد المجاورة على المراكب واستولوا عليها وقتلوا من فيها من الفرنسيين وأخذوا مابها من الذخائر والمدافع وارتدت السفينة الحربية التى كانت تحرسها الى القاهرة بعد أن عجزت عن رد الثائرين وجرح قبطانها وعدة من رجالها جروحا بليغة

رواية الجبرتى

نقلنا هذه الواقعة عن المراجع الفرنسية ، واليك ما ذكره الجبرتى فى حوادث شوال سنة ١٢١٣ عن ثورة أمير الحج « اجتمعوا بالديوان وتفاوضوا فى شأن مصطفى بك كتخدا الباشا المولى أمير الحج ، وهو انه لما ارتحل مع سارى عسكر وصحبته القاضى والمشايخ الذين عينوا للسفر ، الوجاقلية والتجار وافترق منهم عند بلبيس وتقدم هو الى الصالحية ثم انهم انتقلوا الى العرين فحضر جماعة من العساكر المسافرين فاحتاجوا الى الجمال فأخذوا جمالهم فلما وصل سارى عسكر الى قطية أرسل يستدعيهم الى الحضور ، فلم يجدوا مايحملون عليه متاعهم ، وبلغهم أن الطريق مخيفة من العرب ، فلم يمكنهم اللحاق به ، فأقاموا بالعرين (بالعين المهملة) عدة أيام وأهمل أمرهم سارى عسكر ، ثم ان الشيخ الصاوى والعريشى والدواخلى وآخرين خافوا عاقبة الامر ففارقوهم وذهبوا الى القرين (بالقاف) وحصل للدواخلى توعك وتشويش فحضر الى مصر كما تقدم ذكر ذلك ، وانتقل مصطفى بك المذكور والقاضى وصحبتهم الشيخ الفيومى وآخرون من التجار والوجاقلية الى كفور نجم،

وأقاموا هناك أياما ، واتفق أن الصاوى أرسل الى داره مكتوبا وذكر فى ضمنه أن سبب افتراقهم من الجماعة انهم رأوا من كتخدا الباشا أموراً غير لائقة ، فلما حضر ذلك المكتوب طلبه الفرنساوية المقيمون بمصر وقرءوه ، وبحثوا عن الامور الغير اللائقة ، فأوّلها بعض المشايخ انه قصر فى حقهم والاعتناء بشأنهم ، فسكتوا ، وأخذوا فى التفحص ، فظهرت لهم خيانته ومخامرته عليهم ، واجتمع عليه الجبالى وبعض العرب العصاة وأكرمهم وخلع عليهم ، وانتقل بصحبتهم الى منية غمر ودقدوس وبلادالوقف وجعل يقبض منهم الاموال ، وحين كانوا على البحر (النيل) مرت بهم مراكب تحمل الميرة والدقيق الى الفرنسيس بدمياط ، فقاطعوا عليهم وأخذوا منهم مامعهم قهراً ، وأحضروا المراكبية بالديوان فحكوا ماوقع لهم معه ، فأثبتوا خيانة مصطفى بك المذكور وعصيانه ، وأرسلوا هجانا باعلام سارى عسكرهم (نابليون) بذلك ، فرجع اليهم بالجواب يأمرهم فيه بأن يرسلوا له عسكراً ويرسلوا الى داره جماعة يقضبون عليه ويختمون على داره ويحبسون جماعته »

خطورة الثورة

كان لهذه الثورة خطرها ، فقد ظهرت أول شرارة لها فى الشرقية ، وامتد لهيبها الى وسط الدلتا بين بلاد آهلة بحيث كان من المحتمل أن يتسع مداها وتنقلب الى حركة عامة تهدد الجيش الفرنسى فى وقت انهماك نابليون فى الحملة على سورية ، وكانت الشرقية مجردة فى ذلك الحين من القوات الحربية الكافية ، لان فرقة الجنرال (رينييه) التى كانت تحتلها من قبل دخلت فى الفرق التى ساقها نابليون فى حملته على سورية ولم يترك منها سوى فصيلة من الجنود بقيادة الضابط جوفروا Geoffroy (١) وسوى الفصيلة الأخرى التى أوفدها الجنرال دوجا بقيادة ديرانتو لقمع ثورة بردين والزنكلون فلم يكن فى الاستطاعة ان تقمع الثورة بهذا العدد الضئيل من الجنود

---

(١) هو ضابط من ضباط فرقة الهندسة وأخو جوفروا سان هيلير العالم الطبيعي الشهير أحد أعضاء المجمع العلمى ، وقد مات فى معركة استرلنز سنة ١٨٠٥ وأسف عليه نابليون أسفا كبيرا

عزل أمير الحج

أدرك الجنرال دوجا والمسيو بوسليج أن الحالة خطيرة وان الثورة التى شبت فى الشرقية قد تجر الى عواقب لايستهان بها ، فاستخدما لمكافحتها كل ما أوتيا من مهارة وحزم ، وارتأى بوسليج أن يستعين بالديوان لتجريد مصطفى بك من امارة الحج حتى تسقط منزلته التى كانت له فى النفوس من توليه امارة الحج ونقل كسوة الكعبة الشريفة وكانت هذه الكسوة لاتزال فى مصر لدى وكيل مصطفى بك

فاوض المسيو بوسليج فى هذا الشأن الشيخ محمد المهدى سكرتير الديوان وصاحب النفوذ الاكبر بين أعضائه وعرض أمر عصيان مصطفى بك على الديوان فلم يستطع الديوان أمام البينات التى قدمها الفرنسيون سوى تجريده من امارة الحج، وفى الوقت نفسه القى الاغا (محافظ المدينة) القبض على وكيل مصطفى بك الذى كان ناظرا للكسوة وعلى ابن أخيه وباقى أتباعه وسجنوا بالجيزة ، وتمت كل هذه الاحداث فى يوم ٣٠ مارس سنة ١٧٩٩ ، وأعلن فى اليوم التالى عزل مصطفى بك من امارة الحج على أن تستمر مراسم الحج كما كانت

رواية الجبرتى

يقول الجبرتى فى هذا الصدد :

«وفى يوم الاحد الرابع والعشرين من شهر شوال عينوا عسكرا وأرسلوا الى داره (دار مصطفى بك) جماعة ومعهم وكلاء فقبضوا على كتخدائه (نائبه) الذى كان ناظرا على الكسوة وعلى ابن أخيه ومن معهم وأودعوهم السجن بالجيزة ، وضبطوا موجوداته وما تركه مخدومه بكر باشا (الوالى التركى) بقائمة وأودعوا ذلك بالقلعة فوجدوا غالب أمتعة الباشا وبرقه وملابسه وعبى الخيل والسروج وغيرها شيئا كثيرا ، ووجدوا بعض خيول وجمال أخذوها أيضا — فانقبضت خواطر الناس لذلك ، فانهم كانوا مستأنسين بوجوده ووجود القاضى يتوسلون بشفاعتهما عند الفرنسيس وكلمتهما عندهم مقبولة وأوامرهما مسموعة ، ثم أنهم أرسلوا أمانا للمشايخ (اعضاء الديوان الذين تخلفوا فى

القرين) والوجاقلية والتجار بالحضور الى مصر مكرمين ولا بأس عليهم » وقال فى موضع آخر انهم بعد أن سجنوا وكيل مصطفى بك الذى كان ناظرا على الكسوة عهدوا باتمامها الى السيد اسماعيل الوهبى المعروف بالخشاب « أحد العدول بالمحكمة » فنقلها لبيت أيوب جاويش بجوار جامع السيدة زينب وتموها هناك ، وقال فى ختام كلامه عن حوادث سنة ١٢١٣ (١) « وانقضت هذه السنة وما حصل بها من الحوادث التى لم يتفق مثلها ومن أعظمها انقطاع سفر الحج من مصر ولم يرسلوا الكسوة ولا الصرة وهذا لم يقع نظيره فى هذه القرون ولا فى دولة بنى عثمان والامر لله وحده »

اخماد الثورة

فلما نجح الجنرال دوجا والمسيو بوسليج فى تجريد مصطفى بك من امارة الحج أخذ دوجا يعد المعدات الحربية لقمع الثورة ، فكلف الجنرال لانوس Lanausse قومندان المنوفية بالمسير الى الشرقية التى كانت منبع الهياج ، فقصد اليها على رأس قوة مؤلفة من ستمائة جندى ، وتعقب مصطفى بك ، وعاونه فى مهمته الكولونل ديرانتو والجنرال فوجيير Fugieres الذى كان مرابطا بجنوده فى سمنود ، وأخذوا يطاردون مصطفى بك فى مختلف البلاد ، فلما آنس أنه لا قبل له على مقاومتهم زاغ من طريقهم وأخذ يفر من بلد الى آخر حتى أفضى الى الجهات الصحراوية بالشرقية فغاب فيها ولم يعلم الفرنسيون مقره ، ولم يلبث أن تشتت أنصاره وسقط نفوذه

قال الجبرتى فى هذا الصدد ان مصطفى بك « لم تعلم عنه حقيقة حال ، قيل أنه ذهب الى الشام » ويقول نيقولا الترك فى كتابه (٢) انه لجأ الى الجزار فرابه أمره وأمر بقتله

على أن الثورة قد تجددت فى أواخر شهر مايو سنة ١٧٩٩ فى القليوبية ومنطقه

---

(١) توافق سنة ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩ ميلادية

(٢) ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية

ميت غمر والبلاد المجاورة لها ، فاحتشد بها عدد كبير من الثوار وانضم اليهم جماعة من المماليك وهجموا يوم ٣٠ مايو على سفينة حربية فرنسية قادمة بالنيل من سمنود ، فاستولوا عليها وغنموا أربعة مدافع كانت بها وقتلوا نوتيتها وخمسة من جنودها وجرحوا منهم اثنين

معركة كفور نجم (٥ يونيه سنة ١٧٩٩)

تعطلت الملاحة فى النيل تجاه ميت غمر ، فسار الجنرال لانوس من منوف الى ميت غمر لاخماد الثورة ، فانسحب الثوار منها قاصدين الى كفور نجم ، فتعقبهم بجنوده ودارت معركة شديدة يوم ٥ يونيه سنة ١٧٩٩ بين الفريقين بالقرب من كفور نجم على شاطىء بحر مويس انتهت بهزيمة الثوار وخسروا عددا من القتلى قدرهم الجنرال لانوس بمائة وثلاثين قتيلا (١)

ولما عاد نابليون من الحملة على سورية أمر باقامة قلعة فى ميت غمر وأخرى فى المنصورة لحماية الملاحة فى النيل وقمع الثورات فى جهات البلدين (٢) ويقول الجنرال (رينييه) فى كتابه (٣) انه قد أقيم فعلا بالمنصورة وميت غمر ومنوف حصون لحماية الملاحة وقمع الثورات

أخذ الجنرال لانوس يتنقل لاخماد الثورة ، ولما وصل الى ميت غمر أراد أن يقتص منها انتقاما لما حل بالفرنسيين والسفن الفرنسية تجاهها ، فأمر باحراقها وتدميرها « حتى لم يبق فيها حجر على حجر » كما يقول ريبو(٤) ، ثم سار فى البلاد لقمع الهياج وارهاب الاهالى ، على أنه لم يلبث أن علم بأن الثورة انتقلت الى غرب الدلتا

---

(١) رسالة الجنرال لانوس الى الجنرال دوجا من الهجارسة بتاريخ ٦ يونيه سنة ١٧٩٩

(٢) رسالة نابليون الى الجنرال سانسون بتاريخ ٢٢ يونيه سنة ١٧٩٩

(٣) مصر بعد واقعة عين شمس

(٤) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الخامس

فى مديرية البحيرة ، فاضطر أن يسوق جنوده اليها تاركا بالشرقية كتيبة منها بقيادة الكولونل ديرانتو

الثورة فى غرب الدلتا

كانت الاقاليم الواقعة غرب الدلتا (الاسكندرية ورشيد والبحيرة) مسرحا للقلاقل والثورات، فاستهدفت سلطة الفرنسيين فيها للهجمات الخارجية والاضطرابات الداخلية

أخذ الاسطول الانجليزى من اوائل فبراير سنة ١٧٩٩ يطلق قنابله على مواقع الفرنسيين فى الاسكندرية ورشيد واستمرت السفن الانجليزية عدة أيام تضرب قلاع الاسكندرية ومواقع الفرنسيين فى رأس التين والميناء الشرقية وما جاورها ، وخفت وطأة الضرب فى أواخر شهر فبراير ولم ينقطع الا فى أوائل مارس اذ أقلعت السفن الانجليزية الى مياه سورية لمقاومة الحملة الفرنسية هناك

وكذلك ظهرت السفن الانجليزية قريبا من بوغاز رشيد واطلقت قنابلها على البوغاز والجهات القريبة منه ، فكان لهذه الحوادث تأثير فى نفوس الاهالى حفزهم الى الهياج وظهرت أعراض الثورة فى الاسكندرية ورشيد والبلاد المجاورة لها

كتب الجنرال (منو) Menou من رشيد الى نابليون بتاريخ ٧ فبراير سنة ١٧٩٩ يقول «ان ظهور السفن الانجليزية قد أحدث شيئاً من الهياج بين الشعب، واستفاضت الاشاعات بقرب قدوم الاتراك » وكتب اليه فى رسالة اخرى بتاريخ ١٥ فبراير يقول « قد بدأنا نشعر باختمار فكرة الثورة فى البلاد المجاورة لرشيد، وأخذ اهالى بعض القرى الثائرة يتهددون الملاحة فى النيل ، وقد هاجموا سفينة تحمل البريد فاضطرت ان تعود أدراجها ولا بد لنا أن نحميها بسفينة حربية لتستأنف سيرها »

واشتد الهياج فى منطقة رشيد وماحولها فى شهر مارس، ذلك ان الجنرال (مارمون) قومندان الاسكندرية فرض سلفة اجبارية على مديرية رشيد موزعة على بلادها وقراها وكفورها ، فدفعت مدينة رشيد قسطها فى السلفة ، ودفعت (فوة) ثلثى المفروض

عليها ، وامتنعت باقى البلاد عن الدفع، فجرد الكولونل جوليان (١) Julien عليها حملة عسكرية مسلحة بالمدافع لاجبارها على دفع ما خصها فى الاتاوة ، وعمت الثورة جهات (برنبال) و(مطوبس) وكفر(شباس عمير) و(القنى) و(السعده) (٢) وغيرها فسارت الحملة من رشيد واخذت تجوب بلاد هذه المديرية لاخماد الاضطرابات وتحصيل الاتاوات ، وشباس عمير هى التى قاومت الجنرال (منو) فى اوائل عهد الاحتلال الفرنسى (٣) وكانت معقلا للثورة وملجأ للثوار من القرى المجاورة ، وموقعها على جانب من المناعة و خاصة بعد أن رمم أهلها السور المحيط بها وأصلحوا الابراج التى تتخلله ، فلم تستطع الحملة أن تستولى عليها وطلبت المدد من رشيد فأنجدها الكولونل جوليان بفصيلة من الجنود وعادت القوة الى قتالها وضربتها بالمدافع ، فهدمت البلدة عن آخرها وجلا أهلها عنها ، وانتقلت القوة الفرنسية الى بلدة السعده فضربتها بالمدافع وتخرب جزء منها وأخلاها اهلها ونجوا بمتاعهم ومواشيهم، وكذلك أخلى أهل برنبال بلدتهم واقفرت من السكان

الثورة فى البحيرة

فى أواخر شهر ابريل سنة ١٧٩٩ شبت فى البحيرة ثورة أوسع مدى وأعظم خطرا من ثورة الشرقية، ذلك أنه ظهر فيها رجل جاء من (درنه) (٤) ادعى المهدية ودعا الناس الى قتال الفرنسيين ، فأقبلوا عليه أفواجا وضم اليه رجال القبائل من أولاد على والهنادى وغيرهم ، وانحاز اليه سكان القرى التى مر بها ، فسار بهذه الجموع المسلحة حتى وصل

---

(١) عين حاكما لرشيد اثناء الحملة على سورية بدلا من الجنرال منو الذى عينه نابليون قومندانا لفلسطين لكنه لم يذهب لسورية كما سيجىء بيانه بالفصل الحادى عشر

(٢) هذه البلاد هى الآن فى مديرية الغربية وكانت فى ذلك الحين من أعمال مديرية رشيد، وتقع (القنى) شرق مطوبس و(السعده) جنوب القنى بشرق

(٣) أنظر الجزء الاول ص ٢٥٠

(٤) بطرابلس الغرب

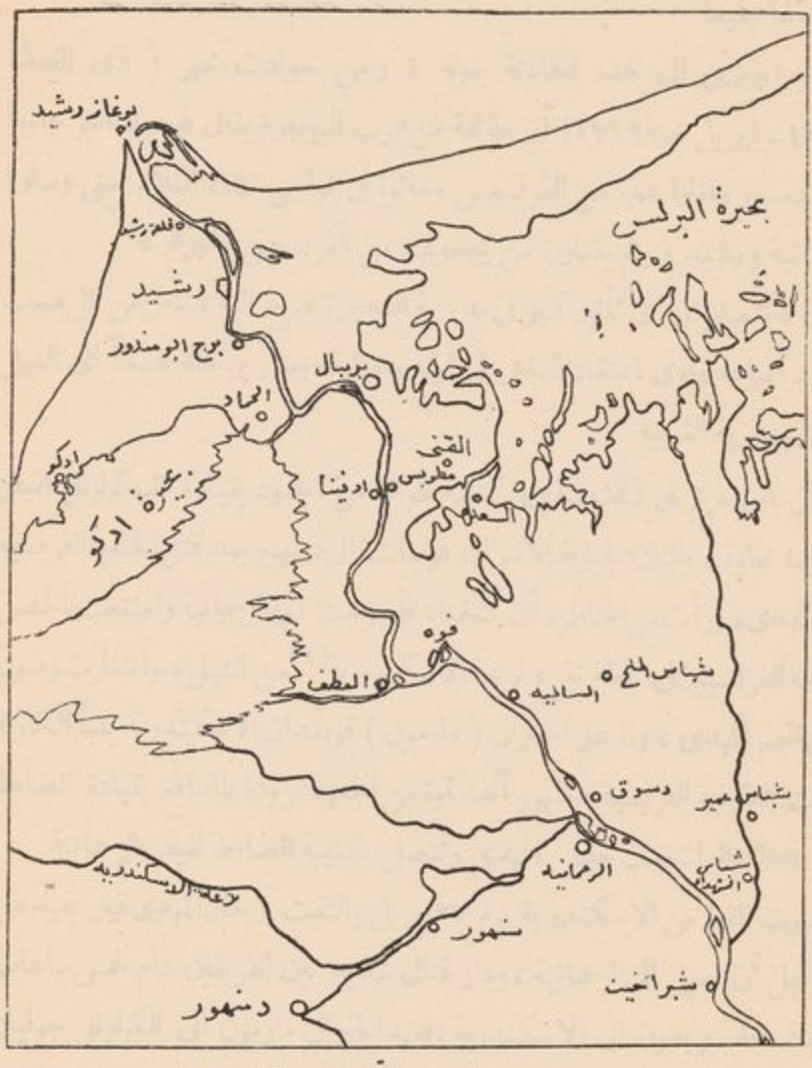

بين رشيد وشبراخيت (تخطيط سنة ١٨٠٠)

مقابل ص ٥٨

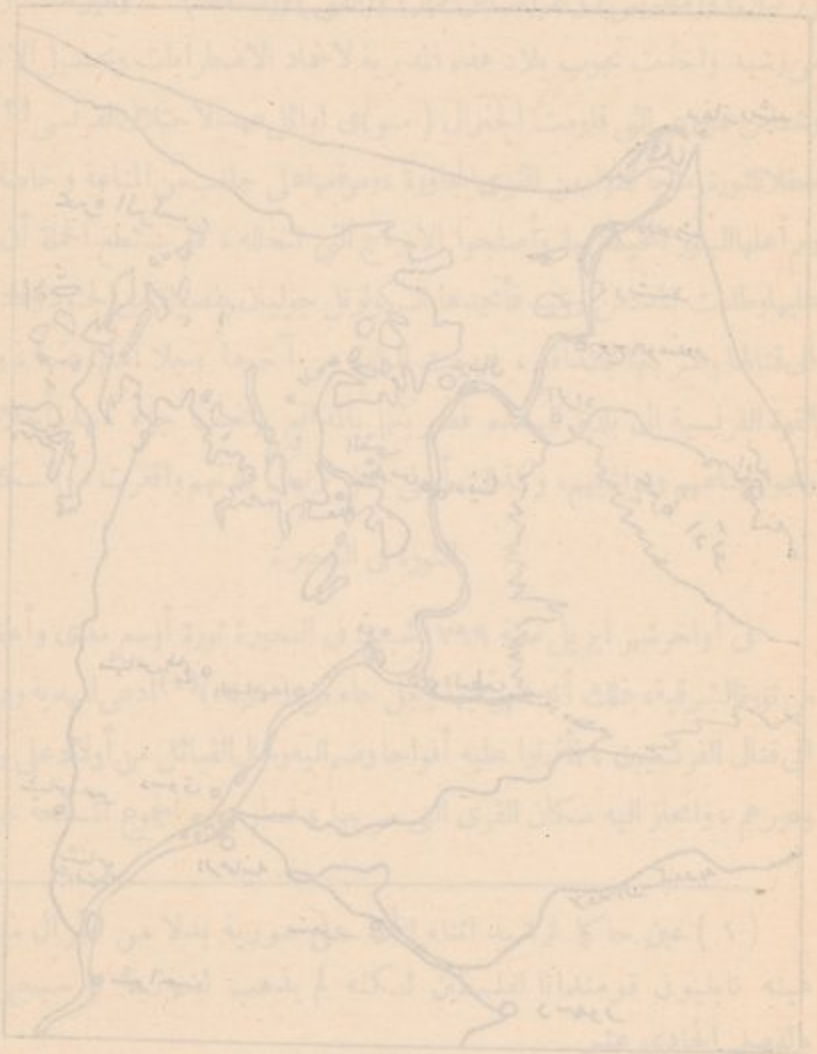

الى دمنهور ليلة ٢٤ ـ ٢٥ ابريل وكان بها حامية من الجنود الفرنسيين تحت قيادة الضابط مارتان Martin ، فأمر المهدى رجاله بالهجوم على هذه الحامية فهجموا عليها وقتلوا رجالها جميعا

أشار الجبرتى الى هذه الحادثة بقوله « ومن حوادث شهر (ذى القعدة سنة ١٢١٣ ـ ابريل سنة ١٧٩٩) أن طائفة من عرب البحيرة يقال لهم عرب الغز جاءوا وضربوا دمنهور وقتلوا عدة من الفرنسيس وعاثوا فى نواحى تلك البلاد حتى وصلوا الى الرحمانية ورشيد ، وهم يقتلون من يجدونهم من الفرنسيس وغيرهم »

كان لانتصار المهدى تأثير كبير فى مديرية البحيرة فهرع اليه الناس من كل صوب وزاد عدد أتباعه وقوى اعتقاد الناس فى قوته وخوارقه وسار برجاله قاصداً الى النيل ليعبره الى مديرية الغربية

وكان بالبحيرة فى ذلك الحين كتيبة طوافة من الجنود بقيادة الكولونل لفيفر Lefebvre تطوف بالبلاد لجباية الاموال ، فوصلت الى دمنهور بعد قتل الحامية الفرنسية ورحيل المهدى ، ورأت من المخاطرة أن تتعقبه ، فأسرعت الى الرحمانية وامتنعت بالحصن الذى أقامه الفرنسيون فى نقطة تفرع ترعة الاسكندرية[1] من النيل ، وانتظرت وصول المدد لتهاجم المهدى ، ولما علم الجنرال (مارمون) قومندان الاسكندرية بنبأ الكارثة التى حلت بالحامية الفرنسية بدمنهور أنفذ قوة من الجنود مزودة بالمدافع بقيادة الضابط ريدون Redon لتتعقب جيش المهدى وتتصل بكتيبة الضابط لفيفر بالرحمانية

سارت القوة من الاسكندرية يوم ٢٧ ابريل والتقت برجال المهدى غير بعيد عن دمنهور قبل أن تصل الى الرحمانية ، ودار قتال شديد بين الفريقين دام خمس ساعات انتهى بانسحاب ريدون الى الاسكندرية ، فعهد الجنرال مارمون الى الكولونل جوليان فى انجاد الرحمانية بما لديه من الجنود والمدافع فأرسل المدد واستبقى فى رشيد العدد الكافى لاخضاع المدينة

---

(١) ترعة المحمودية الآن. أنظر ما كتبناه عنها بالجزء الاول ص ١٧٠

معركة سنهور

٣ مايو سنة ١٧٩٩

وصل المدد الى الرحمانية وانضم الى الجنود الذين بها ، وسارت القوات الفرنسية مجتمعة فالتقت برجال المهدى يوم ٣ مايو بسنهور البحيرة على مقربة من دمنهور ودارت معركة من أشد المعارك هولا ، قال ريبو(١) فى وصفها ان عدد رجال المهدى كانوا خمسة عشر الف مقاتل من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان ، وان القتال استمر سبع ساعات كان فيها أشبه بمجزرة فظيعة ، وهذه الواقعة من أشد الوقائع التى واجهها الفرنسيون فى القطر المصرى أظهر فيها اتباع المهدى من الفلاحين والعرب شجاعة كبيرة واستخفافا بالموت لا نظير له ، و بذل الكولونل لفيفر أقصى ما انتجه العلم والفن فى القتال ، فجعل جيشه على شكل مربع على الطريقة التى ابتكرها نابليون وهجم على الجموع المقاتلة عشرين مرة ، فكان يحصد صفوفهم حصدا بنيران البنادق والمدافع ، وكان اتباع المهدى قد غنموا فى دمنهور مدفعا فرنسيا فاستخدموه فى المعركة وركبوه على مركبة تجرها الثيران وأخذوا يطلقون منه النار على الفرنسيين ، واستمر القتال حتى جنّ الليل ، وكان الجنود الفرنسيون قد خارت قواهم من القتال ، ففكر لفيفر فى الانسحاب من الميدان والاتجاه الى الرحمانية ، ولكن جموع المهدى لكثرة عددها كانت تسد الطريق امامه ، فأمر رجاله أن يضموا صفوفهم ويخترقوا الجموع التى طوقتهم وركّب المدافع على رؤوس المربع لاقتحام هذه الجموع وانسحبوا من ميدان القتال بعد ان فدحتهم الخسائر ، ويقول « ريبو » ان الفرنسيين خسروا فى هذه المعركة ستين قتيلا بينما يقدر خسائر المصريين بألفى قتيل منهم ابراهيم الشوربجى وعبد الله باشى من مشايخ دمنهور ومراد عبد الله شيخ قبيلة الهنادى ، وبالرغم من هذه الخسارة فان المعركة انتهت بفوز المهدى وارتداد الفرنسيين الى الرحمانية

وقد أغراه هذا الفوز الجديد بمواصلة القتال وضم اليه انصارا واتباعا آخرين سدوا الفراغ الذى أحدثته معركة سنهور ، فسار بجموعه قاصدا الرحمانية ، لكنه اضطر

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الخامس

للارتداد عنها امام مناعة موقع الفرنسيين فيها وعاد الى دمنهور التى اتخذها معسكره العام

احتلال الفرنسيين دمنهور

وفى غضون ذلك عهد الجنرال دوجا الى الجنرال لانوس Lanausse الذى كان يحارب أمير الحج أن يتجه بقواته الى البحيرة لاخماد ثورة المهدى التى استفحل شأنها، فغادر ميت غمر يوم ٥ مايو سنة ١٧٩٩ وقصد الى البحيرة ، وفى طريقه اليها ضم جنود الجنرال فوجيير Fugières الذى كان يرابط فى الغربية ، ولما وصل الى الرحمانية سار بقواته جميعها صوب دمنهور فهزم رجال المهدى ودخل دمنهور فاتحا، فأعمل فيها السيف والنار ودمرها جنوده تدميرا وحشيا وأبادوا من وجدوه فيها من السكان الآمنين

قال ريبو يصف هذه الفظائع « بعد أن احتل الجنود دمنهور قتلوا من صادفوه من رجال المهدى جميعا ، ولما كان أهل دمنهور هم أول من اتبع المهدى من سكان البحيرة فقد أراد الفرنسيون أن يطبعوا هذه المدينة بطابع الغضب والانتقام ، فأحرقوا مساكنها بالنار، وقتلوا كل من وجدوه من الشيوخ والنساء والاطفال بحد السيف ، وفى اليوم التالى كانت دمنهور ركاما من الاحجار السوداء اختلطت بها اشلاء الجثث ودماء القتلى »(١)

وذكر الجنرال (لانوس) فى رسالة بعث بها من الرحمانية الى الجنرال دوجا شيئاً من الفظائع التى أمر بارتكابها فى دمنهور قال « كانت مدينة دمنهور وأهلها هدفا لانتقام الجنود ، فقد قتلوا من الاهالى نحو ٢٠٠ أو ثلثمائة، وبعد ذلك أمرت بتسليم المدينة لفظائع النهب وسفك الدماء ، والآن لم يعد لدمنهور وجود ، وقد قتل من أهلها نحو ١٢٠٠ أو ١٥٠٠ ماتوا قتلا أو حرقا »

وقال الضابط (لفيفر) فى رسالة له الى الجنرال دوجا فى ١٠ مايو « لقد حاصرنا دمنهور واحرقناها ونهبناها، واستولى جنودنا فيها على غنائم وأسلاب عظيمة »

ويقول الجبرتى فى هذا الصدد فى حوادث شهر ذى الحجة سنة ١٢١٣ « تجمع

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الخامس

الكثير من الفرنسيس وذهبوا الى جهة دمنهور وفعلوا بها ما فعلوا فى بنى عدى (١) من القتل والنهب لكونهم عصوا عليهم بسبب أنه ورد عليهم رجل مغربى يدعى المهدوية ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد وصحبته نحو الثمانين نفرا فكان يكاتب أهل البلاد ويدعوهم الى الجهاد، فاجتمع عليه اهل البحيرة وغيرهم وحضروا الى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنسيين، واستمر أياما كثيرة تجتمع عليه أهل تلك النواحى وتفترق، والمغربى المذكور تارة يغرب وتارة يشرق »

تعقب الجنرال لانوس فلول المهدى ولحق بهم فى حدود مديرية البحيرة، واختلفت الروايات فى خاتمة المهدى فقال بعضهم انه قتل فى هذا اليوم، وقال البعض انه ظهر بعد ذلك فى ثورة القاهرة الثانية، ويؤيد نابليون فى مذكراته الرواية الاولى ويقول إن جثة المهدى وجدت بين القتلى فى دمنهور

لكن الجنرال رينييه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية يقول فى كتابه إن المهدى المذكور ويسميه (مولاى محمد) ظهر فى ثورة القاهرة الثانية وكان يحرض الناس على القتال وانه لحق بجيش الصدر الاعظم بعد اخماد الثورة ثم عاد الى مصر فى أواخر سنة ١٨٠٠ عند اقتراب الحملة العثمانية الانجليزية على مصر لاثارة الافكار فيها، وان الجنود الفرنسية طاردته فى الدلتا فهرب الى الصعيد، وقد أشار الجبرتى فى حوادث ثورة القاهرة الثانية الى أمر هذا المهدى وذكر انه « يقال انه الذى كان يحارب الفرنسيس بجهة البحيرة سابقا » فرواية الجبرتى توافق رواية رينييه فى مجموعها، ونميل كثيرا الى ترجيح رواية رينييه والجبرتى لانهما شهدا ثورة القاهرة الثانية، اما نابليون فقد غادر مصر فى شهر اغسطس سنة ١٧٩٩ أى قبل وقوع هذه الثورة بعدة أشهر، ومهما يكن من مصير المهدى فان ثورته قد اخمدت وتفرق اتباعه فى القرى والبلاد، وتحولت الثورة العامة الى اضطرابات محلية قليلة الاهمية، وتخلص الفرنسيون من خطر كبير كان يتهدد سلطتهم فان انتصارات المهدى الاولى أحدثت فى النفوس تأثيرا كبيرا وانتشرت

---

(١) انظر ما كتبناه عن ثورة بنى عدى بالجزء الأول ص ٤٢٠

انباؤها مبالغا فيها وذاعت فى انحاء البلاد من الوجه البحرى الى الوجه القبلى ، وكان رؤساء المماليك مراد بك وحسن بك الجداوى وعثمان بك الطنبورجى وصالح بك لما علموا باحتلال المهدى دمنهور قد عزموا على اللحاق به وغادروا الواحة التى كانوا لاجئين اليها قاصدين الى دمنهور ، فلما علموا ماحل به من الهزيمة عادوا ادراجهم وانكمشوا فى الوجه القبلى

الفصل الرابع

سياسة نابليون فى مصر

بعد عودته من سورية

عاد نابليون الى مصر بعد اخفاق الحملة على سورية ، وأراد أن يستر هزيمته بدخوله القاهرة دخول الظافر المنتصر ليؤثر فى نفسية الشعب ويُشعره قوته ، ولكن هيهات أن يكون الوهم إلا وهماً ، فان الحقائق لاتلبث مع الزمن أن تنكشف وتتغلب على الأوهام والأباطيل

أحاط نابليون دخوله القاهرة بمظاهر النصر والظفر ، ففى ١٢ يونية سنة ١٧٩٩ بدأت طلائع الجيش الفرنسى تدخل المدينة ومعها جماعة من الأسرى الاتراك ذوى المكانة وعدة من الرايات التى غنمها الفرنسيون أثناء الحملة ، فاستقبلها على حدود القاهرة الجنرال دوجا والجنرال دستنج والمسيو بوسليج والاغا (المحافظ) وأعضاء الديوان، وشقوا المدينة فى موكب مهيب الى ميدان الازبكية ومنه الى القلعة ليشاهد الجماهير الأسرى الاتراك والرايات العثمانية كدليل على فوز الفرنسيين ، قال الجبرتى فى هذا الصدد فى حوادث شهر محرم سنة ١٢١٤ [١] « وفى يوم الثلاثاء حضر جماعة من العسكر بأثقالهم وحضرت مكاتبة من كبير الفرنساوية (نابليون) أنه وصل الى الصالحية، وأرسل دوجا الوكيل ونبه على الناس بالخروج لملاقاته بموجب ورقة حضرت من عنده يأمر بذلك »

وكان يوم الجمعة ١٤ يونيه (١٠ محرم سنة ١٢١٤) موعد دخول نابليون فى جيشه الى القاهرة ، فأعدت السلطة الفرنسية لاستقباله احتفالا كبيرا دعت اليه أعضاء الديوان والاعيان والوجاقلية وغيرهم ، ففى صباح هذا اليوم قرعت طبول الحرب

---

(١) يونيه سنة ١٧٩٩

فى أحياء المدينة وحضر قواد الجيش وكبار موظفى الحكومة وأعضاء الديوان وأعيان القاهرة الى ميدان الازبكية بدار القيادة العامة، ومن هناك ساروا وعلى رأس هذا الجمع الجنرال دوجا والجنرال دستنج والمسيو بوسليج الى (القبة) لاستقبال نابليون خارج المدينة والدخول فى موكبه الحافل ، فقابل جماعة المهنئين، وأهداه الشيخ خليل البكرى جوادا مطهما يقوده المملوك رستم الذى اصطفاه نابليون واستصحبه من بعدُ فى رحيله الى فرنسا وصار خادمه الامين ولازمه فى عهد القنصلية والامبراطورية، وأهداه المعلم جرجس الجوهرى كبير المباشرين هجينين جميلين عليهما سرجان بديعان، وبعد تلقى التهانى دخل القاهرة من (باب النصر) يتبعه الجيش بنظام عسكرى مهيب ، فاخترق الموكب شوارع المدينة حتى وصل الى ميدان الازبكية بين قصف المدافع وقرع الطبول، وكأنما أراد نابليون بهذه المظاهرة العسكرية أن يثبت لسكان القاهرة كذب الاشاعات التى ذاعت عن القضاء على الجيش الفرنسى وموت نابليون نفسه فى سورية وأن يبرهن لهم أن الجيش ما زال فى قوته وعنفوانه

روى الجبرتى أن الموكب استمر خمس ساعات متوالية يسير فى شوارع القاهرة الى أن وصل الى القيادة العامة فى الازبكية

ويقول المسيو جومار Jomard (١) انه شهد هذا الموكب « ورأى مرور الجنود متواصلا طول النهار لان نابليون أمر بأن تدخل الجنود المدينة من باب وتخرج من باب آخر ثم تعود فتدخل المدينة ثانيا من الباب الاول لتؤثر فى نفسية الشعب الذى كان يتحرش بالفرنسيين اثناء حصار عكا »

ولم يفت الجبرتى ملاحظة ما حل بالجنود من الاعياء وما بدا عليهم من علائم الفشل، وفى ذلك يقول « وقد تغيرت ألوان العسكر القادمين واصفرت الوانهم وقاسوا مشقة عظيمة من الحر والتعب وأقاموا على حصار عكا اربعة وستين يوما حربا مستقيما ليلا ونهارا »

---

(١) عضو المجمع العلمى المصرى انظر ما كتبناه عنه بالجزء الاول ص ١٢٦

منشور أعضاء الديوان

وبعد أن استقر بنابليون المقام فى القاهرة استكتب أعضاء الديوان منشوراً دعوا فيه الشعب الى الاخلاد للسكينة، وهو منشور طويل خلاصة ما احتواه إعلام الناس برجوع نابليون وأن رجوعه يكذب الاشاعات التى أذاعها المرجفون عنه وزعمهم انه مات بسورية، وتضمن ذكر بعض وقائع الحملة السورية مزوّرة مشوهة، وأوضح السبب فى عودة نابليون الى مصر فزعم أن ذلك راجع أولا الى وعده قبل سفره « بالرجوع بعد أربعة أشهر والوعد عند الحرين ! ! » والسبب الثانى أنه بلغه « أن بعض المفسدين من المماليك والعربان يحركون فى غيابه الفتن والشرور فى بعض الاقاليم والبلدان » فلما حضر سكنت الفتنة ونكص الاشرار، وختم المنشور بتحذير الشعب عواقب الفتن والانتقاض ونوّه بفضل نابليون فى احترام القرآن والشعائر الاسلامية واجراء خيرات الاوقاف وعزمه « على اقامة مسجد عظيم لا نظير له فى الاقطار ودخوله فى دين النبى المختار » وغير ذلك من التمويهات التى كان يذكرها فى منشوراته تارة على لسانه وطوراً على لسان أعضاء الديوان دون أن يأبه لها أحد

تغيير نظام القضاء

وانتخاب قاضى قضاة مصر

لما احتل الفرنسيون القاهرة فى أوائل عهد الحملة اضطربت الاحوال فى العاصمة وكان من نتائج ذلك الاضطراب أن اقفلت بعض المحاكم أبوابها واعتزل القضاة الحكم بين الناس، ولما هدأت الاحوال نوعا استأنف القضاة أعمالهم وأقر نابليون السابقين منهم فى مناصبهم، واستمر القضاء على نظامه القديم، وبقى القضاة السابقون يتولون القضاء وعلى رأسهم القاضى التركى (قاضى قضاة مصر) المولى من قبل السلطان، فلما خرج القاضى على السلطة الفرنسية اثناء الحملة على سورية

وانضم الى أمير الحج فى ثورته (١) عزم نابليون على أن يحدث تغييرا حاسما فى نظام القضاء، وكان الجنرال دوجا قد أقام ابن القاضى السابق « ملا زاده » فى مكان أبيه فلم يرق ذلك نابليون وأراد أن يقطع كل صلة بين مصر وتركيا ويجعل قاضى القضاة من علماء مصر، فأمر فى ٢٢ محرم سنة ١٢١٤ بالقبض على ملا زاده واعتقاله وأبلغ أعضاء الديوان فى اليوم التالى نبأ القبض عليه وعزله وطلب اليهم أن « يختاروا شيخا من العلماء يكون من أهل مصر ومولودا بها يتولى القضاء ويقضى بالاحكام الشرعية كما كان الملوك المصريون يولون القضاء برأى العلماء (٢) »، فلما قرئت رسالة نابليون بالديوان استاء الاعضاء من اعتقال « ملا زاده » وشفعوا له فى أن يطلق سراحه، ودافعوا عنه بأنه اذا كان أبوه قد انضم الى امير الحج فلا يؤخذ هو بما أخطأ أبوه، فقبل نابليون شفاعة العلماء، غير أنه طلب اليهم أن ينتخبوا قاضيا غيره فجرى الانتخاب بطريقة نظامية واشترك فيه العلماء مع أعضاء الديوان، فنال أغلبية الاصوات الشيخ احمد العريشى الحنفى أحد علماء مصر فى ذلك العصر وأحد أعضاء الديوان، قال المسيو فوريه Fourier القوميسير الفرنسى لدى الديوان وقد حضر عملية الانتخاب ان الاصوات التى أعطيت فى الانتخاب بلغت ٢٣ صوتا نال منها الشيخ احمد العريشى ١٦ صوتا، ونال الشيخ مصطفى الجداوى خمسة ونال عالمان آخران كل منهما صوتا واحدا، فولى الشيخ العريشى قضاء مصر باغلبية آراء العلماء، وكتب العلماء بذلك الى نابليون، فأمر باقامة حفلة لتولية الشيخ احمد العريشى قضاء مصر دعا اليها أعضاء الديوان العمومى والشيخ السادات (٣) وبعض العلماء والاعيان من غير أعضائه، وخلع على القاضى الجديد خلعة

---

(١) انظر الفصل الثالث ص ٥٠

(٢) الجبرتى الجزء الثالث ومراسلات نابليون الجزء الخامس وثقة رقم ٤٢١٧ المؤرخة ٢٦ يونيه سنة ١٧٩٩

(٣) لم يكن السادات من اعضاء الديوان وقد ذكرنا فى الجزء الاول ص ١٩٨ أنه رفض عضوية الديوان ولكن نابليون كان يجله ويحترمه فأمر ان يدعى الى الاحتفال، انظر الوثيقة رقم ٤٢٢١ من مراسلات نابليون

ثمينة وحفه بموكب حافل سار به الى دار المحكمة الكبرى بين القصرين ثم أمر نابليون بالافراج عن « ملازاده » اجابة لطلب العلماء

كانت هذه أول مرة ولى فيها قاضى القضاة بانتخاب علماء مصر ، ولا شك أن جعل منصب قضاء مصر بانتخاب العلماء هو خطوة كبرى فى سبيل تقدم النظام القضائى ، لأن حكومة الاستانة لم تكن ترسل الى مصر سوى قضاة أكثرهم جهلاء لا يعرفون لغة البلاد وليس لهم قدم راسخة فى العلم ولا فى القضاء ، فانتخاب قاضى القضاة من بين علماء البلاد من شأنه أن يرفع منزلة القضاء ، هذا الى أنه يكسب علماء مصر حقا لم يكن لهم من قبل ، وقد أصدر نابليون أمراً آخر فى ٤ يوليه سنة ١٧٩٩ (١) بتحديد رسوم التقاضى باثنين فى المائة من قيمة النزاع ، فانتخاب قاضى القضاة مضافا الى تحديد رسوم الدعاوى هو تطور فى اصلاح النظام القضائى فى مصر

أراد نابليون أن يستغل هذا الاصلاح ليكسب قلوب الشعب ، فأصدر منشورا بعث به الى أعضاء الديوان أوضح فيه موقفه حيال القاضى التركى وابنه ، وسوّغ عمله بقوله انه لم يعزل القاضى ولكنه هرب من مصر وترك أهله وأولاده « وخان عهد المعروف والاحسان » وأن ابنه لا يصلح لتولية القضاء لصغر سنه وعدم كفايته فاصبح مركز القاضى شاغرا ولذلك رأى اتباعاً لروح القرآن أن « يعهد الى العلماء اختيار القاضى من بينهم وان الشيخ العريشى الذى نال اختياركم أصبح متقلدا منصب القضاء ولا غرو فان الخلفاء الذين كانوا يعملون بروح القرآن كانوا يتولون الخلافة بانتخاب جمهور المؤمنين (٢) » وانه لم يعتقل ابن القاضى التركى الا منعا للفتن ، وصارح أعضاء الديوان فى منشوره بأن مظاهر الحكم العثمانى قد انقضت وبطلت ، وهذا المنشور من أهم الوثائق التى أوضح فيها نابليون سياسته فى مصر ورغبته فى التودد الى المصريين (٣)

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٥١

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٢٤

(٣) نشرنا نص هذا المنشور فى (قسم الوثائق التاريخية) وقد عربناه عن الاصل الفرنسى ونشرنا معه الصيغة الواردة فى الجبرتى لانها الوثيقة التى تليت فى الديوان

وأرسل أيضا الى حكام المديريات يكلفهم أن يبلغوا دواوين الاقاليم نبأ انتخاب جمعية العلماء الشيخ العريشى لتولى قضاء مصر، وانه ينبغى أن يتلقى قضاة الاقاليم تقليد القضاء من قاضى القضاة، قال فى هذا الصدد « على حكام المديريات أن يفهموا أعيان البلاد بأن قد آن ابطال الحكم العثمانى ذلك الحكم الذى هو أظلم من حكم المماليك، وأنه مما ينافى روح القرآن أن يتولى القضاء فى مصر رجال من الاستانة لايعرفون لغة البلاد، وان الاستانة لم تعرف الاسلام الا بعد ثلاثة أوأربعة قرون من وفاة الرسول، وانه لو بعث الرسول من جديد فلا يختار الاستانة لرسالته بل يختار القاهرة تلك المدينة المقدسة على ضفاف النيل، وان الرئيس الدينى للاسلام هو صديقنا شريف مكة، كما أن علماء القاهرة هم بلا منازع أعلم علماء الاسلام، وان القائد العام ينبغى أن يكون القضاة كلهم من أبناء مصر اللهم الا أن يكونوا من أشراف مكة والمدينة (١) »

عود الى المجمع العلمى

تعطلت أعمال المجمع العلمى أثناء الحملة على سورية بسبب انصراف الأفكار الى حركات الحملة وانتظار نتائجها ولغياب جماعة من أقطاب المجمع الذين رافقوا الجيش الفرنسى فى سورية أمثال (مونج) رئيس المجمع و (برتوليه) و (كوستاز) والجنرال كافريللى (الذى مات تحت أسوار عكا) وغيرهم، فلما رجع نابوليون الى القاهرة استأنف عقد جلسات المجمع وعين بعض الأعضاء مكان الذين ماتوا فى سورية أو نزحوا الى فرنسا

وبدأ المجلس أعماله بالبحث فى الوباء الذى فتك بالجنود أثناء الحملة وبيان أسبابه ومنشئه وتطوره ووسائل الوقاية منه، وأبدى أعضاء المجمع نشاطا فى استئناف أبحاثهم وأعمالهم، وأخذ نابليون من جهته يستأنف أعمال الاستعمار فى القاهرة، فوجه نظره أولا الى اتمام بناء الحصون حتى يطمئن الى اخضاع المدينة اذا شبت فيها نار الثورة

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٣٨

واستؤنفت الأعمال الصحية بنشاط واستؤنف كذلك العمل فى مصنع البارود بالروضة ، وشرع نابليون فى تجديد ملابس الجنود واستعمل فى ذلك منسوجات البلاد القطنية والاجواخ الواردة من خارجها، فاكتفى الجيش الى حد ما بموارد البلاد بفضل كفاية المسيو كونتى والمسيو شامبى (١) وادارة المسيو دور Daure مدير مهمات الجيش ، وهكذا أثبتت التجربة ان مصر تستطيع فى أى وقت أن تكتفى بمواردها الطبيعية

خرطة مصر

كلف نابليون فى الأشهر الأولى من الحملة الفرنسية بعض المهندسين الجغرافيين وضباط أركان الحرب ومهندسى الرى والقناطر والجسور برسم خرطة تفصيلية عن أنحاء القطر المصرى وعهد الى المسيو (تستفيود) Testeviude كبير المهندسين الجغرافيين وضع خرطة عامة للقطر المصرى ، ولكنه قتل فى ثورة القاهرة الأولى ، فبطل العمل فى رسمها ، ولما عاد نابليون من سورية عزم على توحيد جهود المهندسين وضباط أركان الحرب فأصدر أمراً فى ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٩ (٢) بضم المهندسين الجغرافيين التابعين للجيش الى هيئة أركان الحرب، وعين الكولونل جاكوتان Jacotin رئيساً للمهندسين الجغرافيين بدلا من تستفيود ، وعهد الى رآسة أركان الحرب وضع خرطة تفصيلية كبيرة للقطر المصرى ، فأخذ المهندسون وضباط أركان الحرب يعملون لها بنشاط ، ومن المهندسين الذين كانت لهم يد طولى فى تخطيطها جاكوتان وسميونيل Simonel وشوانى Schouani وجومار Jomard وكورابوف Corabeuf وجالوا Jallois ودفيلييه Devilliers والمسيو لوبير Le Père كبير مهندسى الرى

جمعت الرسوم والتخطيطات والبيانات اللازمة لهذه الخرطة خلال الحملة الفرنسية، ونقلها مهندسو الحملة معهم عند رحيلهم الى فرنسا (فى شهر سبتمبر سنة ١٨٠١)

---

(١) أنظر ترجمتهما بالجزء الأول ص ١٣٢ و ١٣٤

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٢٧

وهناك أمر نابليون جماعة المهندسين بوضع الخرطة التفصيلية لمصر ، فتولى الكولونل جاكوتان رياسة العمل واشترك فيه المهندسون والضباط الذين رسموا وخططوا حين كانوا فى مصر ، وتم وضع الخرطة وإفراغها ، وقدمت الى نابليون (وكان قنصلا أول) فى شهر أكتوبر سنة ١٨٠٣

اكتشاف الآثار المصرية القديمة

وألف نابليون لجنتين للكشف عن آثار الفراعنة فى الصعيد ورسمها ودراستها فاللجنة الأولى برياسة المسيو فوريه سكرتير المجمع العلمى الدائم ، والثانية برياسة المسيو كوستاز أحد مهندسى الحملة ، وكانت مهمتهما التنقيب عن آثار مصر القديمة فى الوجه القبلى الى الشلالات ، وقد سبقهما فى تعرف آثار الصعيد المسيو فيفان دينون الذى رافق حملة الجنرال ديزيه والمهندسون جومار وجالوا وديفيليه .

سافر أعضاء اللجنتين من القاهرة الى الصعيد فى ٢٠ أغسطس سنة ١٧٩٩ أى بعد يومين من رحيل نابليون الى الاسكندرية ، ونقبوا على الآثار المصرية و بذلوا جهودا عظيمة فى اكتشافها ، فأزاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة ، ودونوا أبحاثهم فى كتاب تخطيط مصر ، فكانت أعمالهم وأعمال أعضاء المجمع العلمى هى الخالدة من آثار الحملة الفرنسية « وأما ماينفع الناس فيمكث فى الارض »

الموقف السياسى

وتجدد القتال

شمل السكون الظاهر أنحاء القطر المصرى فى منتصف شهر يونيه سنة ١٧٩٩ ، وكانت الظواهر تدل على هدوء الحالة واستقرارها ، فقد أخمدت الثورات فى الوجه البحرى ، وانتهت المعارك العنيفة فى الوجه القبلى ، وتوطدت السكينة فى القاهرة ، لكن هذه الظواهر كانت تشبه السكون الذى يسبق العواصف ، فقد كانت الأفكار فى غليان ، ونفسية الشعب متحفزة للهياج ، واللغط يزداد ويكثر ، والاشاعات عن

ا كفهرار الجو يتناقلها الناس فى أندية القاهرة وشوارعها وقهواتها ، ومن هناك تستطير الى القرى والارياف مكبرة مجسمة ، وكان نابليون يرقب هذه الحالة وهو عالم بأن هذا السكون الظاهر الذى شمل البلاد لم يكن إلا غشاء لا تلبث الحوادث ان تمزقه ، فهو يعلم أن انجلترا وتركيا تعدان المعدات لتجريد حملة كبيرة لاخراج الفرنسيين من مصر ، ويعلم أن سكون الشعب وتربصه لم يكن إلا إذعانا لحكم القوة المسلحة فاذا وهنت هذه القوة انفجرت الثورات وتجددت الاضطرابات كدأبها وأشد ، وكانت الأنباء ترد من كل مصدر بحشد الجنود التركية فى رودس والثغور العثمانية لتبحر الى سواحل مصر ، وفى الوقت نفسه كانت قوات تركية أخرى تتهيأ للزحف على مصر من طريق برزخ السويس بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا ، وكان نابليون يلحظ تحفزاً من الاهالى للانتقاض ، وعلم أن دعاة الثورة يخوضون القرى والبلاد يستنفرون الناس للهياج

وقد وقعت حوادث ومناوشات من زعماء المماليك فى تلك الفترة من الزمن ، فتحرك مراد بك من الفيوم الى وادى النطرون قاصداً شمال البحيرة متوقعا أن يلتقى بالجنود التركية عند نزولها الى البر ، وتحرك عثمان بك الشرقاوى قاصدا الى برزخ السويس لملاقاة ابراهيم بك

لكن نابليون لم يدع للحوادث أن تفاجئه ، بل أسرع فأعد لمقابلة الهجوم المنتظر ، فعمد الى تشتيت قوات مراد بك وعثمان بك وعهد الى الجنرال (دستنج) والجنرال (مورا) منع مراد بك من التقدم الى شمال البحيرة فحالا دونه ولم يلبث أن انقلب الى الصعيد ، وهاجم الجنرال (لاجرانج) Lagrange عثمان بك فى السبع آبار [1] فهزمه واستولى على معسكره

وناط نابليون بالجنرال (كليبر) قيادة القوات والمواقع الكائنة على السواحل الشمالية من الاسكندرية الى العريش ، واستأنف اعمال التحصين فى الصالحية

---

(١) غرب بحيرة (التمساح) شمال السويس وتسمى (السبع ابيار)

و بلبيس ودمياط ورأس البر وأبو قير والاسكندرية وجعل هذه المواقع صالحة للدفاع ، وكان الجنرال كليبر والجنرال مارمون قومندان الاسكندرية ما برحا يحصنان قلاع الاسكندرية وأبو قير من قبل فزاد نابليون فى تحصينها وخاصة طابية العجمى غرب الاسكندرية وقلعة قايتباى و برج السلسلة

وكانت الحاميات العسكرية موزعة على الثغور والمواقع التى تعتبر مفاتيح البلاد، فكان بقلعة العريش حامية من ستمائة جندى بقيادة الادجودانت جنرال كامبيس Cambis ، و بقطية حامية من ستمائة جندى بقيادة جونو Junot ، والجنرال رينييه Reynier يتولى قيادة الجنود فى الشرقية ، والجنرل (منو) فى رشيد ، ولانوس فى المنوفية

مقتل الجنرال دومارتان

توقع نابليون بثاقب نظره أن ترسو السفن العثمانية الآتية بالجنود على شواطىء (أبو قير) بين الاسكندرية ورشيد ، فأنفذ اليها الجنرال (دومارتان) قومندان المدفعية ليتعهد حالة الدفاع فى تلك الجهة

غادر دومارتان القاهرة يوم ١٩ يونيه سنة ١٧٩٩ على سفينة مسلحة بالمدافع وعليها جماعة من الجنود ، وانحدرت السفينة ببطء وصعوبة لهبوط النيل ، فلما كانت بازاء طنوب والزعيرة[١] هجم عليها جمع من الاهالى المسلحين بالبنادق ودار قتال عنيف بين الفريقين قتل فيه عشرة من الفرنسيين وجرح أربعون ، وكان الجنرال دومارتان ضمن الجرحى ، فنقل الى رشيد ومات بها فى يوليه سنة ١٧٩٩ متأثراً من جراحه ، وعهد نابليون بعد مقتله الى الجنرال سونجى Songis فى قيادة المدفعية

---

(١) بلدتان بالمنوفية بالبر الشرقى لفرع رشيد (بمركز تلا الآن)

نزول الجنود العثمانية فى (أبو قير)

لم تكن استعدادات نابليون لملاقاة الحملة العثمانية على غير جدوى ، فقد أقبلت العمارة التركية تجاه الاسكندرية يوم ١١ يوليه سنة ١٧٩٩ متجهة شمالا بشرق قاصدة شواطىء (أبوقير) لانزال الجيش العثمانى الذى أنفذته تركيا بقيادة كوسه لى مصطفى باشاسر عسكر الروملى ، ثم وصلت الى خليج (أبو قير) فى اليوم التالى فأرسل الجنرال (مارمون) الى نابليون ينبئه بالخبر وينتظر مايأمره به

نزل الجنود العثمانية الى شاطىء (أبوقير) يوم ١٤ يوليه وكان عددهم فى أول يوم عشرة آلاف مقاتل فحاصروا قلعة أبو قير [١] وكانت الحامية الفرنسية ممتنعة فيها بقيادة القومندان جودار Godard

وكان موقع القلعة فى ذاته منيعا لانها قائمة على صخرة صعبة المنال فى رأس شبه جزيرة (أبو قير) تحميها من الداخل استحكامات فى مدخل شبه الجزيرة [٢] فتحصن القومندان جودار فى المدخل وناط بالكابتن فيناش Vinache الدفاع عن القلعة

احتلال الاتراك قلعة (أبو قير)

بدأ حصار (أبوقير) يوم ١٥ يوليه ، وكان هجوم العثمانيين شديدا فاحتلوا الاستحكامات وقتلوا الفرنسيين الذين دافعوا عنها ، وقتل من بينهم القومندان جودار ، ثم احتلوا القرية ولم يبق أمامهم سوى القلعة فآثر الكابتن فيناش التسليم هو وجنوده فأسرهم العثمانيون ونقلوا على ظهر بارجة انجليزية من عمارة الكومودور السير سدنى سميث الذى جاء صحبة العمارة التركية واحتل الاتراك القلعة يوم ١٧ يوليه سنة ١٧٩٩

---

(١) هي القلعة القائمة الى اليوم فى نهاية شبه جزيرة أبو قير والمعروفة بطابية البرج ، ولاتزال آثار أبنيتها وأبوابها باقية الى اليوم كما بنيت ، وبناؤها على الراجح فى عهد السلاطين البحرية

(٢) تقع قرية (أبوقير) بين الاستحكامات والقلعة

تعليمات نابليون

علم نابليون بهذه الحوادث ، فأدرك خطورة الموقف ، لكنه كعادته لم تبد عليه علائم الاضطراب وبادر الى وضع خطة سريعة محكمة التدبير لمواجهة الحملة العثمانية

كان من مواهب نابليون التى أكسبته النصر فى ميادين القتال السرعة فى وضع خططه الحربية ومفاجأة خصومه قبل أن يدع لهم الوقت الكافى لمباغتته ، بهذه الميزة ، وبتلك العبقرية ، قابل الحملة التركية عند نزولها بأبو قير ، لقد هاله احتلال الاتراك للقلعة لأنه كان يقدّر أنها تستطيع المقاومة مدة طويلة لمناعة موقعها ومابها من المدافع ومعدات الدفاع ، وحسب أنها تعطل الجيش العثمانى وتمتنع عليه طويلا ولم يخطر له قط أن تسقط فى يد الاتراك بهذه السرعة ، على أنه مع ذلك لم يضطرب ولم يضيع الوقت ولم يتردد فى وضع خطته الحاسمة ، ففى ليلة واحدة رسم خطته وأصدر تعليماته وأرسل رسائله الى قواده ليلتقوا اليه بالرحمانية حيث قرر جعلها قاعدة الهجوم على الجيش العثمانى ، فكلف الجنرال (مورا) بالتحرك من الجيزة على رأس قوة الفرسان والكشافة لتكون بمثابة طلائع الجيش

وكلف الجنرال لان Lanne أن يعبر النيل ليلا ويسير بفرقته رأسا الى الرحمانية ، وأمر بأن يلحق به الجنرال رامبون Rampon بجنوده وينقل معه مدفعية الجيش ، واستدعى الجنرال لانوس من المنوفية ، وأصدر تعليماته الى الجنرال ديزيه بالصعيد أن يعهد الى الجنرال فريان Friant بتعقب مراد بك وأن يترك القوة والذخائر الكافية فى قلعة قنا وقلعة القصير ويرسل نصف قوته من الفرسان الى الرحمانية ويجيء الى القاهرة ليتولى بالاتفاق مع الجنرال (دوجا) اخضاعها فى أثناء غياب الجيش عنها

وكلف الجنرال (دوجا) أن يظل بالقاهرة متأهبا للقتال وأن يرسل الكتائب الطوافة لاستطلاع حالة البلاد المجاورة للعاصمة وامداد الحصون بالذخائر لتكون على اهبة الدفاع ، وأمره اذا جدّت به الحوادث أن يتحصن فى القلعة

وكلف الجنرال (رينييه) قومندان الشرقية أن يمد قلاع العريش وقطية

والصالحية وبلبيس بالذخائر وأن يقمع بمن معه كل حركات الثورة والاضطرابات التى تقع فى أنحاء المديرية ويقاوم كل هجوم محتمل للجنود العثمانية القادمة من سورية ، ثم أمره فى حالة اشتداد الهجوم أن يمتنع بجنوده فى القلاع وينشئ بالباقى الى القاهرة ، وأن يكون على استعداد لارسال قواته الى الرحمانية ، وكلف الجنرال كليبر قومندان دمياط أن يتجه بجنوده صوب رشيد ليدافع عنها ويصد هجوم العثمانيين إذا زحفوا عليها ، وأن يبقى الحاميات الكافية لاخضاع الاهالين فى مديريتى دمياط والمنصورة ، وكان الجنرال (منو) فى ذلك الوقت متغيبا عن رشيد يكتشف جهات وادى النطرون فأمره نابليون بأن يعود لفوره الى الرحمانية ليلتقى به بعد أن يترك بوادى النطرون حامية من الجنود لمنع مراد بك من التقدم شمالا ، وبهذه التعليمات استطاع نابليون أن يحشد جيشا مؤلفا من عشرين ألفا من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان مزودين بالمدافع الكافية

أصدر نابليون هذه التعليمات وأرسلها الى قواده ، وسار هو قاصداً الرحمانية فبلغها يوم ١٩ يوليه ، أى أنه أعد معداته ووصل الى قاعدته الحربية بعد خمسة أيام من نزول الجنود العثمانية الى (أبو قير) ، وهى سرعة ليس لها نظير فى تاريخ الحروب فى ذلك العصر

لم تكن القيادة التركية فى هذا الوقت قد رسمت أية خطة حربية لمواجهة الجيش الفرنسى بل كانت جنودهم لا تزال ترسو الى البر جماعات مفككة لا يربطها نظام ، وكأنما تمل الاتراك بنشوة الانتصار الاول فى احتلال قلعة (أبو قير) فلم يحسبوا حسابا للوقت ولم يقدروا قوة جيش نابليون ، وظلت الجنود العثمانية تنزل الى البر حتى بلغ عددهم ١٥٠٠٠ (١) مقاتل ، ولم يفكر مصطفى باشا فى احتلال الاسكندرية أو

---

(١) أخذنا هذا الاحصاء عن رسالة الجنرال (برتييه) رئيس أركان الحرب الى الجنرال (دوجا) وهو احصاء رسمى عمل عقب الواقعة مباشرة فهو أقرب الى الثقة ، وقدرهم الجنرال دوجا بهذا العدد فى رسالة الى أعضاء الديوان بتاريخ

رشيد ليتخذها قاعدة عسكرية للزحف منها الى داخل البلاد ، بل ظل جامدا فى شبه جزيرة أبو قير واكتفى بقطع المواصلات بين الاسكندرية ورشيد ، وكانت تنقصه قوة الفرسان والمدفعية كما كانت تعوزه الكفاءة الحربيـة للقيادة ، فبقى فى موقف الانتظار والتردد لا يدرى كيف يأخذ فى أمره وترك لنابليون الفرصة لمهاجمته قبل أن يرسم لنفسه أى خطة حربية

فلما علم نابليون بجمود مصطفى باشا عزم على مهاجمة الجيش العثمانى فى شبه جزيرة (أبو قير) ، واختار قرية بركة غطاس [١] قاعـدة ليبدأ فيها الهجوم لانها نقطة ارتكاز يسهل الوصول منهـا الى الاسكندرية ورشيد وأبو قير ، وكانت خطته أن يهجم من هذه النقطة جاعلا غايته حصر الجيش العثمانى فى شبه الجزيرة ومنع اتصاله بالاسكندرية ورشيد وداخلية البلاد ، وعهد الى الجنرال مارمون قومندان الاسكندرية بالاتصال بفرسان الجنرال مورا لاكتشاف موقع الاتراك من أبو قير ، فقام الضـابط بيكو Picot بهذه المهمة بسهولة تامة ، لان مصطفى باشا حشـد جيشه فى شبه الجزيرة حشدا دون أن يجعل له نقطا أمامية أو مخافر تمنع اكتشاف مواقعه

معركة أبو قير البرية

٢٥ يوليه سنة ١٧٩٩

علم نابليون بمواقع الجيش العثمانى فأمر جيشـه بالانتقال من الرحمانية الى بركة غطاس ، فاستقر بها يوم ٢٣ يوليه وفى ليلة ٢٤ يوليه انتقل الجيش من (بركة غطاس) وعسكر جزء منه فى كفر سليم [٢] والجزء الآخر فى العكريشه [٣] واتخـذ نابليون

---

٢ ربيع الاول سنة ١٢١٤ ، لـكن نابليون يقدرهم فى مذكراته بـ ١٨ ألفا والظاهر أن فى احصائه مبالغة

(١) من بلاد مركز أبو حمص

(٢) و(٣) من بلاد مركز كفر الدوار

الاسكندرية مقرا للقيادة العامة فانتقل اليها فى تلك الليلة

لم يضيع نابليون وقتا فى الاسكندرية ، فمن ساعة وصوله اليها أنفذ الجنرال دستنج على رأس كتيبة من الجيش ليستطلع الجهات المجاورة التى تفصل بينه وبين أبو قير ويحتل آبار المياه ليرتوى منها الجنود ، ثم أصدر أمره بالزحف ، فأخذت فرق الجيش تنتقل الى (البيضاء) وواصلت السير على السد بين بحيرة أبو قير وترعة الاسكندرية ، ثم انعطفت شرقا متجهة الى أبو قير ، ووردت الاخبار من رشيد بقدوم طلائع فرقة الجنرال كليبر قادمة من دمياط فعهد اليه بالتقدم ليكون بمثابة احتياطى للجيش المقاتل

قضى نابليون يوم ٢٤ يوليه بالاسكندرية ، وفى مساء هذا اليوم انتقل منها هو وأركان حربه وقوة الفرسان الذين كان يقودهم مورا ، واتخذ معسكره على مسافة سبعة كيلو مترات غرب أبو قير وقضى الليل يرتب مواقع جنوده استعدادا لخوض المعركة فى صباح اليوم التالى

نشبت المعركة صبيحة يوم ٢٥ يوليه ، فهجم الجنرال مورا بفرسانه ومعه كتيبة من جنود الجنرال دستنج من القلب ، واندفع الجنرال لانوس من الميسرة والجنرال لان من الميمنة وفرقة الجنرال كليبر تؤلف الاحتياطى ، وكان هجوم الفرسان شديدا فى بدء المعركة ، فأحدث ثغرة فى صفوف الجيش العثمانى واشتد القتال واستبسل الفريقان ، وهجم الجيش الفرنسى غير مرة على مواقع الجيش العثمانى ، فأصلاهم العثمانيون نارا حامية من مدافعهم المركبة فى مواقعهم المنيعة ، ولكن الفرنسيين تفوقوا بتدبير قيادتهم وحسن نظامهم وإحكام هجومهم وكثرة عددهم ولا سيما الفرسان ، فتمكنوا من سحق خطى الدفاع اللذين أقامهما الجيش العثمانى وفتكوا بالجنود الذين كانوا يرابطون عليهما ، وبذلك بدأت هزيمة العثمانيين ، فالتجأ مصطفى باشا الى قرية (أبو قير) ليستند الى القلعة ، ولكن الجنرال مورا هجم بفرسانه وحال بين القرية والقلعة فحصر مصطفى باشا وجنوده فى قرية أبو قير ، وهجمت فرقة الجنرال لان على القرية وأقبل مورا بفرسانه

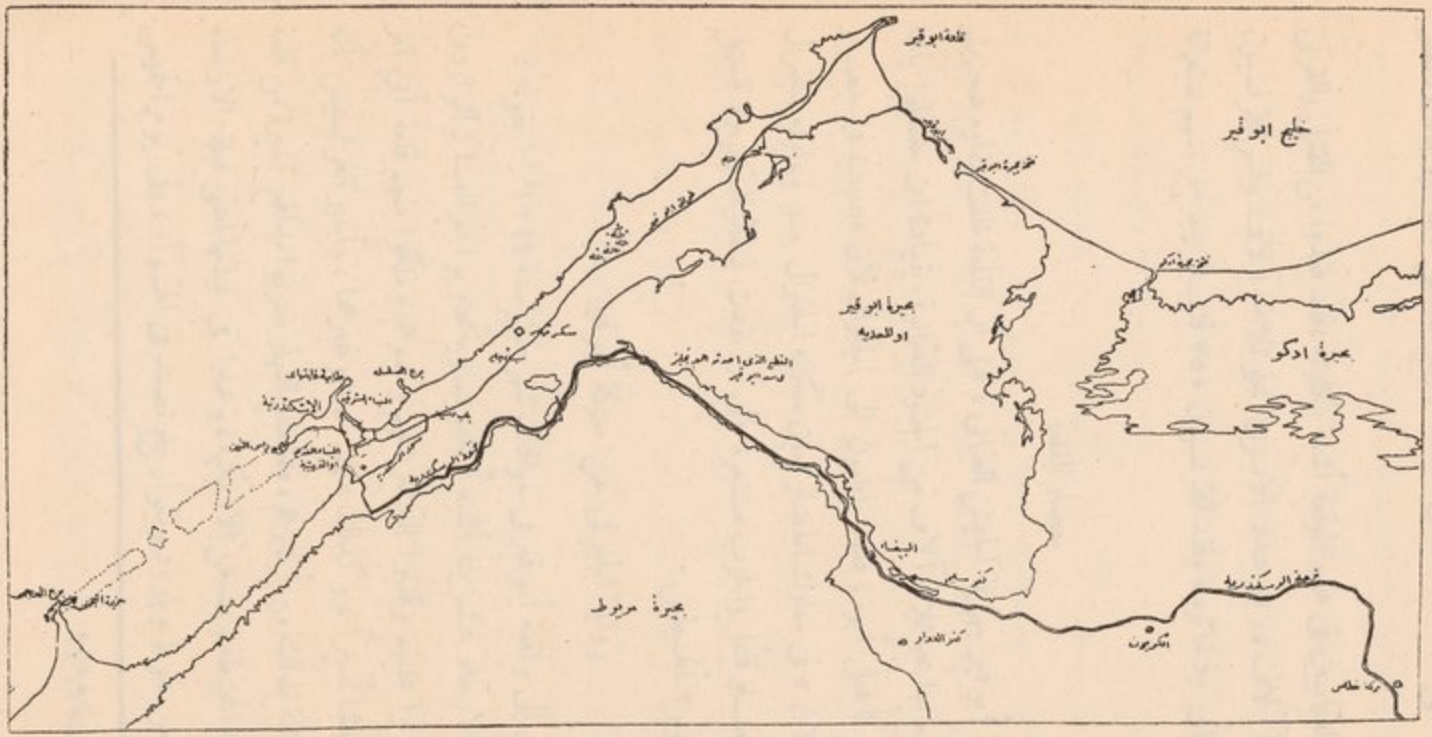

بين الاسكندرية وأبوقير (تخطيط سنة ١٨٠١)

وترى فى الخرطة بعض المواقع التى مر ذكرها كترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) والقطع الذى أحدثه الانجليز فى سد أبو قير بين بحيرة أبو قير وبحيرة مريوط (ابريل سنة ١٨٠١) ، وقرى بركة (غطاس) والكريون وكفر سليم والبيضاء ، ثم موقع الاسكندرية وسورها والميناء الشرقية والميناء الغربية بحسب تخطيطهما فى ذلك العهد ، ورأس التين وجزيرة العجمى وبرج العجمى ، ثم باب رشيد ويليه مسجد سيدى جابر ويليه معسكر قيصر (قصر القياصرة) ، وبحيرة ابو قير وكانوا يسمونها (المعدية) وهى الآن أراض جافة زراعية ، وفتحتها على البحر ، والجسر الذى كان يقيها طغيان الامواج وكان متهدما ، وبحيرة ادكو وفتحتها وغير ذلك

(مقابل ص ٧٨)

مقتحما معسكر مصطفى باشا فأخذه فى خيمته ووقع مصطفى باشا ورجاله فى أسر الجيش الفرنسى

كانت هزيمة العثمانيين فى هذه الموقعة أشبه بكارثة ،فقد فقدوا من القتلى والغرقى والجرحى نحو ثمانية آلاف ، وبلغ عدد الاسرى نحو ثلاثة آلاف وغنم الفرنسيون مدافع الجيش العثمانى وذخائره ، وفقد الفرنسيون ٢٥٠ قتيلا وجرح منهم سبعمائة وخمسون .

حصار القلعة

انتهت معركة أبو قير بهزيمة الجيش العثمانى ، على أن القلعة ظلت تقاوم هجمات الفرنسيين ، وامتنع بها نحو ثلاثة آلاف من الجنود العثمانية بقيادة ابن مصطفى باشا الذى أبى أن يسلم كما فعل أبوه ، فعهد نابليون الى الجنرال لان Lanne فى حصار القلعة ثم جرح « لان » فى معارك الحصار فعين مكانه الجنرال منو وعاونه الجنرال دافو ، واستمر الحصار قائما والحرب مستعرة الى أن نفدت ذخائر العثمانيين فاحتل الفرنسيون القلعة يوم ٢ أغسطس

رواية الجبرتى عن معركة أبو قير

أشار الجبرتى إلى واقعة أبو قير فى حوادث شهر صفر سنة ١٢١٤(١) بقوله :

« وفى ليلة الاربعاء عشرينه أشيع أن الفرنساوية تحاربوا مع العساكر الواردين على أبى قير وظهروا عليهم وقتلوا الكثير منهم ونهبوهم وملكوا منهم قلعة أبى قير وأخذوا مصطفى باشا أسيراً ، وكذلك عثمان خجا وغيرهما ، وأخبر الفرنسيس أنه حضرت لهم مكاتبة بذلك من أكابرهم ، فلما طلع النهار ضربوا مدافع كثيرة من قلعة الجبل وباقى القلاع المحيطة وبصحن الازبكية ، وعملوا فى ليلتها أعنى ليلة الاربعاء حراقة بالازبكية من نفوط وبارود وسواريخ تصعد فى الهواء ، وفى يوم الخميس

---

(١) يوليه سنة ١٧٩٩

ثامن عشرينه وصلت عدة مراكب وبها أسرى وجرحى ، وكذلك يوم الجمعة تاسع عشرينه حضرت مكاتبة من الفرنسيس بحكاية الحالة التى وقعت لم أقف على صورتها ، وفى ثانى ربيع الاول وصلت مراكب من بحرى وفيها جرحى الفرنساوية »

وقد أسر الفرنسيون من بقى من الحامية العثمانية بقلعة (أبوقير) منهم نجل مصطفى باشا وكتخداه (وكيله) ومحمد رشيد افندى [1] احد كتاب الديوان الهمايونى وعثمان خوجه افندى

وعثمان خوجه هذا من المماليك الذين تولوا الأحكام فى عهد مراد بك ، وكان متوليا امارة رشيد من قبل صالح بك (أمير الحج عند قدوم الفرنسيين) وحج معه ورجع صحبته الى الشام ، فلما توفى صالح بك سافر عثمان خوجه الى الرومللى وحضر صحبة مصطفى باشا وجيشه ، وقد حقد عليه الفرنسيون وأبى نابليون اعتباره أسير حرب واتهمه بالاشتراك فى التحريض على الثورة فى الوجه البحرى ، فأمر بنقله الى رشيد وقتله ، قال الجبرتى فى هـذا الصدد « فدخلوا به البلد وهو مكشوف الرأس حافى القدمين وطافوا به فى البلد يزفونه بطبولهم حتى وصلوا به الى داره ، فقطعوا رأسه تحتها ثم رفعوا رأسه وعلقوها من شباك داره ليراها من يمر بالسوق » وكذلك عامل الفرنسيون مثل هذه المعاملة عثمان كخيا الشاويش حاكم برنبال ورفض نابليون اعتباره أسير حرب وأمر بضرب عنقه بالاسكندرية

وقد كافأ نابليون الجنرال (مورا) قائد الفرنسان على ما أبداه من البسالة وما كان له من الفضل فى فوز الفرنسيين ورقاه الى درجة قائد فرقة ، وكذلك الجنرال (لان)

وأمر بأن تسمى ثلاث قلاع من قلاع الاسكندرية بأسماء كريتان Crettin ، ودوفيفييه Duvivier ، ولتورك Leturcq ، تذكاراً لاولئك القواد الذين قتلوا فى المعركة

---

(١) الذى صار له شأن فى مفاوضات الصلح كما سيجيء بيانه

فأطلق اسم « كريتان » على قلعة كوم الدكة ، واسم « لتورك » على قلعة القمرية (غرب القبارى) وسميت قلعة الركنه باسم قلعة دوفيفيه

وتعد واقعة أبو قير البرية فوزاً كبيراً لنابليون لأنها بمثابة فتح جديد لمصر كما كانت واقعة الاهرام من قبل ، وقد ابتهج لها الفرنسيون ابتهاجا عظيما وطربوا لأخبارها وأقاموا الحفلات والزينات فى القاهرة ثلاثة أيام متواليات

حالة الافكار

فى القاهرة والأقاليم

عاد نابليون الى القاهرة يوم ١١ أغسطس سنة ١٧٩٩ بعد ان غاب عنها زهاء عشرين يوما هزم فى خلالها الجيش التركى بسرعة لانظير لها فى الحروب

كانت القاهرة والاقاليم أثناء هذه المدة فى سكون رهيب بعد ان ذاع خبر نزول الجنود العثمانية فى (أبو قير) وعلمه الناس كافة ، وانصرفت قلوب الشعب تتمنى هزيمة الفرنسيين وتتوقع انكسارهم فى ميدان القتال ، لكن القوة المسلحة فى القاهرة كانت كافية لقمع كل حركة تحدث فيها ، فضلا عن أن ذوى الرأى وجمهور الأهالى لم يكونوا يعرفون على من تكون الهزيمة ، فلزم الأهالى الصمت والسكون ، وكذلك فعل الفرنسيون المقيمون فى القاهرة فأخذوا يرتقبون نتيجة القتال وقلوبهم واجفة لأن حياتهم كانت معلقة على انتصار الجيش الفرنسى فى المعركة

وكان الفرنسيون قد بالغوا فى كتمان خبر قدوم الحملة العثمانية وسافر نابليون قاصداً الرحمانية دون أن يعلم الناس السبب ، ولكنهم علموا بقدوم الجيش العثمانى من المكاتبات والرسائل التى وافى بها السعاة من الاسكندرية وأبو قير وفيها أخبروا بمجىء العمارة العثمانية ، فتناقل الناس هذه الأخبار بسرعة البرق وعلموا السر فى سفر نابليون وجنده ، وكانت الأخبار تأتى مبالغاً فيها ، فمن ذلك ما رواه الجبرتى فى حوادث شهر صفر سنة ١٢١٤ « انه وردت أخبار وعدة مكاتيب لكثير من الاعيان

وكلها نسق واحد تزيد عن المائة مضمونها أن المسلمين وعسكر العثمانيين ومن معهم ملكوا الاسكندرية ، فصار الناس يحكى بعضهم لبعض الخ . . » . . مع أن الجيش العثمانى لم يقترب من الاسكندرية كما رأيت

ولما سار نابليون من الجيزة بعث برسالة الى أعضاء الديوان يوصيهم فيها بالمحافظة على الأمن وضبط البلد والرعية كما فعلوا فى غيبته السابقة (أثناء الحملة على سورية) ولم يكتف بذلك بل بعث من الرحمانية برسالة طويلة الى الديوان من رسائله التى كان يملؤها بالأوهام والعبارات الجوفاء ، ذكر فيها نبأ وصوله الى الرحمانية وعفوه عن أهالى البحيرة ، وكأنما أراد أن يكتم عن أعضاء الديوان أن الحملة القادمة حملة عثمانية مع أن الخبر قد شاع وذاع بوصول الجنود الاتراك ، فذكر فى رسالته وصول العمارة المقلة للجند دون أن يعين جنسية المراكب ولا جنسية الجنود ، وزعم أن العمارة قصدت ثغر الاسكندرية وأرادت النزول بها فصدتها قنابل المدافع ، ولم يكن هذا صحيحاً لأنه لم يحصل ضرب ولا قتال بثغر الاسكندرية بل اتجهت العمارة مباشرة صوب (أبو قير) لترسو هناك ، وقال إن السبب فى قدوم هـذه العمارة « الاجتماع بالمماليك العربان لاجل نهب البلاد وخراب القطر المصرى وان فيها خلقاً كثيراً من الموسكو والافرنج » مع انه لم يكن بها جنود من الموسكو (الروس) ، وقد ضرب على نغمة عداء الروس للمسلمين ليستميل قلوب الاهالى وأشار الى أنه اذا كان بالعمارة جماعة من المسلمين — يقصد العثمانيين — فانهم يكونون أعداء للاسلام ، وطلب فى ختام رسالته من أعضاء الديوان أن يبلغوا هذه الرسالة إلى دواوين الاقاليم ليخلد الناس للهدوء والسكينة وحذرهم عواقب الهياج والثورة متوعداً كل بلدة تثور بأن يحل بها من القصاص ماحل بدمنهور من الاحراق والتدمير

على أن هذه الرسالة لم تخدع أحدا من الأهالى ولم يكن لتلك العبارات الجوفاء التى ملأ بها رسالته أثر ما فى أذهان الناس ، وقد اعترض المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية على هـذه الخطة ونصح لنابليون قبل سفره أن يعدل عنها فى رسائله للشعب ، وأوضح له أن هـذه الاكاذيب لا يمكن أن تخدع أحدا وأنها قد تتخذ دليلا على

ضعف الفرنسيين فتكون مدعاة الى الثورة بدلا من أن تكون وسيلة لمنعها ، ويقول ريبو(١) ان نابليون أصغى لملاحظات المسيو بوسليج وترك له قبل رحيله الى الرحمانية أن يتخذ فى غيابه خير الوسائل بالاتفاق مع الديوان لمنع الهياج فى العاصمة

استدعى المسيو بوسليج أعضاء الديوان وصارحهم بالأمر فقال لهم : ان الاتراك قد نزلوا فى أبوقير ، وأنتم لاشك تعلمون ذلك ، وقد سافر نابليون لقتالهم ، ونحن لانعرف ولا أنتم تعرفون نتيجة المعركة ، ولكنى أعتقد أنه فى انتظار نتيجة القتال يحسن بسكان العاصمة أن يلزموا الهدوء والسكينة ، لان النتيجة لاتخلو من واحد من أمرين ، فإما هزيمة للفرنسيين وعندئذ يجلون عن البلاد ، و إما نصر لهم وفى هذه الحالة تستهدف العاصمة لاشد أنواع الانتقام اذا شبت فيها الثورة

وقد أدرك أعضاء الديوان صواب هذا الرأى فأعلنوا أنهم لايألون جهدا فى النصح للشعب بالاخلاد للسكينة

على أن الخواطر كانت فى هياج أثناء القتال ، و بالرغم من أن السكينة كانت مخيمة على القاهرة فان الشعب قاطبة كان يتظاهر بعواطفه العدائية نحو الفرنسيين ، و بدت هذه العواطف حتى على أعضاء الديوان الذين كانت مراكزهم تقتضى منهم مجاملة الفرنسيين ، وظهرت عليهم علائم الابتهاج عند ما وصلت أخبار انتصار العثمانيين فى بدء الحملة ، فقد وردت الانباء باحتلال مصطفى باشا قلعة أبوقير وأسر حاميتها الفرنسية ، فلما تحققت هذه الاخبار كثر اللغط بين الناس وتجاهروا بالبشر والابتهاج ، ولاحظ الفرنسيون فى العاصمة تغير الحالة النفسية لاعضاء الديوان بعكس ما كانوا عليه أثناء غياب نابليون فى الحملة على سورية ، واستمرت هذه الحالة الى أن وردت الانباء بانتصار الفرنسيين فى المعركة وأسر القائد التركى مصطفى باشا ، فأطلقت المدافع من قلعة الجبل و باقى القلاع ابتهاجا بهذا النصر ، وكاد الناس لايصدقون الخبر لولا أن تواترت الروايات على صحته ، فقابل أعضاء الديوان النبأ

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السادس

بالفتور والاعراض ، وكانت تبدو منهم من حين لآخر دلائل الروح العدائية للفرنسيين فمن ذلك أنهم كانوا يعارضون الأغا (محافظ المدينة [١]) فى بعض تصرفاته ، وكان معروفا عنه أنه نصير للفرنسيين ، قال الجبرتى فى هذا الصدد « ان الاغا كان يريد أن يقتل فى كل يوم أناسا بأدنى سبب ، فكان المهدى والصاوى يعارضانه ويتكلمان معه فى الديوان ويوبخانه ويخوفانه سوء العاقبة ، وهو يرسل الى سارى عسكر (بونابرت) فيطالعه بالأخبار ويشكو منهما »

وقد اشتد الخلاف بين الديوان والأغا حتى اضطر قومندان المدينة الفرنسى الى التدخل بينهما ، واتهم الفرنسيون أعضاء الديوان بأنهم على اتصال بالجيش التركى ونقموا عليهم حالتهم النفسية

قال ريبو فى هذا الصدد :

« فى كل يوم كانت تقع حوادث تنم عن تغير مسلك الديوان حيال السلطة الفرنسية ، فتارة كان يتعدى اختصاصه ويفتات على سلطة الهيئات الاخرى بحالة لا يمكن الصبر عليها ، وطوراً كان ينازع رؤساء الشرطة سلطتهم ويشتد الخلاف لاخلاء سبيل بعض الاهالى المذنبين ، وآونة كان ينقص الضرائب المفروضة على مشايخ البلاد ، وفى كل ظرف كانت تبدو على أعضائه روح جديدة مشربة بالعداء للفرنسيين ، وكان المسيو بوسليج يرقب بثاقب نظره هذه الأحوال ويطالع بها نابليون أثناء غيابه فى معركة أبوقير ، فقد كتب اليه بتاريخ ٦ أغسطس سنة ١٧٩٩ يطمئنه عن الحالة فى القاهرة ويقول إنه لاخوف من ثورة تكون بها لأن الرهبة تغشاها ولا يخشى الا من وقوع هزيمة ، وكتب له عن مسلك كبار الاعيان وأعضاء الديوان فقال انه راض عن سلوك السيد السادات ، وان سلوك السيد عمر مكرم لابأس به ، وان السيد البكرى متهيب وجل ، والباقون « خونة ومتعصبون » ، وقال عن الشيخ محمد

---

(١) هو مصطفى أغا الذى عينه الفرنسيون بعد أن عزلوا المحافظ السابق محمد المسلمانى الذى كان معينا باشارة أعضاء الديوان ، انظر الجزء الاول ص٣٠٢

المهدى « انه رجل يطمع فى الشهرة والتزلف للجماهير ، وانه يضحى جميع الفرنسيين فى سبيل الاحتفاظ بمنزلته بين الناس ، ومع ذلك فانه مثابر على مقابلتنا » (١)

وقد أورد الجبرتى فى كتابه موقفا للشيخ المهدى يتفق ورأى المسيو بوسليج عنه ، فقد كانت الخواطر فى هياج أثناء غياب نابليون فى أبوقير ، فاتهم سكان القاهرة بالعمل على اثارة الفتنة ، واستدعى القائمقام دوجا الشيخ المهدى وتكلم فى شأن ذلك ، فحاجّه المهدى وانعقد الديوان فى اليوم التالى « فقام الشيخ المهدى خطيبا ، وتكلم كثيرا ، ونفى الريبة وكذب أقوال الخصوم واشتد فى تبرئة المسلمين مما نسب اليهم »

قال الجبرتى « وهـذا المقام من مقاماته المحمودة ، ثم جمعوا مشايخ الأخطاط والحارات وحبسوهم »

وهذا يدلك على تخوف الفرنسيين من هياج الخواطر فى العاصمة وتوقعهم حدوث الاضطرابات فيها ، ولولا ذلك لما لجأوا الى اعتقال مشايخ الحارات والاخطاط

تلك كانت حالة الافكار فى القاهرة أثناء غياب نابليون عنها الى أن رجع اليها

رجوع نابليون الى القاهرة

جاء نابليون الى القاهرة ونزل بدار الألفى بك بالازبكية ، وكان فى ركابه جماعة من أسرى الجيش التركى ، ولما استقر به المقام علم من المسيو بوسليج تفصيل ما أجمله فى رسائله من ظهور الروح العدائية على أعضاء الديوان والشعب ، فاستدعى الأعضاء واشتد عليهم فى الكلام ، وأنحى باللائمة على المهدى والصاوى خاصة لمعارضتهما محافظ المدينة فى أحكامه ، ذكر الجبرتى نص الحديث الذى دار بينهم قال « ولما استقر سارى عسكر بونابرته فى منزله ذهب للسلام عليه المشايخ والاعيان وسلموا عليه ، فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان ان سارى عسكر يقول لكم أنه لما سافر الى الشام كانت حالتكم طيبة فى غيابه ، وأما فى هذه المرة فليس كذلك ،

---

(١) مراسلات بوسليج وبونابارت الواردة فى ريبو الجزء السادس

لانكم كنتم تظنون أن الفرنسيس لايرجعون بل يموتون عن آخرهم ، فكنتم فرحين مستبشرين ، وكنتم تعارضون (الاغا) فى أحكامه ، وأن المهدى والصاوى ماهم بونو (١) أى ليسوا بطيبين ونحو ذلك ، فلاطفوه حتى انجلى خاطره ، وأخذ يحدثهم عما وقع له من القادمين الى أبى قير والنصر عليهم وغير ذلك »

ولما استفاض خبر حضور نابليون الى القاهرة ومجىء الأسرى الاتراك ذهبت الجماهير الى الازبكية ليتحققوا الخبر على جليته ، فشاهدوا الأسرى وهم وقوف فى وسط الميدان يستعرضهم الناس ، ثم ساروا بهم فى شوارع القاهرة ليؤثروا فى نفسية الجماهير ويقنعوهم بفوز الفرنسيين فى معركة أبوقير ، ووزعوا هؤلاء الأسرى على أماكن عدة فأسكنوا بعضهم جامع الظاهر (قلعة سلكوسكى) وأصعدوا باقيهم الى قلعة الجبل ، أما مصطفى باشا قائد الجيش فانهم لم يأتوا به الى مصر بل أرسلوه هو وابنه الى الجيزة وأحسنوا معاملتهما ، وكان نابليون يريد أن يتخذ مصطفى باشا وسيطا للصلح بينه وبين تركيا ، وأمر باقامة الحفلات فى القاهرة ابتهاجا بالنصر الذى ناله وعرض الجنود فى شوارع العاصمة وميادينها ، وكانت الظواهر تدل على أن سلطة الفرنسيين أصبحت راسخة ودولتهم باقية .

---

(١) كذا فى الجبرتى وكلمة (بونو) مأخوذة من الكلمة الفرنسية bon أى طيب وقد فسرها الجبرتى فى سياق الكلام

الفصل الخامس

اضطراب الاحوال فى فرنسا

ورحيل نابليون

لكن الظواهر مالبثت أن تبددت ، وبدأ الجو يكهفر ، والسماء تتلبد بالغيوم ، والانباء ترد من كل صوب باضطراب الاحوال وتجدد الاحداث

ان نابليون قدفاز بسحق الجيش العثمانى فى معركة أبو قير ، لكن تركيا كانت تحشد جيشا آخر فى سورية بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا ، وجاءت الانباء بأن هذا الجيش قد تم استعداده وأن الصدر الاعظم قادم بعدد عظيم من المقاتلة لفتح مصر من طريق برزخ السويس ، فلم يكن انتصار الفرنسيين فى معركة أبو قير سوى هدنة وقتية سنحت للجيش الفرنسى ليستريح من عناء القتال وأهواله ، فأخذ نابوليون يستعد لصد حملة العثمانيين القادمة ، وتمت شواغل أخرى أقلقت باله وأقضت مضجعه ، ذلك أن الجيش الفرنسى كان ينتظر من يوم لآخر أن تضع الحرب أوزارها أو يصله المدد من فرنسا ، وكانت هذه الفكرة تبعث الصبر والأمل فى نفوس الجنود ، وما فتىء نابليون يحيى هذا الأمل فى نفوسهم حتى لايدع للكلال واليأس سبيلا الى قلوبهم ، لذلك كان فى شكره للجنود بعد معركة (أبو قير) يقول لهم فى صراحة « ان النصر الذى ناله الجيش سيعجل بعودته الى فرنسا ، وها نحن أولاء قد وضعنا فى يد الحكومة الفرصة التى تمكنها من اجبار انجلترا رغم انتصاراتها البحرية على عقد صلح شريف مع الجمهورية »

فنابليون اذن كان يعتمد على أن الحوادث فى أوروبا تهيئ السبيل لصلح مشرف لفرنسا ، وتضع حدا للحرب فى مصر ، لكن الأنباء التى تلقاها بعد معركة أبو قير قد أخلفت ظنونه وأوقعته فى ارتباك كبير ، لقد تلقى هذه الأنباء عن طريق السير سدنى سميث قومندان الاسطول الانجليزى الذى جاء صحبة العمارة العثمانية ، ذلك

أنه بعد انتهاء المعركة أرسل نابليون اثنين من ضباطه لمقابلة السير سدنى سميث فى شأن تبادل بعض الاسرى، فتلقاهما السير سدنى سميث على ظهر بارجته الحربية « تايجر » (النمر) وناولهما في أثناء المقابلة بعض نسخ من الصحف الأوروبية الصادرة لغاية يونيه من تلك السنة ، فلما تصفحها نابليون علم منها أخبار انخذال الجيوش الفرنسية فى النمسا وايطاليا وأدرك خطورة الحالة فى فرنسا، وعلم أن لاسبيل الى تلقى المدد لان فرنسا نفسها كانت فى خطر بسبب تألب الدول الاوروبية عليها ، ولعل السير سدنى سميث تعمد ايصال هذه الصحف الى نابليون وقواد الجيش الفرنسى ليقطع عليهم كل أمل فى انتظار المدد

علم نابليون من مطالعة الصحف أن فرنسا قدتحرج مركزها وتضعضعت هيبتها فى البلاد التى فتحتها من قبل ، فشبت الثورة فى البيمونت وفقدت أملاكها فى المانيا وايطاليا واشتد السخط فى فرنسا على حكومة الديركتوار وألقى الشعب على عاتقها تبعة هذه الهزائم المتوالية ، وأخذت انجلترا تشن الغارة فى البحار على أملاك فرنسا وتمد حلفاءها بالعون والمساعدة ، فشددت الحصار على جزيرة (مالطه) ، وحاصرت الروسيا باتفاقها وتركيا جزيرة (كورفو) وجلا عنها الفرنسيون ، فكانت فرنسا مهددة من الخارج والداخل ، كان الحلفاء يتوعدونها من الخارج ، والاضطراب الداخلى يهدد كيانها من الداخل ، تلك هى الحالة التى وقف نابليون على حقيقتها عقب انتصاره فى معركة أبو قير

ولا جدال أن نابليون كان يعرف شيئاً من هذه الحالة اجمالا من الرسائل التى كانت تصله بين حين وآخر من فرنسا ، لكن مراقبة الاسطول الانجليزى لشواطىء مصر كانت تحول دون وصول معظم رسائله اليه اذ كانت السفن الانجليزية تضبط كثيراً من الكتب المرسلة من فرنسا الى مصر أو من مصر الى فرنسا ، ولم يكن يخفى على فطنة نابليون أن الحالة فى فرنسا قد اضطربت أثناء غيبته ، لكنه لم يكن واقفاً على كل تلك التفاصيل التى قرأها فى الصحف أو عرفها من سكرتير السير سدنى سميث الذى قابل نابليون بالاسكندرية وعلم منه مبلغ ماوصلت اليه الاحوال فى فرنسا من

الاضطراب ، وبالرغم من أنه كتم عنه ما فى نفسه من القلق و الشعور بخطورة الحال الا أنه أخذ يفكر ملياً فى تدارك الخطر، فاستقر رأيه على وجوب الرحيل الى فرنسا لانقاذها من الاخطار التى تهددها

كانت هذه الافكار تساوره بين حين وآخر ، وما فتىء منذ عدة أشهر يصرح فى رسائله الى الديركتوار بأنه لا يتردد فى العودة الى فرنسا فى حالة وقوع حرب أوروبية ، فلما علم بحقيقة الموقف السياسى رأى الفرصة سانحة لتنفيذ فكرته القديمة، والواقع أن الظروف كانت تدعوه الى الرجوع لفرنسا ، فقد صارت الجمهورية فى خطر ، وأخذ نجمها الحربى الذى نالته بعد جهاد عدة سنوات فى الافول ، ورأى نابليون أنها فى حاجة الى رجل يعيد اليها هيبتها و يرد اليها أملاكها التى فقدتها ، ورأى من جهة أخرى أن إنقاذ فرنسا أهم بكثير من توطيد سلطتها فى مصر ، وان مصير فرنسا هو على شاطىء الرين لا على ضفاف النيل ، وان أوروبا هى الميدان الذى يبت فيه فى مصير الجمهورية الفرنسية ، ورأى برغم انتصاره فى أبوقير أن آماله الكبيرة فى إنشاء دولة شرقية عظيمة قد تبـددت يوم أخفقت حملته على سورية وأصبح محصوراً فى مصر ، وان الاحوال تقضى أن يتجه الى الغرب بعد أن فشلت آماله فى الشرق

وكانت الافكار فى فرنسا متجهة نحو نابليون ناظرة اليه كمنقذ للبلاد من الاخطار المحدقة بها ، ورأت حكومة الديركتوار نفسها عاجزة عن تدارك الحال شاعرة بضعف مركزها أمام الرأى العام الفرنسى ، ففكرت فى استدعاء نابليون ، وكتبت اليه بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٧٩٩ تستدعيه الى فرنسا ، على أن الرسالة التى بعثت بها اليه لم تبلغه لان الانجليز صادروها فى البحر ، فلم يكن لها بطبيعة الحال تأثير فى اعتزامه السفر الى فرنسا ، لكنها تدل فى ذاتهـا على أن الاحوال كانت تؤيد فكرته ، وحسبك أن تتأمل عبارات الرسالة لتعرف مبلغ اضطراب الاحوال فى فرنسا ، واليك ماجاء فيها

« إلى الجنرال بونابارت القائد العام لجيش الشرق

« ان الجهود الخارقة للعادة التى تبذلها النمسا والروسيا والحالة الحرجة الخطيرة التى وصلت اليها تستدعى أن تجمع الجمهورية قوانها الحربية ، لذلك أصدرت حكومة الدير كتوار أوامرها للاميرال بروى Bruix ليتخذ كل الوسائل التى فى مقدوره لتكون له السيادة فى البحر الابيض المتوسط وليصل الى مصر فيعود بالجيش الذى تحت قيادتكم ، وهو مكلف أن يتفق معكم على الوسائل الواجب اتخاذها لنقل الجيش ، ولكم أن تقدروا يامواطننا الجنرال إذا كان مضمونا أن تتركوا بمصر فيلقا من الجنود ، وحكومة الدير كتوار تصرح لكم فى هذه الحالة بان تتكلوا قيادة هذا الفيلق لمن تختارونه من القواد ، ويسرها أن تراكم على رأس جيوش الجمهورية التى توليتم الى الآن قيادتها بكل جدارة وفخار » وقد وقع على هذه الرسالة رؤساء حكومة الدير كتوار

الاستعداد للرحيل

استقر اذن عزم نابليون وهو فى الاسكندرية على الرحيل الى فرنسا ، على أنه كتم عزمه حتى عن أقرب الناس اليه ، وأخذ يعد معدات الرحيل سرا ويصدر التعليمات ويرتب النظام الذى يتبع فى غيابه دون أن يعلم أحد ممن صدرت اليهم أوامره بعزمه الذى أسره فى نفسه

وجه نابليون عنايته الى تحصين شواطىء مصر وبرزخ السويس لصد الهجمات المنتظرة ، فكلف الجنرال (كليبر) بالعودة الى دمياط ، والجنرال (رينييه) بالرجوع الى بلبيس ، وأمر بزيادة تحصين برزخ السويس ، وكلف الجنرال (سانسون) Sanson بتعهد أعمال التحصين وخاصة فى قلعتى العريش والصالحية ، وزاد فى تحصين الاسكندرية ، وأمر بترميم قلعة أبو قير التى خربتها المدافع أثناء المعركة

ولما عاد الى القاهرة انتهز فرصة الايام السبعة التى قضاها بها قبل رحيله ليصدر تعليماته بشأن تنظيم الادارة العليا للبلاد والقيادة العامة للجيش ، ولم يكن خافياً أن القاهرة كانت مركزاً للادارة العليا كما كانت مقراً للقيادة العامة

ووجه نظره كذلك الى الوجه القبلى فعين المواقع التى يجب التحصن فيها والحركات التى يقوم بها الجيش فى حالة هجوم العثمانيين من جهة السويس أو على شواطىء البحر الاحمر ، وأوصى الجنرال (ديزيه) فى هذه الحالة بابقاء القوة الكافية فى القصير لمقاومة نزول أى حملة عسكرية وإبقاء قوة أخرى فى (قنا) للامتناع بها والتوجه بمعظم جيشه الى القاهرة

وشرع نابليون منذ رجوعه الى القاهرة يعد سرا معدات سفره دون أن يكاشف أحدا حتى ولا الذين اختارهم ليرافقوه فى رحلته ، وكان مُحقًا فى تكتمه لان البوارج الانجليزية كانت تمخر عباب البحر ، فلو ذاع خبر سفره لاتخذ الاسطول الانجليزى الاحتياطات الكافية لرصده ولوقع أسيرا فى قبضة الانجليز ، هذا فضلا عن أن إعلان رحيله يحدث استياء فى نفوس الجنود وربما أدى الى انتقاضهم وتمردهم فتتضعضع هيبة الجيش وتتحرك روح الثورة فى نفوس الشعب ، لذلك لم يبد عليه فى الايام التى قضاها فى القاهرة ما يشير الى اقتراب رحيله ، وصادف فى هذه الفترة يوم المولد النبوى الشريف ١١ ربيع الاول سنة ١٢١٤ (١٣ أغسطس سنة ١٧٩٩) فاشترك فى الاحتفال كما احتفل به فى العام السابق ، وحضر الحفلة التى أقامها السيد خليل البكرى نقيب الاشراف يصحبه مصطفى باشا قائد الحملة العثمانية وباقى كبار الضباط الاتراك الذين أسروا فى معركة أبو قير ، ولم يعلم أحد من سكان القاهرة بأنه بعد أيام معدودات راحل عن مصر رحيلا نهائيا ، وأصدر أمرا عسكريا فى ١٦ أغسطس بتكليف القواد فى المديريات باذاعة منشور باللغة العربية على البلاد والقرى لابلاغ الشعب نبأ احتفاله بالمولد النبوى

قال الجبرتى عن هذا الاحتفال :

« وفى يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الاول سنة ١٢١٤ عمل المولد النبوى بالازبكية ودعا الشيخ خليل البكرى سارى عسكر الكبير (نابليون) مع جماعة من أعيانهم ، تعشوا عنده وضربوا ببركة (ميدان) الازبكية مدافع وعملوا حراقة وسواريخ ونادوا فى ذلك اليوم بالزينة وفتح الاسواق والدكاكين ليلا واسراج قناديل واصطناع مهرجان »

سفر نابليون من القاهرة

ارتحل نابليون عن القاهرة نهائيا يوم ١٨ اغسطس سنة ١٧٩٩ ، وأشاع أنه يقصد الذهاب الى منوف بحجة التفتيش على أحوال البلاد

وفى ليلة سفره ترك رسالة باسم المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية ينبئه فيها بأنه مسافر غدا الى منوف ويوصيه ببذل الجهد فى تحصيل الاموال المتأخرة ويطلب منه أن يكتب اليه فى منوف ، كتب ذلك وهو يعلم أنه لن يصله شيء فى منوف لانه انما اعتزم المضى الى الاسكندرية ، لكنه أراد أن يبالغ فى كتمان رحيله الى فرنسا حتى على من كانوا موضع ثقته

وكتب رسالة الى الديوان يقول فيها :

« انى مسافر غدا الى منوف ، ومن هناك أذهب الى بعض بلاد الدلتا لاتحقق بنفسى المظالم التى يشكو منها الناس ، وأتعرف حالة الاهالى والبلاد ، وانى أوصيكم بضبط الامن والمحافظة على طمأنينة الشعب ، قولوا لهم انى أحب المسلمين وأعمل على اسعادهم ، وعرفوهم أنى قادر على حكم الناس اما بالرضا واما بالقوة ، فبالرضا أكسب الاصدقاء ، وبالقوة أسحق الاعداء ، وأرجو أن تكتبوا الى دائما عن أخباركم وأن تطلعونى على ما يجرى »

وهكذا اتخذ نابليون كل الوسائل ليكتم عن الناس مشروع رحيله الى فرنسا ، واصطحب معه فى سفره من القاهرة الجنرالات (برتييه) و (لان) و (مورا) ، و (اندريوسى) والعالمين (مونج) و (برتوليه) والمسيو (فيفان دينون) و ٢٥٠ من حرس القائد العام بقيادة قائد اللواء بسيير (١) Bessières

وتدل رواية الجبرتى على مبلغ تكتم نابليون مشروع سفره الى فرنسا ، قال فى حوادث ربيع الاول سنة ١٢١٤ (اغسطس سنة ١٧٩٩)

---

(١) هو الذى صار الدوق ديسترى Duc d'Istrie فى عهد امبراطورية نابليون

« أشيع أن كبير الفرنسيس سافر الى جهة بحرى ولم يعلم أحد أى جهة يريد ، وسئل بعض أكابرهم فأخبر أن سارى عسكر المنوفية (الجنرال لانوس) دعاه لضيافته بمنوف حين كان متوجها الى ناحية أبو قير ووعده بالعودة اليه بعد وصوله الى مصر ، وراج ذلك على الناس وظنوا صحته ، ولما كان يوم الاثنين سادس عشر ربيع الاول (١) خرج مسافرا آخر الليل وخفى أمره على الناس »

عرض الصلح على تركيا

وقبل أن يغادر نابليون القاهرة عزم على مفاتحة تركيا فى انهاء حالة الحرب بينها وبين فرنسا وعقد الصلح، واتخذ انتصاره فى معركة أبو قير فرصة لطلب صلح مشرف، وكان مصطفى باشا قائد الجيش العثمانى الذى وقع أسيرا فى هذه المعركة مقيما فى الجيزة يعامل معاملة احترام، فكلفه نابليون أن يبلغ الصدر الاعظم رسالة مطولة يعرض فيها الصلح على تركيا، فارسلها مصطفى باشا صحبة محمد رشيد افندى أحد كتاب الديوان الهمايونى الذى كان أسيرا معه، وهذه الرسالة مؤرخة ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٩ أعرب فيها نابليون عن مقاصد فرنسا الودية نحو تركيا، وذكر الصدر الاعظم بصداقة فرنسا القديمة للباب العالى وعداء الروسيا والنمسا لتركيا وسعيهما المتواصل من قديم الزمن فى القضاء على السلطنة العثمانية، وأوضح أن فرنسا باحتلالها مصر لم تكن ترمى الى نيات عدائية نحو تركيا، وأنها إنما كانت تحارب المماليك ولم تكن تقصد الى فصل مصر عن تركيا، وكانت غايتها السياسية من الحملة محاربة انجلترا فى الهند وأنها كانت من بدء الحملة تحترم حقوق السلطان ورعاياه وسفنه وأعلامه، وأبدى نابليون أسفه من تعجل تركيا فى اعلان الحرب على فرنسا فى الوقت الذى أرسلت فيه حكومة الديركتوار

---

(١) يوافق ١٨ اغسطس سنة ١٧٩٩ وهذا يطابق ما ذكرته المراجع الفرنسية

سفيرها ديكورش[١] Descorches الى الاستانة لتسوية كل خلاف بين البلدين، ولم يفت بونابارت فى رسالته أن يشير الى قوته الحربية وأنه قادر على صد كل هجوم على مصر ولكنه يؤثر الابقاء على الصداقة التى تربط فرنسا وتركيا من قديم الزمن ، وعرض الصلح على الباب العالى وطلب فى رسالته من الصدر الاعظم أن يفوض لسفيره فى باريس المفاوضة فى قواعد الصلح أو يوفد مندوبا الى مصر لهذا الغرض، ثم سافر نابليون دون أن ينتظر نتيجة هذا السعى فى الصلح، وقد أرسل كذلك من قبل الى بعض الملوك والامراء الشرقيين كسلطان مراكش وحاكم طرابلس وشريف مكة وأمراء دارفور وسنار والحبشة رسائل وديه تتضمن الدعوة الى توطيد علاقات المودة معهم

من القاهرة الى الاسكندرية

وصل نابليون الى منوف فى طريقه الى الاسكندرية ، فتلقى رسالة من الجنرال (كليبر) ينبئه فيها بان أربعا وعشرين سفينة عثمانية ظهرت بالقرب من دمياط وأنه يتوقع نزول الجنود التركية الى البر ، فتردد نابليون أمام هذا النبأ فى أى الطرق يسلكه، ولكنه بعد أن فكر مليا اعتقد أن هذه السفن لابد أن تكون جزءا من العمارة العثمانية التى كانت تقل جنود مصطفى باشا فى ابوقير وأنها تقل الجنود الذين نجوا من المعركة ، فلم يحسب لهم حسابا ولم يتوجس من جانبهم خطرا ، وقد كان حسابه صحيحا، وكتب الى الجنرال كليبر يدعوه الى موافاته فى رشيد وحدد له يوم ٢٤ اغسطس للمقابلة وقال له فى الرسالة « ان لدى مسائل غاية فى الاهمية يجب أن أباحثك فيها »

---

(١) كان السكرتير (روفين) هو القائم باعمال السفارة الفرنسية بالاستانة من عهد وفاة سفيرها الجنرال دوبابيه Dubayet ثم عينت الحكومة الفرنسية السفير ديكورش فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وهو الذى يشير اليه نابليون فى رسالته الى الصدر الاعظم ، وكان على أهبة السفر للاستانة لكن تركيا أعلنت الحرب على فرنسا فعدل عن السفر

والواقع أن نابليون كان قد استقر رأيه على اختيار كليبر ليخلفه فى قيادة الجيش، وكان يريد الاجتماع به قبل اقلاعه الى فرنسا ليفضى اليه بآرائه ويصدر اليه تعليماته، لكن الظروف حالت دون هذا الاجتماع، وذلك أن نابليون تلقى رسالة مستعجلة من الكونترا ميرال جانتوم (١) Ganteaume بالاسكندرية ينبئه فيها بأن جميع السفن والبوارج التركية والانجليزية قد أقلعت منذ ١٤ أغسطس من مياه الاسكندرية، وأن السفن الكشافة الفرنسية قد تجولت فى البحر فلم تر أثرا لسفن الانجليز والاتراك على بعد عدة أميال، فأدرك نابليون فى الحال أن مثل هذه الفرصة قد لا تسنح فى المستقبل القريب، وانه إن تأخر عن السفر فقد تعود السفن الانجليزية الى شواطىء الاسكندرية فتشدد الحصار عليها، ورأى ضرورة الاسراع بالسفر للاسكندرية ليركب البحر فى أقرب فرصة، فاضطر فى هذه الحال الى العدول عن مقابلة الجنرال كليبر فى الموعد الذى حدده له وسار توًّا الى الاسكندرية ولم يدخلها حتى لا يلفت الى سفره الانظار بل نزل بالمكان الذى كان معروفا بقصر القياصرة (٢) على شاطىء البحر، وقضى الوقت فى انتظار السفن، وهناك وافاه الجنرال (منو) ليفضى اليه بتعليماته الاخيرة، فأخبره بعزمه على السفر الى فرنسا وذكر له الأسباب التى دعته الى ذلك وأنه عين الجنرال كليبر ليخلفه فى قيادة جيش الشرق، وسلمه عدة رسائل منها رسالة للديوان وأخرى الى الجنود، والثالثة وهى الأهم للجنرال كليبر، وثلاث رسائل للجنرال دوجا والمسيو بوسليج والجنرال جونو

رسالة نابليون الى الديوان

ذكر الجبرتى مضمون هذه الرسالة بقوله

---

(١) هو رئيس أركان حرب العمارة الفرنسية وقد عهد اليه نابليون بقيادة البقية الباقية منها بعد معركة أبوقير البحرية (مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٦٢٤)

(٢) موضعه الآن بين سيدى جابر ومحطة مصطفى باشا برمل الاسكندرية

« فى ٢٨ ربيع الاول سنة ١٢١٤ ورد من بونابارته سارى عسكر الفرنساوية كتاب من الاسكندرية خطابا لاهل مصر وسكانها ، فأحضر قائممقام (دوجا) الرؤساء المصريين وقرأ عليهم الكتاب ، ومضمونه أنه سافر يوم الجمعة حادى عشرين الشهر المذكور الى بلاد الفرنساوية لاجل راحة أهل مصر وتسليك البحر ، فيغيب نحو ثلاثة أشهر ويقدم مع عساكره ، فانه بلغه خروج عمارتهم ليصفوله ملك مصر ويقطع دابر المفسدين ، وأن المولى على أهل مصر وعلى رياسة الفرنساوية جميعا كلهير سارى عسكر دمياط »

قال الجبرتى « فتحير الناس وتعجبوا فى كيفية سفره ونزوله البحر مع وجود مراكب الانجليز ووقوفهم بالثغر ورصدهم الفرنساوية من وقت قدومهم الديار المصرية صيفا وشتاء ، ولكيفية خلاصه وذهابه أنباء وحيل لم أقف على حقيقتها »

وقد رجعنا الى المصادر الفرنسية فوجدنا رسالة نابليون الى الديوان بنصها الفرنسى تتفق فى معناها مع الخلاصة التى نشرها الجبرتى وقد آثرنا نقل خلاصة الجبرتى لأنها هى التى تليت فى الديوان دون الاصل الفرنسى ولانها لاتختلف عنه فى مجموعها ، والرسالة كما ترى كلها تضليل وانكار للحقائق ، فلا عمارة تنتظره ، ولاهو ذاهب لفرنسا لاجل راحة أهل مصر ، ولاهو قادم مع عساكره ، ولاهو عازم على العودة الى الديار المصرية

رسالته الى الجيش

أما رسالته الى الجيش فهذا تعريبها

« المعسكر العام بالاسكندرية فى ٥ فركتيدور من السنة السابعة للجمهورية (٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩)

« أيها الجنود ، ان الاخبار الواردة من أوروبا تحتم علىّ السفر لفرنسا ، وقد تركت قيادة الجيش للجنرال كليبر ، وسيتلقى الجيش قريبا أخبارى ، ولا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك ، يعز علىّ أن أفارق الجنود الذين ارتبطت بهم بأوثق الروابط ،

لكن هذا الفراق ليس الا وقتيا ، والقائد الذى تركته لهم حائز لتمام ثقة الحكومة وثقتى .
بونابارت (١) »

رسالته الى الجنرال كليبر
عن الحالة فى مصر

أما رسالته الى الجنرال كليبر فهى وثيقة على جانب عظيم من الاهمية ، كتبها بامعان وتفكير ، وصف فيها حالة مصر السياسية وصفا دقيقا ، وشرح فيها الخطة التى عهد الى كليبر باتباعها ، وهى رسالة مطولة (٢) أشبه بتقرير واف ، لذلك رأينا أن نعربها مع شىء من الشرح والبيان

ذكر فى مقدمة الرسالة أنه ترك للجنرال كليبر أمرا باسناد القيادة العامة اليه ، وأنه عجل بالسفر بحرا قبل الموعد الذى كان حدده لمقابلته بيومين أوثلاثة تفاديا من عودة السفن الانجليزية الى الشواطىء قبل سفره ، وأنه اصطحب معه القواد (برتييه) و(لان) و(مورا) و(اندريوسى) و(مارمون) والعالمين (مونج) و(برتوليه) ، وترك له مجموعة الصحف الاوروبية التى تتضمن ماحل بفرنسا من الاحداث والنكبات كضياع ايطاليا وحصار (مانتو) و(تورينو) و(تورتون)(٣) ، وأن هذه الأسباب قد دعته الى الرحيل الى أوروبا ، وأنه يأمل أن تستمر مانتو على المقاومة لغاية نوفمبر وأن يصل هو الى أوروبا قبل أول اكتوبر ، وترك له بيانا بالشفرة ليراسل الحكومة وبيانا آخر لمراسلته ، وعهد اليه أن يكلف الجنرال (ديزيه) بالسفر الى فرنسا فى شهر نوفمبر مالم تحل دون سفره موانع قهرية ، وأن يسهل على أعضاء لجنة العلوم والفنون الرحيل بعد أن يتموا مهمتهم التى يؤدونها فى الصعيد وهى التنقيب على الآثار القديمة ،

---

(١) مراسلات نابليون وثيقة رقم ٤٣٨٠
(٢) واردة فى مراسلات نابليون وثيقة رقم ٤٣٧٤
(٣) من المدن الايطالية

وأن يستبقى منهم من يرى ضرورة الانتفاع بهم ، وكلفه بأن يوفد الافندى [١] الذى أسر فى واقعة أبوقير برسالته التى كتبها الى الصدر الاعظم فى عرض الصلح على تركيا

وأراد نابليون أن يبعث فى نفس كليبر الامل فى امكان وصول المدد اليه ، فقال فى رسالته ان وصول الاسطول الفرنسى من ميناء (برست) الواقعة على الاقيانوس الاعظم الى طولون (بالبحر الابيض المتوسط) ووصول أسطول اسبانيا حليفة فرنسا فى ذلك الحين الى قرطاجنه كل ذلك لايدع شكا فى امكان ارسال الذخائر والمدد من فرنسا الى مصر بطريق البحر ، ووعده بان تبلغه الحكومة مقاصدها وأن يمده هو بالرسائل والاخبار

رأى نابليون فى الجلاء عن مصر

على أن نابليون كان مدركا حرج موقف الجنرال كليبر ، فأجاز له فى رسالته بان يتفاوض مع تركيا فى عقد الصلح ، وأوضح آراءه عن موقف مصر السياسى وموقف فرنسا حيالها ، قال : فاذا حالت ظروف قهرية دون امدادكم ، وحل شهر مايو المقبل (سنة ١٨٠٠) دون أن تتلقوا المدد من فرنسا أو يصلكم نبأ منها ، واستمر الطاعون هذا العام يفتك بالجنود رغم الاحتياطات الصحية وزادت ضحاياه عن ١٥٠٠ جندى فعليك فى هذه الحالة ألا تغامر بالجيش فى الحرب والقتال ، ولك أن تعقد الصلح مع تركيا ولو كان شرطه الاساسى الجلاء عن مصر ، ولكن فى هذه الحالة يجب بقدر المستطاع تأجيل تنفيذ هذا الشرط الى أن يعقد الصلح العام ، انك تقدر مثلى أهمية امتلاك فرنسا للديار المصرية ، وتعلم أن السلطنة العثمانية التى يتهددها الفناء من كل جانب قد أخذت تنهار دعائمها وتتفكك أوصالها ، فجلاؤنا عن مصر يكون نكبة ، وسندرك عظم هذه النكبة عندما نرى هذه البلاد الجميلة تحتلها دولة أوروبية أخرى ، ولابد أن يدخل فى حسابك أثناء مفاوضات الصلح أنباء انتصارات الجمهورية فى ميادين القتال أو هزائمها ، فاذا لبى الباب العالى دعوة الصلح التى وجهتها اليه ودخلتم

---

(١) يريد رشيد افندى أحد كتاب الديوان الهمايونى الذى أسر مع مصطفى باشا فى واقعة أبوقير البرية

فى مفاوضات الصلح قبل أن تأتيكم أنباء فرنسا فعليكم أن تصرحوا بأن لديكم السلطة التى كانت لى فى اجراء المفاوضات وأن تؤيدوا وجهة النظر التى أبديتها فى دعوة الصلح وأن فرنسا لم تكن تقصد فى أى وقت انتزاع مصر من السلطنة العثمانية، وعليكم ان تطلبوا من تركيا أن تخرج من التحالف الانجليزى وأن تجعل لنا حرية الملاحة والتجارة فى البحر الاسود وتطلق سراح الفرنسيين المسجونين فى بلادها وأن تعقد هدنة ستة أشهر يوقف فيها القتال ويجرى فيها تبادل التصديق على معاهدة الصلح ، واذا رأيتم أن الظروف تقضى بابرام تلك المعاهدة مع الباب العالى فعليكم أن تبرهنوا ان ليس فى مقدوركم تنفيذ المعاهدة قبل التصديق عليها، وأنه يجب عقد هدنة بعد امضاء المعاهدة وبينما يتم التصديق عليها»

رأيه فى حالة مصر الداخلية

ثم تكلم نابليون عن حالة مصر الداخلية ومعالجة الشعب المصرى ، فنصح كليبر بان يستميل اليه العلماء . قال فى هذا الصدد

« ان من يكسب ثقة كبار المشايخ فى القاهرة يضمن ثقة الشعب المصرى ، وليس بين رؤساء هذا الشعب من هم أقل خطرا من مشايخه ، لانهم قوم هيابون لم يألفوا خوض غمار القتال، على أنهم رمز للتعصب ولو أنهم ليسوا متعصبين ، فهم من هذه الوجهة يشبهون القسس »

حصون مصر

ونوه فى رسالته باستحكامات مصر وقال عن مواقع الاسكندرية والعريش انها مفاتيح البلاد المصرية وانه كان عازما على أن يقيم فى الشتاء المقبل استحكامات وخطوطا محصنة من جذوع النخيل بحيث يكون بين الصالحية وقطية خطان من الاستحكامات وبين قطية والعريش خطان آخران ، وأوصى الجنرال كليبر بالاعتماد على الجنرال (سانسون) قائد فرقة الهندسة والجنرال (سونجى) قومندان المدفعية فى اقامة الاستحكامات والاعمال الداخلة فى اختصاص كل منهما، وأوصاه ببناء حصن فى البرلس لان البوارج

الانجليزية لايفوتها أن تقترب من شواطىء الاسكندرية والبرلس ودمياط

الادارة المالية ومشروعات أخرى

وأوصاه بالاعتماد على المسيو بوسليج فى ادارة الشؤون المالية وقال عنه « انى عرفت فيه رجل عمل وكفاية جديراً بان يقدر قدره وقد بدأ يعرف حقائق الامور فى فوضى الادارة المصرية »

ونصحه بالتريث والاناة فى اصلاح نظام الضرائب وتحصيلها فى مصر، وتعرض فى رسالته الى مشروعات استعمارية ومسائل ثانوية لم يفته التفكير فيها فى تلك الاوقات العصيبة ، فاوصاه باعتقال خمسمائة أو ستمائة من المماليك أو من رهائن العرب ومشايخ البلاد (العمد) وارسالهم الى فرنسا فى حالة استئناف المواصلات البحرية ليبقوا بها سنة أو سنتين ، وغاية نابليون من ذلك « أن يروا عظمة الامة الفرنسية ويقتبسوا عاداتنا وأخلاقنا وأفكارنا ولغتنا ويعودوا الى مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنيهم »

ثم وعد الجنرال كليبر بان يرسل له فرقة من الممثلين كان قد أوصى عليها من قبل « لتسد حاجة الجيش ولتألف البلاد شيئاً جديداً من العادات الغربية »

ختام الرسالة

وختم رسالته بكلمات مؤثرة أراد أن يكسب بها قلب الجنرال كليبر ويرغبه فى المهمة التى القاها على عاتقه ، قال

« إن المركز الرئيسى الكبير الذى ستشغله سيتيح لك أن تستخدم مواهبك التى حَبَتْك بها الطبيعة ، فان مايقع فى مصر سيكون له نتائج عظيمة المدى فى تقدم التجارة وارتقاء المدنية والحضارة ، وسيكون هذا العصر مصدراً للانقلابات الكبيرة، أما أنا فانى أغادر مصر والاسف يملأ قلبى ، على أنى ما تعودت أن أنتظر الجزاء الاوفى على متاعبى وجهودى فى الحياة إلا فى حكم الاجيال المقبلة ، وإن مصلحة الوطن ، ومجده ، وواجب الطاعة لندائه ، والحوادث المحزنة التى وقعت أخيراً ،

كل ذلك يلجئنى الى أن أغامر بنفسى وسط اساطيل الاعداء لأصل الى أوروبا ، على أنى سأكون معك بقلبى وفكرى ، وستكون انتصاراتك عزيزة فى نفسى أبتهج بها كما لو كانت لى، وسأعد من أيام النحس كل يوم لا أعمل فيه شيئاً لمصلحة الجيش الذى تركت لك قيادته ولا أبذل فيه جهداً لتوطيد البناء الذى أقيمت قواعده « إن الجيش الذى عهدت اليك بقيادته مؤلف كله من جنودٍ هم ابناء لى ،وقد شعرت فى كل لحظة حتى فى أوقات المحن بدلائل تعلقهم بى، فلتدم هذه العواطف لك ، ولتعمل على توكيدها، فهذا واجبك حيال ما لك فى نفسى من المحبة والاحترام وما بينى وبينهم(١) من الروابط التى لا انفصام لها . بونابارت »

بهذه العبارات الرقيقة ختم نابليون رسالته الى كليبر ، ثم أردف هذه الرسالة بأمر عسكرى واجب الطاعة هذا نصه :

« أمر الى الجنرال كليبر بأن يتولى القيادة العامة لجيش الشرق بناء على استدعاء الحكومة إياى لا كون بجانبها . بونابارت »

أما رسائل نابليون الى الجنرال دوجا والمسيو بوسليج والجنرال جونو فلا تخرج عن إنبائهم بسفره واستخلافه الجنرال كليبر فى قيادة الجيش

سلم نابليون هذه الرسائل الى الجنرال (منو) وكلفه توصيل كل رسالة الى من كتبت له ، على أنه أوصاه بألا يذيع أمر سفره ولا يبعث برسالته الى الديوان الا بعد ثمان وأربعين ساعة من اقلاع السفن المقلة له ولرفاقه ، وعين الجنرال منو قومندانا للاسكندرية ورشيد والبحيرة

اقلاع السفن

كانت السفن المعدة لسفر نابليون ورفاقه على أهبة الاقلاع ، ففى ٢٢ اغسطس

---

(١) قوله (وبينهم) يطابق الاصل الفرنسى الوارد فى مراسلات نابليون. أما الصيغة الواردة فى كتاب (ريبو) الجزء السادس ففيها (وبينك) أى ان الخطاب هنا لكليبر، ولكننا اعتمدنا الاصل الوارد فى مراسلات نابوليون لانه أحق بالثقة

فى منتصف الساعة العاشرة ليلا ركب نابليون السفينة لاموبرون La Muiron التى كانت راسية بالقرب من برج السلسلة بطرف الميناء الشرقية وتولى قيادتها الكونترامیرال جانتوم وأبحرت السفن الاربع (١) قاصدة شواطىء فرنسا، وكان رفقاء نابليون فى تلك الرحلة هم بورين Bourienne سكرتيره الخاص ومن القواد برتييه Berthier رئيس أركان حربه وأندريوسى Andreossi وموراد Murat ولان Lanne ومارمون Marmont وهم صفوة المخلصين له

ومن أعضاء المجمع العلمى مونج Monge وبرتوليه Berthollet ودينون Denon وبرسيفال دى جرانميزون ، ومن الياوران لافاليت Lavalette وديروك Duroc وبوهارنيه Beauharnais (صهره) ومرلين Merlin ولويلييه L'Huilier ومونتيسى Montessy

وظلت السفن تمخر عباب البحر الابيض والمخاوف تكتنفها مدة ثمانية وأربعين يوما الى أن رست فى خليج فريجوس Frejus جنوب فرنسا يوم ٩ اكتوبر سنة ١٧٩٩ (٢) ، فنزل الى البر الرجل العظيم الذى كانت تنتظره فرنسا لتسلم اليه مقاليدها

الاحتفال بوفاء النيل

بعد سفر نابليون

وجرى الاحتفال بوفاء النيل فى تلك السنة (اغسطس سنة ١٧٩٩ - ربيع الاول سنة ١٢١٤) بعد سفر نابليون كالمعتاد ورأس الاحتفال الجنرال دوجا ولم يلحظ أحد

---

(١) سفينتان حربيتان من نوع الفرقاطة وسفينتان كشافتان

(٢) اعتمدنا فى هذا التاريخ على ماورد فى مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة ٤٣٨٣ فقد ورد فيها أن رسو السفن يوم (١٧ فاندمير) من السنة الثامنة وهذا يوافق ٩ اكتوبر سنة ١٧٩٩

غياب نابليون لان دوجا كان معروفا بانه « القائممقام » وكتب الشيخ احمد العريشى قاضى قضاة مصر حجة الوفاء ، وقد ترجم علماء الحملة الفرنسية هذه الوثيقة الى لغتهم ونشرت فى كتاب تخطيط مصر[١] Description de L'Egypte ، وهى لاتخرج عن حجة وفاء النيل التى تحرر كل سنة الى اليوم ، وقد تضمنت بيان أسماء العلماء والاعيان الذين جرى الاحتفال بحضورهم ، واليك أسماءهم بترتيب ذكرهم فى الحجة : الشيخ احمد العريشى قاضى قضاة مصر ، السيد خليل البكرى الصديقى ، الشيخ عبد الله الشرقاوى ، الشيخ محمد الحفناوى[٢] الشهير بالمهدى ، الشيخ مصطفى الصاوى ، الامير مصطفى أغا عبد الرحمن أغا الانكشارية (محافظ القاهرة) الحاج احمد العقاد الشهير بالمحروقى كبير التجار ، الامير حسن أغا المحتسب ، الامير على أغا الشعراوى والى الشرطة ، الامير يوسف شوربجى باشجاويش التفكجية الامير يوسف شوربجى باشجاويش الهجانة ، الامير مصطفى أغا باش اختيار وجاق المتفرقة[٣] ، الامير مصطفى افندى عاصى كاتب أول وجاق المتفرقة ، الامير ابراهيم كخيا عزبان ، اسماعيل أفندى كاتب الاحوال

وأضافت الحجة الى من ذكرتهم بالاسم « وبحضور جمهور كبير عدا هؤلاء من الاعيان ذوى المكانة والاعتبار ممن لايتسع المقام لذكرهم »

وذكر فى الحجة أن الاحتفال جرى بحضور الجنرال دوجا قائممقام القاهرة ، واليك خلاصة ماذكره الجبرتى فى هذا الصدد

« وفى يوم الاثنين رابع عشرينه[٤] الموافق لتاسع مسرى القبطى كان وفاء النيل المبارك فنودى بوفائه على العادة ... وأكثر الفرنسيس فى تلك الليلة وصباحها

---

(١) الجزء الخامس عشر

(٢) كذا فى كتاب تخيطط مصر ، والصواب الحفنى

(٣) باش اختيار هو أقدم ضباط الوجاق (الفرقة) أنظر الجزء الأول ص ١٣

(٤) ربيع الاول سنة ١٢١٤ الموافق ٢٦ أغسطس سنة ١٧٩٩

من رمى المدافع والسواريخ من المراكب والسواحل وباتوا يضربون أنواع الطبول والمزامير ، وفى الصباح ركب دوجا قائمقام وصحبته أكابر الفرنسيس وأكابر أهل مصر ، وحضروا الى قصر السد وجلسوا به واصطفت العساكر بين الروضة وبر مصر القديمة باسلحتهم وطبولهم وبعضهم فى المراكب لضرب المدافع المتتالية الى ان انكسر السد وجرى الماء فى الخليج فانصرفوا »

والتاريخ الذى أورده الجبرتى عن وفاء النيل يختلف عن كتاب تخطيط مصر ، فالجبرتى يقول ان وفاء النيل كان يوم الاثنين ٢٤ ربيع الاول الموافق ٩ مسرى ، لكن حجة الوفاء المترجمة فى كتاب تخطيط مصر تتضمن أنه يوم الجمعة ٢١ ربيع الاول الموافق ١٩ أمشير ، ويلوح لنا أن رواية الجبرتى أحق بالثقة ، فقد رجعنا الى كتاب (التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية) لمؤلفه اللواء المصرى محمد مختار باشا فوجدناه قد اثبت أن وفاء النيل سنة ١٢١٤ هجرية كان يوم ٩ مسرى ، وهذا يؤيد رواية الجبرتى ، وأغلب الظن انه وقع تحريف فى ترجمة حجة الوفاء الواردة بكتاب تخطيط مصر

الفصل السادس

قيادة الجنرال كليبر

ان الرجل الذى ألقيت اليه مقاليد القيادة العامة لجيش فرنسا فى مصر واحتمل تبعة مواجهة الشعب المصرى ومعالجة الحالة السياسية والحربية فى البلاد، هذا الرجل جدير بأن نذكر شيئا عنه وعن شخصيته

شخصية كليبر

ولد الجنرال كليبر فى مدينة (ستراسبورج) عاصمة الالزاس سنة ١٧٥٣، فهو الزاسىّ المولد والنشأة، ظهرت مواهبه الحربية فى حروب الثورة الفرنسية وخاصة فى ميادين القتال فى (شامبانيا) و(الفانديه) وفى معارك (شارلروا) و (فلوروس) و (مايستريك) وغيرها، وهو معدود من خيرة قواد الجيش الفرنسى وأكفئهم، وله فى نفوس الجنود والضباط وقواد الجيش منزلة كبيرة لما اتصف به من الصراحة والشجاعة والاقدام، الى ما امتاز به من النزاهة وعلو النفس، وكان من خاصة أصدقاء نابليون الذى كان يقدر فيه صفاته العسكرية العالية، وقد اجتمعا فى ميادين القتال فارتبطا بأوثق صلات المودة، وهبطا مصر صديقين حميمين، غير أن علاقتهما قد اعتراها فى عهد من الزمن شىء من الفتور والجفاء، ويرجع ذلك الى ما اتصف به كليبر من الانفة والشمم، فكان من بين قواد الحملة الفرنسية القائد الوحيد الذى عارض نابليون فى بعض أفكاره ومواقفه، ولم يكتم معارضته بل صارح بها قواد الجيش وضباطه

الجفاء بين كليبر ونابليون

ظهرت هذه المعارضة حينما كان كليبر قومندانا للاسكندرية، فكان يعترض

على بعض أوامر نابليون مما أدى الى حنقه واستيائه ، وتبادل القائدان رسائل فى العتاب تجلت فيها نفس كليبر العالية التى لا تحتمل الضيم ولا تقيم على الذل ، فهو كما قدمنا (١) لم ير فائدة فى انفاق المال على احياء البحرية الفرنسية بعد أن اندثرت فى واقعة « أبوقير » ، وكان يعتقد أن موارد الجيش محدودة وحاجاته كثيرة ومهما أنفق من المال على البحرية فهو عبث ضائع لان السفن الباقية من العمارة الفرنسية لا يمكن مهما زادت قوتها أن تثبت أمام الاسطول الانجليزى ، وكان (قبل أن يتولى القيادة العامة) يكره الالتجاء الى فرض الغرامات والقروض الاجبارية فى تدبير المال ، فحدث أن نابليون أرسل مائة ألف فرنك الى الاسكندرية لينفق منها القوميسير (لروا) مدير مهمات الاسطول على اصلاح البحرية ، لكن الجنرال كليبر دفع منها رواتب الجنود وعطاءهم المتأخر ، وأرسل بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ الى نابليون يعتذر اليه بأن الضرورة الملجئة اضطرته الى هذا التصرف لأن خزانة الجيش كانت خالية من المال ، ولانه ليس من حسن السياسة الالتجاء الى فرض الغرامات أو القروض الاجبارية

فأرسل له نابليون (بتاريخ أول سبتمبر سنة ١٧٩٨) خطابا شديد اللهجة يعنفه فيه على تصرفه فى المائة ألف فرنك ، وطلب اليه أن يرد لفوره المبلغ الى مدير المهمات لينفقه فى اصلاح البحرية ، وألا يخالف الاوامر التى يصدرها لأن لها أسبابا فوق معرفته واحاطته ، ولم يكتف نابليون بذلك بل رماه بأنه ينفق على القوة الحربية فى الاسكندرية ضعف ما ينفق على قوات الجيش فى المدن الاخرى ، وأن نفقات المستشفى العسكرى بالثغر تزيد عن نفقات جميع المستشفيات ، يريد نابليون التعريض بنزاهة كليبر ، فلم يطق هذا صبرا ولم يقر على هذه الاهانة ورد عليه برسالة يستعفيه بها من منصبه ، ويقول فيها :

« لقد كنت أتوقع ألا تقروا تصرفى فى مبلغ المائة ألف فرنك لأسد حاجات

---

(١) انظر الجزء الاول ص ٢٤١

الجيش ، مع أن الضرورة الملجئة يمكن أن تبرر عملى ، على أنى ما كنت اتوقع أن أستهدف للوم فى إدارة أموال الجيش ، فاذا كان صحيحا أن الاسكندرية قد كلفت الخزانة ضعف ما تتكلفه المواقع الاخرى ، وبصرف النظر عن أن هنـاك غرامات فرضت فى جهات أخرى ولم تفرض فى الاسكندرية وأن جزءاً من نفقات الاسكندرية دفع لقسم الهندسة والمدفعية والبحرية ، فمعنى ذلك أنى متهم بتبديد أموال الجيش ، لذلك أبادر بطلب اجراء تحقيق عن تصرفاتى

« انك نسيت يا مواطنى الجنرال عند ما كتبت خطابك أنك تمسك فى يدك زمام التاريخ ، وأنك تكتب الى كليبر ! على أنى أستبعد أن يكون من قصدك السوء بسمعتى ، فليس من أحد يصدقك فى ظنةٍ بى ، وانى منتظر يامواطنى الجنرال فى رجْع البريد أمرا منك بوقفى عن العمل لا فى الاسكندرية فقط بل فى الجيش أيضا حتى يتبين لك حقيقة ما يجرى وما جرى هنا ، لانى لم أهبط مصر طمعا فى الثروة ، فلقد عرفت الى الآن كيف احتقر المال ، ولا أقبل أن تحوم حولى أية ريبة »

وصلت هذه الرسالة الى نابليون فتأثر من لهجة كليبر الدالة على التبرم والالم ، فكتب اليه يسترضيه بقوله :

« تلقيت الساعة يا مواطنى الجنرال رسائلك الرقيمة ١٩ و ٢٠ و ٢١ (١) ، ولقد عز علىَّ أنك أولت خطابى المؤرخ ١٥ الى غير المعنى الذى يؤديه ، واذا كنتُ ممسكا بيدى زمام التاريخ فأنت أولى الناس بألا يضيره ذلك »

على أن كليبر لم يقنع بهذا الخطاب ، وألح فى اقالته من منصبه ، واعتذر بضعف صحته وبأن الجرح الذى أصابه فى فتح الاسكندرية يحول دون بقائه ، ثم طلب ان يؤذن له بالعودة الى فرنسا ، ولما بلغ الجفاء هذا الحد دخل الجنرال (كافريللى) بين القائدين لاستلال هذه الضغينة وازالة سوء التفاهم ، وكان نابليون يقدر صفات كليبر ومواهبه ويرى أنه فى حاجة الى كفاءته ، فكتب اليه بتاريخ ٤ اكتوبر سنة ١٧٩٨

(١) من شهر فركتيدور (٥ و ٦ و ٧ سبتمبر سنة ١٧٩٨)

يسترضيه بالخطاب الآتى

«مواطنى الجنرال، أخبرنى الجنرال كافريللى برغبتكم، ويسوءنى كثيرا ان حالتك الصحية قد ألمَّ بها الانحراف، على أنى أرجو أن يكون فى هواء النيل مايعيدها اليك على ماكانت، وانك اذا تحولت عن رمال الاسكندرية فستجد مصرنا (تأمل!) أقل رداءة مما كنا نظنه من قبل، تقبل منى تمنياتى لك بالشفاء العاجل، وتأكد من تقديرى وصداقتى لك، إنى لأخشى أن يكون قد وقع جفاء بيننا، وانك لتظلمنى اذا شككت فى مبلغ تألمى من وقوع هذا الجفاء، يقولون إن السحاب اذا تراكم فى سماء مصر لايلبث أن ينقشع فى ست ساعات، أما من جهتى فاذا نشأ سحاب يعكر من علاقتنا فانه ينقشع فى ثلاث، ان تقديرى لك يعادل على الاقل ماأبديته نحوى من العواطف، فأرجو أن أراك قريبا فى القاهرة كما أخبرك الجنرال كافريللى، وأختم باهدائك تحياتى وعواطف محبتى واخلاصى. بونابارت»

هذا هو الخطاب الذى كتبه نابليون الى كليبر ترضيةً له، وهو كما ترى يتضمن أرق أنواع الاعتذار والثناء، فلم يسع كليبر إلا أن يتقبل هذه الترضية ويعدل عن استقالته، وسافر الى القاهرة تلبية لطلب نابليون فدخلها يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٧٩٨ أثناء شبوب الثورة فيها

أزال كتاب نابليون سوء التفاهم بينه وبين الجنرال كليبر، ولعلك تذكر من أمر نابليون أنه عندما ارتحل الى السويس فى شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨ (١) استخلف كليبر فى القاهرة مدة غيبته (٢)، ثم اختاره ضمن القواد الذين اصطحبهم فى الحملة على سورية وعينه فى الوقت نفسه (١٧ يناير سنة ١٧٩٩) حاكما لدمياط وقومندانا للفرقة التى بها (٣) وهي فرقته القديمة التى كان يتولى قيادتها قبل أن يجرح يوم احتلال الاسكندرية (٤)، وقد ظهرت مواهبه ومزاياه الحربية فى فتح (يافا) وفى معركة (جبل

---

(١) انظر ص ١٣ (٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٩٨ (٣) مراسلات نابليون وثيقة رقم ٣٨٦٧ (٤) لما جرح كليبر في حصار الاسكندرية تنحى عن قيادة الفرقة للجنرال دوجا فعرفت حينئذ بفرقة دوجا

طابور) ولما عاد الجيش الفرنسى من سورية ذهب كليبر الى دمياط مقر فرقته و بقى بها الى أن سافر نابليون الى فرنسا واستخلفه على القيادة العامة، كل هذا يدلك على ثقته به على ان الجفاء القديم قد ترك أثرا فى نفس كل منهما ، ولو تأملت فيما كتبه نابليون عن كليبر فى مذكراته لطالعتك عباراته بروح ذلك الجفاء الذى كان يشعر به كلاهما نحو الآخر، وكذلك تنتهى الى هذه النتيجة اذا قرأت مذكرات كليبر ويومياته، وليس من موضوع كتابنا أن نخوض فى هذه ولا فى تلك ، وبحسبنا أن نستنتج منهما مبلغ ما كان بين القائدين من النفرة وأن هذا الجفاء ظهرت آثاره فى مذكرات نابليون التى أملاها فى منفاه بعد أكثر من خمسة عشر عاما لقتل كليبر ، فاذا تركنا هذه الاعتبارات جانبا، فانه مما يجدر ملاحظته أن كليبر بعد اخفاق الحملة على سورية لم يقلع عن التصريح بتخطئة نابليون فى بعض تصرفاته اثناء تلك الحملة، لذلك كان اختيار نابليون اياه ليخلفه فى القيادة العامة عملا منطويا على صدق الوطنية لانه ضحى بالاعتبارات الشخصية فى سبيل مصلحة فرنسا وأسند الى كليبر هـذا المركز الخطير مع ما كان بينهما لانه رأى فيه أليق قواد الجيش للاضطلاع بهذه المهمة (١) واستشف بثاقب نظره أنه كذلك يجمع الى المواهب العسكرية صفات الحزم والاناة والكفاية الادارية، وكانت منزلة كليبر عند الجيش كبيرة وخاصة فى نظر الجنود التي حاربت من قبل فى ميادين الرين لانها كانت تقدر كفاية القائد الالزاسى تقديرا عاليا ، فرأى فيه نابليون خير من يستطيع كسب ثقة الجيش ومحبته

كان الجنرال كليبر مرابطا فى دمياط مع فرقته حينما أرسل اليه نابليون يستدعيه لمقابلته فى رشيد ، فلما بلغته الدعوة أسرع اليها فدخلها يوم ٢٤ أغسطس ، ولشدة ما كانت دهشته حينما علم بان القائد العام نزح الى فرنسا ولم يفكر حتى فى الحضور

---

(١) جاء فى مذكرات نابليون ان الجنرال ديزيه يفوق كليبر فى الكفاءة ولكن نابليون أراد الانتفاع بالجنرال ديزيه فى فرنسا فاستدعاه اليها وسافر بعد التوقيع على معاهد العريش كما سيجىء بيانه

لرشيد براً بالوعد الذى واعده ، وكان كليبر يجهل حتى تلك اللحظة أن نابليون قد اختاره ليخلفه فى القيادة العامة ، فكبر عليه الامر وحسب نابليون يهزأ به فى استدعائه الى رشيد لمقابلته فى حين أنه سافر الى فرنسا قبل الموعد المضروب ، وتحرك فى نفسه الجفاء القديم ، وأظهر حنقا شديداً على صاحبه ، بيد أنه ما لبث أن تلقى عهد نابليون اليه ورسالته للجيش وللديوان ، فتغيرت حالته النفسية واستشعر عظم التبعة التى القيت على عاتقه ، وأخذ يفكر فيما يستقبل من أمره

موقف كليبر

بعد إسناد القيادة العامة اليه

أكبَّ الجنرال كليبر على رسائل نابليون وتعليماته ووصاياه يطالعها ويتأملها ويكتنه أسرارها ، فشرع فى وضع الخطة التى يسير عليها ، واعتزم أن يتم العمل الذى بدأ به سلفه ، ولاجل أن يمهد السبيل لاستمرار العمل دون التواء أو اضطراب فى الافكار أذاع بين قواد الجيش منشورا سوّغ فيه رحيل نابليون وأهاب بوطنية القواد ودعاهم الى معاونته فى مهمته الجديدة ، قال فيه :

« إن القائد العام قد سافر الى أوروبا ليلة ٥ — ٦ فركتيدور (٢٢ — ٢٣ اغسطس سنة ١٧٩٩) وإن الذين يعرفون منكم مبلغ اهتمامه بنجاح الحملة الفرنسية فى مصر يجب أن يقدروا الاسباب القوية التى دعته الى السفر وأن يعتقدوا فى الوقت نفسه أننا سنكون على الدوام موضع عطفه ، وسيكون لنا بين مشروعاته وأعماله العظيمة حظ كبير من عنايته ، فهو القائل لى « إنى سأكون معك بقلبى وفكرى وستكون انتصاراتك عزيزة فى نفسى أبتهج بها كما لو كانت لى ، وسأعد من أيام النحس كل يوم لا أعمل فيه شيئاً لمصلحة الجيش الذى تركت لك قيادته » فيجب علينا ان نستشعر السرور لسفر القائد العام بدلا من أن نتوجع لذلك ، ان الفراغ الذى تركه بونابرت فى الجيش وفى حالتنا المعنوية فراغ عظيم ، ولا يسعنا أن نملأه الا بمضاعفة الجهد والنشاط والتعاون على العمل ليخف العبء الملقى على عاتق خلفه ،

وانكم مدينون بهذا الواجب لوطننا ولمجدكم ولما أشعر به من الاخلاص فى تقديركم ومحبتكم»

بهذا المنشور بدأ كليبر عمله الجديد ، وتلاقى فى رشيد بالجنرال (منو) قادما من الاسكندرية ، فأقره فى المركز الذى عينه فيه نابليون ، وفي يوم دخوله القاهرة أذاع بلاغا بين الجنود بتاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٩ أبلغهم فيه نبأ سفر نابليون وتعيينه خلفاً له ودعاهم الى الاستمرار فى واجبهم والاطمئنان على مصيرهم

وكان الجيش فى القاهرة قد تلقى نبأ سفر نابليون فاضطربت الافكار وكثر اللغط ونشر الجنرال (دوجا) قومندان القاهرة بلاغا رسمياً فى ٢٩ أغسطس برحيل نابليون وتعيين الجنرال كليبر خلفاً له ، وجمع أعضاء الديوان فى جلسة رسمية وأبلغهم تعيين الجنرال كليبر قائداً عاماً للجيش ، ولم يحدث سفر نابليون فى أذهان المصريين تأثيراً كبيراً الان انتصار الجيش الفرنسى فى معركة (أبو قير) كان قد أكسب الفرنسيين قوة معنوية بحيث لم يكن تغيير القائد العام ليزعزع من نفوذهم ، فقابل الشعب سفر نابليون وتعيين كليبر خلفاً له بعدم الاكتراث

مقابلته لأعضاء الديوان

جاء كليبر القاهرة واستقر فى بيت الالفى بك الذى كان يسكنه نابليون فى الأزبكية ، فاستقبل كبار الفرنسيين ثم أعضاء الديوان ، قال الجبرتى فى هذا الصدد « ذهب أكابر البلد من المشايخ والاعيان لمقابلة سارى عسكر الجديد للسلام عليه، فلم يجتمعوا به ذلك اليوم ، ووعدوا الى الغد فانصرفوا ، وحضروا فى ثانى يوم وقابلوه ، فلم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابرته فانه كان بشوشاً يباسط الجلساء ويضحك معهم »

وملاحظة الجبرتى جديرة بالنظر ، لأن كليبر كانت تنقصه حقيقة ميزة نابليون فى كسب القلوب ومباسطة جلسائه ، وهى ميزة كبيرة كانت من أخص مزايا نابليون فى حياته وكانت من الاسباب التى حببته إلى قلوب الرجال والجماهير ، فقد كان يأسر القلوب ببساطته ودعابته ، أما كليبر فقد شرع فى إحاطة نفسه بمظاهر الأبهة

والجبروت متخيلا أنها تؤثر فى الشرق وفى نفوس الشرقيين، قال ريبو فى هذا الصدد:

« إن بونابارت كان يمتاز بأساليبه البسيطة المألوفة وعاداته البعيدة عن الفخفخة والأبهة ، أضف الى ذلك قامته القصيرة وقوامه الضئيل ، ومع ذلك فقد كان المصريون يقدرون عظمة بونابارت فيقولون عنه « بونابارت الكبير » بينما كانوا يقولون عن خلفه « كليبر الطويل » (١)

وسواء أصحت رواية ريبو أم كانت من تصورات الخيال فانها تدل على مبلغ الفرق بين نابليون وكليبر فى الميول والنزعات .

ويقول ريبو أيضاً إن كليبر حتم أن يؤدى له الناس ما كان يؤدى للباشوات الولاة والبكوات المماليك من مظاهر الاجلال والتكريم ، وغنى عن البيان أن مثل هذه الأوامر لم يكن من شأنها أن تحبب اليه نفوس الناس ولا أن تجتذب اليه القلوب

قال الجبرتى فى وصف موكب كليبر وفى مروره بالمدينة

« وفى يوم الجمعة سادس ربيع الثانى سنة ١٢١٤ ركب سارى عسكر الجديد من الازبكية ومشى فى وسط المدينة فى موكب حافل حتى صعد الى القلعة ، وكان أمامه نحو الخمسمائة قواس و بأيديهم النبابيت وهم يأمرون الناس بالقيام والوقوف على الأقدام لمروره ، وكان صحبته عدة كثيرة من خيالة الافرنج وبأيديهم السيوف المسلولة والوالى (رئيس الشرطة) والاغا (المحافظ) و برطلمين (برتلمى وكيل المحافظ) بموا كبهم وكذلك القلقات والوجاقلية وكل من كان مولّى من جهتهم ومنضما اليهم »

وذكرت جريدة (كوريبه دليجبت (٢)) مقابلة كليبر لأعضاء الديوان ووصفت هذه المقابلة فى حينها ، قالت « قابل القائد العام كليبر يوم ١٦ فركتيدور هيئة الديوان وأكابر العلماء وأعيان البلاد ، فتكلم الشيخ محمد المهدى بالنيابة عن هيئة الديوان وأبدى أسفه لسفر الجنرال بونابارت ، وأعرب عن أمله فى عدالة خلفه

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية ريبو الجزء السادس

(٢) العدد ٣٨

واستقامته ، فأجابهم الجنرال كليبر بقوله « أيها العلماء إنى أريد أن أجيبكم على تمنياتكم بأعمالى لا بأقوالى ، على أن الاعمال تأتى بطيئة ، ويظهر أن الشعب متشوف إلى معرفة المصير الذى ينتظره فى عهد الرئيس الجديد ، فقولوا للشعب إن الجمهورية الفرنسية باسناد حكومة مصر الىّ كلفتنى على الأخص بأن أسهر على سعادة الشعب المصرى ، وإن هذه المهمة هى من بين مهمات مركزى أحبها الى قلبى » ووعدهم باحترام الدين وتمجيده وتوعد الأشرار بأشد أنواع الاذى ، ثم قال « ان بونابارت قد كسب محبة العلماء والمشايخ وأكابر البلد باتباعه خطة النزاهة والعدل ، وسأتبع خطة سلفى وأترسم خطاه ، وسأكون جديراً بما أوليتم بونابارت من محبة » هذا ما ذكرته جريدة (كوريبه دليجبت) وهى الجريدة شبه الرسمية للحملة الفرنسية ، ولم ترد هذه التفاصيل والاقوال فى الجبرتى ، وقد لا تكون فى مجموعها بعيدة عن الواقع لان الجبرتى قد فاته ان يذكر كثيراً من الوقائع المدونة فى المراجع الفرنسية

أعضاء الديوان فى عهد كليبر

ولعلك تذكر أسماء الاعضاء الذين تتألف منهم هيئة الديوان (الخصوصى) فى عهد نابليون [١] ، ونزيد على ذلك أنه حصل تعديل فى بعض الاعضاء خلال هذه المدة فصار الديوان مؤلفاً على النحو الآتى

الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيساً ، الشيخ محمد المهدى سكرتيراً ، الشيخ مصطفى الصاوى ، الشيخ خليل البكرى ، الشيخ سليمان الفيومى ، السيد احمد المحروقى ، على كتخذا الجدلى ، يوسف باشجاويش ، لطف الله المصرى ، يوسف فرحات ، جبران سكروج ، فضل الله الشامى ، بودوف ، ولمار ، وعددهم أربعة عشر

وقد أخذنا هذا البيان عن تقويم الجمهورية الفرنسية الذى وضعه علماء الحملة عن السنة الثامنة من التقويم الجمهورى (١٨٠٠) على عهد الجنرال كليبر ، وأورد التقويم المذكور أسماء موظفى الديوان من غير الاعضاء ، وهم المسيو جلوتيبه القوميسير الفرنسى لدى الديوان ،

---

(١) أنظر ص ١٩

وذو الفقار كتخدا القوميسير المسلم ، والشيخ على الكاتب السكرتير المعين ، وجرجس نصر المترجم ، والشيخ حسن العساس المحضر ، والحاج محمد رئيس الحجاب

التقسيم الادارى للمديريات

وأدخل الجنرال كليبر تعديلا فى التقسيم الادارى للمديريات فأصدر أمراً فى ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٩ بجعل مديريات القطر المصرى ثمانية أقاليم وهى

١ — اقليم طيبة أو قنا ويتبعه جرجا وأسيوط ، وحاضرته أسيوط
٢ — اقليم المنيا ويتبعه بنى سويف والفيوم ، وحاضرته بنى سويف
٣ — القاهرة ويتبعها الجيزة والقليوبية وأطفيح
٤ — الشرقية ويتبعها السويس والعريش وحاضرتها بلبيس
٥ — الاسكندريه ويتبعها البحيرة ورشيد وحاضرتها الاسكندرية
٦ — اقليم دمياط والمنصورة وحاضرته دمياط
٧ — الغربية وحاضرتها سمنود
٨ — المنوفية وحاضرتها منوف

الحالة فى القاهرة والاقاليم

اقترنت أيام كليبر الاولى باستتباب الهدوء فى القاهرة والاقاليم ، ولعل أهم سبب لذلك أن انتصار الفرنسيين على الجيش العثمانى فى معركة أبو قير كان لايزال ماثلا أمام الاذهان كبرهان على مبلغ قوة الجيش الفرنسى ، وتواردت الانباء من قواد الجنود الفرنسية فى الاقاليم بان الحالة مستقرة

هدأت الحالة هدوءا نسبيا فى انحاء القطر ، فخفت ثورة النفوس فى القاهرة ، ووقفت حركات الهياج فى الوجه البحرى ، وسكنت العاصفة فى الصعيد ، فانتهز كليبر هذه الفرصه وقضى أيام قيادته الاولى فى العناية بشؤون الجيش وتقويته

وتعهد ادارات الحكومة ، فتفقد قلعة الجبل والحصون التى أنشأها بونابارت حول العاصمة ، وتفقد استحكامات بولاق والجيزة والروضة ، والمستشفيات والسجون ، ومعمل البارود والذخائر ، وزار المدرسة التى أنشأها نابليون حديثاً لتعليم أبناء الفرنسيين فى مصر ، و (المطبعة الاهلية) التى كان يديرها المستشرق مارسل Marcel ، والمصنع الميكانيكى الذى أسسه المسيو كونتى ، وحضر عدة جلسات للمجمع العلمى ، وعرض الجيش لمناسبة الاحتفال برأس السنة الثامنة للجمهورية الفرنسية الاولى (٢٣ سبتمبر سنة ١٧٩٩)(١) وأخذ يفكر فى تجديد ملابس الجنود وتموين مخازن الجيش وتكبير المستشفيات وتقوية الحصون وامدادها بالذخيرة واصلاح الادارات التابعة للجيش

كانت الظواهر والمقدمات تدل على أن لدى كليبر متسعاً من الوقت يزيد فيه

---

(١) وصف الجبرتى هذا الاحتفال بقوله « اهتم الفرنسيس بعمل عيدهم المعتاد وهو عند الاعتدال الخريفى وانتقال الشمس لبرج الميزان . فنادوا بفتح الاسواق والدكاكين ، ووقود القناديل ، وشددوا فى ذلك ، وعملوا عزائم وولائم وأطعمة ثلاثة أيام آخرها يوم الاثنين ، ولم يعملوه على هيئة العام الماضى من الاجتماع بالازبكية عند الصارى العظيم المنتصب والكيفية المذكورة ، لأن ذلك الصارى سقط وامتلأت البركة (الميدان) بالماء ، فلما كان يوم الاحد نبهوا على الامراء والاعيان بالبكور الى بيت سارى عسكر ، فاجتمع الجميع فى صباح يوم الاثنين فركب سارى عسكر معهم فى موكب كبير وذهبوا الى قصر العينى ، فمكثوا هناك حصة وعرضت عليهم العسكر جميعها على اختلاف أنواعها من خيالة ورجالة وهم بأسلحتهم وزينتهم ، ولعبوا لعبهم فى ميدان الحرب ، وخلع سارى عسكر على الشيخ الشرقاوى والقاضى وأغات الينكجرية (المحافظ) خلع سمور ، ثم رجعوا الى منازلهم ، ثم نودى فى جميع الاسواق بوقود أربعة قناديل على كل دكان فى تلك الليلة ، ومن لم يفعل ذلك عوقب (يعنى ان الاهالى أكرهوا بالقوة على الاشتراك فى الحفلة) ثم عملوا بالازبكية حراقة نفوط ومدافع وسواريخ ، ولعبوا فى المراكب طول ليلهم »

من مناعة الاحتلال الفرنسى فى مصر ويوطد مركزه ، وذلك أن تركيا لم تكن أتمت بعد استعدادها للقتال بعد النكبة التى حاقت بهـا فى معركة أبو قير ، والجموع التى كانت تحشدها فى سورية بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا كان ينقصها النظام وبراعة القيادة ، فضلا عن أن أحوال تركيا كانت فى اضطراب وتضعضع بسبب الفتن الداخلية ، مما اضطر الباب العالى الى استـدعاء جزء من الجنود الذين أعدهم لفتح مصر ، وكان أمل كليبر معقودا بأن يفضى اقتراب فصل الشتاء وما يقترن به من هياج البحر الى تعسير اقتراب السفن الحربية ومراكب نقل الجنود من شواطىء مصر ، وبدأ هياج البحر فعلاً فى تلك الايام حتى اضطر السفن الانجليزية الى الابتعاد عن الشواطىء ، كل هذه الاسباب كانت تدعو للاعتقاد بان الحملة على الجيش الفرنسى فى مصر لا يمكن أن تكون قريبة ، أضف الى ذلك أن فشل الانجليز فى انزال جنودهم بالقصير قد طمأن الفرنسيين على مركزهم فى الوجه القبـلى وأضعف أمل مراد بك فى محاربتهم ، فقد عزم الانجليز على احتلال (القصير) فى شهر أغسطس قبل أن يرحل نابليون عن مصر ، وأرسلوا بارجتين حربيتين الى ذلك الثغر فكانتا بازائه فى صباح يوم ١٤ أغسطس سنة ١٧٩٩ (١) وضربتا القلعة بالمدافع تمهيـداً لانزال الجنود الى البر ، وفى عصر ذلك اليوم حاولت بعض مراكب النقل أن تنزل الجنود الى الشاطىء ولكن الحامية الفرنسية أرجعتهم وأحبطت مسعاهم ، واستمر الضرب بالمدافع طول الليل ، وفى اليوم التالى استؤنف الضرب بشدة ، ونزلت كتيبة من الجنود البريطانية الى الشاطىء تحت حماية المدافع ، وكان الادجودان جنرال دنزلو Donzelot يتولى قيادة حامية القصير ، فرتب جنوده لمقاومة الاحتـلال الانجليزى ودارت معركة شديدة بين الفريقين انتهت بانسحاب الانجليز والرجوع الى مراكبهم بعد أن تركوا كثيراً من القتـلى والجرحى ، واستمرت البارجتان الانجليزيتان تضربان

---

(١) رسالة الجنرال كليبر الى حكومة الديركتوار بتاريخ ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٩ الواردة فى كتاب الكونت باجول (كليبر حياته ومراسلاته) وكتاب المسيو روسو (كليبر ومنو فى مصر)

القلعة بالمدافع ، وحاول الانجليز أن ينزلوا جنودهم فى ذلك اليوم بعيداً عن القلعة ففشلوا ، وفى يوم ١٦ أغسطس أعادوا كرة الهجوم فباءوا بالفشل و استولى الفرنسيون على مدفع كان الانجليز أنزلوه الى الشاطىء ، وهكذا رجع الانجليز عن محاولة احتلال القصير بعد قتال ثلاثة أيام و أقلعت سفنهم الى عرض البحر

وحاول مراد بك فى خلال شهر اكتوبر أن يجدد مناوشاته فيما بين أسيوط وجرجا ، فجرد عليه الجنرال (ديزيه) حملة من الهجانة انتهت بانكماشه فى الصحراء فانسحاب الانجليز من سواحل القصير ، وهزيمة مراد بك فى الصعيد قد بعثا الطمأنينة فى نفوس الفرنسيين ، كما أن الهزيمة فتّت فى ساعد مراد بك وجعلته يخلد الى السكينة ، وقد دارت الايام دورتها فاخذ يتقرب من الفرنسيين الى أن عقد واياهم معاهدة الصلح كما سيجىء بيان ذلك فيما يلى

حقيقة الموقف الحربى فى مصر

على أن هذه المقدمات وهاتيك الظواهر لم تكن لتصرف الجنرال كليبر عن تبين حقيقة الموقف الحربى فى مصر ، ذلك الموقف الذى يجعل بقاء الاحتلال الفرنسى فى وادى النيل أمرا مستحيلا ، فالحملة الفرنسية كانت محصورة من طريق البحر ولا منفذ لها الى فرنسا أو أى بلد تستند اليه فى توطيد سلطتها ، هذا فضلا عن أن القوات الفرنسية ترابط وسط أمة معادية لها ، فكانت من هذه الوجهة مقضيا عليها بالفشل عاجلا أو آجلا ، لان الجنود الفرنسية كانت موزعة فى مثلث كبير يمتد طرفا قاعدته بين الاسكندرية والعريش ويقع رأسه فى أسوان ، فهذا المثلث الفسيح المدى المتباعد الاطراف كان مطلوبا من الجيش الفرنسى أن يوطد فيه سلطة فرنسا فى وجه دولتين متحالفتين (وهما تركيا وانجلترا) وعلى المراغمة من شعب لم يدع فرصة تمر الا قاوم فيها الاحتلال الفرنسى بكل الوسائل

ولا يغيبن عنك أن الجيش الفرنسى لم يكن يومئذ فى قوته الاولى ، لان المعارك والامراض والمتاعب التى قاساها قد أنهكت قواه و نقّصت عدد رجاله وأفرغت من صفوفه قدر الجنرال داماس Damas الذى عينه كليبر رئيس أركان الحرب عدد

الجنود فى شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ بثلاثة وثلاثين الف مقاتل ، وقدر عددهم فى أول عهد قيادة كليبر بـ ٠٠٠ ٢٢ مقاتل ، فيؤخذ من هذه المقابلة أن عدد الجنود نقص بمقدار الثلث، وفقد الجيش الفرنسى فى المعارك والثورات نخبة من خيرة قواده أمثال الجنرال (كافريللى) قائد فرقة المهندسين و (دومارتان) قائد المدفعية و (بون) و (رامبولت) و (ديبوى) وغيرهم، ومعظم ضباط فرقة المهندسين ، واصطحب نابليون معه نخبة أخرى من القواد ، وسرى الملل واليأس الى نفوس الجنود والقواد الباقين فى مصر لاستحالة ورود المدد والذخائر من فرنسا ، فأثرت هذه الحالة فى نفوسهم تأثيرا كبيرا وتضعضعوا لها فضعفت حالتهم المعنوية، ثم زادت الحالة تفاقما لافتقار الجيش الى كثير من حاجياته وضروراته ، فقد أسلفنا أن نابليون أصلح ترسانة مراد بك بالجيزة (١) وأنشأ بها معملا لصنع المدافع ، لكن هذا المصنع لم ينجح لعدم ورود الالات والمواد الاولية اللازمة لادارته ، وكذلك أنشأ فى الروضة مصنعا للبارود ، لكنه لم يكن وافيا بحاجة الجيش ، وكان بالقاهرة مصانع لاصلاح الاسلحة ولكن تعذر عليها اصلاح ما يتلف من البنادق بالسرعة التى تتطلبها الظروف لعدم توافر الآلات والوسائل اللازمة ، وبليت ملابس الجنود لكثرة الاستعمال ، ووجد كليبر صعوبة كبيرة فى تجديدها لقلة الاقمشة والاجواخ التى تكفى الجيش وقلة الموارد المالية التى تسمح بشرائها من الخارج ، وكانت رداءة الملابس وقدمها والمتاعب التى لقيها الجنود من الاسباب التى أدت الى سوء حالة الجيش الصحية وانتشار الامراض والرمد بين أفراده

ثم كانت ثغور البلاد ومفاتيحها على جانب كبير من الضعف ، فالعريش وهى مفتاح مصر من الشرق لم تكن فى حالة تسمح بصد هجمات جيش كبير وذلك لايغالها فى الصحراء وصعوبة تموينها وامدادها بالذخائر والمؤونة، كما أن الاسكندرية وهى مفتاح مصر من جهة الغرب قد ضعفت مناعتها الحربية بعد أن جردها نابليون أثناء

---

(١) أنظر الجزء الاول ص ١٤٨

الحملة على سورية من كثير من مدافع الحصار وبما سلح به السفن التى أقلته فى رحيله الى فرنسا

ولم يكن الجيش العامل الذى يعتمد عليه فى المعارك مرابطا فى ساحة واحدة ، بل كان موزعا بين البلاد المحصنة أو المدن المهمة التى تقيم بها حاميات من الجنود الفرنسية ، وهى القاهرة ، والاسكندرية ، وأبو قير ، ورشيد ، والرحمانية ، والبراس ودمياط ، وعزبة البرج ، والعريش ، وقطية ، والسويس ، والصالحية ، و بلبيس ، والمنصورة ، وميت غمر ، ومنوف ، وسمنود ، والجيزة ، و بنى سويف ، ومدينة الفيوم والمنيا ، وأسيوط ، وجرجا ، وقنا ، والقصير ، وأبنود ، و إسنا ، وأسوان

فكل هذه الاعتبارات هى أجزاء وألوان فى الصورة التى تنبئك عما آل اليه الجيش الفرنسى فى مصر من الضعف والانحلال

الحالة المالية والاقتصادية

أما الحالة المالية والاقتصادية فقد ساءت عما كانت عليه قبل الحملة الفرنسية ، فان توالى الضرائب والغرامات والمصادرات والنهب والتخريب والاحراق والتدمير قد أتلف الزراعة والتجارة والصناعة وأفقر البلاد وزادها ضنكا على ضنك ، ومع أن كليبر كان يعارض نابليون فى فرض الضرائب والمصادرات فانه لجأ اليها فى عهد قيادته ، فقد فرض على الصيارفة الاقباط مائة وخمسين الف ريال فرنسى فى مقابل بواقى سنة ١٢١٣ وأقساط أخرى لم تستحق بعد ، وفرض على الاقاليم غرامات فادحة ، ولجأ الفرنسيون الى طريقة الاحتكار ليستصفوا من المحتكرين مبالغ طائلة يرجع بها هؤلاء أضعافا مضاعفة على الجمهور ، واتبعوا طريقة السندات على الخزينة فى تأدية ما عليها من الديون ، وهذه الطريقة نذير الافلاس والخراب ، أضف الى ذلك أن الحصار البحرى الذى ضربته انجلترا على شواطىء مصر قد عطل المواصلات وشل المعاملات التجارية وأدى الى كساد الاحوال ووقوف حركة

الاخذ والعطاء ، وزاد الحالة سوءاً نقصان النيل فى تلك السنة (سنة ١٧٩٩) فبار كثير من الاراضى الزراعية وانكسر ما عليها من الضرائب

ولم يكن يخفى على الجنرال كليبر سوء الحالة الاقتصادية والمالية فى البلاد ، وكان يعلم أن ارهاق الشعب بضرائب وغرامات جديدة لا يمكن أن يوطد السلطة الفرنسية بل يفضى حتما الى تجدد الثورات والاضطرابات ، فبعث الى حكومة الديركتوار برسالة (١) فى هذا الصدد وصف فيها سوء الحالة التى يعانيها ، قال فى رسالته

« ان الجنرال بونابارت قد استنفد جميع موارد البلاد المالية فى الشهور الاولى من الحملة ، وضرب على البلاد من الغرامات والمصادرات ما بلغ جهد الطاقة ، فالرجوع اليوم الى هذه الوسائل فى الوقت الذى نحن فيه محاطون بالاعداء من كل جانب هو دفع بالبلاد الى الثورة فى أول فرصة ممكنة ، على أن بونابارت حينما غادر مصر لم يترك درهما فى الخزانة ولا شيئاً مما يعوضنا عن المال ، بل ترك ديونا ومتأخرات على الخزانة تبلغ اثنى عشر مليون فرنك وهو يكاد يساوى إيراد الحكومة سنة كاملة فى الاوقات الحاضرة »

وقال كليبر فى هذه الرسالة يصف سوء حالة الجباية :

« ان الفيضان يمنع فى الوقت الحاضر جباية البواقى عن السنة التى انتهت ، ومع ذلك لو حصلنا هذا الباقى لما كفى إلا نفقات شهر واحد ، ويجب أن ننتظر الى شهر فريمير (اكتوبر — نوفمبر) حتى يمكننا أن نعود فنجبى الضرائب ، ولا شك أنه يتعذر علينا عندئذ أن نستخلص شيئاً لاننا سنكون منهمكين فى القتال ، وقد زاد

---

(١) هذه الرسالة مؤرخة ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٩٩ ولم تصل الى فرنسا لان السفن الانجليزية ضبطتها فى عرض البحر كما ضبطت كثيراً من الرسائل المتبادلة بين فرنسا ومصر ونشرت فى انجلترا ليطلع عليها الجمهور ، وكانت هذه الرسالة بمثابة شكوى مرة من نابليون وتركه اياه يحتمل تبعة قيادة الجيش فى ظروف حرجة

الحالة سوءا أن النيل قد شح فى هـذا العام ، وسيؤدى ذلك الى تلف الزراعة فى مديريات عدة ، وهذا يفضى الى نقص الغلات ، وبالتالى الى نقص الضرائب »

فتأمل فى قول الجنرال كليبر إن إيراد الحكومة مدة سنة كاملة فى العهد الذى كتب فيه رسالته (سنة ١٧٩٩) يبلغ اثنى عشر مليون فرنك ، فانك تستنتج من ذلك أنه بالرغم من زيادة الضرائب فى عهد الحملة الفرنسية فان دخل الحكومة قد نقص عما كان فى عهد المماليك ، ويزداد هذا الاستنتاج وضوحا وثبوتا اذا رجعت الى ما أحصاه أقطاب الحملة الفرنسية عن دخل الحكومة فى عهدهم ودخلها على عهد المماليك

فالجنرال (رينييه) أحد قواد الحملة يقدر إيراد الحكومة قبل الاحتلال الفرنسى بمبلغ يتراوح بين ٣٥ وأربعين مليون فرنك [١] ، وهو تقدير يزيد قليلا عن احصاء المسيو (استيف) مدير الخزانة فى عهد الحملة فانه يقدرها بـ ١٠٦ ر ١٩٩ ر ٣١ فرنك (٤٦٧ ر ٢٠٣ ر ١ جنيه [٢])

أما فى عهد الحملة الفرنسية فقد هبط الايراد هبوطا محسوسا ، فأحصى الجنرال (رينييه) دخل الحكومة إجمالا فى ذلك العهد بمبلغ يتراوح بين ٢٠ و ٢٥ مليون فرنك ، وعلل هـذا النقص بقلة إيراد الجمارك واضطراب جباية الضرائب ، وقد أورد احصاءً مفصلا لهذا الدخل فى عهد كليبر ومنو ، فحدده بمبلغ ٢١ مليون فرنك (أى ٠٧٥ ر ٨١٠ جنيه تقريبا) وارد من الأبواب الآتية :

الخراج الذى كان يجبى من أطيان الوجه البحرى وجزء من أطيان الوجه القبلى بعد إسقاط المنطقة التى ترك لمراد بك حكمها بناء على اتفاقية كليبر ـ مراد	٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ١٢ فرنك

---

(١) كتاب (مصر بعد واقعة عين شمس)

(٢) أنظر الجزء الاول ص ٣٤

الضرائب غير المباشرة	٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٠٣	فرنك
الاتاوات على التجار وأرباب الحرف	٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٠٢	»
ايراد دار الضرب (الضربخانة)	٠٠٠ ر ٥٠٠ ر ٠٠	»
ايراد الجمارك	٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٠١	»
ايراد أطيان الوسية والأملاك التابعة للحكومة	٠٠٠ ر ٥٠٠ ر ٠١	»
مال الاملاك الشخصية والخراج المفروض على مرادبك	٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ١	»
	٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٢١	»

والمسيو (استيف) إحصاء آخر يزيد عن احصاء الجنرال (رينييه) فانه يقول إن دخل الحكومة سنة ١٧٩٩ وهى السنة الثانية من سنوات الحملة الفرنسية بلغ ٨٥١ ر ٥٠٢ ر ٣٥ فرنك (٥٣٩ ر ٣٦٩ ر ١ جنيه)

ونعتقد أن فى هذا الاحصاء مبالغة اذا قابلناه بأحصاء الجنرال (رينييه) و بالاحصاءات الاخرى الواردة فى المراجع الفرنسية

فنابليون يقول فى مذكراته ان دخل الحكومة فى مدة أربعين شهرا وهى مدة الحملة الفرنسية بلغ ثمانين مليون فرنك ، أى بمعدل ٢٧ مليون فرنك كل سنة (١)

ويقول المسيو (تيير) المؤرخ الفرنسى فى كتابه (٢) ان دخل الحكومة فى عهد الحملة يتراوح بين ٢٠ و ٢٥ مليون فرنك

والمسيو بوسليج مدير الشؤون المالية فى عهد نابليون وكليبر احصاء تفصيلى عن دخل الحكومة يقل كثيرا عن احصاء المسيو استيف

فقد كتب تقريرا مستفيضا فى سبتمبر سنة ١٧٩٩ عن حالة مصر المالية انتهى فيه إلى أن ايراد الحكومة فى زمن السلم لايزيد عن ٠٠٠ ر ٢٠٠ ر ١٩ فرنك ، يتألف تفصيلا من الابواب الآتية :

---

(١) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين

(٢) تاريخ القنصلية والامبراطورية الجزء الثالث

مال الميرى	٣٠٠ر٣٠٠ر٣ فرنك
ضريبة (الفائظ) وهى ما يستولى عليه الملتزمون بعد وفاء الميرى يدخل فى ذلك ما يجيبه الملتزمون وما تجيبه الحكومة عن أملاكها	٣٠٠،٠٠٠،٣ فرنك
ضريبة (المضاف) وهى ما يفرضه الملتزمون والحكومة على الاطيان عدا الميرى والفائظ ويدخل فى ذلك الاتاوات التى يفرضونها على الفلاحين	٤٠٠،٠٠٠،٦ فرنك
ضريبة (الكشوفية) وهى التى تؤول لحكام المديريات	٣٠٠،٠٠٠،١ فرنك
الجملة	٠٠٠،٠٠٠،١٤ فرنك
يخصم من ذلك ٠٠٠،٢٠٠،٣ فرنك مقدار ما يخص الملتزمين من (الفائظ) عن الاراضى التى يملكها الافراد وهى ثلث أراضى مصر الزراعية لان ثلثى أرضى مصر كانت ملكا للحكومة أو للحكام من عهد المماليك	٠٠٠،٢٠٠،٣ فرنك
فيكون الباقى	٠٠٠،٨٠٠،١٠ فرنك
يضاف الى ذلك صافى ما ينتج من ضريبة الفائظ التى تجبى نوعا من الحبوب وهذه الطريقة كانت متبعة فى الوجه القبلى ومقداره	٠٠٠،٦٥٠،٢ فرنك
ايراد الجمارك والضرائب غير المباشرة	٠٠٠،٠٠٠،٥ فرنك
ايراد الضربخانة	٠٠٠،٧٥٠،٠ فرنك
صافى الدخل	٠٠٠،٢٠٠،١٩ فرنك

ويقول المسيو (بوسليج) فى تقريره ان ايراد الجمارك والضرائب غير المباشرة فى سنة الحرب وهى السنة التى وضع فيها تقريره (سنة ١٧٩٩) هبط الى ٠٠٠،٥٠٠،١ فرنك بسبب وقوف دولاب الاعمال والحصار الحربى الذى ضربته انجلترا على

شواطىء مصر ، وهبط كذلك مقدار الحبوب التى تجبى نوعاً من أطيان الوجه القبلى لعدم إمكان بيعها فى جهاتها وقلة وسائل المواصلات التى تسمح بنقلها الى الوجه البحرى ، فلم يحصل من صافى ثمنها سوى مليون فرنك ، ونقص كذلك دخل الضرائب العقارية بمقدار مليون ونصف مليون فرنك لتلف بعض الأراضى الزراعية التى لم تروها مياه النيل ، يضاف الى هذا العجز مبلغ ثلاثة ملايين فرنك وهى النفقات التى التزمت بها الحكومة ومرتبات عمالها فيكون صافى دخل الحكومة بعد النفقات من تسعة الى عشرة ملايين فرنك وهو المخصص للانفاق على الجيش الفرنسى

وذكر المسيو (بوسليج) ما ابتكره نابليون من الضرائب علاوة على ما كان يجبى من قبل فى عهد المماليك ، فقال إنه فرض على مختلف الملاك والتجار نحو أربعة ملايين فرنك من الضرائب غير الاعتيادية وهى التى فرضها على البيوت والتجار والصناع ، وانه جبى مقدماً خمس المفروض على الأملاك العقارية عن سنة مقبلة ، فحصل من هذا الباب وحده على ١٫٢٠٠٫٠٠٠ فرنك ، وان هذه الوسائل الشاذة قد استنفدت موارد البلاد بحيث لا يمكن الاستمرار فى اتباعها لأن التجارة كسدت وبارت ومعين المال قد نضب فى يد الافراد بحيث يخشى أن تؤدى جباية أموال جديدة الى الثورة ، وأصبح سكان المدن يؤثرون الإرهاق والسجن بل والقتل على دفع مايطلب منهم ، والفلاحون لايدفعون ما يطلب منهم إلا بالقوة والاكراه ، فكانوا لا يؤدون ما يفرض عليهم حتى تصل اليهم القوة المسلحة التى تطوف كل مديرية لجباية الاموال الاميرية ، ولا يتأخرون عن مقابلة القوة بمثلها إذا استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وكثيراً ما يلوذون بالفرار إذا عجزوا عن مقاومتها ، وكثيراً ما سجن مشايخ البلاد (العمد) لاجبار أهل بلادهم على دفع الضرائب ، على أن هذه الحالة تستلزم تخصيص قوة مسلحة من الجنود فى كل مديرية من الست عشرة مديرية التى يتألف منها القطر المصرى لتحصيل الضرائب ، وكثيرا ما كان الجنود الفرنسيون يعتدون على الأهالى بحجة تحصيل الاموال ويرتكبون كثيرا من المظالم

أما جباية الضرائب فيقول المسيو بوسليج ان الأمر فيه أشق وأنكى ، فان

القرى كانت لا تسلم غلالها إلا بالقوة ، وكان لا بد من خزن هـذه الغلال فى مخازن خاصة قريبة من شاطىء النيل ثم شحنها على السفن الى القاهرة ، على أن عدد السفن قد قل فى عهد الحملة الفرنسية بسبب غرق كثير منها وتحطيم الفرنسيين لجزء آخر بقصد استعمال أخشابه للوقود لقلة الوارد من الاخشاب للقطر المصرى ، فضلا عن أن اضطراب الأحوال فى الوجه القبلى والوجه البحرى كان يضطر السلطة الفرنسية الى استعمال معظم السفن فى نقل الجنود ، ومن جهة أخرى فان النيل لم يكن صالحاً للملاحة فى الوجه القبلى إلا مدة أربعة أشهر فى السنة ، فكل هـذه العوامل مجتمعة كانت تعطل نقل الغلال الى القاهرة ، وقد أثرت هذه الحالة فى التجارة فأفضت بها الى الكساد ، وهذا الكساد عطل تحصيل الضرائب نقداً وعيناً لأن الأهالى لم يكن فى مقدورهم بيع غلاتهم للتجار لوقوف حركة الأخذ والعطاء ، ومع ذلك كانت السلطة تطالبهم بدفع الضرائب المفروضة عليهم ، و بذلك كان الضيق يشتد بالاهالى وتستحكم حلقاته

وكانت السلطة الفرنسية عاجزة عن سد حاجات الجيش من المـال لان الجيش كان يقتضى كل شهر ٠٠٠ ر ٣٠٠ ر ١ فرنك ولم تكن موارد البلاد تسمح بتحصيل أكثر من ٠٠٠ ر ٣٠٠ فرنك فى الشهر

يتبين من كل ماتقدم أن حالة مصر الاقتصادية والمالية قد ساءت على عهد الحملة الفرنسية وتقهقرت الزراعة وكسدت الصناعة وبارت التجارة ، وبالرغم من زيادة الضرائب والاتاوات والمصادرات فقد نقص دخل الحكومة عما كان قبل الحملة وعانت البلاد من كل ذلك أشد مايمكن تصوره من الضيق والفاقة ، وأخذ الضنك يشتد بالناس يوما بعد يوم ، وابتدع الفرنسيون اتاوات وغرامات جديدة فى عهد كليبر ومنو كما ستراه فيما يلى

حالة الشعب النفسية

ولاجدال أن اشتداد الضيق بالشعب وشعور الناس بأن حالتهم الاقتصادية قد ازدادت سوءا فى عهد الفرنسيين كان من البواعث التى زادت من سخطهم على

الحكم الفرنسى ، وليس فى مقدور القوة المسلحة اخضاع شعب ينفر بفطرته من تحكم دولة أجنبية فى شؤونه ويرى اشتداد الضيق فى عهد حكمها ، فالمقاومة الشعبية التى لقيها الفرنسيون من بدء الحملة كان من شأنها أن تزداد على مرور الايام ، ويكفيك لتتبين حالة الشعب النفسية أن ترجع الى أقوال أقطاب الحملة الفرنسية فى هذا الصدد

قال الجنرال كليبر يصف هذه الحالة فى عهد قيادته (١)

« إن مصر بالرغم من السكون الظاهرى الذى شملها لاتعتبر الا مذعنة لحكم القوة ، والشعب المصرى موزع الفكر قلق على مصيره ، ولايرى فينا مهما فعلنا الأعداء ملكه وماله ، وقلبه متجه دائما الى الأمل فى حدوث الانقلاب الذى يتوقعه »

وقال المسيو بوسليج فى هذا الصدد (٢)

« إن الشعب المصرى بالرغم من ثوراته العديدة ضدنا يمكن اعتباره شعبا وديعا ، على أنه يكرهنا ، وهيهات أن يحبنا ، مع أننا نعامله بأحسن مايمكن أن تعامل بلاد محتلة ، إن اختلاف العادات ، وأهم منه اختلاف اللغة ، وخاصة اختلاف الدين ، كل ذلك من العقبات التى لايمكن تذليلها والتى تحول دون ايجاد صلات الود بيننا وبين المصريين ، إنهم يمقتون حكم المماليك ، ويرهبون نير الاستانة ولايحبون حكمها ، ولكنهم لايطيقون حكمنا ولايصبرون عليه إلا بأمل التخلص منه »

فهذه الحالة النفسية للشعب كانت أكبر عقبة تحول دون توطيد سلطة فرنسا على ضفاف النيل ، وكانت وحدها نذيرا كافيا بزوال هذه السلطة وانقراضها

مساعى كليبر فى عقد الصلح
ورأيه فى مركز مصر السياسى

بعد أن درس الجنرال كليبر حالة مصر ونفسية الشعب وأمعن النظر فى موقف الجيش الفرنسى فيها وعرف إجمالا الحالة العامة فى أوروبا وفى فرنسا اقتنع بأن لافائدة

---

(١) من رسالته الى حكومة الديركتوار فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٩٩

(٢) فى تقريره الى حكومة الديركتوار

ترجى من استمرار الاحتلال الفرنسى فى مصر وأن هذا الاحتلال مهما بقى فمصيره الى الفشل ، لذلك أخذ يعمل الفكرة فى انهاء هـذا الاحتلال بطريقة تنقذ شرفه العسكرى ، لانه لم يكن خافيا أنه وقد ولاه نابليون القيادة العامة لجيش الشرق أصبح يحمل تبعة مصير هـذا الجيش وسمعته ، لذلك فكر فى فتح باب المفاوضات مع تركيا لعقد صلح على قاعدة الجلاء عن مصر

وكانت حجته فى الدخول فى مفاوضات الصلح أن نابليون فاتح الصدر الأعظم فى هذا الصدد بالرسالة التى بعث بها اليه قبل رحيله الى فرنسا ، وأنه فوض الى كليبر اتمام هذه المفاوضة وخوله سلطة عقد الصلح مع تركيا ولو كانت قاعدته الجلاء عن مصر ، فلم يكن عليه غبار اذا هو نفذ هذه الفكرة خصوصا اذا كانت ظروف الموقف السياسى والحربى تقضى بالمفاوضة وتجعل استمرار القتال عقيما

كتب الجنرال كليبر فى رسالة منه الى حكومة الديركتوار يبرر مفاوضاته فى سبيل الصلح بقوله

« إنى أعترف بأهمية احتلالنا مصر ، وقد كنت أقول فى أوروبا إن مصر بالنسبة لفرنسا كنقطة الارتكاز التى نستطيع بها أن نقبض على ناصية التجارة ونتولى زمامها فى سائر أنحاء العالم ، ولكن يجب لذلك أن يكون لفرنسا محرك قوى ، وهذا المحرك هو البحرية ، ولقد كانت لنا بحرية ، ثم ضاعت ، فتغير كل شىء ، وتغيرت المسألة من كل وجه ، ولم يعد لنا فيما يظهر لى سوى عقد صلح مع تركيا لنمهد لأنفسنا طريقا شريفا نخلص به من حملة لا يمكن أن تتحقق أغراضها التى دعت اليها »

وكتب المسيو بوسليج فى هذا الصدد يقول :

« إن مصر بلاد بديعة ، ومركزنا فيها يجب أن يتبع الظروف ، وقد دلت هذه الظروف على أننا جئنا مصر قبل الأوان ، وليس من شك فى أننا لو كنا حكام مصر لأنقذناها من الآفات التى تفتك بها وأحيينا زراعتها وتجارتها بحيث تعود تلك البلاد الى عظمتها القديمة وتصبح أجمل بلاد الدنيا ، ولا تلبث أن تحمل فى يدها ميزان التجارة فى العالم ، ولكن مصر يحيط بها بحران وصحراوان ، فالوصول إليها

يستلزم بحرية قوية ، وهذه البحرية ضرورية لاستثمارها وحماية تجارتها ومواصلاتها ، والآن ليس للجمهورية الفرنسية بحرية ، ولا بد لها من زمن طويل لتنشىء عمارة تضارع عمارة خصومها ، فالبقاء فى مصر بدون وسائل فعالة للاتصال بها و إرسال المدد إليها يؤدى الى تمكين الروسيا أو انجلترا من احتلالها والبقاء فيها بحجة طردنا منها »

هذا ما كتبه المسيو بوسليج فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٧٩٩ ، فتأمل فى عباراته ، وارجع بفكرك الى الماضى القريب والبعيد ، واستعرض الحوادث التى تعاقبت على البلاد فى خلال نيف ومائة عام ، تجد أنها قد أيدت بعض هذه التنبؤات ، فان انجلترا أخذت من ذلك الحين ترقب الفرص لتضع يدها على مصر ، ولقد سعت فى اخراج الفرنسيين لتحل محلهم ، واستعانت على ذلك بقواتها البحرية والبرية ، وأرادت أن تحقق اطماعها فى وادى النيل فلم تفلح ، وجردت فى أوائل عهد محمد على حملتها المعروفة بحملة الجنرال (فريزر) لاحتلال البلاد ، لكنها وجدت فى مصر القوة التى صدتها وقاومت عدوانها فارتدت عن البلاد سنة ١٨٠٧ خائبة ، وجلت جنودها عن أرض الكنانة ، على أنها ما لبثت بعد ذلك ترقب فريستها السنين الطوال إلى أن سنحت لها الفرصة لتحقيق اطماعها سنة ١٨٨٢ فانتهزت الحرب الداخلية التى وقعت فيها والضعف المعنوى الذى سرى الى نفوس أبنائها واحتلت البلاد بجنودها ، ولم تجد فيها القوة التى تصدها عنها مثلما وجدت عام ١٨٠٧ ، فما أقوى العظة ! وما أبلغ الاعتبار !

اعتزم إذن كليبر أن يفاوض تركيا فى عقد صلح معها على قاعدة الجلاء عن مصر ، فبعث إلى الصدر الاعظم رسالة مطولة ذكر فيها برسالة نابليون له قبل سفره ، وجدد طلب انهاء حالة الحرب بين الدولتين ، وأعرب عن مقاصد فرنسا الودية نحو تركيا قائلا إن فرنسا لم تقصد مصر إلا لمحاربة انجلترا وأنها لم تقاتل إلا المماليك ، وأنها تركت الادارة المدنية فى مصر لهيئة العلماء وكبار الاعيان ، واحترمت رعايا السلطان وأملاكهم ، وأبقت على الوجاقلية ومندوبى السلطان ، وأنها لا تنازع حقوق

تركيا فى مصر ، وطلب إليه فى ختام رسالته أن يوفد إليه مندوباً للمفاوضة فى قواعد الصلح ، والظاهر أن هذه الرسالة والرسالة التى تقدمتها من نابليون ألقتا فى روع تركيا أن مركز فرنسا أصبح من الحرج والضعف بحيث اضطرت الى طلب الصلح ، فتلكأت فى الرد واستمرت فى تعبئة جيوشها للزحف على مصر

تجدد القتال وهزيمة الاتراك فى عزبة البرج

أول نوفمبر سنة ١٧٩٩

استمرت تركيا تعبىء جيوشها للحملة على مصر برا وبحرا ، وأعدت حملتها البحرية قبل أن تتم حشد جيشها فى سورية ، وبدأت تهاجم مصر من شواطئها الشمالية قبل أن يزحف جيشها من طريق برزخ السويس ، وهكذا وقعت فى الخطأ الذى وقعت فيه من قبل فى شهر أغسطس سنة ١٧٩٩ بانزال جيشها الى شواطىء (أبو قير) قبل أن يزحف جيشها الآخر من طريق البر ، وكانت نتيجة ذلك الخطأ هزيمة الجيش العثمانى فى معركة أبوقير ، ومع ذلك زلت فيه مرة أخرى فى أواخر شهر أكتوبر سنة ١٧٩٩ ، وهذا راجع الى ما كانت عليه القيادة العثمانية من ضعف الكفاية

أقبلت العمارة العثمانية تجاه شواطىء دمياط فى أواخر شهر اكتوبر سنة ١٧٩٩ وكانت مؤلفة من ثلاث وخمسين سفينة تقل سبعة آلاف من خيرة الجنود الانكشارية بقيادة السيد على بك تصحبها البارجة الانجليزية « تايجر » (النمر) وعليها الكومودور السير سدنى سميث قائد الاسطول البريطانى

نزل الجنود العثمانيون الى شاطىء البحر بالقرب من بوغاز دمياط فاحتلوا برج البوغاز الذى كان يحمى مصب النيل بالبر الشرقى وكانت الجنود الفرنسية معسكرة بين عزبة البرج وشاطىء البحر الابيض بقيادة الجنرال فرديبه Verdier ، فسار بجنوده يوم أول نوفمبر سنة ١٧٩٩ لملاقاة الجنود العثمانية الذين رابطوا على شاطىء البحر بين بوغاز دمياط وبحيرة المنزلة ، وهاجمهم فى مواقعهم ونشبت بينهم معركة انتصر فيها الجنرال فرديبه انتصارا كبيرا — ويقول الفرنسيون انه قتل فى أثناء هذه

المعركة زهاء ثلاثة آلاف من الاتراك وأسر منهم ثمانمائة(١) ، وعلم كليبر وهو فى القاهرة نبأ نزول العثمانيين الى الشاطىء والهزيمة التى حلت بهم فشدد هـذا الانتصار عزائم الفرنسيين وأعاد اليهم الاطمئنان على مصيرهم

أعمال كليبر العلمية

أعاد انتصار الجنرال فرديبه الى نفس كليبر روح الأمل فى البقاء فى مصر وتوطيد سلطة الفرنسيين فيها وامكانه رد هجمات العثمانيين ، فأخذ يعنى بتنظيم الادارة ، واستأنف الابحاث العملية التى بدأها نابليون من قبل ، فقد أسلفنا أن نابليون الف قبيل رحيله عن القاهرة لجنتين علميتين من أعضاء المجمع العلمى لاكتشاف الآثار المصرية فى الوجه القبلى (٢) ، فعزم كليبر أن يقفو آثار سلفه فألف (٢) لجنة علمية ثالثة لدرس حالة مصر الحديثة من ناحية نظام الحكم فيها وشرائعها وقوانينها وعاداتها ودينها وحالتها الاجتماعية وعلومها وتجارتها وصناعتها وزراعتها وجغرافيتها ، وكان غرضه من تأليفها أن تكمل عمل اللجنتين الاوليين ليتاح للجان الثلاث دراسة الحضارة المصرية القديمة وتخطيط مصر الحديثة ، وعين لعضوية تلك اللجنة جماعة من أقطاب المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون ، فأخذت اللجنة توالى اجتماعاتها وأبحاثها ، ووضعت خطة العمل ووزعت مواضيع البحث على الاعضاء وعلى غيرهم من علماء الحملة الفرنسية ومهندسيها ، ومن أبحاث هؤلاء العلماء يتألف شطر كبير من كتاب تخطيط مصر الذى تكلمنا عنه فى الفصل التاسع عشر من الجزء الاول

---

(١) رسالة الجنرال كليبر الى الدير كتوار بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٩

(٢) انظر الفصل الرابع

(٣) فى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٩

الفصل السابع

معاهدة العريش

كان الجنرال كليبر مع استعداداته الحربية يسعى سعياً حثيثاً فى عقد الصلح على قاعدة الجلاء عن مصر ، وبالرغم من انتصار الفرنسيين على الجنود التركية فى عزبة البرج فان كليبر كان مقتنعاً بضرورة الصلح وبانهاء حالة الحرب التى كانت تركيا تعد المعدات لاستئنافها ، فقد أخذت قوات الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا ترابط فى غزة تمهيداً للزحف على مصر ، وكانت بوارج الاسطول الانجليزى بقيادة السر سدنى سميث تجوب البحار من يافا الى الاسكندرية وتراقب سواحل مصر مراقبة دقيقة ، فاتخذ كليبر مصطفى باشا قائد الحملة التركية فى معركة (أبو قير) البرية وسيطاً فى فتح مفاوضات الصلح ، فجرت مفاوضة مبدئية بينهما فى الشروط التى تكون أساساً للمعاهدة ، واتفق الطرفان على جعل قاعدة جلاء الفرنسيين عن مصر أساساً للصلح وأن تترك شروط الجلاء للمفاوضات الرسمية ، وفى غضون ذلك عاد رشيد افندى يحمل جواب الصدر الاعظم على رسالة نابليون [١] ، وخلاصة هذا الجواب أنه أعد جيشاً جراراً لطرد الفرنسيين من مصر ولكنه تلقاء دعوة نابليون فانه مستعد لاعداد السفن اللازمة لرحيل الفرنسيين الى فرنسا وأنه يضمن ألا يتعرض لهم الروس والانجليز فى الطريق ، وإذا تم جلاء الفرنسيين فانه يقبل المفاوضة فى إعادة الصلح بين تركيا وفرنسا ، والكتاب مكتوب بلهجة التهديد والوعيد

وصل هذا الجواب بعد رحيل نابليون بما ينيف على شهرين وبالرغم من أنه لم يكن مرضياً فان الجنرال كليبر أعاد طلب المفاوضة فى سبيل الصلح وبعث برسالة جديدة إلى الصدر الأعظم

---

(١) انظر الفصل الخامس

وكان السير سدنى سميث يميل من جهته ولو ظاهراً إلى عقد الصلح على هـذا الأساس ويؤثر هـذه الوسيلة على اجبار الفرنسيين بقوة القتال على تسليم أنفسهم كأسرى حرب ، لأنه كان يعتقد فى قوة الجيش الفرنسى وكفاية قواده ولا يثق بفوز الجيش العثمانى اذا دارت رحى الحرب ثانية ، وكان كليبر من ناحيته يرفض بتاتا التسليم الذى يضر بسمعته العسكرية ويؤثر استمرار الحرب على التسليم بلا شرط ولا قيد ، أما الصدر الاعظم فكان متصلباً فى قبول الصلح معتزاً بعدد جنوده ومحالفة انجلترا والروسيا مع الباب العالى راغباً فى سحق الجيش الفرنسى وأسره فى ميدان القتال .

لكن السر سدنى سميث تدخل فى الامر لاقناع الصدر الاعظم بقبول فكرة الصلح ، وتبادل هو والجنرال كليبر الرسائل لفتح باب المفاوضات الرسمية والاتفاق على هدنة يكف فيها الفريقان المتحاربان عن القتال ، وكان يعتقد أن هذه الهدنة تنفع تركيا لانها تمكن الجيش العثمانى من اتمام استعداده للزحف على مصر ، وقد دلت الحوادث المقبلة على حقيقة هذا الغرض

مفاوضات الصلح فى دمياط وغزة

أوفد الجنرال كليبر الى السير سدنى سميث الا دجودان جنرال موران Morand للاتفاق على وضع خطة لاجراء المفاوضات ، فالتقى به فى يافا ووضعت الخطة وهى التقاء مندوبى الدول المتحالفة الثلاث تركيا وانجلترا والروسيا بمندوبى فرنسا للشروع فى المفاوضات ، وعين السير سدني سميث عن انجلترا والصدر الاعظم يوسف باشا ضيا عن تركيا والقنصل فرانكيني Franchini عن الروسيا ليدافع كل عن وجهة نظر دولته فى المفاوضات ، وعاد موران الى القاهرة ليعرض على كليبر اختيار مندوبه لاجراء المفاوضة الرسمية ، فعين الجنرال ديزيه قائد الجنود الفرنسية فى الصعيد والمسيو بوسليج مدير الشؤون المالية مندوبين عنه فى المفاوضات وفوضهما فى قبول الشروط التى ارتضاها أساسا للصلح

ابتـدأت مفاوضات الصلح على ظهر البارجة الانجليزية (تايجر) Tigre

التى رست فى عرض البحر تجاه بوغاز دمياط وكانت أول مقابلة بين المندوبين الفرنسيين والسر سدنى سميث يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ ، وكان سدنى سميث يتكلم بالنيابة عن انجلترا وحلفائها أما الصدر الأعظم يوسف باشا فكان منهمكا فى الزحف على مصر ، واستمرت المفاوضات عدة أيام عرض الجنرال ديزيه والمسيو بوسيلج فى خلالها شروط الفرنسيين لجلائهم عن مصر ، وأهمها أن تعاد الى فرنسا أملاكها فى البحر الأبيض المتوسط (١) وتفسخ تركيا معاهدة التحالف التى عقدتها مع الروسيا وانجلترا وتعقد صلحاً نهائياً مع فرنسا بحيث تعود العلاقات بين تركيا وفرنسا كما كانت قبل الحرب وأن تمضى انجلترا تعهداً جديداً بالمحافظة على كيان السلطنة العثمانية وأن يجلو الجيش الفرنسى عن مصر بأسلحته وأمتعته على أن يكون له مطلق الحرية فى اختيار الثغر الذى ينزل به فى أوروبا ، ولم يكن السير سدنى سميث يتوقع من مندوبى فرنسا مثل هذه الشروط لأنه كان يرجو أن يتم الجلاء بلا شرط ولا قيد ، فأبدى اعتذاره بأن ليس لديه سلطة تخوله البت فى مثل هذه الشروط وأنه ليس إلا وسيطاً بين فرنسا وتركيا ، ووعد بالتوسط لدى الصدر الاعظم لوضع شروط للجلاء يقبلها الطرفان ، وعرض على المندوبين الفرنسيين أن تبحر البارجة (تايجر) الى مياه سورية كى يتمكن من مقابلة الصدر الاعظم الذى كان معسكراً بالقرب من غزة ، فرضى المندوبان الفرنسيان وأبحرت السفينة الى يافا ، وهناك وصل الى علم المندوبين الفرنسيين نبأ كان له وقع أليم فى نفوسهم وأثر كبير فى سير المفاوضات ، وهو سقوط قلعة العريش فى يد العثمانيين

---

(١) هى الجزائر الأيونية وقد آلت لفرنسا بمقتضى معاهدة (كامبو فورميو) ثم احتلتها الجنود الروسية والتركية أثناء القتال فطلب كليبر ان تعاد الى فرنسا وطلب أيضا أن يضمن لفرنسا امتلاك مالطة

زحف الجيش العثمانى واحتلال قلعة العريش

٣٠ ديسمبر سنة ١٧٩٩

ذلك انه فى خلال المفاوضات التى جرت بين كليبر والسر سدنى سميث فى سبيل الصلح كان الجيش العثمانى بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا قد أتم معداته للزحف على مصر من طريق سوريةو بدأ يتقدم من غزة قاصداً العريش فى منتصف شهر ديسمبر فوصل تجاهها يوم ٢٢ ديسمبر فضرب الحصار عليها وطلب من حاميتها تسليم القلعة .

كانت حامية العريش مؤلفة من ٤٥٠ جنديا فرنسياً بقيادة الكابتن جازلاس Gazlas من ضباط فرقة الهندسة ، وقد عنى الفرنسيون بتحصين القلعة وتزويدها بالمدافع والذخائر لتستطيع رد هجوم الجيش العثمانيوتعطل زحفه مدة طويلة من الزمن، لكن فريقاً من حامية العريش دبت فيهم روح التمرد والخروج على النظام واعتبروا ارسالهم الى العريش عقوبة لهم فاشتد سخطهم وتمردهم ، وسرت بين الجنود فكرة الانتقاض والتمرد ، فضعفت روحهم المعنوية وجعلوا يرقبون أول فرصة لالقاء السلاح والكف عن القتال فلما ، وصل الجيش العثمانى وضرب الحصار عليهم تمرد فريق من الحامية وطلبوا من القومندان تسليم القلعة فلم يجبهم الى طلبهم وتهدد المتمردين بأشد العقاب ، فعاد النظام مؤقتاً بين صفوف الجنود واستمرت المقاومة عدة أيام، ولكن روح التمرد بقيت كامنة فى النفوس الى أن انفجرت يوم٢٩ ديسمبر لمناسبة هجوم شديد من الجنود العثمانية على القلعة فامتنع المتمردون عن المقاومة وسلموا القلعة وسهلوا للعثمانيين دخولها فاحتلوها يوم ٣٠ ديسمبر وأعملوا فى حاميتها السيف وقتلوا منهم ٢٣٠ وأسروا الباقين ومنهم الكابتن جازلاس

وصل نبأ احتلال الاتراك للعريش الى القاهرة فعجل الجنرال كليبر بالانتقال بمعسكره الى الصالحية ليكون على استعداد لرد هجومهم إذا لم يتم الصلح

علم الجنرال ديزيه والمسيو بوسليج بهذه الانباء وهما على ظهر البارجة (تايجر) ، وبديهى أنها كانت من بواعث تساهلهما فى قبول شروط الصلح ، وقد التقى السر سدنى سميث بيوسف باشا واتفقا على أن يجتمعا بالمندوبين الفرنسيين فى معسكر الصدر الأعظم بالعريش لوضع شروط الصلح ، فوصل المندوبان الفرنسيان الى العريش يوم ١٣ يناير سنة ١٨٠٠ ، وهناك بدأت المفاوضات النهائية ، فكان يتولى المفاوضة عن تركيا مصطفى رشيد افندى دفتردار الصدر الأعظم ومصطفى راسخ افندى رئيس الكتاب ، وعن فرنسا الجنرال ديزيه والمسيو بوسليج ، وعن انجلترا السر سدنى سميث ، وعن الروسيا القنصل فرنكينى Franchini

المجلس الحربى الفرنسى لاقرار الصلح

استمرت المفاوضة عدة أيام كان الجنرال كليبر فى خلالها مرابطاً بالصالحية يستعد للقتال ، ذلك أنه بعد احتلال العثمانيين للعريش اعتقد أنهم ينوون استمرار الحرب ، فحشد قواته استعداداً للمقاومة ، واتخذ الصالحية معسكره العام واجتمع بقواد جيشه يتداولون فى الخطة التى يجب اتباعها ، وكان كليبر يميل الى الصلح ، لكنه لم يشأ أن ينفرد باحتمال هذه التبعة فجمع مجلساً حربياً فى الصالحية من نخبة قواد الجيش ليقرر رأيه فى قبول الصلح أواستمرار القتال ، وكان المجلس مؤلفاً من الجنرال كليبر رئيساً ، والجنرال داماس رئيس أركان حرب الجيش ، والجنرال رينييه Reynier وفريان Friant من قواد الفرق ، ودافو Davout ورامبون Rampon ولاجرانج Lagrange وروبان Robin من قواد الأورط ، والجنرال سونجى Songis قائد المدفعية والجنرال سانسون Sanson قومندان فرقة الهندسة أعضاء والقوميسير دور Daure مدير مهمات الجيش سكرتيراً للمجلس

اجتمع المجلس فى المعسكر العام بالصالحية يوم ٢١ يناير سنة ١٨٠٠ فعرض عليهم كليبر خلاصة المفاوضات التى بدأ بها نابليون قبل سفره واستأنفها وبيان الشروط المعروضة لعقد الصلح ، وطلب من المجلس أن يبدى رأيه فيما يجب اتباعه حيال

الموقف الحربى فى مصر ، فتكلم القواد وبحثوا الموقف من كافة وجوهه ، ثم اتفق رأيهم بالاجماع على وجوب قبول الصلح والجلاء بدلا من المغامرة فى قتال لاينتهى الى نتيجة صالحة حتى ولو انتصر الجيش الفرنسى إذ كان الانتصار لايؤدى الى تحسين موقف الفرنسيين ، ونصح القواد فى قرارهم بوجوب التعجيل بعقد الصلح حتى لايضطر الجيش بعد شهرين الى قبول شروط أقل ملاءمة لشرفه ، وطلبوا من المفاوضين أن يهتموا فى شروط الصلح بأن يكون الجلاء عن القاهرة فى أبعد زمن ممكن ، وتركوا لحكمة المفاوضين أخذ الضمانات لتنفيذ شروط المعاهدة وسلامة الجيش

وقد استند القواد فى قرارهم على أن عدد الجنود الذين يمكن للجيش الفرنسى أن يحشدهم لمقاومة الحملة العثمانية ثمانية آلاف مقاتل للدفاع عن قطية والصالحية وبلبيس والقاهرة (وهذا العدد دون الحقيقة) فى حين أن عدد الجيش العثمانى الزاحف يبلغ ٢٥٫٠٠٠ مقاتل عدا الاحتياطى المرابط فى غزة ، وأن تسليم قلعة العريش فى الظروف التى حصل التسليم فيها يدل على روح الملل الذى دب فى نفوس الجنود ، وأنه يخشى فى حالة انتصار الجيش العثمانى وقيام ثورات فى داخلية البلاد أن تستهدف حياة العشرين ألف فرنسى من عسكريين ومدنيين للخطر ، وأن عدم ورود تعليمات من الحكومة الفرنسية الى القيادة العامة مع مضى نحو خمسة أشهر على رحيل بونابارت الى فرنسا دليل على موافقة الحكومة ضمناً على الجلاء

وقد أرسل الجنرال كليبر نتيجة قرار المجلس الحربى الى المفاوضين فى العريش وكلفهم التعجيل باتمام الصلح ولفت نظرهم الى تفصيلات الجلاء كاشتراط مواعيد لتنفيذه وتدبير وسائل النقل والاتفاق على خط سير الجيش وتسليمه المواقع الحصينة عند الجلاء .

التوقيع على المعاهدة

انتهت المفاوضات بتوقيع معاهدة الصلح التى عرفت فى التاريخ باسم (معاهدة العريش يوم ٤ بلوفيوز من السنة الثامنة للجمهورية (٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ —

٢٧ شعبان سنة ١٢١٤) ، وقعها بالنيابة عن الصدر الاعظم كل من مصطفى رشيد افندى الدفتردار ومصطفى راسخ افندى رئيس الكتاب وعن القائد العام للجيش الفرنسى كل من الجنرال (ديزيه) والمسيو بوسايج ، ولم يوقع عليها أحد من قبل الحكومة الانجليزية

وقد تضمنت المعاهدة بيان الغرض منها وهو جلاء الفرنسيين عن مصر ، فجاء فيها ان الجيش الفرنسى لرغبته فى وضع حد لسفك الدماء وانهاء النزاع القائم بين الجمهورية الفرنسية والباب العالى قد قبل أن يجلو عن مصر على النحو الوارد فى هذه المعاهدة مؤملا أن يكون هذا النزول منه تمهيدا للصالح العام فى اوروبا

شروط المعاهدة

تقضى معاهدة العريش بجلاء الجنود الفرنسية عن مصر بأسلحتهم وأمتعتهم وأثقالهم وإقلاعهم بحراً من ثغور الاسكندرية ورشيد وأبوقير على السفن الفرنسية والسفن التى تعدها الحكومة العثمانية ، ولهذا الغرض ترسل الحكومة العثمانية الى الاسكندرية بعد شهرين من التصديق على المعاهدة قوميسيرا ومعه خمسون شخصا لاعداد السفن التى تقل الجنود ، ويتم الجلاء فى مدى ثلاثة أشهر تكون بمثابة هدنة لتنفيذ شروط المعاهدة ، وفى حالة عدم ورود السفن التركية لنقل الجنود فى خلال هذه المدة تمد الهدنة الى أن يتم رحيلهم ، وتعهد الطرفان بالمحافظة على سلامة الجنود والاهالى اثناء الجلاء ، ويتم نقل الجنود فى السفن بحسب النظام الذى يوضع بمعرفة قوميسيرين يعينهما الباب العالى والجنرال كليبر واذا وقع خلاف بين القوميسيرين فى حالة نقل الجنود يعين السر سدنى سميث قوميسيرا من قبله لحسم الخلاف طبقا للوائح البحرية البريطانية

مواعيد الجلاء — نصت المعاهدة على أن يكون جلاء الجنود الفرنسية فى المواعيد الآتية :

قطية والصالحية — بعد ثمانية أيام أو عشرة على الاكثر من التصديق على المعاهدة

المنصورة — بعد خمسة عشر يوما

دمياط و بلبيس — بعد عشرين يوما

السويس — قبل الجلاء عن القاهرة بستة أيام

القاهرة — بعد اربعين أو على الاكثر خمسة وار بعين يوما من التصديق على المعاهدة

المدن الواقعة بالبر الشرقى للنيل — بعد عشرة أيام

بلاد الدلتا — بعد خمسة عشر يوما من الجلاء عن القاهرة

المدن الواقعة بالبر الغربى للنيل — يجلو عنها الجيش عند الجلاء عن القاهرة ، ومع ذلك فللجنود الفرنسية احتلالها الى أن تصل الجنود القادمة من الوجه القبلى ، ويمكن مد هذا الموعد الى آخر يوم من أيام الهدنة

— وتسلم المواقع التى يجلو عنها الفرنسيون الى الجيش العثمانى بالحالة التى هى عليها وقت التوقيع على المعاهدة مع المحافظة على سلامة الجنود الفرنسية ومع اتخاذ الوسائل لجعل مواقع الجنود العثمانية بعيدة عن الجنود الفرنسية أثناء الجلاء منعا للتصادم بينهما ،

— ونصت المعاهدة على وجوب اطلاق سراح المعتقلين من الجانبين فى فرنسا أو فى مصر أو فى تركيا ، والمحافظة على سلامة وأملاك من اظهروا الولاء من المصريين نحو فرنسا أثناء الاحتلال الفرنسى ، واعطاء جوازات مرور للجيش الفرنسى من قبل الحكومة العثمانية وحليفتيها (انجلترا والروسيا) لضمان وصول الجيش الى فرنسا وعدم التعرض له فى البحر لا من جانب تركيا ولا من جانب حلفائها ، وصرح لتركيا أن ترسل توا بعد التصديق على المعاهدة مندوبين من قبلها الى القاهرة والمدن المحتله لدفع نفقات ترحيل الجنود وتوفير المؤونة اللازمة لهم ، وتعهد الفرنسيون بعدم جباية أموال بعد التصديق على المعاهدة ، و يبدأ سريان المعاهدة من يوم التصديق ، و يتم التصديق فى خلال ثمانية أيام من التوقيع عليها ، وكتبت المعاهدة باللغتين الفرنسية والتركية ، وقد صدق الجنرال كليبر على المعاهدة فى معسكر الصالحية يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٠٠ وأرسل صورتها الى الجنرال دوجا بالقاهرة ليبلغها الى الديوان .

قال الجبرتى فى هذا الصدد :

«تم عقد الصلح على اثنين وعشرين شرطا رسمت وطبعت فى طومار [١] كبير، وورد الخبر بذلك الى مصر وفرح الناس بذلك فرحا شديدا، وأرسل سارى عسكر الفرنساوية (كليبر) مكاتبة بصورة الحال الى دوجا قائممقام، فجمع أهل الديوان وقرأ عليهم ذلك، ولما ورد ذلك الطومار المتضمن عقد الصلح والشروط عربوه (لانه كان محررا بالفرنسية والتركية) وطبعوا منه نسخا كثيرة فرقوا منها على الاعيان وألصقوا منها بالاسواق والشوارع»

وقد نشر الجبرتى فى تاريخه صيغة الترجمة العربية للمعاهدة كما وزعت فى القاهرة فى ذلك العهد وطبعت على المطبعة الفرنسية العربية التى انشأها الفرنسيون فى مصر، لكن هذه الترجمة سقيمة وفيها اغلاط كثيرة جدا فآثرنا أن نعرب المعاهدة عن الاصل الفرنسى وقد لخصنا فيما تقدم أهم شروطها ونشرناها بنصها فى قسم الوثائق التاريخية [٢] ليرجع اليها القارئ اذا شاء زيادة البيان

نظرة فى معاهدة العريش

إن معاهدة العريش تتحصل فى كلمة وجيزة وهى جلاء الفرنسيين عن مصر بلا قيد ولا شرط، وهى أول وثيقة من الوثائق الدولية الحديثة اعترفت فيها الدولة المحتلة مصر فى أواخر القرن الثامن عشر بفشل احتلالها وتعهدت بجلائها عن البلاد، فهى بهذا الاعتبار خطوة فى سبيل تكوين مصر المستقلة، لأن تركيا وان كانت قد تولت عقد هذه المعاهدة على أنها صاحبة الولاية على مصر وقتئذ إلا أنها فى الواقع لم تستطع أن تسترجع حكمها القديم على ضفاف وادى النيل أو تضع يدها على البلاد، وبذلك خلصت البلاد لأهلها وأسلم الشعب مقاليد الحكم الى محمد على الكبير كما سنفصل ذلك فى موضعه، فمعاهدة العريش هى الوثيقة الرسمية التى تعهدت فيها فرنسا بالجلاء

---

(١) الطومار كما فى لسان العرب (الجزء السادس) معناه الصحيفة

(٢) وثيقة رقم ٤

عن مصر فهى اذن من أهم الوثائق الرسمية فى تاريخ مصر الحديث

وقد شعر الجنرال كليبر بأن هذه المعاهدة قضت نهائيا على أحلام الفرنسيين فى انشاء مستعمرة فى وادى النيل ووضعت حداً للحملة الفرنسية التى كان نابليون يبنى عليها الآمال الكبار ، ومع أن كليبر كان من أشد أنصار الجلاء ، إلا أنه أحس الذلة بعد التصديق على المعاهدة لأن اسمه قد اقترن بانسحاب الفرنسيين من مصر ، وقد أفضى بشعوره الى أخصائه وصرح به كتابة فى رسالة له الى المسيو بوسليج بتاريخ ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ قال فيها :

« إن هذه المعاهدة لم تسئ الى أحد سواى ، فان مصلحتى كانت تقضى على بان أكسب فخر منازلة الصدر الاعظم فى ميدان القتال ، وأن أقدم هذا الفخر على كل الاعتبارات الأخرى ، لكنى لا أكون قد قمت بواجبى الوطنى اذا أنا ضحيت حياة عشرين الف فرنسى فى سبيل مجدى الشخصى ، وسأستهدف الآن لمطاعن من كانوا حتى اليوم أكثر الناس خوفا من نتائج استمرار القتال ، فهم الآن سينادون بأنه كان يجب أن نواصل الحرب ، على أنى وطنت نفسى على ألا تغرينى المدائح كما لا تؤثر فى نفسى المثالب القائمة على الإفك والبهتان مادام ضميرى يشهد بأنى قد أديت واجبى »

طوت معاهدة العريش صحيفة القتال وقتيا ، وعاد الجنرال كليبر من الصالحية الى القاهرة يصحبه المندوبان المفوضان اللذان وقعا على المعاهدة فوصلوا الى القاهرة يوم ١٨ فبراير وأخذوا يعدون معدات الجلاء

الاستعداد للجلاء

عاد كليبر الى القاهرة وأخذ يستعد لجلاء الجنود الفرنسية عن مصر ، وألف لجنة لانفاذ الجلاء فى المواعيد المحددة فى المعاهدة ، وكان جاداً فى تنفيذ شروط الصلح غير حاسب أن فى الجو مفاجآت أدت بعد ذلك الى نقض المعاهدة ، فقد كان كليبر فى عودته الى القاهرة يصحبه أحد الرؤساء العثمانيين من حاشية يوسف باشا اسمه « محمد اغا » ليتولى ادارة الحكومة ، فساعده الجنرال كليبر فى

عمله وأمر حسن أغا نجاتى المحتسب بأن يتلقاه فى بيته ويبالغ فى أكرامه، قال الجبرتى فى هذا الصدد :

« فلما كان بعد العشاء، دخل ذلك الأغا الى مصر فى موكب ، فحصلت بين الناس ضجة عظيمة ، وازدحموا لمشاهدته والفرجة عليه »

مظالم الحكم التركى

لكن مندوب تركيا أدى مهمته بطريقة نفرت قلوب المصريين وكانت أعماله نموذجا سيئا جعلت المصريين ينظرون بعين السخط الى الحكم التركى، وسترى من الحوادث المقبلة التى وقعت بعد جلاء الفرنسيين أثر هذه الحالة النفسية فى تطور الحوادث فى مصر

دعا مندوب الدولة فى صباح تلك الليلة كبراء البلد من العلماء والاعيان والوجاقلية والتجار ، فلما اجتمعوا به تلا عليهم أمرا من الصدر الاعظم بتعيينه مديرا لجمارك القاهرة وبولاق ومصر القديمة ، ويقضى هذا الامر باحتكار جميع الواردات من أصناف الاقوات فيشتريها مدير الجمارك المذكور بالثمن الذى يسعره (بمعرفة المحتسب) ويودعها المخازن ، وتلا أمرا آخر يقضى بتعيين مصطفى باشا الذى سبق أن أسره الفرنسيون فى معركة أبو قير وكيلا عنه وقائمقاما بمصر الى حين حضوره ، والزام السيد احمد المحروقى كبير تجار القاهرة بتحصيل ثلاثة آلاف كيس (١) لسد نفقات ترحيل الجنود الفرنسية ، ولا جدال أن مثل هذه التصرفات وما فيها من احتكار الاقوات وفرض الاتاوات والغرامات لم تكن فاتحة سارة لأعمال المندوب العثمانى، بل كانت نذير الظلم والاعتساف ، قال الجبرتى فى هذا الصدد « أخذ السيد احمد المحروقى فى تحصيل ذلك القدر من الناس وفرضوه على التجار وأهل الاسواق والحرف ، وشرعوا فى تحكير الاقوات فغلت أسعارها وضاقت مؤن الناس ، ودهى الناس من أول أحكامهم (الاتراك) بهاتين الداهيتين، وكان أول قادم منهم أمير المكوسات (مديرا الجمارك) ومحكر الاقوات، وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم »

---

(١) الكيس خمسمائة قرش من عملة ذلك العصر

ومع ذلك فقد جبى السيد المحروقى هذه الغرامة من سكان القاهرة واجتهد فى توزيعها توزيعا عادلا ، ودفع الناس ما طلب منهم عن طيب خاطر لعلمهم أن ذلك لجلاء الفرنسيين

ولم يكتف يوسف باشا بذلك بل أصدر أوامره الى البلاد « بتعيين المعينين والمباشرين لطلب المال والغلال والكلف من الاقاليم ، وأرسل الى البنادر وجعل فى كل بندر أميرا ووكيلا لجمع الغلال والمطلوبات من الذخيرة وخزنها بالحواصل » ولا يخفى ما فى ذلك من الارهاق والظلم

وقال الجبرتى أيضا « ان العثمانيين تدرجوا فى دخول مصر ، وصاروا فى كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة ، وأخذوا يشاركون الناس فى صناعاتهم وحرفهم مثل القهوجية والحامية والخياطين والمزينين وغيرهم ، فاجتمع العامة وأصحاب الحرف وذهبوا الى مصطفى باشا قائممقام وشكوا اليه ، فلم يلتفت لشكواهم لان ذلك من سنن عساكرهم وطرائقهم العقيمة »

هذا ما كتبه الجبرتى فى بيان مساوىء الحكم التركى فى ذلك العهد ، وهو قول لا غبار عليه ، وقد أيدت الحوادث التى تتابعت بعد ذلك حكم الجبرتى

ولم تقف المغارم عند هذا الحد ، بل أخذ المماليك الذين جاءوا فى ركاب يوسف باشا يأمرون وينهون ويشمخون بأنوفهم ويعودون الى أساليبهم ومظالمهم القديمة ويفرضون على الاهالى ما شاءت أهواؤهم من الجعالات والاتاوات

أما الفرنسيون فقد انهمكوا فى اعداد معدات الرحيل وشرعوا فى بيع أمتعتهم وما بقى من سلاحهم ودوابهم ، وسلموا غالب الثغور والقلاع ، وبادر جماعة من أقطاب الحملة الى السفر لفرنسا دون انتظار رحيل الجيش ، وكان الجنرال (ديزيه) أحد الموقعين على معاهدة العريش أول من بادر الى السفر وصحبه فى سفره الجنرال دافو والقوميسير (ميو) Miot ومعهم بعض الضباط فأقلعوا من الاسكندرية قاصدين فرنسا ، لكن أوامر الامرال اللورد كيث Keith قومندان القوات البحرية الانجليزية فى البحر الابيض المتوسط صدرت الى بوارج الاسطول بالغاء العمل بشروط معاهدة

العريش ، فضبط الجنرال ديزيه ورفاقه ولبثوا فى ثغر (ليفورن) [١] رهن الاعتقال وهم يحتجون على هذه المعاملة وما فيها من نقض معاهدة العريش الى أن سمح لهم بمواصلة السفر الى فرنسا فوصل ديزيه الى طولون يوم ٢٤ أبريل سنة ١٨٠٠ [٢]

وكذلك جرى للمسيو بوسليج والجنرال دوجا وغيرهما فان السفن الانجليزية صادرت سفرهم ولم يصلوا الى فرنسا الا بعد عناء كبير

---

(١) من ثغور ايطاليا

(٢) علم ديزيه عند نزوله الى طولون ان نابليون فى ايطاليا يحارب النمسويين فلحق به وحارب الى جانبه فى معركة (مارنجو) التى انتصر فيها نابليون وقتل فيها ديزيه (١٤ يونيه سنة ١٨٠٠) ومن غرائب الاقدار انه قتل فى نفس اليوم الذى قتل فيه الجنرال كليبر بالقاهرة

الفصل الثامن

نقض المعاهدة

ومعركة عين شمس

لم تقع هذه المصادرات عفوا ، بل كانت نتيجة خطة اتبعتها الحكومة الانجليزية حيال معاهدة العريش ، فانها لم تقر هذه المعاهدة وأعلنت أنها لا ترتبط بشروطها ، وأصدرت أوامرها الى اللورد كيث بألا يأذن للجنود الفرنسية باجتياز البحر والوصول الى فرنسا

والواقع أن السير سدنى سميث لم يوقع على المعاهدة مع أنه كان وسيط الاتفاق بين الفرنسيين والعثمانيين والمتولى لسير المفاوضات والواضع لشروط الصلح ، ولعله لم يوقع عليها ليترك حكومته حرة فى تنفيذ ما يروق لها من نصوص المعاهدة ورفض ما لا يروقها ، فالحكومة الانجليزية لم تقبل أن يبحر الجنود الفرنسيون بأسلحتهم الى بلادهم وأصرت على أن يسلموا أسلحتهم ويسلموا أنفسهم كأسرى حرب وألا يسمح لهم بالذهاب الى فرنسا ، وكانت العقبات التى لقيها ديزيه و بوسليج ودوجا فى سفرهم نتيجة هذه التعليمات

أدرك الجنرال كليبر أن الحكومة الانجليزية قد عبثت به فى مفاوضات العريش فتركته يتعهد بالجلاء عن مصر واعتزمت أن تأخذ جنوده كأسرى حرب ، وفى الوقت نفسه كان يوسف باشا الصدر الاعظم يتقدم بجنوده فى داخلية البلاد تنفيذا للمعاهدة ، فاحتلت جنوده قطية والصالحية و بلبيس والسويس والمنصورة وعزبة البرج ودمياط بدون قتال ، واستقر فى بلبيس وتقدم القسم الاول من الجيش العثمانى بقيادة ناصف باشا الى الخانكه ثم الى المطرية ، وعين الصدر الاعظم درويش باشا واليا على الصعيد فمضى الى الوجه القبلى ليتولى حكمه

فشعر كليبر بحرج موقفه ، وأخذ يستعد لاستئناف القتال ، وكان بعض الجنود العثمانيين قد دخلوا القاهرة أفرادا ، وحدثت بينهم وبين الجنود الفرنسية بعض مشاجرات ، فأصدر كليبر أمرا بالا يدخل القاهرة أى جندى عثمانى ، وأعاد تحصين القلاع المحيطة بالمدينة وأرجع الذخائر والمهمات الى المعسكر العام ، واستدعى كتائب الجيش من الرحمانية ورشيد والوجه القبلى ، فاحتشد الجيش ورابط بالقبة استعداداً لملاقاة الجيش العثمانى القادم ، وأرسل كليبر الى الصدر الاعظم الذى كان لم يزل ببلبيس يذكر له ما كان من نقض الانجليز للمعاهدة ، فأرسل الصدر الاعظم الى السير سدنى سميث يطلب اليه احترام شروط الصلح ، وأخذ هو يزحف ببقية الجيش على القاهرة ، فوصل الى الخانكة ثم تقدمت جنوده بقيادة ناصف باشا نحو القبة فصارت وجها لوجه أمام القوات الفرنسية ، وفى ذلك الحين وصل الى القاهرة مندوب من قبل الاميرال اللورد كيث يحمل خطابا أشبه ببلاغ نهائى الى الجنرال كليبر ينذره بأنه تلقى من حكومته أمرا بألا يقبل أى اتفاق مع الجيش الفرنسى الا اذا قبل أن يلقى السلاح من يده ويسلم مالديه من الاسلحة والذخائر والامتعة والسفن ويسلم الجنود أنفسهم كأسرى حرب وألا يسمح بوصول الجنود الى فرنسا الا على قاعدة تبادل الاسرى ، وأعلنه أنه سيضبط فى البحر كل سفينة تقل جنودا فرنسية ولو كانت تحمل جواز مرور من أحد الحلفاء (يقصد تركيا) ويعتبرها غنيمة حربية ويعتبر الجنود الذين على ظهرها كأسرى حرب

كان هذا الانذار نقضاً صراحا لمعاهدة العريش ، فهو بمثابة اعلان لحرب جديدة عقيمة ، لأن جلاء الجنود الفرنسية عن مصر كان أمراً مقضيا وكان الفرنسيون جادين فى تنفيذ المعاهدة ، ومصر لم يكن يهمها الا الجلاء ، لكن الحكومة الانجليزية كانت تريد إذلال فرنسا بسبب العداء الذى كان قائما بين الدولتين ، ولم تقبل أن يعود الجيش الفرنسى الى بلاده كى لا يشترك فى الحروب الاوروبية بين فرنسا من جانب وانجلترا وحلفائها من جانب آخر ، وهكذا نفخت نار القتال فى مصر بغير جدوى بعد أن خمدت جذوتها واستعد الفرنسيون للجلاء ، ولقى الشعب المصرى فى

ميدان الحرب الجديدة من الويلات والكوارث ما كان عنه بمنجاة ، ففى خلال هذه الحرب ثارت مدينة القاهرة ثورتها الثانية فسفكت فيها الدماء واحرقت المدينة وتهدمت الدور وضاعت الارواح وتفاقمت الخطوب، كل ذلك لأن السياسة الانجليزية أبت أن تنفذ معاهدة اشتركت فى وضعها

اعتبر الجنرال كليبر انذار اللورد كيث بمثابة اعلان للحرب ، فأخذ يستعد لقتال الجيش العثمانى ، وكان معظم جنوده قد اصطفوا للقتال فى سهول (القبة) فطلب وهو فى القاهرة الى الصدر الاعظم أن ينسحب بجنوده الى بلبيس ثم الى الصالحية ثم الى حدود سورية والا أكرهه بقوة جيشه على الانسحاب ، وكان كليبر قد جعل هذا الانذار مقدمة للهجوم الذى أعد له عدته

معركة عين شمس

٢٠ مارس سنة ١٨٠٠

لم يضيع كليبر وقته وانتقل من القاهرة الى القبة ليلة ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠، وهناك قضى الليل فى تعبئة جنوده استعداداً للقتال ، تمت هذه الاستعدادات وقواد الجيش العثمانى لا يدرون من أمرها شيئا ولا يحسبون حسابا لما سيأتى به الغد ، ذلك ان الجيش العثمانى كانت تنقصه القيادة الصالحة كما كان يعوزه النظام وحسن الترتيب

نظم كليبر صفوفه على أربعة مربعات على الطريقة الفرنسية وجعل على صفوف الميمنة الجنرال (فريان) ، وعلى الميسرة الجنرال (رينييه) وتحت أمرتهما قواد المربعات (بليار) و (دنزلو) ويتبعان فريان ، والجنرال (روبان) و (لاجرانج) ويتبعان رينييه ، ووضع المدفعية بين المربعات ، والفرسان فى القلب بقيادة الجنرال لكليرك Leclerk

وكان عدد الجنود الذين حشدهم كليبر فى ميدان القتال عشرة آلاف مقاتل وترك في القاهرة ألفى جندى لحمايتها من ثورة الاهالى والدفاع عن الحصون المشرفة على المدينة .

أما الجيش العثمانى فكانت قواته الامامية بقيادة ناصف باشا تحتل المطرية وعددها ستة آلاف من الجنود الانكشارية ، وكانت طلائعها تمتد يمنة الى النيل ويسرة الى سبيل ابن الحكم(١) وكانت جموع الجيش العثمانى ترابط بغير نظام خلف هذه المواقع بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا وتحتل الجهات الممتدة بين الخانكه وأبى زعبل

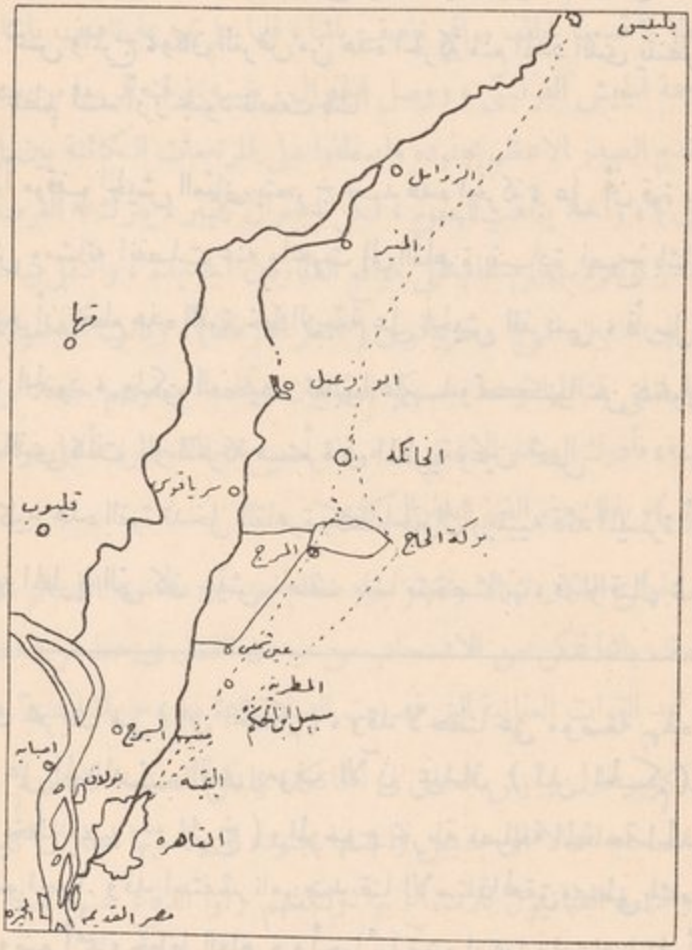

بين القاهرة وبلبيس (تخطيط سنة ١٨٠٠)
وفيها بيان ميدان معركة عين شمس

---

(١) ورد اسمه فى المراجع الفرنسية (سبيل الحم) وذكر اسمه بالعربية بهذا الوضع فى الخرطة التفصيلية التى خططها مهندسو الحملة الفرنسية ، ويلوح

ففى الساعة الثالثة من صبيحة يوم ٢٠ مارس بدأ كليبر يتحرك قاصدا مواقع ناصف باشا فى المطرية ، فوصلت قوات الميمنة الفرنسية تجاه سبيل ابن الحكم حيث كانت ترابط كتيبة من طلائع الجيش العثمانى ، فارتدت أمام هذا الهجوم ، ووصلت قوات الميسرة أمام المطرية ووقفت لتعطى قوات الميمنة الوقت الكافى لتصل الى ما بين عين شمس والمرج ، وكان الغرض من هذه الحركة منع المدد الذى ينتظر أن يرسله الصدر الاعظم لشد أزر جنود ناصف باشا

ابتدأ موقف الجيش العثمانى يتحرج بعد هذه الحركة ، على أن قوة من فرسان هذا الجيش ومشاته انفصلت عنه واتجهت الى القاهرة بقيادة نصوح باشا ، وخشى الجنرال كليبر أن تقطع هذه القوة خط الرجعة على الجيش الفرنسى ، فأرسل لمحاربتها كتيبة من الجنود ، ولكن العثمانيين تغلبوا عليها وتمكنوا من دخول القاهرة فى الوقت الذى كانت نار المعركة مستعرة فى المطرية وعين شمس

ترك كليبر هذه القوة تدخل القاهرة وكلف الجنرال رينييه قائد الميسرة أن يهاجم بجنوده قرية المطرية التى كان جيش ناصف باشا متحصنا بها ، فدار قتال شديد بين

لنا أن ذلك تحريف من (ابن الحكم) ، وقد لاحظنا على موضعه بهذه الخرطة أنه ينطبق على الميدان الذى يعرف الآن بميدان (ابن الحكم) بحلمية الزيتون (خط مصر — المرج) والمرسوم بخرطة مصلحة المساحة الحديثة عن القاهرة وضواحيها . وقد استفسرنا من صديقنا الاستاذ المحقق مصطفى بك منير أدهم الذي تولى وضع أسماء خطط القاهرة وأحيائها وشوارعها وارجاعها الى أصولها ومناسباتها التاريخية عن حكمة تسميته ذلك الميدان والشارع الذى يصل اليه من محطة الحلمية (ميدان ابن الحكم) و (شارع ابن الحكم) فأخبرنا انه سماها بهذا الاسم لان بهذه الجهة وقعت المعركة المشهورة بين مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن عتبة بن جحدم سنة ٦٤ هجرية

الفرنسيين والاتراك انتهى بفوز الفرنسيين واستيلائهم على معسكر العثمانيين بالمطرية (١) وكان لمدافع الفرنسيين تأثير كبير فى سير المعركة

انتصر الفرنسيون على جيش ناصف باشا واحتلوا المطرية ، ولكن قوات الصدر كانت مرابطة كما قدمنا خلف مواقع ناصف باشا ، فلما علم بهزيمة ناصف باشا أقبل بمجموعه لمهاجمة الجيش الفرنسى ، ووصل الجنرال رينييه بفرقته قريبا من مسلة عين شمس ، فتقدم الصدر الاعظم بجنوده واصطفوا على المرتفعات الكائنة بين (المرج) و(سرياقوس) ، وأخذ يتأهب للهجوم ، لكن الجنرال كليبر لم يترك له الفرصة لترتيب هجومه فأصدر أوامره بهجوم عام على مواقع العثمانيين الجديدة ، وانتقل ميدان القتال من المطرية الى ما بين المرج وسرياقوس (أنظر الخرطة) ، وكانت المدفعية الفرنسية تحكم الرماية فتلقى قنابلها وسط معسكر العثمانيين وتحصد صفوفهم حصدا وتوقع بهم خسائر جسيمة ، فأدرك الصدر الاعظم ان موقفه أصبح هدفا للخطر ، فأخلى مواقعه وارتد الى (الخانكه) و بذلك تم الفوز للجنرال كليبر

انهزم الجيش العثمانى شمالا وتقهقر بغير نظام بعد أن فدحته الخسائر الجسيمة ، على أن ناصف باشا تمكن من الانسحاب من ميدان القتال فى رهط من الجنود واتجه الى القاهرة ليمد القوات العثمانية التى قصدت اليها بقيادة نصوح باشا عند بدء القتال

تعقب كليبر فلول الجيش العثمانى فى الخانكه ، ولكن الصدر الاعظم لم يبق بها واستمر فى انسحابه شمالا الى بلبيس واحتلها بجنوده فأدركه فيها الجنرال كليبر مساء ذلك اليوم واستعد العثمانيون للامتناع بها ولكنهم رأوا الدفاع عنها عبثا فأخلوها وتقهقروا الى الصالحية

---

(١) يتبين من ذلك أن أكبر شطر من المعركة وقع فى المطرية ، ولذلك يسميها بعض المؤرخين معركة المطرية ، على أن اسمها الشائع معركة (عين شمس) لان المطرية قائمة بالقرب من أطلال عين شمس القديمة

رواية الجبرتى

قال الجبرتى عن معركة عين شمس مايلى « اليوم الثالث والعشرين من شوال سنة ١٢١٤ (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) ركب ساري عسكر كلهبر قبل طلوع الفجر بعساكره وصحبتهم المدافع وآلات الحرب، وقسم عساكره طوابير فمنهم من توجه الى عرضى (جيش) الوزير (يوسف باشا) ومنهم من مال على جهة المطرية فضربوا عليهم فلم يسعهم الا الجلاء والفرار، وتركوا خيامهم ووطاقهم، وركب نصوح باشا ومن كان معه وطلبوا جهة مصر فتركهم الفرنساوية ولحقوا بالذاهبين من اخوانهم الى جهة العرضى بالخانكاه بعد أن نهبوا مافى عرضى ناصف باشا من المتاع والاغنام وسمروا أفواه المدافع وتركوها وساروا الى جهة العرضى فلما قاربوه أرسلوا الى الوزير يأمرونه بالرحيل بعد أربع ساعات، فلم يسعه الا الارتحال والفرنساوية فى أثره وغالب عساكره مفرقون ومنتشرون فى البلاد والقرى والنواحى لجمع المال ومقررات الفرض (١) وظلم الفقراء »

استمر الجيش التركى فى ارتداد من الصالحية حتى حدود فلسطين ، وبذلك تبدد الجيش العرمرم الذى جاء يقوده الصدر الاعظم ليتسلم مقاليد الحكم فى البلاد بعد ابرام معاهدة العريش ، وجرت الامور على غير مايتوقعه الصدر وعادت السلطة مؤقتا الى يد الفرنسيين

---

(١) جمع فرضة اى ضريبة

الفصل التاسع

ثورة القاهرة الثانية

٢٠ مارس — ٢١ ابريل سنة ١٨٠٠

كانت الحامية الفرنسية فى القاهرة اثناء احتشاد الجيش الفرنسى فى معركة عين شمس مؤلفة من ٢٠٠٠ مقاتل بقيادة الجنرال (فردييه) Verdier موزعة على القلاع المحيطة بالمدينة والمعسكر العام بالازبكية ، وقد أصدر الجنرال كليبر أوامره الى فردييه قبل انتقاله الى (القبة) أن يمتنع بالقلاع متى أحس بوادر الثورة فى المدينة، وأن يحافظ على المواصلات بين قصر العينى وقلعة الجبل وقلعة قنطرة الليمون ، (١) وكان الجنرال زايونشك مرابطا بالجيزة مدداً لحامية المدينة عند الحاجة ، واعتقد الجنرال كليبر أن هذه الاستعدادات كافية لاخضاع القاهرة فى غيبته لقتال الجيش العثمانى

على أن انفصال الكتيبة المؤلفة من المقاتلة العثمانيين والمماليك بقيادة نصوح باشا عن ميدان معركة عين شمس ودخولها القاهرة قد غير وجه المسألة ، لان هذه الكتيبة من شأنها أن تشجع روح الثورة فى نفوس الشعب المستعد فى كل لحظة للمقاومة ، كما أن ناصف باشا قد انسحب بعد المعركة كما علمت واتجه الى القاهرة فى عدد حاشد من رجاله (٢) واندس جماعة منهم فى مختلف البلدان والاقاليم يحرضون الناس على الثورة، فذهب فريق الى دمياط وفريق الى الصعيد يستنفرون الناس لقتال الفرنسيين ، وكانت النفوس متحفزة من قبل لمقاومتهم ، فتجددت حركات

---

(١) هى القلعة التى أنشأها الفرنسيون بقنطرة الليمون وسموها قلعة (كامان) Camin ، انظر خريطة القاهرة ص ٣١٢ الجزء الاول

(٢) انظر ص ١٤٨

الثورة والمقاومة فى القاهرة وفى مختلف النواحى والجهات، وهكذا لم يكد يخرج الجنرال كليبر ظافرا من معركة عين شمس حتى واجه فى القاهرة ثورة جديدة اشد وأعظم من ثورتها الاولى ، وتجددت حركات الهياج فى الوجه البحري ، فاصدر تعليماته الى الجنرال (رامبون) فى منوف بأن يتجه بجنوده الى دمياط ، وعهد الى الجنرال (بليار) بمعاونته فى مهمته، وكان الجنرال (لانوس) يجوب أنحاء الدلتا لاخماد الهياج ، ثم اتصل بالجنرال (رامبون) بالقرب من شمنود فى طريقه الى دمياط

شبت نار الثورة اذن فى القاهرة يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ ومعركة عين شمس قائمة، وكان من زعماء هذه الثورة السيد عمر مكرم نقيب الاشراف والسيد احمد المحروقى كبير التجار والشيخ الجوهرى ابن الشيخ محمد الجوهرى (١)

بدء الثورة

لم يكد يسمع سكان العاصمة قصف المدافع فى ميدان المعركة حتى بدأت الثورة فى حى بولاق ، وفى ذلك يقول الجبرتى « أما بولاق فانها قامت على ساق واحد ، وتحزم الحاج مصطفى البشتيلى وأمثاله (من دعاة الثورة) وهيجوا العامة وهيئوا عصيهم وأسلحتهم ، ورمحوا وصفحوا، وأول مابدءوا به أنهم ذهبوا الى وطاق الفرنسيس الذى تركوه بساحل البحر (النيل) وعنده حرس منهم فقتلوا من أدركوه منهم ونهبوا جميع مابه من خيام ومتاع وغيره ، ورجعوا الى البلد وفتحوا مخازن الغلال والودائع التى للفرنساوية وأخذوا ما أحبوا منها وعملوا كرانك حوالى البلد ومتاريس »

والحاج (مصطفى البشتيلى) الذى ذكره الجبرتى هو من أعيان بولاق ، سمى البشتيلى نسبة الى (بشتيل) من أعمال الجيزة ، وقد تكلم عنه الجبرتى لمناسبة اعتقاله قبل حوادث هذه الثورة بعدة أشهر ، فذكر أن الفرنسيين اعتقلوه ثانى ربيع الاول

---

(١) ذكر الجبرتى الاثنين الاولين، أما ابن الشيخ الجوهرى فقد ذكره الجنرال كليبر فى يومياته ، وكتب كليبر كذلك فى مذكراته ان الشيخ السادات كان من المحرضين على الثورة

سنة ١٢١٤ (٤ أغسطس سنة ١٧٩٩) لما بلغهم من بعض الوشاة أن بوكالته قدوراً مملوءة بارود ، ففتشوا الوكالة ووجدوا البارود فى القدور ، فضبطوهـا واعتقلوه ، ولم يذكر الجبرتى متى أفرجوا عنه قبل نشوب الثورة ، وظاهر من منطق الحوادث أنهـم أطلقوا سراحه بعد ابرام معاهدة العريش لما عزموا على الجلاء ، فلما نقضت المعاهدة وتجددت الحرب كان البشتيلى من دعاة الثورة فى بولاق

ثار أهل بولاق وحملوا ما وصلت اليه أيديهم من السيوف والبنـادق والرماح والعصى ، واتجهوا بجموعهم صوب قلعة قنطرة الليمون (قلعة كامان) لاقتحامها ، ولكن حامية القلعة ردت هجومهم بنيران المدافع ، فاعاد الثوار صفوفهم ، استأنفوا الهجمة ، فارسل الجنرال (فرديبه) مدداً من الجنود الى الحامية فشتتوا جموع الثائرين بنيران المدافع والبنادق ، وقتل فى هذا الهجوم ثلثمائة من الثوار

أثارت هذه الحركة ثائرة الأهالى فى الأحياء الأخرى من المدينة ، وزاد فى روح الثورة دخول ناصف باشا الى القـاهرة على النحو الذى عرفته ، وكان يصحبه عثمان بك كتخدا الدولة وهو من كبار موظفى الباب العالى وجماعة من البكوات المماليك كابراهيم بك ومحمد بك الالفى وحسن بك الجـداوى ، ومع أن ناصف باشا كان فى الواقع فاراً من ميدان القتال وبالرغم من أن وصوله كان بعد أن حلت الهزيمة بالجيش العثمانى فان الاشاعات قد طارت فى المدينة بأن الجيش الفرنسى قد انهزم فى ميدان القتال ، وزاد فى تأييد هذه الاشاعات رؤية النـاس جماعة من فرسان العثمانيين والمماليك يجوبون شوارع القاهرة وهم الذين تركوا ميـدان معركة عين شمس

هجوم الثوار على معسكر الفرنسيين

عمت الثورة أنحاء المدينة ، واتجه الثوار بجموعهم الى معسكر القيادة العامة للجيش

الفرنسى بالازبكية (بيت الالفى بك) وعددهم كما يقدرهم (ريبو) (١) نحو عشرة آلاف ثائر ، وكان الجنرال ديرانتو يدافع عن معسكر الازبكية بكتيبة من الجنود فتلقى الثائرين بنار شديدة من البنادق والمدافع ، فردهم على أعقابهم وتقهقروا واحتلوا بعض المنازل المجاورة للميدان لاطلاق النار على المعسكر ، فأقامت الجنود الفرنسية متاريس من جذوع النخيل للدفاع عن معسكرهم

امتدت الثورة الى كثير من النواحى ، وازداد عدد الجموع المنضمة الى لوائها ، وانبث دعاة الثورة فى كل مكان يحرضون الناس على القتال ، وامتلأت بهم الشوارع والميادين والاسطحة حتى بلغ عددهم كما يقدرهم المسيو (جالان) (٢) خمسين ألف ثائر حاملين البنادق والاسلحة والعصى ، واندفعت جموعهم تتقدمهم طائفة من المماليك والانكشارية ، وانضم اليهم النساء والاطفال فكان لهم نداءات وصيحات تصم الآذان ، وهبت عاصفة الثورة على أحياء العاصمة كلها

هجم الثوار على معسكر الفرنسيين ثانية فى ميدان الازبكية واستعملوا فى الهجوم ثلاثة مدافع من مدافع العثمانيين التى كانت لهم فى المطرية ، ولعدم وجود القنابل استعاضوا عنها بكرات الموازين الحديد التى جلبوها من الوكائل والدكاكين ، لكن الحامية الفرنسية كانت متحصنة فى المعسكر فثبتت لهم واستمر القتال الى اليوم التالى ، وأخذت القلاع منذ ابتداء الثورة تضرب المدينة بالمدافع وتسلط قنابلها على الاحياء الثائرة ، وكانت قلعة الجبل وقلعة ديبوى أشد القلاع فتكا بالمدينة ، فوقع الرعب فى الناس وأزمع كثير منهم المهاجرة ، ولكن دعاة الثورة تعلقوا بهم وأغلقوا باب النصر الذى كانت تقصد اليه الجموع للخروج من المدينة ، فانبعثت روح الحماسة والقتال فى نفوس الناس ، وهجم الثوار على بيت مصطفى أغا (محافظ المدينة) الذى كان متهما بايذاء الاهالى فأقاموا عليه البينة بما ارتكبه من الايذاء وقتلوه

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السابع
(٢) فى كتابه (صورة مصر أثناء اقامة الجيش الفرنسى)

معسكر الفرنسيين بالازبكية سنة ١٨٠٠ (انظر ص ١٥٤)

وفى اليوم التالى (٢١ مارس سنة ١٨٠٠ — ٢٤ شوال سنة ١٢١٤) اتسع نطاق الثورة وغامرت فيها طبقات الشعب كافة ، قال الجبرتى فى هذا الصدد « تهيأ كبراء العساكر والعساكر ومعظم أهل مصر ما عدا الضعيف الذى لا قوة له للحرب ، وذهب المعظم الى جهة الازبكية وسكن الكثير فى البيوت الخالية والبعض خلف المتاريس ، وأخذوا عدة مدافع (١) زيادة عن الثلاثة الاخرى وجدت مدفونة فى بعض بيوت الامراء (المماليك) وأحضروا من حوانيت العطارين من المثقلات التى يزنون بها البضائع من حديد وأحجار استعملوها عوضا عن الجلل للمدافع ، وصاروا يضربون بها بيت سارى عسكر بالازبكية » (٢)

فى هذا اليوم حضرت قوة الجنرال (لاجرانج) Lagrange التى أرسلها كليبر لنجدة حامية القاهرة ، جاءت فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر وكانت ممتلئة حماسة بسبب انتصار الجيش الفرنسى فى معركة عين شمس ، فاكتسحت الشوارع الموصلة الى معسكر الجنود فى الازبكية ورفعت الحصار عنه وانضمت الى الحامية وزادت فى تحصين المعسكر بحيث تعذر على الثوار اقتحامه ، لكنهم استطاعوا بمعاونة حلفائهم العثمانيين والمماليك احتلال البيوت التى كان يسكنها قواد الجيش الفرنسى حول ميدان الازبكية كبيت الجنرال (رينييه) (٣) وبيت فرقة الهندسة المجاور له وغيرهما

اشتداد الثورة

ثم جاء الجنرال (فريان) Friant بجنوده وأراد أن يعيد النظام فى المدينة ، ولكنه لم يستطع اقتحام الشوارع لكثرة ما كان بها من المتاريس والمنازل المحصنة ، فقد أقام الثوار المتاريس على أبواب المدينة وفى معظم أحيائها كباب اللوق ، وناحية المدابغ ، والمحجر ، والشيخ ريحان ، والناصرية ، وقصر العينى ، وقناطر السباع ، وسوق السلاح ، وباب النصر ، وباب الحديد ، وباب القرافة ، وباب البرقية ،

---

(١) ذكر (ريبو) ان عددها عشرون مدفعا

(٢) العبارات التى بين قوسين منقوله عن الجبرتى

(٣) هو الذى يعبر عنه الجبرتى ببيت احمد اغا شويكار مالكه الأصلى

والسويقة ، والرويعى ، وكانت المتاريس على جانب كبير من المناعة فقد بناها الثوار فى الشوارع و بلغ علو بعضها اثنى عشر قدما ، وتحصن الناس حولها وتحمسوا للقتال ، وعبثا حاول بعض العقلاء أن يقنعوهم بانتصار الجيش الفرنسى فى معركة عين شمس فأبوا أن يصدقوا ذلك ولم يقبلوا أى نبأ يكسر شوكة الثورة ، وقتلوا الرسل الذين جاءوا بالاخبار الصحيحة عن المعركة ، و بذل الاهالى ما فى طوقهم لتأييد الثورة ، وأتوا فى هذا السبيل من الاعمال ما أدهش الفرنسيين ، فقد أنشئوا فى أربع وعشرين ساعة معملا للبارود فى بيت قائد أغا بالخرنفش ، وأنشئوا معملا لاصلاح الاسلحة والمدافع ، ومعملا آخر لصنع القنابل وصب المدافع جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت ، وتطوع الصناع للعمل فيه وقدموا ما لديهم من الحديد والآلات والموازين وأخذوا يجمعون القنابل التى تتساقط من المدافع الفرنسية فى الشوارع ويستعملونها قذائف جديدة للضرب ، قال الجبرتى : « وأحضروا ما يحتاجون اليه من الاخشاب وفروع الاشجار والحديد وجمعوا الى ذلك الحدادين والنجارين والسباكين وأرباب الصنائع الذين يعرفون ذلك فصار هذا كله يصنع ببيت القاضى والخان الذى بجانبه والرحبة التى عند بيت القاضى من جهة المشهد الحسينى »

وقال مسيو مارتان أحد مهندسى الحملة (١) وكان شاهد عيان لتلك الثورة « لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع أحد ان يقوم به من قبل ، فقد صنعوا البارود ، وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصناع ، وفعلوا مايصعب تصديقه — وما راء كمن سمع — ذلك انهم صنعوا المدافع »

وقال الجنرال كليبر فى يومياته « استخرج الاعداء مدافع كانت مطمورة فى الارض ، وانشئوا معامل للبارود ومصانع لصب المدافع وعمل القنابل ، وأبدوا فى كل ناحية من النشاط ما أوحت به الحماسة والعصبية ، هذه هى بوجه عام حالة القاهرة عند قدومى اليها ، وانى لم أكن أتصورها فى هذه الدرجة من الخطورة »

---

(١) فى كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر)

ثم كل ذلك فى ثلاثة أيام وتطوع الاهالى لامداد الثوار بالزاد وتوزيع الاقوات « وباشر السيد المحروقى وباقى التجار الكلف والنفقات والمآكل والمشارب ، وكذلك جميع أهل مصر كل انسان سمح بنفسه وبجميع مايملكه ، وأعان بعضهم بعضا ، وفعلوا مافى وسعهم وطاقتهم من المعونة ، وأما الفرنسيس فانهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالبلد وبيت الالفى (دار القيادة العامة) بالازبكية وما والاه من البيوت واستمر الناس بعد دخول الباشا (ناصف باشا) والامراء ومن معهم من العسكر إلى مصر أياما قليلة وهم يدخلون ويخرجون من باب الفتوح وباب العدوى ، وأهل الارياف القريبة تأتى بالميرة والاحتياجات من السمن والجبن واللبن والغلة والتبن والغنم فيبيعونه أهل مصر ثم يرجعون الى بلادهم »

اعتداءات يؤسف لها

على أنه مما شوّه هـذه الثورة وقوع بعض حوادث اعتداء على المسيحيين فى المدينة ، ولا يسع الكاتب المنصف إلا أن يشعر بأسف عميق لوقوع هذه الحوادث لان الاعتداءات المذهبية تشوه الثورات وتلقى عليها تبعات جساماً وتجعلها بحق هدفاً للاستنكار والسخط ، ولا يخفف من هـذه التبعة كون الاعتداء لم يقتصر على المسيحيين بل تناول فريقا من المسلمين ممن اتهمهم الثوار بموالاة الفرنسيين فقد قتلوا محافظ المدينة (مصطفى أغا) بهذه الحجة كما قدمنا ، واعتدوا كذلك على السيد خليل البكرى ولم يراعوا منزلته ولا مقام بيته ، وشهر به العامة فساقوه فى الشوارع عارى الراس تتبعه الشتائم والاهانات ، وكادوا يفتكون به لولا أنْ حماه عثمان بك كتخدا الدولة وآواه السيد احمد بن محمود محرم أحد اعيان التجار الى بيته ، نقول إن مثل هـذه الحوادث ليس من شأنها أن تخفف من تبعة الاعتداء على المسيحيين ، لانها هى كذلك خليقة بالسخط والاستنكار ، وإنما يخفف من تبعتها عن العنصر المصرى أن مسئوليتها واقعة بالاكثر على عنصر الاتراك والمماليك ، فانهم بشهادة المراجع الفرنسية هم الآمرون بالاعتداء على المسيحيين والمحرضون للعامة على هذا الاعتداء ، والعامة فى كل عصر

بتبع بلا تفكير أو روية أوامر الزعماء وأهواءهم ، فالقوميسير (ميو) Miot وهو شاهد عيان لهذه الثورة ـ يقول فى مذكراته إن كتائب الجنود العثمانية بقيادة ناصف باشا هى التى ارتكبت حوادث الاعتداء على المسيحيين ، ويقول الجنرال كليبر فى مذكراته إن والى الشرطة نادى بين الناس بوجوب المحافظة على أرواح المسيحيين وتوجيه قوتهم ضد الفرنسيين وحدهم ، ويقول الجبرتى أن نصوح باشا هو الآمر بالاعتداء على المسيحيين وان جماعة الحجازية والمغاربة هم الذين ارتكبوا المنكرات من نهب وقتل

وهنا تبدو ملاحظة جديرة بالنظر ، وهى المقابلة بين هذه الثورة وثورة القاهرة الاولى فالثورة الاولى (١) بشهادة المراجع الفرنسية قد خلت من حوادث الاعتداء على المسيحيين بخلاف الثورة الثانية ، والمقابلة هنا ذات مغزى هام إذا لاحظت أن الزعامة فى ثورة القاهرة الأولى كانت للعنصر المصرى وحده فلم يشترك فى قيادتها عنصر الترك ولا المماليك ، أما الثانية فانه وإن كانت زعامتها قد اشترك فيها العنصر القومى الى حد ما ممثلا فى أشخاص السيد عمر مكرم والسيد احمد المحروقى والشيخ الجوهرى وغيرهم إلا أن القيادة العليا فيها كانت للترك والمماليك مثل ناصف باشا ونصوح باشا وابراهيم بك ، فخلو الثورة الأولى من حوادث الاعتداء على المسيحيين ووقوع هذا الاعتداء فى الثورة الثانية مما يشرف العنصر القومى ويبرهن على أن قيادته للثورة تجعلها أميل الى جانب الانسانية وأبعد عن الفظائع والاعتداءات المستنكرة ، ومن الانصاف أن نستنتج من هذه المقابلة مبلغ ماجبلت عليه الروح القومية المصرية من الفطرة السليمة ونزاهة المقصد وأنها لاتفسد الا بفساد القادة والزعماء ، والناس على دين ملوكهم

والآن فلننتقل الى تتبع حوادث الثورة وتطوراتها

وصول الجنرال كليبر

جاء الجنرال كليبر يوم ٢٧ مارس بعد أن ترك حاميات من الجنود فى الصالحية والقرين وبلبيس ، وعاد الى مصر فألفى نار الثورة تضطرم فى أحيائها من أقصاها الى

---

(١) انظر الجزء الاول الفصل الثالث عشر

أقصاها ، ورأى الضواحى والبلاد المجاورة لهـا قد اشتركت فى الثورة وأمدت ثوار القاهرة بالرجال والعتاد ، وشاهد فى بولاق ومصر القديمة حصونا أقامها الثوار للدفاع ووجد جميع الوكائل والمخازن التى على النيل قد تحولت الى شبه قلاع احتلهـا الثوار وصارت الملاحة فى النيل تحت رحمتهم

كانت القاهرة فى ذلك الحين معقلا كبيراً للثورة ، فأدرك كليبر خطر الحـال ، وفكر طويلا فى الوسيلة الناجعة لاخمادها بعد أن تغلغلت فى المدينة الى هـذا الحد، فرأى أن أخذ الثائرين بالقوة المسلحة قد لا يؤدى الى إخماد الثورة لأن المتـاريس كانت منتشرة فى أحياء القاهرة والثوار مستبسلون فى المقـاومة ، ورأى أن مهاجمتهم فى معـاقلهم قد يفقده جنوداً كان يومئذ فى حاجة اليهم ، فضلا عن أن جزءاً كبيراً من جيشه كان فى طريقه الى دميـاط بقيادة الجنرال (بليار) ، وفرقة الجنرال (رينييه) لم تزل مرابطة بالشرقيه ، وكانت معركة عـين شمس قد استنفدت جزءاً كبيراً من ذخائر الجيش ، فرأى من كل هذه الظروف أن المبادرة الى مهاجمة الثوار بقوة الحديد والنار مجازفة لا تؤمن عواقبهـا ، ورأى من الحكمة أن يأخذهم بالمطاولة ويستخدم الزمن فى فل حدهم وتخضيد شوكتهـم و بذر الشقاق بين صفوفهم فعسى بعد ذلك أن يتبين الثوار حقيقة الهزيمه التى حلت بالجيش العثمانى فتضعف بطبيعة الحال روحهم المعنوية ، ومع الزمن يدب الملل الى صفوفهم بما يجـدون من عاقبة وقوف الأعمال وتعطيل حركة الأسواق واستهداف المدينة لخطر المجاعة ، فالزمن إذن كان يخدم كليبر ويضعف حركة الثورة ، على أن كليبر أخذ فى فترة الانتظـار يعد المعدات لقمع الثائرين آخر الأمر بقوة السيف والنار ، فأخذ يحصن القلاع ويقيم الاستحكامات ، ويركب المدافع ويعد المواد الملتهبة التى عزم على استخدامها لاحراق المدينة ، وفى الوقت نفسه كانت القلاع لا تنفك تضرب الاحيـاء الآهلة بالسكان بالمدافع .

استخدم كليبر الوقت لفصم عرى الاتحاد بين الثوار قبل أن يضرب الضربة النهائية ، فقد كانت الثورة تضم تحت لوائها ثلاثة عناصر وهم المصريون سكان

القاهرة ، والأتراك، والمماليك. فهذه العناصر الثلاثة قد اجتمعت واتحدت لمحاربة العدو المشترك ، لكن اختلاف المصالح وتباين الأغراض كان عقبة فى سبيل دوام هذا الاتحاد ، وهذه العقبة وإن ذللت تحت لواء الثورة الا أنها لا تلبث أن تبدو للعيان عند أول فرصة . ولقد أوجد كليبر هذه الفرصة بمفاوضة زعماء الاتراك فى وقف القتال، واستخدم فى فتح هذه المفاوضة مصطفى باشا (١) الذى كان لم يزل أسيراً فى يد الفرنسيين وكانوا يأسرونه بحسن المعاملة ، فتدخل مصطفى باشا وأقنع ناصف باشا بضرورة الكف عن القتال وأطلعه على تفاصيل هزيمة الصدر الأعظم وانسحابه الى حدود سورية. واستمرت المفاوضة مع زعماء الاتراك ورؤساء المماليك فى وضع شروط الصلح ، أما أهالى القاهرة الذين على أكتافهم قامت الثورة فلم يحسب لهم حساب فى هذه المفاوضات ولم يمثلهم فيها أحد للدفاع عن مصالحهم ، والواقع انهم العنصر الذى ثار غير مدفوع بأغراض شخصية أو أهواء ذاتية ، لكن زعماء الأتراك والمماليك ما كانوا يقصدون من التحريض على الثورة والاشتراك فيها إلا استعادة سلطانهم الممقوت فى البلاد ، ولقد أدرك الاهالى أن الاتراك والمماليك بدءوا يعبثون بهم ، ولذلك لم يكد يتم الاتفاق بين هؤلاء والفرنسيين على إلقاء السلاح حتى أدركوا أنهم فقدوا نفوذهم بين الجماهير فلم تعد تستمع لنصائحهم ، وأخذ دعاة الثورة من الاهالى يحرضون الناس على الاستمرار فى القتال وضموا إليهم الجماهير، فتنادوا بمواصلة القتال وخيانة المماليك والاتراك

وفى غضون ذلك كان مراد بك زعيم المماليك قد بدأ مفاوضاته مع الجنرال كليبر للاتفاق مع الفرنسيين كما سيجىء تفصيل ذلك ، فأدرك الجنرال كليبر أن مصلحته تقضى بأن يتم اتفاقه مع مراد بك ويخضع الجهات الثائرة فى الوجه البحرى . وبذلك يتم له تطويق القاهرة ثم يتفرغ لاخماد ثورتها وإخضاع أهلها تلك هى الخطة التى رسمها لمواجهة الثورة والتغلب عليها

---

(١) هو قائد الجيش التركى فى واقعة أبو قير البرية وقد أسره الفرنسيون كما مر بيان ذلك واستخدموه فى مفاوضات الصلح ثم توفى فى دمياط سنة ١٢١٤

إخضاع الوجه البحرى

وصل الجنرال بليار الى دمياط تنفيذا لتعليمات كليبر، وكانت الجنود العثمانية تحتلها وتعسكر فى المدينة بغير نظام ولا قيادة ، فلما اقترب بليار بجنوده خرج العثمانيون للاقائهم من غير خطة محكمة ، ووصلوا الى قرية (الشعراء) ودارت بينهم و بين الفرنسيين معركة انتهت بهزيمة العثمانيين ، واستولى الجنرال بليار على عشرة مدافع وقصد بجنوده دمياط فاحتلها واحتل حصونها ، واستولى كذلك على (عزبة البرج) وأذاع بين الاهالى خبر هزيمة الصدر الاعظم وانسحابه الى الصحراء ، وفرض غرامة حربية قدرها ٢٠٠ الف فرنك على سكان المدينة ، ثم سار الى (منوف) وأخمد الثورة التى نشبت فيها ، وامتدت الثورة إلى (المحلة الكبرى) و (سمنود) و (طنطا) فجرد الجنرال لانوس عليها كتيبة من الجنود بقيادة الادجودان جنرال فالنتين Valentin فأخمدت الهياج واستعملت القسوة وسفكت دماء الناس وصادرت أموالهم وضربت على البلاد التى أخضعتها غرامات حربية جسيمة واعتقلت الكثير من الاعيان لاكراههم على دفع الغرامات وتحصيلها

أصدر الجنرال كليبر أمرا فى ٣ مايو سنة ١٨٠٠ بفرض غرامة خمسين ألف ريال على مشايخ (علماء) طنطا ألزموا بدفعها فى عشرة أيام ، قضى كليبر بهذه الغرامة « عقابا لهم على الاشتراك فى الثورة التى شبت فى مدينتهم وفى الدلتا أثناء حصار القاهرة » وذكر فى أمره أن اثنين من هؤلاء العلماء اعتقلا فى سجن القلعة ، وفرض كذلك على أهالى طنطا خلاف الغرامة المتقدمة خمسين ألف ريال أخرى لاشتراكهم فى الثورة ، وأمر بنقل الشيخين المعتقلين فى القلعة الى سجن منوف حيث يبقيان الى أن تسدد الغرامة كلها وأن يعادوا الى سجن القلعة اذا لم تسدد الغرامتان فى مدة العشرة الايام المحددة فى الامر

وذكر الجبرتى شيئا من تلك الحوادث المروعة فقال عن ثورة المحلة :

« لما حضر العثمانية وشاع أمر الصلح وخضوع الفرنساوية لهم نزلت طائفة من

الفرنسيس الى المنوفية وطلبوا من أهلها كلفة (نفقات) رحيلهم ، فلما مروا بالمحلة الكبيرة تعصب أهلها واجتمعوا إلى قاضيها وخرجوا لحربهم ، فكمن الفرنسيس لهم وضربوهم بالمدافع والبنادق فقتلوا منهم نيفاً وستمائة إنسان منهم القاضى وغيره ، ولم ينج منهم إلا من فر وكان طويل العمر » ثم ذكر رجوعهم عليها بعد ذلك بغرامة جسيمة .قال « وقرروا عليها نيفاً ومائة الف ريال فرنساوى وأخذوا فى تحصيلها وتوزيعها ومهاجمة دورها وتعقب المياسير من أهلها كل ذلك مع استمرار طلب الكلف الشاقة فى كل يوم منها »

وذكر الثورة التى شبت فى طنطا وإخماد الفرنسيين لها ،فرضهم على المدينة غرامة جسيمة « وزعت على الدور والحوانيت والمعاصر وغير ذلك واستمروا على ذلك إلى انقضاء العام (سنة ١٢١٤) حتى أخذوا عساكر المقام (تيجان مقام السيد احمد البدوى) وكانت من ذهب خالص زنتها خمسة آلاف مثقال »

الاتفاق مع مراد بك

عادت السلطة للفرنسيين فى الوجه البحرى ، أما فى الوجه القبلى فقد توصل الفرنسيون الى إخضاعه بالاتفاق مع مراد بك ، كان مراد تتوق نفسه بعد ماحل به من الهزائم إلى مصانعتهم ، ووقف وقفة الخائف الوجل عند ماجردت تركيا حملتها الاخيرة على مصر لاخراج الفرنسيين ، لان مراد بك كان يشعر بأن تركيا اذا فتحت مصر بحد السيف وتمكنت من اخراج الفرنسيين منها طمحت الى التخلص من نفوذ المماليك وعملت على استرجاع سلطتها الفعلية إذ لم تكن تنظر بعين الرضا الى استئثار المماليك بسلطة الحكم فى مصر وانما كانت تغض الطرف عنهم لضعفها وارتباك أحوالها ، أما وقد تغيرت الظروف وسنحت لها الفرصة لتجريد حملة على مصر وضمنت مساعدة انجلترا فى محاربة الفرنسيين فكان من الطبيعى أن تحدثها نفسها باسترجاع سلطتها المطلقة فى وادى النيل ، وقد أحس مراد بك بهذا الخطر منذ شرعت تركيا تعبئ جيوشها فى سورية للزحف على مصر ،أى قبل عقد معاهدة

العريش بعدة أشهر ، وبدأت الروابط الودية تتصل بينه وبين الفرنسيين من ذلك الوقت ، وقد أشار الجبرتى الى هذا التفاهم بقوله فى سياق حوادث شهر جمادى الاولى سنة ١٢١٤ ان الفرنسيين « أرسلوا جملة عساكر الى مراد بك بناحية الفيوم وعليهم كبير (جنرال) فوقع بينهم وبينه أمور لم أتحقق تفصيلها ، وترددت بينه وبين سارى عسكر الرسل والمراسلات ، ووقع بينه وبينهم الهدنة والمهاداة ، واصطلح معهم على شروط منها تقليده امارة الصعيد تحت حكمهم »

فالجبرتى يقول إن ابتداء المهادنة والمهاداة بين كليبر ومراد كان فى شهر جمادى الاولى أى فى اكتوبر سنة ١٧٩٩ ، وهو قول يتفق مع رواية المراجع الفرنسية ، لكنه زعم انه اصطلح معهم على تقليده امارة الصعيد فى هذا الشهر وهذا من « الامور التى لم يتحقق تفصيلها » لان الصلح انما تم فى أوائل ابريل سنة ١٨٠٠ بعد واقعة عين شمس وفى اثناء ثورة القاهرة كما سيجىء بيانه ، أما قبل ذلك التاريخ فلم يكن الصلح قد تم بينهما

على أن الجبرتى قد صحح روايته فى غضون كلامه عن ثورة القاهرة وذكر ما يدل على أن الصلح إنما تم فى شهر ذى الحجة فقال فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ (بعد اخماد الثورة) ما يأتى « فلما كان يوم الخميس سابع ذى الحجة (١) ذهب كليبر الى مراد بك بجزيرة الذهب بدعوة منه ، فمد له ولرجاله وليمة عظيمة وأعطاه ما كان أرسله درويش باشا معونة للباشا (الصدر الاعظم) والامراء (المماليك) من الاغنام وغيرها وكانت نحو الاربعة آلاف رأس ، وولوه امارة الصعيد من جرجا إلى اسنا ، ورجع (كليبر) عائداً الى داره بلازبكية » ومعنى ذلك أن المقابلة (التى وقعت عقب التوقيع على معاهدة الصلح) إنما وقعت بعد إخماد ثورة القاهرة ، وهذا يتفق تماماً مع رواية المراجع الفرنسية مع اختلاف بسيط فى تاريخ المقابلة فان المسيو (مارتان) يقول ان المقابلة كانت يوم ٣٠ ابريل والجبرتى يقول انها يوم ٧ ذى الحجة أى ٢ مايو ،

---

(١) يوافق ٢ مايو سنة ١٨٠٠

وليس هذا بخلاف جوهرى

على أن علاقات كليبر ومراد بك كانت ودية من يوم قدوم الحملة العثمانية ،وهذا باتفاق الجبرتى والمراجع الفرنسية ، يؤيد ذلك ما رواه الجبرتى عن استدعاء يوسف باشا وهو فى بلبيس لمراد بك وتباطؤ مراد فى إجابة الدعوة « الا بعد أن استأذن من الفرنسيين سراً فأذنوا له بالمقابلة » وهذا يدلك على ما كان بينهما من العلاقات الودية

قال الجبرتى فى هذا الصدد « ورد الخبر بوصول حضرة الوزير (يوسف باشا) إلى بلبيس وصحبته الامراء المصرية (المماليك) وأرسلوا الى مراد بك ومن معه بالحضور إلى العرضى (١) فأجاب بالاعتذار عن الحضور لانه فى الصعيد ، فلم يقبلوا عذره وأكدوا عليه بالحضور ، فاستأذن الفرنساوية سراً ،فأذنوا له بالمقابلة ، وكان سفيره فى ذلك عثمان بك البرديسى ، ثم انه حضر وقابل الوزير بصحبة ابراهيم بك وخلع عليهما ورجع مراد بك نحو جهة العادلية »

ولم يقل (ريبو) فى صراحة ان مراد بك قابل يوسف باشا ، على أن رواية الجبرتى فى هذه النقطة أدق وأرجح ، لان المقابلة واقعة علنية مادية يمكن الجبرتى الذى عاش ذلك العهد فى القاهرة أن يتحققها ، ويقول (ريبو) إن مراد بك تفاوض هو وكليبر بعد نقض معاهدة العريش وقبيل معركة عين شمس فى الموقف الذى يقفه بين الاتراك والفرنسيين ، وكان الجنرال موران Morand رسول التفاهم والمفاوضة بينهما ، فرضى كليبر من مراد بك بأنه يقف موقف الحياد ، وقد برّ مراد بك بعهده ووقف غير بعيد من ميدان القتال فى معركة عين شمس ، وظل يرقب سير القتال دون أن يشترك فيه ، وفى ذلك يقول الجبرتى « أما مراد بك فانه بمجرد ما عاين هجوم الفرنسيس على الباشا (يوسف باشا) والامراء بالمطرية (واقعة عين شمس) وكان هو بناحية الجبل ركب من ساعته هو ومن معه ومروا من سفح الجبل وذهب الى

---

(١) كلمة (عرضى) مأخوذة من التركية (أوردو) ومعناها الجيش أو الفيلق وتؤدى معنى المعسكر

ناحية دير الطين (١) ينتظر ما يحصل من الامور ، وأقام مطمئنا على نفسه واعتزل الفريقين واستمر على صلحه مع الفرنساوية »

ولعل مراد بك كان « ينتظر مايحصل من الأمور » ويرقب نتيجة القتال بين الأتراك والفرنسيين لينضم الى الفريق الغالب ، فلما رأى أن النصر حليف الفرنسيين فى معركة عين شمس صمم على ابرام الصلح معهم على قاعدة أن يتركوا له حكم الصعيد ويكون تابعاً لهم ، وفى هذا الصدد يقول الجنرال كليبر فى مذكراته : « إن مراد بك لم يكد يتحقق من هزيمة الصدر الأعظم حتى أرسل لى يبدى رغبته فى عقد الصلح معى ، فأجبته بأنه إذا كان ذلك قصده فعليه أن يرسل لى أحد البكوات من أتباعه لأفاوضه ، فأوفد لى أولا حسين كاشف فسألته عن طلبات صاحبه ، فأجابنى بأنه راغب فى الانفصال عن العثمانيين الذين يكرههم وأنه يريد أن يعيش مع الفرنسيين فى سلام على شرط أن يضمن له كبيرهم عيشة راضية ، وأنه يستطيع أن يستخدم فى مقابل ذلك نفوذه فى القاهرة ليتدخل لوضع حد للمأساة التى تقع فيها ، ولما لم يكن لدى حسين كاشف السلطة الكافية التى تخوله التعاقد باسم رئيسه طلبت اليه أن يرسل الىّ مراد بك مندوبا مفوضا عنه ، فاختار مراد بك عثمان بك البرديسى الذى جاء صحبة حسين كاشف ومعه جواب بان مراد بك يفوضه تفويضاً تاماً فى عقد الاتفاق ، فوضعنا شروط الصلح ، وتبادلنا التوقيع عليها فى ١٥ جرمينيال (٥ ابريل سنة ١٨٠٠) ، على أن مراد بك كتم أمر هذا الاتفاق عن أتباعه ، وهذا يرجع الى واحد من سببين فاما أن مراد بك خشى إذا ذاع أمر الاتفاق أن يسىء الى البكوات والمماليك من أتباعه الذين غامروا بأنفسهم فى ثورة القاهرة ويجعلهم عرضة لانتقام العثمانيين ، وإما أنه كان غير واثق من أن النصر النهائى سيكون لنا فأراد أن يرقب الحوادث قبل أن يكشف عن حقيقة موقفه ، وهذا ما أرجحه » (٢)

---

(١) بين مصر القديمة وحلوان

(٢) مذكرات الجنرال كليبر

هذا ماقاله كليبر فى مذكراته ، ولعمرى لقد صور نفسية مراد بك تصويراً دقيقاً ووصفه وصفاً صحيحاً عن خبرة وعيان ، وفى الحق ان مراد بك لم يكن يهمه إلا أن يكون مع الغالب فحسب ، وقد زاد كليبر فى وصف نفسيته بقوله « ومهما يكن من حقيقة الواقع ورغماً من الابهام الذى أراد مراد أن يحيط به أمراً لابد أن يعلن للكافة ، فانه لم يفته أن يوفد الى القاهرة أحد أتباعه (عثمان بك البرديسى) الذى كان موضع ثقته ليصرف المماليك عن الثورة ويدعوهم الى النكوص على أعقابهم ، وقد ارتاب ناصف باشا فى مسلك المماليك فأمر بضبط خيولهم وجمعها فى الوكائل تحت حراسة جماعة من الانكشارية ، وكان عثمان بك البرديسى لايفتأ يتردد علىّ ويبلغنى ما يصادف مسعاه من النجاح ، وأرسل لى مراد بك عدة قطعان من المواشى ليبرهن لى على اخلاصه ، لكنه فى الوقت نفسه كان يكتب الى الصدر الاعظم بأنه مقيم فى طره خصيصاً ليمنعنا من جلب المؤونة من الصعيد » (١)

أقول وإذا تأملت فى تاريخ البكوات المماليك لاتجد فيما ذكره كليبر عن مسلك مراد بك أمراً جديداً ، اعتبر ذلك فى موقف المماليك حين حضر حسن باشا الجزائرلى الى مصر موفداً من قبل الاستانة لمطاردتهم سنة ١٧٨٦ (٢) أى قبل هذه الحوادث بنحو أربعة عشر عاماً ، وكان مراد بك وإبراهيم بك زعيمى المماليك وقتئذ ، فقد فر البكوات الى الوجه القبلى واخذوا يرسلون الرسل والمكاتبات يرجون توسط المشايخ والعلماء بينهم وبين حسن باشا ، ولم يكونوا يطلبون إلا أن تعين لهم أماكن فى الوجه القبلى يقيمون بها ويعيشون هناك (٣) ، فمراد بك لم يطلب من كليبر سنة ١٨٠٠ الا ماطلبه هو وزميله ابراهيم بك من حسن باشا الجزائرلي سنة ١٧٨٦

واعتبر ذلك أيضاً فيما حدث بعد جلاء الفرنسيين ، فانه لما أسندت ولاية مصر

---

(١) مذكرات الجنرال كليبر

(٢) أنظر الجزء الأول ص ٢٢

(٣) الجبرتى الجزء الثالث

الى خسرو باشا واستعد لقتال المماليك أرسل زعماؤهم ابراهيم بك ومحمد بك الألفى وعثمان بك البرديسى وكانوا قد فروا الى الوجه القبلى يطلبون أن يقطعوا جهة يتعيشون فيها ، فهم فى كل عصر لم يكن يهمهم إلا منافعهم المادية

وهكذا كان شأنهم إلى أن دالت دولتهم وقطع دابر القوم الذين ظلموا

معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك

(٥ أبريل سنة ١٨٠٠)

ظل مراد بك أثناء ثورة القاهرة مقيما فى (طره) بعيداً عن حركات القتال ، وتمت مفاوضات الصلح وشروط الاتفاق بينه وبين كليبر وأمضيت بينما كانت مدافع الفرنسيين تمطر قنابلها على سكان العاصمة

وضعت صيغة المعاهدة وتم الاتفاق عليها فى القاهرة بين عثمان بك البرديسى بالنيابة عن مراد بك وكل من الجنرال داماس Damas رئيس أركان الحرب والمسيو جلوتييه Gloutier القوميسير الفرنسى لدى الديوان بالنيابة عن كليبر ، وتم التوقيع عليها فى ٥ أبريل سنة ١٨٠٠

نشر (ريبو) نص هذه المعاهدة ، ولم تنشر من قبل فى أى مرجع آخر ، وقد نقلها بنصها عن النسخة الباقية من النسخ الاصلية التى كتبت حين توقيع المعاهدة ، وهذه مقدمتها نقلا عن النسخه الواردة في ريبو (١)

« نظراً لما أبداه الامير سامى المقام الحائز لكمال الشرف والاعتبار مراد بك محمد (٢) من الرغبة فى أن يعيش فى سلام ووفاق مع الجيش الفرنسى فى مصر ، ولما يرغبه القائد العام كليبر من الاعراب عما له فى نفوس الفرنسيين من الاحترام الذى استوجبته شجاعته واقتضاه مسلكه حيالهم فقد تم الاتفاق على ما يأتى »

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السابع

(٢) نسبة الى محمد أبى الذهب لان مراد بك من مماليكه

ويلى ذلك نصوص المعاهدة ، وهى مؤلفة من عشر مواد تقضى باعتراف القائد العام للجيش الفرنسى بصفته ممثلا للحكومة الفرنسية بمراد بك أميرا وحاكما للوجه القبلى ويخوله بناء على ذلك السلطة على تلك البلاد ابتداء من باصفورة الكائنة بمديرية جرجا الى اسوان فى مقابل أن يؤدى للجمهورية الفرنسية الخراج الواجب دفعه لصاحب الولاية على مصر ، وقد حدد هـذا الخراج فى الاتفاقية بـ ٢٥٠ كيس [١] علاوة على ١٥٫٠٠٠ اردب من القمح و ٢٠٠٠٠ اردب من الشعير والحبوب [٢] ، ويخصص لمراد بك إيراد جمرك القصير واسنا ، ويحتل الجيش الفرنسى ثغر القصير على أن يكون لمراد بك الحق فى ابقاء فصيلة من الجنود المماليك فيها ، وعليه دفع نفقات الحامية الفرنسية فى (القصير) وأن لا يقل عدد هذه الحامية عن مائتى جندى ، وعلى كل من الطرفين أن يسلم الطرف الآخر الجنود اللاجئة اليه ، ولا يجوز لكل منهما قبول الفلاحين الذين يمتنعون عن دفع الضرائب ويفرون الى منطقة الطرف الاخر ، وتكون اقامة مراد بك فى بندر جرجا ، وعليه أن يوفد إلى القاهرة أحد البكوات من أتباعه مندوبا عنه لدى القائد العام يقيم بالقاهرة ، ويضمن القائد العام لمراد بك تمتعه بايراد المنطقة التى يحكمها ويتعهد بحمايته فى حالة مهاجمته ، واذا حصل هجوم على المنطقة التى يحتلها الجيش الفرنسى فعلى مراد بك أن يرسل اليها قوة من جنوده توازى على الاكثر نصف قواته ويتعهد القائد العام بأن لا يقبل أى اتفاق فيه مساس بالمزايا المخولة لمراد بك فى هذه المعاهدة ، وعليه أن يحيط الحكومة الفرنسية بهذه المعاهدة لتراعيها فى اتفاقاتها الخاصة بمصر

هـذه خلاصة معاهدة (كليبر ـ مراد [٣]) ، وهى تتلخص فى أن مراد بك

---

(١) الكيس يساوى خمسائة قرش من عملة ذلك العصر

(٢) يبلغ ذلك كله نحو ٦٥٠٫٠٠٠ فرنك فى السنة كما قدره المسيو (ريبو)

(٣) نشرنا نص المعاهدة فى قسم الوثائق وثيقة رقم ٥

قبل أن يحكم الصعيد تحت حماية الحكومة الفرنسية ، وغنى عن البيان أنه لم يراع فى هـذه المعاهدة الا مصلحته الشخصية دون أن ينظر أية نظرة الى مصلحة البلاد ، وهكذا كان على الدوام شأن المماليك من يوم أن أطلقت يدهم فى شؤون مصر فانهم لم يكن يهمهم إلا ولاية الحكم ليرهقوا البلاد بأنواع المظالم ، وقد بالغ مراد بك فى الولاء للفرنسيين بعد هذه المعاهدة ، فلم يكد يتم التوقيع عليها حتى أنفذ الى معسكر الفرنسيين الهدايا والمهمات والغلال والمؤن ، وسلمهم بعض العثمانيين اللاجئين اليه ، وطرد من الصعيد درويش باشا الذى جعله يوسف باشا الصـدر الأعظم واليا على الصعيد وكان قد نزل الوجه القبلى طبقا لمعاهدة العريش ، فلما نقضت المعاهدة وتجدد القتال جمع حوله نحو عشرة آلاف من الفلاحين والعرب وأجمع الزحف على القاهرة لقتال الفرنسيين ، فطلب كليبر الى مراد بك مطاردته تنفيذا للاتفاق المبرم بينهما ، فتعقبه مراد بك واضطره الى الانسحاب شمالا قاصدا فلول الجيش العثمانى فى غزة .

قال الجبرتى فى هذا الصدد ما يأتى « ان مراد بك عند توجهه الى الصعيد بعـد انقضاء (نقض) الصلح أخذ ما جمعه درويش باشا من الصعيد من أغنام وخيول وميرة ، وكان شيئاً كثيرا ، فتسلم الجميع منه ، وعدى درويش باشا الى الجهة الشرقيه متوجهاً الى الشام وأرسل مراد بك جميع ذلك للفرنساوية بمصر »

وقال فى حوادث ١٢١٤ بعد نقض الصلح بين الفرنسيين والعثمانيين « أرسل الفرنسيس عسكراً الى مستلم السويس فتعصب معه أهل البندر وحاربوهم ، فغلبهم الفرنسيس وقتلوهم عن آخرهم ، ونهبوا البندر وما فيه من البن والبهار الذى بحواصل التجار غير ما فعلوه مع درويش باشا وكان المعضدون له مراد بك وصحبته الفرنسيس فأخذوا ما معه ونجا بنفسه »

وسعى مراد بك سعيا حثيثا فى أن يضم المماليك الذين فى القاهرة الى صفوف الفرنسيين ، ولما أعيته الحيل أشار على كليبر باضرام النار فى القاهرة اخماداً للثورة

ويقول (ريبو) انه أرسل فعلا الى كليبر عدة مراكب محملة مواد ملتهبة لاحراق العاصمة (١)

ويقول المسيو (جالان) (٢) وهو شاهد عيان لتلك الحوادث ما خلاصته « بعد أن تم التوقيع على معاهدة (كليبر — مراد) أرسل لنا مراد بك المؤن وسلم لنا العثمانيين اللاجئين الى معسكره ، وسعى لدى أعوانه فى القاهرة لتسليم المدينة ، لكنه رأى أن مسعاه لم يؤد الى نتيجة سريعة ، فعرض علينا إحراق المدينة، وأرسل لنا لهذا الغرض المراكب محملة أحطابا »

وفى كتاب المسيو مارتان Martin (٣) (وهو أيضا شاهد عيان لثورة القاهرة) تأييد لهذه الرواية ، ويقول المسيو دفيلييه De Villiers أحد مهندسى الحملة الفرنسية فى مذكراته (٤) ان مراد بك ظل مواليا للفرنسيين أثناء حصار القاهرة وأنه أرسل لهم الاحطاب لاحراق المدينة « ولكننا أبقينا عليها حتى نحصل منها على الغرامة الحربية التى كنا فى حاجة اليها » ، هذا ما يقوله دفيلييه ، ومنه يتبين صراحة ان الفرنسيين لم يتورعوا عن إحراق القاهرة إلا ليبتزوا من أهلها المال والغرامات الفادحة

على أنهم مع ذلك قد أضرموا النار فى كثير من أحيائها كما سيجىء بيانه ، ومن ذلك يتضح لك أن مراد بك قد اشترك فى مأساة إحراق القاهرة ، وهكذا سعى ذلك الامير الغادر فى تدمير المدينة العظيمة التى مكّنت له فى البلاد وأغدقت عليه زمنا ما نعمة الحكم والجاه

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السابع
(٢) فى كتابه (صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى)
(٣) تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر
(٤) يوميات وذكريات عن حملة مصر

إخماد ثورة القاهرة

تم للفرنسيين إخضاع الوجه البحرى فى أوائل ابريل سنة ١٨٠٠ ، وكان ذلك بمثابة تطويق لمدينة القاهرة وتأهب لاخماد الثورة التى كانت تستعر نارها منذ ٢٠ مارس ، وكانت مدافع الفرنسيين فى خلال هذه المدة تصلى المدينة نارا حامية وتطلق قذائفها على المنازل التى كانت ملجأ للثوار ، فلما جاءت فرقة الجنرال (رينييه) من الحدود الشرقية عسكرت أمام القاهرة واحتلت الآكام المشرفة على المدينة من قلعة كامان (قنطرة الليمون) الى قلعة سلكوسكى (جامع الظاهر) ومنه الى قلعة المقطم ، فأحاطت بالمدينة شمالا وشرقا ، وابتدأ الهجوم على مواقع الثوار ليلة ٤ ابريل ، فأمر الجنرال كليبر بتقدم الكتائب الفرنسية من ناحية باب الحديد وكوم أبى الريش وقنطرة الحاجب وبركة الرطلى والحسينية وباب النصر ، وعهد كليبر الى الجنرال رينييه أن يبذل كل ما فى طوقه للاستيلاء على جهة باب النصر وأن يصوب نيرانه الى الجامع الازهر

قام جنود الجنرال (رينييه) بهذه المهمة بقيادة الجنرال (ألميرا) Almeyras ، فبدءوا هجومهم من باب الحديد واصطدموا فى أول القتال بمتراس من متاريس الثورة ، فقتل الضابط الذى يقود الكتيبة الاولى وتراجع الجنود الى الوراء ، ثم تقدمت الكتيبة ثانية ، وطاردت الثوار واقتلعت المتاريس التى كانوا يتحصنون فيها ، واقتحمت المنازل التى كانوا ممتنعين بها وأخرمت النار فى المبانى التى كانت تعوق تقدم الجنود واستطاعت أن تسند ميسرتها الى سور القاهرة القديم وميمنتها الى مواقع الفرنسيين فى ميدان الازبكية ، واشتد القتال حول المواقع التى احتلها الفرنسيون ، واستردها الثوار المرة بعد المرة ، ولكن الفرنسيين تمكنوا فى المرة الثالثة من تثبيت أقدامهم فيها ، وظلت المناوشات بين الفرنسيين والثوار من يوم ٥ ابريل الى ١٠ منه

وفى يوم ١٢ ابريل اعتزم الجنرال كليبر توطيد مركز جنوده باحتلال كوم أبى

الريش (١) الذى كان الثوار والاتراك متحصنين به ، وكان هذا الكوم نقطة ارتكاز قوية للثوار لأنه قائم على أكمة تقطع المواصلات بين جامع الظاهر (قلعة سلكوسكى) والمعسكر العام للجنود الفرنسية فى الأزبكية ، فعهد كليبر الى جنود الجنرال رينييه باحتلاله ، فهجم الجنود بقيادة الجنرال (روبان) وأجلوا عنه الثوار ، وفى الوقت نفسه هجمت قوة اخرى على المنازل المحيطة ببركة الرطلى واقتحمتها وأضرمت فيها النار واستبقت منها بعض المنازل التى تصلح للتحصن فيها ، وتحصن الجنود فى كوم أبى الريش وأقاموا به الاستحكامات ، فكرّ عليهم الثوار ، ولكن الجنود ردوهم على أعقابهم واستمر القتال حوله الى صبيحة ١٣ ابريل حيث رسخت قدم الفرنسيين فيه

هذا ماوقع فى الميسرة ، أما الميمنة فى جهة الازبكية فقد كان الثوار يحتلون بيت فرقة الهندسة الكائن بميدان الازبكية ، فضربه الجنود بالمدافع وأحدثوا به ثغرات هجم منها الفرنسيون واحتلوا المنزل بعد أن أجلوا عنه الثوار وحلفاءهم العثمانيين ، لكن الثوار امتنعوا فى بيت آخر بالقرب من بيت فرقة الهندسة يعرف ببيت أحمد اغا شويكار (٢) وركبوا مدفعاً فى حديقة منزل السيد البكرى (٣) فاخذوا يطلقون النار من الجهتين على الجنود الفرنسية لكن الفرنسيين أصابوا المدفع المركب فى حديقة البكرى بقنابلهم وأتلفوه فانحصر الثوار فى بيت أحمد اغا شويكار

استمر القتال سجالا والثوار لا يذعنون ولا يسلمون ، وبدأت ذخائر القلاع تنقص بسبب كثرة الضرب فأخذت القذائف فى النقصان وخفت وطأة الرمى ، فظن الاهالى أن هذا علامة على ضعف القوات الفرنسية فاشتدت حماستهم واستعدوا

---

(١) بالفجالة

(٢) هو الذى يسميه الفرنسيون بيت رينييه (انظر ص ١٥٥) تسمية له باسم ساكنه أما الجبرتى فيسميه باسم مالكه

(٣) مكانه صندوق الدين الآن

لضاعفة الجهد والقتال ، لكن الفرنسيين تلقوا مدداً جديدا ، وذلك أن الجنرال (بلمار) عاد من دمياط بعد ما أخضعها وترك بها كتيبة من الجنود بقيادة الجنرال (رامبون) ورجع بمعظم قواته الى القاهرة يوم ١٣ ابريل فعسكر أمام بولاق التى كانت معقل الثورة ، فلما وصل هذا المدد اعتزم الجنرال كليبر أن يستولى عنوة على حى بولاق ويخمد فيه الثورة بكل مالديه من قوة

الوساطة فى الصلح
واخفاقها

حمل سكان القاهرة الشدائد والأهوال من الضرب المتتابع وما حاق بهم من سفك الدماء ، وإزهاق الأرواح ، وتخريب الدور ، واشتداد الخطوب

قال الجبرتى يصف تلك المأساة :

« وصل كليبر الى داره بالازبكية ، وأحاطت العساكر الفرنساوية بالمدينة و بولاق من الخارج ، ومنعوا الداخل من الدخول والخارج من الخروج ، وذلك بعد ثمانية أيام من ابتداء الحركة (أى حوالى ٢٨ مارس وهو يوافق اليوم التالى لحضور كليبر الى القاهرة) وقطعوا الجالب على البلدين (مصر و بولاق) وأحاطوا بها احاطة السوار بالمعصم . . . . . فعندذلك اشتدت الحرب ، وعظم الكرب ، وأكثروا من الرمى المتتابع ، بالمكاحل والمدافع ، وأوصلوا وقع القنابر والبُنْبات ، من أعالى التلول والقلعات ، خصوصاً البُنْبات (القنابل) الكبار على الدوام والاستمرار ، آناء الليل وأطراف النهار ، فى الغدو والبكور والاسحار ، وعدمت الأقوات ، وغلت أسعار المبيعات ، وعزت المأكولات وفقدت الحبوب والغلات ، وارتفع وجود الخبز من الأسواق ، وامتنع الطوافون به على الاطباق »

وقال فى موضع آخر :

« واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب ، وشدة البلاء والكرب ، ووقوع القنابل على الدور والمساكن من القلاع ، والهدم والحرق ، وصراخ النساء من

البيوت والصغار من الخوف، والجزع والهلع ، مع القحط وفقد المآكل والمشارب، وغلق الحوانيت والطوابين والمخابز ، ووقوف حال الناس من البيع والشراء ، وتفليس الناس وعدم وجدان ما ينفقونه ان وجدوا شيئاً ، واستمر ضرب المدافع والقنابر والبنادق والنيران ليلا ونهاراً حتى كان الناس لا يهنأ لهم نوم ولا راحة ولا جلوس لحظة واحدة من الزمن ، ومقامهم دائما أبداً بالأزقة والأسواق ، وكأنما على رءوس الجميع الطير ، وأما النساء والصبيان فمقامهم بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية الى غير ذلك »

ولخص الجبرتى فصول تلك الرواية الفاجعة بقوله : «وجرى على الناس ما لا يسطر فى كتاب ، ولم يكن لأحد فى حساب ، ولا يمكن الوقوف على كلياته ، فضلا عن جزئياته ، منها عدم النوم ليلا ونهاراً ، وعدم الطمأنينة ، وغلو الأقوات ، وفقد الكثير منها خصوصاً الأدهان ، وتوقع الهلاك كل لحظة ، والتكليف بما لا يطاق ، وغلبة الجهلاء على العقلاء ، وتطاول السفهاء على الرؤساء ، وتهور العامة ، ولغط الحرافيش ، وغير ذلك مما لا يمكن حصره »

وانك لترى فى تلك العبارات وصفاً دقيقاً لحالة القاهرة خلال ثورتها الثانية ، ولا أن يمكن يصفها شاهد عيان بأدق مما وصفها الجبرتى ، وأبلغ ما فى وصفه من عظة وعبرة « غلبة الجهلاء على العقلاء ، وتطاول السفهاء على الرؤساء » ، وهو داء وبيل تظهر أعراضه فى أوقات الفتن واشتداد الكروب والمحن ، ويفضى الى فساد النفوس واختلاط العقول وتنكب الجماهير سبيل السداد واستهداف البلاد للكوارث والويلات ، وإذا أردت أن تعرف الى أى حد جره « تغلب الجهلاء على العقلاء ، وتطاول السفهاء على الرؤساء » أثناء ثورة القاهرة فانظر الى ما كان من أمر مساعى الصلح التى قام بها العقلاء فى ذلك الحين لوضع حد للمأساة المروعة والمجزرة البشرية التى صبغت القاهرة دماءً وحرائق ، وكيف أخفقت تلك المساعى أمام غلبة الجهلاء وتطاول السفهاء ، فقد كان العلماء يسعون فى حقن الدماء ، وأرسل الجنرال كليبر الى ناصف باشا وكتخدا الدولة (عثمان بك) وأمراء المماليك يطلب اليهم وفداً من

العلماء ليكونوا سفراء بينه وبين الجماهير ، فأرسلوا المشايخ الشرقاوى ، والمهدى ، والسرسى والفيومى وغيرهم ، وقابلوا الجنرال كليبر ، فعرض عليهم أن يوقف القتال ويعطى أهل القاهرة « أماناً وافياً شافياً » على أن يخرج ناصف باشا والجنود العثمانية من المدينة ويلحقوا باخوانهم من فلول جيش يوسف باشا ، ولمن شاء من المقاتلين المصريين أن يخرج معهم ولمن شاء أن يبقى ، فقال العلماء إن المصريين يخشون اذا وقف القتال وخرج العثمانيون من المدينة أن ينكل بهم الفرنسيون ، فقال كليبر اذا قبلت شروطنا اجتمنا بكم وبهم (العثمانيين والمماليك) وعقدنا صلحا ولا نطالبكم بشىء والذي قتل منا فهو بمن قتل منكم (ولم يكن كليبر صادقا فى عهده) ، فعاد العلماء بهذه الشروط ليعرضوها على رؤساء العثمانيين وزعماء الثوار ، قال الجبرتى « فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوي والسرسى ورموا عمائمهم ، واسمعوهم قبيح الكلام ، وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ، ومرادهم خذلان المسلمين .. وانهم أخذوا دراهم من الفرنسيس ، وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول »

هذا ما ذكره الجبرتى عن تغلب الجهلاء على العلماء وعلو صيحة الفتنة على صوت العقل والحكمة ، وبلغ تهور العامة أن الشيخ السادات كان أثناء المفاوضات فى بيت الشيخ الصاوى وعلم بما جرى للمشايخ من الاهانة والسب والضرب فخشى عاقبة مخالفة العامة فى ميولهم ، ومعارضتهم فى اهوائهم « فتحير واحتال بان خرج وأمامه شخص ينادى بقوله الزموا المتاريس ليقى بذلك نفسه من العامة »

أما رؤساء العثمانيين ناصف باشا وعثمان كتخدا الدولة فانهم لم يستطيعوا ضبط عساكرهم وأرسلوا الى كليبر يقولون « ان العساكر لم يرضوا بالصلح ويقولون لانرجع عن حربهم حتى نظفر بهم أو نموت عن آخرنا »

وبذلك أخفقت المساعى وتجددت المذبحة وتجددت معها فجائع القتل وسفك الدماء والاحراق والتدمير ، ثم انتهت المأساة بالتسليم بعد أن نزل بالناس من الخطوب والاهوال مالم يشهدوا مثله من قبل

مأساة بولاق

فى اليوم الرابع عشر من شهر ابريل سنة ١٨٠٠ أنذر الجنرال كليبر العاصمة بالتسليم ، ولكن الثوار لم يعبئوا بالانذار ، ففى اليوم التالى (١٥ ابريل) بدأت الجنود بالهجوم على حىّ بولاق قبل شروق الشمس بقيادة الجنرال بليار وأخذوا يضربونه بالمدافع ، وكانت مداخل الحى محصنة والثوار ممتنعون خلف المتاريس وفى البيوت فأجابوا على ضرب المدافع باطلاق النار من المتاريس والبيوت المحصنة ، ولكن نار المدفعية الفرنسية حطمت المتاريس القائمة على مدخل الحى فثغرت فيها ثغرة كبيرة اندفق منها الجنود الى شوارع بولاق ، وأضرموا النار فى البيوت القائمة بها ، فاشتعلت فيها واتسع مداها ، وامتدت الى مبانى الحى من مخازن ووكائل ومحال تجارة فالتهمتها وما كان فيها من المتاجر العظيمة ودمرت هذا الحى الكبير الذى يعد ميناء للقاهرة ومستودعا لمتاجرها ، وهدمت الدور على سكانها فباد كثير من العائلات تحت الانقاض أو فى لهب النار ، وكانت مأساة مروعة وصفها الجبرتى بقوله

« هجموا على بولاق من ناحية البحر (النيل) ومن ناحية بوابة أبى العلاء ، وقاتل أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم وحصروهم من كل جهة ، وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب ، وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ماتشيب من هوله النواصى ، وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والازقة ، واحترقت الابنية والدور والقصور ، وخصوصا البيوت والرباع المطلة على البحر ، وكذلك الاطارف ، وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالغلبة فنجوا بانفسهم الى الجهة القبلية ، ثم أحاط الفرنسيس بالبلد ، ومنعوا من يخرج منها واستولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع ، وملكوا الدور وما بها من الامتعة والاموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال والسكر والكتان والقطن والاباز ير والارز والادهان والاصناف العطرية ، ومالا تسعه السطور ، ولا يحيط به كتاب

ولا منشور ،والذى وجدوه منعكفاً فى داره أو طبقته ولم يقاتل ولم يجدواعنده سلاحا نهبوا متاعه ، وعروه من ثيابه ، ومضوا وتركوه حيـاً ، وأصبح من بقى من ضعفـاء أهل بولاق وأهلها وأعيانها الذين لم يقاتلوا فقراء لايملكون ما يستر عوراتهم »

تلك رواية الجبرتى عن مأساة بولاق، وهى رواية شاهد عيان ، وليس فيها على مانعتقد مبالغة فى الوصف ، ويكفيك أن ترجع الى وصف المسيو جالان (١) وهو شاهد آخر لتلك الحوادث المروعة فتجد التوافق بين الروايتين فى مجموعهما،قال «فى اليوم الحادى والعشرين من شهر جرمنيال (يوافق ١٤ ابريل سنة ١٨٠٠) أنذرت بولاق بالتسليم ، فرفض أهلها كل انذار وأجابوا باباء وكبرياء أنهم يتبعون مصير القاهرة ، وانهم اذا هوجموا فهم مدافعون عن أنفسهم حتى الموت ، فأخذ الجنرال فريان Friant (٢) يحاصر المدينـة وبدأ يصب عليها من المدافع ضربا شديدا أملا منه فى اجبار الاهالى على التسليم ، لكنهم أجابوا بضرب النـار ، فاطلقت المدافع قنابلها على المتاريس ، وهجم الجنود على الاستحكامات فاقتحموا اكثرها وظل بعضها يقاوم ، واستبسل الاهلون فى الدفاع ولجئوا الى البيوت فاتخذوها حصونا يمتنعون بها ، فاضطرت الجنود الى الاستيلاء على كل بيت منهـا والتغلب عليها بقوة الحديد والنار ، و بلغ القوم فى شدة الدفاع حدا لامزيد بعده ، وفى هذا البلاء عرض العفو على الثوار فأبوه، واستحرَّ القتال،فجعلنا المدينةضراما ، وأسلمناها للنهب ، وصار أهلها عرضة لبطش الجنود وتنكيلهم ، فجرت الدماء أنهارا فى الشوارع واشتملت النار أحياء بولاق من أقصـاها الى أقصاها ، وعادت تلك المدينة العامرة الزاهرة هدفاللخراب ، وأكلتها أهوال الحرب وفظائعها ،

---

(١) فى كتابه (صورة مصر أثناء اقامة الجيش الفرنسى)

(٢) لعله يريد الجنرال (بليار) قائد العسكر فى هذا الهجوم وان كان الجند من فرقة (فريان)

ولما بلغت المأساة مداها طلب الاهالى التسليم فأجيبوا الى طلبهم ، ولكن بولاق ستظل زمنا طويلا تتردّى فى هاوية من الخراب الى أن تستطيع النهوض من أعباء الكوارث التى حلت بها ، فان معظم بيوتها أصبحت ركاما من الخرائب والاطلال المحترقة ، ولقد مضت ثمانية أيام والنار تلتهمها ولا تزال تشتعل فيها (١) »

لم يكتف الفرنسيون بما حل ببولاق من الخراب والتدمير بل فرضوا على أهلها غرامة جسيمة قيمتها ٢٠٠ ألف ريال وأخرى على متاجرها قيمتها ٣٠٠ ألف ريال تجبى عروضا من السكر والبن والزيت والحبال والتيل والقطران والنحاس والحديد والرصاص ، وفرضوا على الاهالى أن يسلموا ما عندهم من المدافع والذخائر الموجودة فى ترسانة بولاق وما لديهم من الاخشاب والغلال والشعير والارز والعدس والفول ، وأن يسلموا أربعمائة بندقية ومائتى طبنجه ، وقبض الفرنسيون على الحاج مصطفى البشتيلي رئيس الثوار وطلبوا من أتباعه أن يقتلوه لانه السبب فيما حل بهم فضرب بالعصى حتى مات

الهجوم على مواقع الثوار

أثرت النكبة التى حلت ببولاق فى سائر أنحاء القاهرة ، وانتهز الجنرال كليبر فرصة الفزع الذى استولى على النفوس فأمر جنوده بالهجوم العام على مواقع الثوار ، وعاق المطر هذا الهجوم يومين ثم ابتدأ يوم ١٨ ابريل سنة ١٨٠٠ وكان نذيره بينهم اشعال النار فى لغم دسه الفرنسيون تحت جدار بيت احمد اغا شويكار الذى كان الثوار ما يزالون يحتلونه ، فلما انفجر اللغم نسف المنزل بمن فيه واحترقوا عن آخرهم ، وهاجم الفرنسيون المدينة هجوما عاما من جهة الناصرية و باب اللوق والمدابغ والفجالة و كوم ابى الريش و باب الشعرية

---

(١) كتاب (صورة مصر أثناء اقامة الجيش الفرنسى) للمسيو جالان أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون فى عهد الحملة الفرنسية

تولى الكولونيل سيلى Silly مهاجمة حى الناصرية لكنه أخفق فى احتلاله

وهجم الجنرال دنزلو Donzelot على حى المدابغ فاعترضه خندق عميق يحيط به منازل يحتلها الثوار ، فانهال عليه الرصاص منها ، فاضطر الى الانسحاب وتحصن بالقرب فى شارع الجباسة

وهجم عسكر الجنرال فريان والجنرال بليار من ميدان الازبكية ، والجنرال رينييه Reynier من الفجالة وكوم ابى الريش وباب الشعرية ، فاشتد القتال فى تلك الجهات وكانت الحرب فيها سجالا ونتيجتها فى مجموعها مغنما للفرنسيين وتوطيدا لمراكزهم ، وكان من عواقبها القاء الذعر بين الثوار ، وكثر القتلى والجرحى من الجانبين وأصيب الجنرال بليار فيمن أصيبوا بجرح بليغ

وانقضت الايام التالية والقتال مستمر ولكنه أقل شدة مما كان فى اليوم الاول ، وكان الفرنسيون فى خلال هذه الايام يوطدون مركزهم فى المواقع التى غنموها ويضيقون على الثوار ، واشتد الضيق بالاهالى وسرى اليهم الملل من استمرار حالة الحرب وما حاق بهم من الفظائع والاهوال ، فتجددت فكرة الصلح ووضع حد لمأساة القتال

فظائع الفرنسيين فى اخماد الثورة

أسرف الفرنسيون فى ارتكاب الفظائع لاخماد الثورة ولجئوا إلى الطريقة الوحشية التى اتبعوها فى كثير من المواطن وهى اضرام النار فى الاحياء الآهلة بالسكان وارسالها على المدينة وأهلها موتاً أحمر ، فأحدثت الحرائق تخريبا فظيعاً فى القاهرة واحترقت أحياء برمتها وتهدمت بيوت عامرة ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها ، ومن الاحياء التى التهمتها النار خط الازبكية وخط الساكت والغوالة والرويعى وبولاق وبركة الرطلى وما جاورها وباب البحر والخروبى والعدوى الى باب الشعرية

فأصبح منظر المدينة بعد ما حل بها من التخريب والاحراق والتدمير مفزعا يملأ القلوب حزناً وأسى

وصف الجبرتى الاحياء التى دمرتها النيران ونعاها بعبارات ينفطر لها الفؤاد حسرة وأسفا .

قال يصف آثار الحريق فى حى الازبكية وما جاورها :

« انهدم جميع ما هناك من الدور والمبانى العظيمة والقصور المطلة على البركة واحترقت جميع البيوت التى من عند بين المفارق بقرب جامع عثمان كتخدا الى رصيف الخشاب والخطة المعروفة بالساكت بأجمعها الى الرحبة المقابلة لبيت الالفى سكن ساری عسكر الفرنساوية، وكذلك خطة الفوالة باسرها ، وكذلك خطة الرويعى بالسباطين العظيمين وما فى ضمن ذلك من البيوت الى حد حارة النصارى، وصارت كلها تلالا وخرائب كأنها لم تكن مغنى صبابات ، ولا مواطن انس ونزاهات ، وجنت عليها أيدى الزمان وطوارق الحدثان حتى تبدلت محاسنها واقفرت مساكنها »

وقال ينعى بركة الرطلى وما دمره الحريق من عمائرها الجميلة :

« وأما بركة الرطلى وما حولها من الدور والمنتزهات والبساتين فانها صارت كلها تلالا وخرائب وكيمان أتربة ، وقد كانت هذه البركة من أجمل منتزهات مصر قديما وحديثا » وقال أيضاً « ومما تخرب أيضا حارة المقس من قبل سوق الخشب الى باب الحديد وجميع ما فى ضمن ذلك من الحارات والدور صارت كلها خرائب متهدمة محترقة تسكب عند مشاهدتها العبرات »

وقال المسيو جالان(١) يصف هذه المأساة وكان من شهودها « وقع الهجوم العام على القاهرة يوم ٢٨ جرمنيال، وكان هولا هائلا شاملا جميع الجهات ، فصبّت المدافع قنابلها على المدينة الثائرة ، ودوى صوت الضرب فى كل مكان ، وظل اطلاق القنابل والرصاص متواصلا طول الليل ، وشبت الحرائق فى جهات متعددة ، وأخذت النيران

---

(١) فى كتابه « صورة مصر اثناء اقامة الجيش الفرنسى »

فى كل لحظة تلتهم المنازل بعضها اثر بعض وأحدثت النار من الخرائب والحرائق فى القاهرة ما لم يحدث مثله منذ بدأ الحصار ، وقد قتلنا عددا كبيرا من الناس فى تلك الموقعة المروعة ، ولكننا فقدنا كثيراً من جنودنا الشجعان قبل أن تصبح المدينة فى قبضة يدنا »

وقال فى موضع آخر يصف آثار الحريق بعد اخماد الثورة « فى ١٥ فلوريال(١) رجعتُ الى القاهرة واضطررت أن أبحث لى عن منزل آوى اليه فى ميدان الازبكية بدل المنزل الذي كنت أسكنه والتهمته النيران ، وقد لاحظت ان الحصار أضر بالقاهرة أكثر مما كنت أتصور ، فقد عم الخراب احياء بأكملها ، وتمثل لنا شبحه لمخيف فى الازبكية ، وأثرت فى نفسى صورته المفزعة ، فليس فى الامكان أن نخطو خطوة إلا على كثبان من الخرائب والاتربة ، وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم ، وزاد هذا المنظر فظاعة ان الجنود مدفوعين بفكرة النهب كانوا ينبشون الجثث من تحت الانقاض والخرائب ، فكلما أظهروا جثة زاد المنظر هولا وفظاعة »

المفاوضة فى التسليم

استأنف علماء القاهرة مسعاهم فى سبيل حقن الدماء ، وألحوا على ناصف باشا وابراهيم بك واصحابهما أن يعملوا على وضع الحد لقتال لا يجلب على المدينة سوى الخراب والدمار ، وانضم عثمان بك البرديسى وكيل مراد بك الى العلماء فى السعى للصلح وعرض على زعماء الثورة أن يدخل مراد بك فى الصلح على شرط أن يسلموا المدينة ، فأذعن الثوار لهذه المساعى وانتدب ناصف باشا عثمان افندى وكيل الصدر الاعظم وانتدب ابراهيم بك عثمان بك الاشقر لمفاوضة الجنرال كليبر فى وقف القتال

واستمرت المفاوضة فى شروط التسليم الى ان تم ابرام الاتفاق يوم ٢١ ابريل سنة ١٨٠٠ ووقع عليه ناصف باشا وعثمان افندى وابرهيم بك ، وتتضمن هذه

---

(١) يوافق ٥ مايو سنة ١٨٠٠

الشروط تعهد الجنود العثمانية والمماليك بالجلاء عن القاهرة وأن تتم استعدادات الجلاء فى مدة ثلاثة أيام وأن يجلو العثمانيون والمماليك حاملين أسلحتهم وأمتعتهم ما عدا المدافع فانهم يتركونها فى مواقعها فى القاهرة ، وأن ينفذ الجلاء يوم ٢٥ ابريل (الموافق ٣٠ ذى القعدة سنة ١٢١٤) بحيث لا يكون منهم أحد بالقاهرة بعد ظهر ذلك اليوم ما عدا الجرحى وتعهدوا بمواصلة الجلاء حتى حدود سورية

وتعهد الجنرال كليبر فى المعاهدة بأن يعفو عفوا عاما عن جميع أهالى القاهرة وعن المصريين الذين اشتركوا فى الثورة ، ولكنه اشترط ألا يغادر المدينة أحد من المصريين بقصد اللحاق بالجيش العثمانى

وأخذ الاتراك والمماليك بعد التوقيع على معاهدة التسليم يعدون معدات الرحيل ، ثم ارتحلوا بطريق بلبيس وسار معهم زعماء الثورة من المصريين أمثال السيد عمر مكرم نقيب الاشراف والسيد احمد المحروقى كبير التجار ، وهاجر من العاصمة عدة آلاف من السكان ممن توقعوا انتقام الفرنسيين فتفرقوا فى البلاد ، وقد كانوا محقين في مخاوفهم لان كليبر نقض عهده كما سيجىء بيانه ، وبإبرام شروط التسليم انتهت ثورة القاهرة بعد قتال دام ثلاثة وثلاثين يوما

عودة السلطة الى الفرنسيين

عادت السلطة الى الفرنسيين بعد اخماد ثورة القاهرة وسادت السكينة أنحاء الوجه البحري والوجه القبلى وأصبح الجنرال كليبر حاكما بأمره فى البلاد وهو الذي كان قبل شهرين يعد معدات الرحيل عنها ، ولكن السياسة الانجليزية هى التى غيرت سير الامور وتسببت فى نقض معاهدة العريش ومنعت الجنود الفرنسية من السفر الى فرنسا فأشعلت نار الحرب ثانية بين الاتراك والفرنسيين وانتهت هذه الحرب بانتصار الفرنسيين فى معركة عين شمس واخماد ثورة القاهرة بقوة السيف والنار ، وبذلك تحركت فى نفس كليبر مطامع الفتح والاستعمار ، واعتزم البقاء فى الديار المصرية

وادارة شؤونها الى ما شاء الله كمستعمرة فرنسية ، وأراد أن يبعث الرهبة فى نفوس الشعب ويعلن عن قوة الجيش الفرنسى بالرغم مما أصابه فى المعارك الاخيرة ، فعرض الجنود عرضاً كبيراً فى سهول (القبة) ودعا أكابر أعيان القاهرة ليشهدوا العرض وليتحققوا من قوة الجيش الفرنسى وحسن نظامه ، ولما انتهى العرض دخل الجيش العاصمة واخترق شوارعها فى رهبة بين قصف مدافع القلاع ، وكأنما أراد كليبر أن يدخل المدينة دخول الغزاة ليدعى لنفسه حق الفتح والتصرف فى مصير البلاد ، واليك ما ذكره الجبرتى عن دخول كليبر المدينة ومقابلته للمشايخ والاعيان ، قال ما خلاصته :

« ودخل الفرنساوية الى المدينة يسعون ، والى الناس بعين الحقد ينظرون ، واستولوا على ما كان اصطنعه وأعده العثمانية من المدافع والقنابر والبارود وآلات الحرب جميعها وقيل انهم حاسبوهم على كلفته ومصاريفه وقبضوا ذلك من الفرنساوية ، وركب المشايخ والاعيان عصر ذلك اليوم وذهبوا الى كبير الفرنسيس ، فلما وصلوا الى داره ودخلوا عليه وجلسوا ساعة أبرز لهم ورقة مكتوباً فيها النصر لله الذى يريد أن المنصور يعامل الناس بالشفقة والرحمة ، وبناء على ذلك يريد سارى عسكر العام أن ينعم بالعفو العام والخاص على أهل مصر وعلى أهل بر مصر ولو كانوا يخالطون العثملى فى الحروب ، وانهم يشتغلون بمعايشهم وصنائعهم ، ثم نبه عليهم بحضورهم الى قبة النصر بكرة تاريخه ، ثم قاموا من عنده وشقوا المدينة وطافوا بالاسواق وبين أيديهم المناداة للرعية بالاطمئنان والامان ، فلما أصبح ذلك اليوم ركبت المشايخ والوجاقلية وذهبوا الى خارج باب النصر وخرج أيضاً القلقات والقبط والشوام وغيرهم ، فلما تكامل حضور الجميع رتبوا موكباً وساروا ودخلوا من باب النصر وقدامهم جماعة من القواسة يأمرون الناس بالقيام ، وبعض فرنساوية راكبين خيلا وبأيديهم سيوف مسلولة ينهرون الناس ويأمرونهم بالوقوف على أقدامهم ، ومن تباطأ فى القيام أهانوه ، فاستمرت الناس وقوفاً من ابتداء سير الموكب الى انتهائه ، ثم تلا الطائفة الآمرة للناس بالوقوف جمع كثير من الخيالة الفرنساوية بأيديهم سيوف مسلولة وكلهم لابسون

جوخاً أحمر وعلى رءوسهم طراطير من الفراوى على غير هيئة خيالتهم ومشاتهم ، ثم تتالى بعد هؤلاء طوائف العساكر ببوقاتهم وطبولهم وزمورهم واختلاف أشكالهم وأجناسهم وملابسهم من خيالة ورجالة ، ثم الأعيان والمشايخ والوجاقلية وأتباعهم الى أن قدم ساری عسكر الفرنساوية ووراءه عثمان بك البردیسی وعثمان بك الأشقر (مندوبی مراد بك) وخلفهم طوائف من خيالة الفرنسيس ، ولما انقضى أمر الموكب نادوا بالزينة فزينت البلد ثلاثة أيام آخرها يوم الثلاثاء مع السهر ووقود القناديل ليلا »

فتأمل فى قول الجبرتى ان مندوبى مراد بك كانا يسيران فى الموكب خلف الجنرال كليبر مباشرة ، وهذا يدلك على ارتباط المماليك بالفرنسيين وقتئذ ، وهذه احدى نتائج معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك ، ففى الوقت الذى كان الشعب يعانى فيه الأهوال خلال الثورة وبعد اخمادها كان ضلع المماليك مع الفرنسيين بل كانوا أعوانهم فى اذلال الشعب

بعد اخماد الثورة

غرامات فادحة — اعتقال واضطهاد

كان أول عمل للجنرال كليبر بعد دخوله المدينة ان نقض عهده فى العفو العام عن كل من لهم يد فى الثورة ، فقد أمر بالاقتصاص من سكان القاهرة جميعهم بفرض غرامة جسيمة تنوء بها أكبر العواصم وبخاصة بعد ما حل بها من الخراب والدمار

فرض على سكان القاهرة غرامة قدرها اثنا عشر مليون (١) فرنك يوفى نصفها نقدا ونصفها عروضا ، وألزم سكان المدينة بتسليم عشرين ألف بندقيه وعشرة آلاف سيف وعشرين ألف طبنجة ، وخص بعض كبار الاعيان والعلماء بنصيب فادح من هذه الغرامة

---

(١) يقول الجبرتى انها عشرة آلاف الف فرنك أى عشرة ملايين فرنك ولكن المراجع الفرنسية ومنها مذكرات نابليون مجمعة على انها اثنا عشرة مليون فرنك فاعتمدنا هذا الرقم

فصودرت أملاك السيد احمد المحروقى كبير التجار ، وفرض على السيد محمد السادات غرمٌ قدره ١٥٠٫٠٠٠ ريال (٨٠٠ ألف فرنك تقريبا) والشيخ مصطفى الصاوى ٥٠ ٫٠٠٠ ريال (٢٦٠ ألف فرنك) والشيخ محمد الجوهرى وأخيه الشيخ فتوح ٥٠٫٠٠٠ ريال وأمر بتوزيع الباقى على سكان المدينة على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم ، واعتقل خمسة عشر رجلا من كبرائهم رهينة لوفاء هذه الغرامة ، قال الجبرتى ماخلاصته « فوزعوها على الملتزمين وأصحاب الحرف حتى على الحواة والقرداتية والتجار وأهل الغورية وخان الخليلى والصاغة والنحاسين ، والدلالين والقبانية وقضاة المحاكم وغيرهم كل طائفة عليها مبلغ معلوم ، وكذلك بياعو الدخان والتنباك والصابون ، والخردجية والعطارون والزياتون والشواءون والجزارون والمزينون وجميع أهل الصنائع والحرف ، وجعلوا على الاملاك والعقار والدور أجرة سنة كاملة »

هذا ما يقوله الجبرتى ، فالغرامة الفادحة التى فرضها كليبر على القاهرة أنهكت المصريين على اختلاف طبقاتهم ، الاغنياء والفقراء والمعدمون سواء ، وقد هال سكان القاهرة فداحة تلك الغرامة وزادت فى مصائبهم وآلامهم ، فكأن الفرنسيين لم يكتفوا بما ابتليت به العاصمة من أهوال القتل والنهب وسفك الدماء والحريق والتدمير والمجاعة فتمموا عليها بتلك الغرامة الباهظة

ومن الصعب أن نتعرف كيف وفق كليبر بين هذه الغرامة والعهد الذى قطعه على نفسه بأن يعفو عمن اشتركوا فى ثورة القاهرة ، لكنها القوة الغشوم لا عهد لها ولا ميثاق .

واذا أردت أن تعرف مبلغ نقض العهد فتأمل فيما رواه الجبرتى عن مقابلة كليبر أعيان المدينة وابلاغهم نبأ الغرامة فقد ذكر أن كليبر قال لهم فيما قال :

« حيث اننا أعطيناكم الامان فلا ننقض أماننا ! ولا نقتلكم ! وانما نأخذ منكم الاموال ، فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف فرنك »

وقد أسرف الفرنسيون فى ارهاق سكان القاهرة واذلالهم ، واعتقلوا الكثيرين منهم لاكراههم على دفع نصيبهم فى الغرامة ، وفتشوا جميع المنازل بحجة البحث عن السلاح ، وتفننوا فى ضروب القهر والنكال ، واشتد الضيق بالناس مما لاقوه من المصائب والاهوال ، فخربت بيوت عامرة وخرج كثير من الناس عن أموالهم وباعوا متاعهم ومات كثير منهم فى السجون ، وهاجر من استطاع الهجرة فراراً من الظلم والاضطهاد

قال الجبرتى فى هذا الصدد :

« وألزموا الاغا (المحافظ) بعدة طوائف كتبوها فى قائمة بأسماء أربابها وأعطوه عسكرا وأمروه بتحصيلها من أربابها ، وكذلك على أغا الشعراوى (رئيس الشرطة) وحسين اغا المحتسب وعلى كتخدا سليمان بيك ، فنبهوا على الناس بذلك ، وبثوا الاعوان بطلب الناس وحبسهم وضربهم ، فدهى الناس بهذه النازلة التى لم يصابوا بمثلها ولا ما يقاربها ، ومضى عيد النحر ولم يلتفت اليه أحد بل ولم يشعروا به ، ونزل بهم من البلاء والذل ما لا يوصف ، فان أحد الناس غنيا كان أو فقيرا لا بد وأن يكون من ذوى الصنائع أو الحرف فيلزمه دفع ما وزع عليه فى حرفته أو فى حرفتيه وأجرة داره أيضا سنة كاملة ، فكان يأتى على الشخص غرامتان أو ثلاثة ونحو ذلك ، وفرغت الدراهم من عند الناس واحتاج كل الى القرض فلم يجد الدائن من يدينه لشغل كل فرد بشأنه ومصيبته ، فلزمهم بيع المتاع فلم يوجد من يشترى ، واذا أعطوهم ذلك لا يقبلونه ، فضاق خناق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه ، ثم وقع الترجى فى قبول المصوغات والفضيات ، فأحضر الناس ما عندهم فيقوّم بأبخس الاثمان ، وأما أثاثات البيوت من فرش ونحاس وملبوس فلا يوجد من يأخذه ، وأمروا بجمع البغال ومنعوا المسلمين من ركوبها مطلقا سوى خمسة أنفار من المسلمين وهم الشرقاوى ، والمهدى ، والفيومى ، والامير ، وابن محرم (من كبار تجار القاهرة) والنصارى المترجمين وخلافهم لا حرج عليهم فى كل وقت ، وحين يشتد الطلب وينبث المعينون والعسكر فى طلب الناس ومهاجمة الدور وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر ، وبهدلتهم

وحبسهم وضربهم ، والذى لم يجدوه لكونه فر وهرب يقبضون على قريبه أو حريمه أو ينهبون داره فان لم يجدوا شيئا ردوا غرامته على أبناء جنسه وأهل حرفته . . . هذا والكتبة والمهندسون والبناءون يطوفون ويحررون أجر الاماكن والعقارات والوكائل والحمامات ويكتبون أسماء أربابها وقيمتها ، وخرجت الناس من المدينة وجلوا عنها وهربوا الى القرى والارياف ، ثم ان أكثر الفارين رجع الى مصر لضيق القرى وعدم ما يتعيشون به فيها وانزعاج الريف بقطاع الطريق والعرب والمناسر بالليل والنهار والقتل فيما بينهم وتعدى القوى على الضعيف ، واستمرت الطرق مجفرة والاسواق مقفرة والحوانيت مقفولة والعقول مخبولة ، والخانات والوكائل مغلوقة ، والنفوس مطبوقة والغرامات نازلة والارزاق عاطلة ، والمطالب عظيمة والمصائب عميمة ، والعكوسات مقصودة والشفاعات مردودة . . . وبالجملة فالامر عظيم والخطب جسيم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم »

هـذا وصف شاهد عيان للمأساة التى حلت بالقاهرة بعد اخماد ثورتها الثانية ، ويقيننا انه قلما توجد فى تاريخ الثورات فجائع تشبهها أو تدانيها فى ويلاتها وخطوبها وأهوالها

اضطهاد الفرنسيين للسيد السادات

كان السيد محمد السادات هدفا لاقسى ضروب الانتقام والاضطهاد ، فقد خصه الجنرال كليبر بأكبر غرامة وعامله الفرنسيون بقسوة لانظير لها ، فاعتقلوه غير مرة وأهانوه وصادروا أمواله واضطروه الى بيع أملاكه توفيةً للغرامة التى فرضوها عليه ، وأفرطوا عليه فى القسوة ولم يرعوا مقامه بين الناس ولا منزلته فى البلاد ، وقد احتمل من صنوف الارهاب مالم يصب غيره من انداده ولا من قومه ، فلاجرم أن أفردنا لاضطهاده مبحثا خاصا ، لان من يتأمل فيما رواه الجبرتى عما أرهقه من صنوف الاذى والانتقام لايسعه الا أن يترحم على ذكراه

قال الجبرتى ما خلاصته « نزل الشيخ السادات وركب الى داره فذهب معه

عشرة من العسكر وجلسوا على باب داره ، فلما مضت حصة من الليل حضر اليه عشرة من العسكر أيضا ، فأركبوه وطلعوا به الى القلعة وحبسوه فى مكان ، فارسل الى عثمان بك البرديسى وتداخل عليه فشفع فيه فقالوا له : أما القتل فلا نقتله لشفاعتك ، وأما المال فلا بد من دفعه ، ولا بد من حبسه وعقوبته حتى يدفعه ، وقبضوا على فراشه ومقدمه وحبسوهما ، ثم أنزلوه الى بيت قائمقام (حاكم القاهرة) فمكث به يومين ثم أصعدوه الى القلعة ثانياً وحبسوه فى حاصل ينام على التراب ويتوسد بحجر وضربوه تلك الليلة ، فأقام كذلك يومين ثم طلب زين الفقار كتخدا فطلع اليه هو وبرطلمين (برتلمى الرومى) فقال لهما انزلونى الى دارى حتى أسعى وأبيع متاعى ، فاستأذنوا له وأنزلوه الى داره ، فاحضر ماوجده من الدراهم فكانت تسعة آلاف ريال معاملة عنها ستة آلاف ريال فرانسه(١) ثم قوموا ماوجده من المصاغ والفضيات والفراوى والملابس وغير ذلك بابخس الثمن فبلغ ذلك خمسة عشر الف ريال فرانسه ، فبلغ المدفوع بالنقدية والمقومات واحدا وعشرين الف ريال ، والمحافظون عليه من العسكر ملازموه لا يتركونه يطلع الى حريمه ولا الى غيره ، وكان وزع حريمه وابنه الى مكان آخر ، وبعد أن فرغوا من الموجودات جاسوا خلال الدار يفتشون ويحفرون الارض على الخبايا فلم يجدوا شيئا ، ثم نقلوه الى بيت قائمقام ماشيا ، وصاروا يضربونه خمس عشرة عصا فى الصباح ومثلها فى الليل ، وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوهما ، فاحضروا محمد السندوبى تابعه وقرروه (اكرهوه على الاقرار) حتى عاين الموت حتى عرفهم بمكانهما ، فاحضروهما وأودعوا ابنه عند أغات الانكشارية (المحافظ) وحبسوا زوجته معه فكانوا يضربونه بحضرتها ، وهى تبكى وتصيح وذلك زيادة فى الانكاء ، ثم ان المشايخ وهم الشرقاوى ، والفيومى ، والمهدى ، والشيخ محمد الامير وزين الفقار كتخدا تشفعوا فى نقلها من عنده ، فنقلوها الى بيت الفيومى (٢) وبقى الشيخ على حاله وأخذوا مقدمه وفراشه وحبسوهما ،

---

(١) أى تساوى ستة آلاف ريال فرنسوى

(٢) جاء فى الامر الصادر من الجنرال كليبر بتاريخ ٢٢ مايو سنة ١٨٠٠ الى

وتغيب أكثر أتباعه واختفوا ، وفى خامس محرم سنة ١٢١٥ (١) أصعدوا الشيخ السادات الى القلعة وكان أرسل الى كبار القبط بان يسعوا فى قضيتة ورهن حصصه ويسدد ما عليه فردوا عليه بأنه لابد من سداد قدر نصف الباقى أولا ولا يمكن غير ذلك، وأما الحصص فليست فى تصرفه ، ثم نقله الفرنسيس الى القلعة ومنعوه الاجتماع بالناس وهى المرة الثالثة »

هـذه رواية الجبرتى عما نزل بالسادات من الاضطهاد والتعذيب ، وفى المراجع الفرنسية ما يؤيد روايته وبخاصة فى مذكرات نابليون ، فقد تقدم الكلام بالجزء الاول (ص ٣٠٤) عما جاء فى تلك المذكرات خاصا باتهام الفرنسيين للسادات بالتحريض على ثورة القاهرة الاولى وماراآه نابليون من الابقاء عليه لما اعتقده من ان الحكم باعدامه يضر بمركز الفرنسيين أكثر مما ينفعهم ، ونضيف الى ذلك أن نابليون يقول فى مذكراته ان الجنرال كليبر راجعه فى رأيه هذا عقب اخماد الثورة الاولى (اكتوبر سنة ١٧٩٨) وسأله كيف لايقضى باعدامه وهو زعيم الثورة فاجابه نابليون ان اعدام مثل هـذا الشيخ الجليل لا يفيد الفرنسيين بل يؤدى الى عواقب وخيمة ، ويقول نابليون أيضا « وقد وقعت بعد ذلك حوادث أثارت ذكرى هذه المحادثة ، فان الشيخ السادات هذا هو الذى أمر الجنرال كليبر بتعذيبه وضربه ، وكان هذا من أهم الاسباب التى أدت الى مقتل كليبر » (٢)

وقال نابليون فى موضع آخر عند الكلام على اخماد ثورة القاهرة الثانية « ان السادات قد خص بغرامة فادحة ، وكان معروفا عنه كرهه للفرنسيين ، على أنهم أسرفوا فى اهانته لدرجة أنهم نسوا مقامه المستمد من نسبه ومولده ، فقد رفض أن يدفع الغرامة

الجنرال داماس رئيس أركان الحرب مايؤيد رواية الجبرتى اذ يقضى « بنقل زوجة الشيخ السادات الى بيت الشيخ سليمان الفيومى » ويظهر أن هذا الامر كان نتيجة مسعى المشايخ

(١) يوافق ٢٩ مايو سنة ١٨٠٠

(٢) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى جزيرة سانت هيلين

فاعتقل وسجن بالقلعة ، ولم يعبأ بالتهديد والوعيد ، فأمر كليبر بضربه بالعصيّ ، وهكذا ضرب السادات وأهينت السلالة النبوية ، فعم السخط رجال الشرع والعلماء والشعب ، وكانت هذه المعاملة على النقيض من معاملة نابليون للسادات عقب ثورة سنة ١٧٩٨ فقد قابله بالعفو والتسامح مع قيام البينات عليه بانه زعيم الثورة » (١)

ويقول نابليون أيضاً فى مذكراته ان لاضطهاد السادات دخلا فى مقتل الجنرال كليبر لانه لا يمكن أن يجهل علماء الازهر ما كان ينويه سليمان الحلبى من اغتيال كليبر فقد قضى بالازهر نحو ثلاثين يوما مصمما على القتل ، لكنهم تجاهلوا نية القاتل وتجاهلوا كل ما له علاقة به لانهم كانوا يودون الانتقام من الجنرال كليبر (٢)

وقال المسيو جومار (٣) Jomard الذى عاصر السادات « ان الشيخ محمد السادات كانت له مكانة كبيرة فى البلاد خلال الحملة الفرنسية ، وكان يعرف كيف يثير عواطف الشعب ، والمعروف عنه انه هو الذى هاج ثورة القاهرة الاولى وحرض على الثانية ، على انه دفع ثمناً غالياً لمكانته بين الشعب ، فقد فرض عليه القائد العام الجنرال كليبر بعد واقعة عين شمس غرامة فادحة واسرف فى القسوة معه الى حد ان أمر بضربه بالعصيّ ، ولم يقره ضباط الجيش على هذه القسوة » (٤)

بقى السيد السادات معتقلا فى القلعة ، ولم يفرجوا عنه الا فى ١٩ يونيه سنة ١٨٠٠ (٢٦ صفر سنة ١٢١٥) فى عهد قيادة الجنرال منو بعد أن سدد الغرامة المفروضة عليه ، قال الجبرتى واستولى الفرنسيون على « حصصه واقطاعه ، وقطعوا مرتباته وكذلك جهات حريمه والحصص الموقوفة على زاوية اسلافه ، وشرطوا عليه عدم الاجتماع بالناس وألا يركب بدون اذن منهم ويقتصد فى أموره ومعاشه وتقليل اتباعه » (٥) ، أى انه بقى فى داره رهن المراقبة ، ثم اعتقلوه للمرة الرابعة فى أوائل

---

(١) و (٢) مذكرات نابليون التى املاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين

(٣) أحد مهندسى الحملة الفرنسية انظر ما كتبناه عنه بالجزء الاول ص ١٢٦

(٤) تعليقات جومار على كتاب تاريخ مصر فى عهد محمد على لفلكس مانجان

(٥) الجبرتى الجزء الثالث

مارس سنة ١٨٠١ بعد وصول الحملة الانجليزية العثمانية الى (ابو قير)

ويقول الجبرتى انهم اصعدوه فى هذه المرة الرابعة الى القلعة « من غير اهانة » والظاهر ان الفرنسيين أحسوا فى هذه المرة بقرب ارتحالهم عن البلاد فخففوا من غلوائهم مع من اعتقلوهم كما سيجىء بيان ذلك

موقف كليبر

بعد اخماد ثورة القاهرة

أصبح موقف كليبر بعد جلاء الجنود العثمانية واخماد ثورة القاهرة على جانب عظيم من المنعة ، فقد دلت الظواهر على ان مصر دانت له من أقصاها الى أقصاها ، وانها خلصت له فلا يخشى عليها من اعتداء دولة أجنبية أو قيام ثورة داخلية ، وجعله انقطاع المواصلات بين مصر وفرنسا شبه حاكم مستقل ، فاخذ يحكم البلاد ويدير شؤونها على هذا النحو ، ومضى ينظم قواته ويدعم موقفه الحربى ، وأمر بانشاء قلاع جديدة فى القاهرة حتى لاتشب فيها ثورة أخرى ، وهذا عدا القلاع التى أنشأها نابليون بعد اخماد الثورة الاولى مما بسطناه بالفصل الثالث عشر من الجزء الاول (ص ٣٠٨)

وقد ادركت تركيا مناعة موقف كليبر بعد الحوادث الاخيرة فشرعت تفاوضه فى تنفيذ معاهدة العريش ، ووصل حسين قبطان باشا الى مياه الاسكندرية ومعه عدة بوارج من الاسطول العثمانى ، فاعتقد كليبر ان تركيا تريد أن تستأنف انزال جنودها فى شواطىء مصر ، فغادر القاهرة يوم ٣ يونيه سنة ١٨٠٠ واخذ يحشد جنوده استعداداً للقتال ، وفيما هو فى الرحمانية فى طريقه الى الاسكندرية وصلته رسالة من قومندان الثغر بأن قبطان باشا لا يقصد من مروره بأسطوله الا أن يفتح باب المفاوضة من جديد فى سبيل عقد الصلح بين الدولتين ، فاجاب كليبر على هذه الرسالة بأنه يرفض بتاتا أن يفتح باب المفاوضة فى الصلح لانه يعتبر أن مصر أصبحت له ! ! .

وأصدر تعليماته الى قومندانات ثغور الاسكندرية ورشيد ودمياط بأن لا يأذنوا لأى رسول يأتى للكلام فى الصلح بالنزول الى البر تفاديا من أن يكون لهؤلاء الرسل غاية أخرى وهى التجسس على مواقع الفرنسيين، وأفرد قوة متنقلة من الجنود تراقب سواحل البحر الابيض المتوسط ومنافذ برزخ السويس لتكشف حركات العثمانيين المقبلة ، وعاد كليبر الى القاهرة يوم ٢١ يونية واثقا من ثبات مركزه فى مصر ، وكذلك رفض دعوة الصلح التى جاءته من المراجع الانجليزية ، فقد أرسل له المستر موريه سكرتير اللورد الجين Elgin سفير انجلترا فى الاستانة ينبئه بأن التعليمات الاخيرة الصادرة من الحكومة الانجليزية تقضى بقبول تنفيذ نصوص معاهدة العريش حرفيا وان السلطات الانجليزية مستعدة لاعطاء جوازات المرور لنقل الجنود الفرنسية بحرا وانه لم يبق الا موافقة الجنرال كليبر للشروع حالا فى تنفيذ المعاهدة ، ولكن كليبر لم يعبأ بهذه الرسالة واعتبر ان معركة عين شمس واخماد ثورة القاهرة قد أوجدتا « حالة جديدة » هى بمثابة فتح لمصر وان هذه الحالة لا تتفق ومعاهدة العريش

على ان كليبر أخذ يفكر فى المفاوضة رأساً مع الباب العالى على أساس جديد وهو التودد الى تركيا ودعوتها الى فسخ التحالف بينها وبين انجلترا واقناعها بأن انجلترا لا تنظر الا الى مصلحتها وانها لا تقصد من مساعدة الباب العالى فى الحملة على مصر الا الى تمهيد السبيل لقواتها الحربية لتحتل الاسكندرية ورشيد والسويس وبذلك تضمن وضع يدها على مصر ، وأراد كليبر أن يطلع الباب العالى على مقاصد انجلترا ليلزم الحياد مبدئيا فى القتال بين الفرنسيين والانجليز ، وقد أفضى بهذا المشروع الى خاصة قواده وأخذ يعمل على تحقيقه لولا ان عاجلته منيته فحالت دون مراده

الفصل العاشر

مقتل الجنرال كليبر

كان موقف كليبر اذن فى أوائل شهر يونيه سنة ١٨٠٠ غاية فى المنعة ، وقد قويت آماله فى أن يخلد مركزه فى وادى النيل ويحقق مشروعاته السياسية والحربية ، لكن هذه الآمال تحطمت فى لحظة واحدة ، وهى اللحظة الرهيبة التى امتدت اليه فيها يد سليمان الحلبى بطعنة خنجر أردته صريعا

كان ذلك يوم السبت ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ (٢١ محرم سنة ١٢١٥) ، ففى صباح هذا اليوم ذهب كليبر الى جزيرة الروضة ليعرض كتيبة الاروام الذين انخرطوا فى سلك الجيش الفرنسى بمصر (١) وعاد بعد العرض الى الازبكية ليتفقد أعمال الترميم التى كانت تعمل فى دار القيادة العامة ومسكن القائد العام (سراى الالفى بك) لازالة آثار الاتلاف الذى أصابها من قنابل الثوار (٢) وكان يصحبه المسيو بروتان

---

(١) نظم الفرنسيون هذه الكتيبة فى عهد نابليون كما ذكرنا ذلك بالجزء الاول ص٣١٦ وجعلوا القبطان الرومى نيقولا باباز وغلو قومندانا لها ورقوه الى رتبة جنرال بعد اخماد ثورة القاهرة الثانية، وكان فى عهد المماليك خادما عند مراد بك ورئيسا للترسانة التى انشأها بالجيزة ، ويقول المسيو مارتان فى كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر) انه خدم المماليك الى ان حلت بهم الهزيمة فى معركة الاهرام فعرض خدمته على الفرنسيين ومن ذلك الحين وضع نفسه تحت تصرفهم ، ويقول الجنرال رينييه فى كتابه (مصر بعد واقعة عين شمس) ان عدد جنود هذه الكتيبة بلغ فى عهد كليبر ١٥٠٠ مقاتل

(٢) كان كليبر يقيم فى ذلك الحين بالجيزة ريثما يتم اصلاح سراى الالفى بك بالازبكية

Protain المهندس المعمارى وعضو لجنة العلوم والفنون، فتفقدا الاعمال معا ، ثم ذهبا الى دار الجنرال داماس Damas رئيس أركان الحرب حيث أعد وليمة غداء للقائد العام دعا اليها طائفة من القواد وأعضاء المجمع العلمى و رؤساء الادارة ، فتغدى كليبر مع المدعوين، وكان منشرح الصدر على المائدة يتحدث مطمئنا عن الحالة فى مصر ، واستمرت الوليمة الى الساعة الثانية بعد الظهر ، ثم انصرف كليبر يصحبه المهندس بروتان عائدين الى دار القيادة العامة ليستأنفا تفقد أعمال الترميم والاصلاح فيها ، وكانت حديقة السراى تتصل بدار الجنرال داماس برواق طويل تظلله تكعيبة من العنب

فسار كليبر وبجانبه بروتان فى هذا الرواق يتحدثان فى اصلاح السراى ، و بينما هما سائران إذ خرج عليهما رجل يكمن وراء بئر عليها ساقية فاقترب من الجنرال كليبر كمن يريد أن يستجديه أو يتوسل اليه ، فلم يرتب الجنرال فى نية ذلك السائل ، لكنه لم يكد يلتفت اليه حتى عاجله القاتل بطعنة خنجر مميتة أصابته فى صدره ، فصاح الجنرال « الى أيها الحارس » ثم سقط على الارض مضرجا فى دمه ، وهنالك أسرع المسيو بروتان فى تعقب الجانى ، فلما أدركه تماسك الاثنان ، فطعنه القاتل ست طعنات سقط منها على الارض بجوار كليبر ، وعاد الجانى مرة ثانية الى كليبر فطعنه ثلاث طعنات ليجهز عليه ، بيْد أن الطعنة الاولى كانت القاضية لانها نفذت الى القلب ، ولاذ الجانى بالفرار وتوارى عن الانظار مختفيا فى حديقة السراى ، ولم يبق فى مكان الجريمة مما يدل على القاتل سوى جزء من عمامته التى تمزقت أثناء صراعه مع بورتان ، وأقبل الحارس الذى سمع الصيحة يعدو ، فلما رأى هذا المنظر الرهيب ولّى مسرعا الى دار الجنرال داماس فأخبر القوم بما رآه ، فأقبل من كانوا موجودين الى مكان الحادثة فرأوا الجنرال كليبر مضرجا فى دمائه وبجانبه بروتان مغمى عليه من شدة الطعنات التى أصابته ، فهالهم ما أبصروه ، ونقلوا الجنرال كليبر الى دار الجنرال داماس ، وجاء الطبيب ديجنت كبير أطباء الجيش لاسعاف الجنرال كليبر فألفاه قد أسلم الروح دون أن ينطق بكلمة

انتشر الخبر فى القاهرة بسرعة البرق ، فتلقاه الاهالى بالدهشة والجزع الشديد

لتوقعهم الانتقام والنكال، وتلقاه الجنود الفرنسيون بالغضب والسخط والتحفز للوثبة على الاهالى الابرياء، وضُرب النفير العام فى احياء القاهرة جمعا لشتات الجنود فانبلوا من كل صوب وحدب الى ميدان الازبكية يَتنادون بالانتقام والاخذ بالثأر ويتهددون باحراق المدينة، فاستولى الفزع على الناس، وانقفلت الدكاكين، وخلت الطرق من المارة، وذهب كل الى داره يطلب النجاة من عواقب هذا الحادث الجلل، وأخذت دوريات الجنود تطوف الشوارع والاحياء وخاصة المجاورة لميدان الازبكية للبحث عن القاتل الذى كان بعد مختفيا عن الانظار، وأخذ جماعة الحراس يبحثون فى حديقه السراى لعلهم يعثرون عليه مختبئا فيها

اتجهت أنظار الفرنسيين فى بادئ الامر الى اتهام المشايخ الذين عرفوا بالتحريض على الثورة الاخيرة والحض على كراهية الحكم الفرنسى، وأخذ ولاة الامور يبحثون عنهم، وتطوع جماعة من المماليك برآسة حسين كاشف مندوب مراد بك للبحث عن أولئك المشايخ، واستصحبهم بعض ياوران القائد العام وفتشوا منازلهم، لكنهم لم يجدوا فيها مايدينهم أو يبعث على الاشتباه فيهم

رواية الجبرتى

نقلنا هذه البيانات عن المراجع الفرنسية وبخاصة كتاب ريبو الذى كان من أهم مصادره مذكرات بيروس السكرتير الخاص للجنرال كليبر، وهى مصادر دقيقة يصح الاعتماد عليها، والان ننقل ماذكره الجبرتى عن رواية الواقعة وهى فى جوهرها لا تخرج عن رواية المراجع الفرنسية، قال الجبرتى « وفى ذلك اليوم — السبت ٢١ محرم سنة ١٢١٥ — وقعت نادرة عجيبة وهى ان سارى عسكر كليبر كان مع كبير المهندسين يسيران بداخل البستان الذى بداره بالازبكية، فدخل عليه شخص حلبى وقصده، فأشار اليه بالرجوع وقال له « مافيش » وكررها، فلم يرجع، وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر فى قضائها، فلما دنا منه مد اليه يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده، فمد اليه الآخر يده، فقبض عليه وضربه بخنجر كان أعده

فى يده اليمنى أربع ضربات متوالية فشق بطنه وسقط على الارض صارخا ، فصاح رفيقه المهندس فذهب اليه وضربه أيضاً ضربات ، وهرب ، فسمع العسكر الذى خارج الباب صرخة المهندس ، فدخلوا مسرعين فوجدوا كلهبر مطروحا وبه بعض الرمق ولم يجدوا القاتل ، فانزعجوا وضربوا طبلهم وخرجوا مسرعين ، وجروا من كل ناحية يفتشون على القاتل ، واجتمع رؤساؤهم وأرسلوا العساكر الى الحصون والقلاع وظنوا أنها من فعل أهل مصر فاحتاطوا بالبلد وعمروا المدافع وحرروا القنابر ، وقالوا لا بد من قتل أهل مصر عن آخرهم ، ووقعت هوجة عظيمة فى الناس وكرشة وشدة انزعاج ، وأكثرهم لا يدرى حقيقة الحال ، ولم يزالوا يفتشون على ذلك القاتل حتى وجدوه منزويا فى البستان المجاور لبيت سارى عسكر » وذكر الجبرتى اجراءات التحقيق مما لا يخرج عن المراجع الفرنسية ، ونقل محاضر التحقيق ومحاضر جلسات المحاكمة كما دونها الفرنسيون فى ذلك الحين فقد نشروها بالفرنسية وترجموها الى التركية والعربية بلغة ركيكة مفككة مملوءة بالاغلاط ، فضربنا صفحا عن الترجمة الواردة فى الجبرتى ورجعنا الى المصادر الفرنسية

القبض على القاتل واعترافاته

وبعد ساعة من ارتكاب الجريمة عثروا على القاتل مختفيا فى الحديقة الملاصقة لدار القيادة وراء حائط مهدوم وأدركه اثنان من صف ضباط الحرس من الملازمين لدار الجنرال كليبر ، فحاول الهرب ولكنهما قبضا عليه وساقاه الى دار أركان الحرب حيث كان قواد الجيش مجتمعين ، وكانت دلائل الجريمة بادية فى المكان الذى قبض عليه فيه ، فالحائط الذى كان مختفيا وراءه كان به آثار دماء ، كما أن ملابسه كانت ملوثة بدم الجريمة ، وعثروا على الخنجر مدفونا فى المكان الذى قبض فيه على القاتل وعلى نصله دماء القتيل ، فلما سيق القاتل الى دار الجنرال داماس استجوبه الجنرال منو (١) وواجهه بالمهندس بروتان فتعرّفه وأرشد اليه من بين جماعة من العمال

(١) عينه كليبر قومندانا للقاهرة فى شهر مايو عقب اخماد الثورة وبقى بها الى أن قتل كليبر فتولى استجواب القاتل بصفته قومندان المدينة واقدم القواد

وضع بينهم خصيصا للتأكد من صحة التعرُّف ، وشهد الشهود بأن القاتل كان يتبع خطوات الجنرال كليبر منذ عدة أيام ، فقد رأوه فى الجيزة يسعى فى الدخول الى مقر القائد العام بحجة تقديم عريضة اليه ، ولكن المسيو بيروس Peyrusse سكرتير كليبر رفض الاذن له بالمقابلة

وفى صباح الجريمة اندس القاتل بين جماعة من الخدم ورآه الياور ديفوج Devouge أحد ياوران كليبر وكان يظن أنه من العمال الذين يشتغلون فى عمارة السراى فامر بطرده من الحديقة ، ومع هذه البينات القاطعة كان القاتل ينكر الجريمة ، فاتبع معه برتلمى الرومى طريقة التعذيب لاكراهه على الاعتراف وأخذ فى ضرب القاتل حتى اعترف بجريمته وأبان عن شخصيته ، فاذا هو طالب علم من حلب عمره أربع وعشرون سنة اسمه سليمان الحلبى وأبوه تاجر من حلب اسمه الحاج محمد أمين وانه غادر بلدته فى سورية وذهب الى بيت المقدس ثم حضر الى القاهرة خصيصا لقتل الجنرال كليبر وقضى بها واحدا وثلاثين يوما ، وتبين من اعتراف القاتل فى التحقيق وأمام المحكمة أن القتل وقع بتحريض رؤساء الجيش العثمانى ، وذلك أن القاتل التقى فى القدس بضابط من ضباط الجيش العثمانى اسمه (احمد اغا) يعرفه سليمان الحلبى منذ كان رئيسا للانكشارية فى حلب وكان هذا الضابط معزولا من وظيفته وجاء الى القدس ليسعى الى مقابلة الصدر الاعظم ويلتمس منه اعادته الى منصبه ، فالتقى به سليمان الحلبى وشكا اليه مظالم ابراهيم باشا والى حلب وارهاقه أباه واجباره على اداء غرامات فادحة ، وطلب من احمد اغا أن يشفع لوالده ليرفع عنه ماحاق به من الظلم ، فوعده أحمد اغا بمساعدته وانصاف والده على أن يسافر الى مصر ويغتال قائد الجيش الفرنسى ، وكان هذا الحديث بعد رجوع الجيش العثمانى منهزما الى سورية ، فقبل سليمان الحلبى ارتكاب الجريمة وصمم عليها فأرسله أحمد أغا الى حاكم غزة (يس اغا) وأوصاه بان يعطيه مايحتاج اليه من المال ليبلغ الى مصر ، وسافر الحلبى من القدس الى الخليل ومنها الى غزة وقابل يس اغا فوعده برفع المغارم عن أبيه وأعانه بالمال وسافر من غزة الى مصر صحبة قافلة من التجار فادرك القاهرة فى ستة أيام و بلغها

يوم ١٤ مايو وكان يعرف المدينة من قبل إذ قضى بها ثلاث سنوات يطلب العلم فى الازهر، فنزل عند وصوله بدا معلم تركى (خطاط) اسمه مصطفى افندى البروسه لى[١] وهو شيخ يبلغ الثمانين من العمر كان يتعلم القاتل على يده فى صغره ، فنزل بداره وبات عنده أول ليلة ولكنه لم يفض اليه بعزمه ، ثم انتقل من عنده وسكن الجامع الازهر وانتظم فى سلك طلبة العلم وقضى بالازهر نحو ثلاثين يوما وأفضى بعزمه الى أربعة من الطلبة وهم محمد الغزى ، واحمد الوالى ، وعبد الله الغزى ، وعبد القادر الغزى، فأنكر الاربعة عليه هذا العزم ورموه بالطيش والجنون، ونصحوه لاقلاع عن عزمه، فلم يسمع لنصحهم ،وذهب مساء ١٣ يونيه الى الجيزة حيث كان كليبر واستفهم من النوتية الذين فى خدمة الجنرال عن موعد خروجه ، فأخبروه ان الجنرال يتروض في مساء كل يوم فى حديقة سراى القيادة العامة بالازبكية ، وقد حاول سليمان الحلبى أن يدخل الحديقة ذلك المساء فلم يفلح ، وقضى الليلة فى أحد المساجد ، وفى صباح ١٤ يونيه تتبع خطوات الجنرال فسار على أثره الى الروضة ثم عاد وراءه الى القاهرة ، وتمكن من التسلل الى حديقة دار القيادة العامة ووصل الى الرواق الذى ارتكب فيه الجناية ، فلما اعترف القاتل بجنايته أمروا بالقبض على الازهريين الاربعة الذين وردت أسماؤهم فى أقواله ، فاعتقلوا منهم ثلاثة وفر الرابع (عبد القادر الغزى) واستجوب الثلاثة فانكروا مانسبه اليهم القاتل .

قال الجبرتى فى هذا الصدد « ثم انهم أمروا باحضار الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر والشيخ احمد العريشى (قاضى مصر)وأعلموهما بذلك وعوقوهما (أى حجزوهما) الى نصف الليل وألزموهما احضار الجماعة الذين ذكرهم القاتل وأنه أخبرهم بفعله ، فركبوا وصحبتهم الاغا (المحافظ) وحضروا الى الجامع الازهر وطلبوا الجماعة ، فوجدوا ثلاثة منهم ولم يجدوا الرابع(عبدالقادر الغزى)فأخذهم الاغا وحبسهم ببيت قائممقام (حاكم القاهرة) بالازبكية ثم انهم رتبوا صورة محاكمة على طريقتهم فى دعاوى القصاص »

---

(١) نسبة الى (بروسه) من بلاد الاناضول

قضية مقتل كليبر

بهذه الاعترافات والبينات بدأت قضية مقتل الجنرال كليبر ، وتعد هذه القضية من اكبر القضايا التاريخية بالنسبة لشخصية المجنى عليه والظروف التى وقعت فيها الجناية والنتائج التى ترتبت عليها

كانت المحاكمة تقتضى معرفة من الذى يخلف الجنرال كليبر فى قيادة الجيش الفرنسى لان القائد العام الجديد هو الذى يقرر اجراء المحاكمة ويأمر بتأليف هيئة المجلس العسكرى الذى يحاكم المتهمين ، وكان القانون العسكرى الفرنسى يقضى فى حالة خلو منصب القائد العام للجيش بأن تكون القيادة لاقدم قائد من قواد الفرق الى أن تعين الحكومة خلفاً له ، والجنرال (منو) هو أقدم أقرانه من قواد الفرق فضلا عن أنه كان قومندان القاهرة ، كما قدمنا فآلت له قيادة الجيش وخلف الجنرال كليبر فى منصبه ، قال الجبرتى فى هذا الصدد « واستقر عوضه فى السر عسكرية قائممقام (١) عبد الله جاك منو وهو الذى كان متولياً على رشيد من قدومهم ، وقد كان أظهر أنه اسلم وتسمى بعبد الله وتزوج بامرأة مسلمة وقلدوا عوضه فى القائممقامية بليار » وأصدر يوم ١٥ يونيه غداة مقتل كليبر منشوراً عسكريا للجيش ينعى اليه الجنرال كليبر وينوه بخدماته العسكرية والادارية ويبلغ الجنود أنه بحكم أقدميته قد تولى قيادة الجيش بصفة مؤقتة

تأليف المحكمة العسكرية

وأصدر منو فى اليوم نفسه أمراً بتأليف محكمة عسكرية لمحاكمة قتلة كليبر وهذه المحكمة مؤلفة من تسعة أعضاء من كبار رجال الجيش وهم الجنرال رينييه Reynier (رئيس المحكمة) والجنرال فريان Friant ثم استبدل به الادجودان جنرال مارتينيه ، والجنرال روبان Robin ، والادجودان جنرال موران Morand ، والكولونل جوجى Goguet ، والكولونل فور Faure ، والكولونل برتران Bertrand ، والقوميسير رجنيه Regnier ، ومدير مهمات البحرية لروا Leroy (ويسميه الجبرتى دفتردار البحر)

---

(١) قومندان (حاكم) القاهرة

وعهد الى القوميسير سارتلون Sartelon (١) مدير مهمات الجيش القيام بوظيفة المدعى العمومى ، وندب القوميسير لبير Lepère نائباً عن السلطة العسكرية

انعقدت المحكمة يوم ١٥ يونيه وندبت الجنرال رينييه والقوميسير سارتلون لاجراء التحقيق وجمع البينات للوصول الى معرفة المتهمين

التحقيق مع المتهمين

تولى القوميسير سارتلون مدير مهمات الجيش تحقيق القضية ، فكتب محضراً باستجواب سليمان الحلبى عقب الحادثة واستجواب المتهمين الآخرين ، وأخذ فى سماع أقوال الشهود ، فقرر جوزيف بيران Joseph Perrin من فرسان الحرس أنه هو والفارس روبرت Robert عثرا على القاتل مختبئا فى الحديقة وراء حائط متهدم وعلى الحائط آثار الدماء وأن القاتل كان أيضا ملوثا بالدم ، فقبضا عليه وهو فى هذه الهيئة وانهما عثرا بعد ساعة من اعتقال الجانى على خنجر مدفون فى المكان الذى كان مختبئا به ، وعلى نصله دماء

وشهد الفارس روبرت بما شهد به صاحبه

وانتقل المحقق بعد ذلك الى دار المهندس بروتان Prolaiu الذى كان يرافق الجنرال كليبر وقت الجريمة ، وكان ضجيعًا من الجراح التى أصابته ، فشهد برؤيته القاتل يرتكب الجناية وانه ضربه بعصاه ليدافع عن الجنرال كليبر فانقض عليه القاتل وطعنه عدة طعنات سقط بعدها على الارض مغشيا عليه ، وقرر انه رغم صياحه وصياح الجنرال كليبر فقد بقى عشر دقائق قبل أن تصلهم النجدة ، وانه تعرّف القاتل بعد القبض عليه

وسمع المحقق أقوال الملازم ديفوج Devouges ياور الجنرال كليبر فقرر أنه فى يوم الحادثة كان يصاحب الجنرال فى تفقده دار القيادة العامة بالقاهرة وان القاتل كان لاينفك يتعقب الجنرال وكانوا يظنون انه أحد العمال الذين يعملون فى ترميم السراى

---

(١) عينه كليبر مديرا لمهمات الجيش بدلا من المدير السابق المسيو «دور»

فلم يرتابوا فى شأنه ، لكن ديفوج لاحظ أن القاتل تعقب الجنرال بعد أن خرج من حديقة السراى قاصدا دار الجنرال داماس رئيس أركان الحرب ، فسأله عما يريد وأمر بطرده ، وطرده الخدم فعلا ، و بعد ساعتين وقعت الجناية ، ولاحظ ديفوج وجود جزء من ملابس القاتل تركها فى مكان الجناية فتعرفها الشاهد وعرف أنها ملابس ذلك الرجل الذي أمر بطرده ، ولما قبض على القاتل وجىء به و رآه تحقق منه

واعاد المحقق استجواب سليمان الحلبى ، وكان يتولى ترجمة أقواله واقوال المتهمين المسيو براسفيش Braswich رئيس تراجمة القائد العام ، فكرر المتهم اعترافاته السابقة وأقر بأن المحرضين له على القتل هما أحمد اغا و يس اغا من ضباط الجيش العثمانى كما تقدم ، وان أحمد اغا اختاره لانه يعرف القاهرة معرفة تامة حيث قضى فيها من قبل ثلاث سنوات فى طلب العلم بالازهر ، وانه كاشف الازهريين الاربعة بعزمه وكان يفضى اليهم به كل يوم ، ولكنهم كانوا ينصحونه بالاقلاع عنه لاستحالة نجاحه ، وانه فى يوم القتل قابل محمد الغزى أحد زملائه الاربعة وأخبره بأنه ذاهب الى الجيزة لينفذ عزمه وانكر انه أفضى بعزمه الى المدرس التركى (مصطفى افندى) وانكر كذلك انه أخذ نقودا من أحد من الاهالى

وأمر المحقق بمواجهة سليمان الحلبى بالازهريين الثلاثة المقبوض عليهم واستجوبهم فيما قرره بشأنهم ، والظاهر من التأمل فى اسئلة المحقق أن الفرنسيين كانوا شديدى الارتياب فى مسلك علماء الازهر وخاصة الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع ، وكان سير التحقيق متجها الى جمع البينات لاثبات علم الشيخ الشرقاوى بنية القاتل قبل ارتكاب الجناية ، ولكن التحقيق لم يسفر عن ادانة الشيخ الشرقاوى أو غيره من كبار العلماء

سئل محمد الغزى احد الازهريين الاربعة فقرر أنه يعرف سليمان الحلبى ولكنه انكر أنه أفضى اليه بعزمه على القتل ، وقال ان سليمان كاذب فى ادعائه ، سأله المحقق ألم يبت غالباً فى بيت الشيخ الشرقاوى وخاصة فى الايام الاخيرة ؟ فأجاب بأنه من

يوم مجيء الفرنسيين لم يبت عنده قط ، وأنه قبل ذلك كان يبيت عنده أحياناً ، فكذّبه المحقق قائلا انه فى استجوابه الاول اعترف بأنه كان يبيت غالباً عند الشيخ الشرقاوى ، فاجاب المتهم انه لم يقل ذلك ، وواجهه المحقق بسليمان الحلبى فى نقطة افضائه له بعزمه على قتل الجنرال كليبر ، فاصر المتهم على الانكار ، فامر المحقق بضربه ليعترف ، وضربه الى أن تعهد بان يقر بالحقيقة ، ثم أقر بان الحلبى أفضى اليه بذلك ليلة الحادثة

سئل لماذا لم يبلغ الامر الى الجهة المختصة ، فاجاب بانه لم يكن يصدق أن رجلا مثل سليمان الحلبى يجرؤ على قتل القائد العام للجيش الفرنسى فى حين أن الوزير (يوسف باشا) لم يستطع ذلك

سئل ألم يبلغ ماسمعه من سليمان الحلبى الى أحد فى المدينة وخاصة الى الشيخ الشرقاوى ، فاجاب بأنه لم يذكر ذلك لاحد ، وأصر على جوابه قائلا انه لايعدل عنه ولو أمروا بقتله

ثم استجوب المحقق أحمد الوالى ثانى الازهريين الاربعة ، فأجاب بان سليمان الحلبى أخبره عند قدومه الى مصر أنه جاء ليجاهد فى سبيل الله ولكنه لم يخبره بعزمه على قتل القائد العام ، فواجهه المحقق بسليمان الحلبى فأقر عليه بأنه أخبره بعزمه ،فعدل المتهم عن انكاره وقال أنه يذكر أنه أخبره بعزمه

سئل لماذا لم يبلغ الامر الى الجهة المختصة فاجاب بمثل ما اجاب به محمد الغزى

سئل ألم يخبره سليمان الحلبى بأن له شركاء ، وهل لم يبلغ أحداً ما أفضى به اليه وخصوصاً شيخ الجامع الازهر (الشرقاوى) فاجاب بان الحلبى لم يخبره بان له شركاء وانه لم يبلغ شيخ الجامع بما سمعه منه لانه لم يظن أن ذلك من واجبه

ثم استجوب المحقق عبد الله الغزى ثالث الازهريين ، فاعترف بان سليمان الحلبى أخبره من يوم حضوره أنه جاء ليقتل القائد العام وأنه حاول أن يثنيه عن عزمه فلم يفلح

سئل لماذا لم يبلغ الامر الى جهة الاختصاص ، فاجاب بأنه كان يظن أن

سليمان الحلبى سيفضى بعزمه الى كبار المشايخ وانهم سيتولون ارجاعه عن عزمه

سئل عما اذا كان يعرف أن فى القاهرة أشخاصاً آخرين مكلفين قتل الفرنسيين فاجاب بأنه لايعرف شيئاً عن ذلك ولا يظنه

ثم استجوب مصطفى أفندى البروسه لى المدرس ، وسئل عن علاقته بالقاتل فأجاب بأنه كان تلميذه منذ ثلاث سنوات وأنه جاءه عند قدومه الاخير الى القاهرة وبات عنده ليلة ثم طلب منه أن يبحث له عن مثوى آخر اذ لايستطيع لفقره أن يؤويه فى بيته ، وقال انه لم يخبره بسبب حضوره ولم يعرف من نيته شيئاً

سئل ألم يخبره عما اذا كان قابل أحداً من أهالى القاهره وخاصة من كبار العلماء ، فأجاب بأنه لايعرف شيئاً عن ذلك وانه لشيخوخته ومرضه لايخرج من بيته الا نادراً

سئل أليس فى القرآن ما يحض على الجهاد فى سبيل الله ، فأجاب نعم ، سئل ألم يدرس هذه القواعد لتلاميذه وخاصة لسليمان الحلبى ، فقال انه كان يعلمه الكتابة فقط .

سئل الا يعلم بأن مسلماً قتل بالامس القائد العام وهل يعتقد أن القرآن يعد هذا القتل جهادا فى سبيل الله ، فأجاب بأن القاتل يجب أن يقتل

ثم ووجه مصطفى افندى بسليمان الحلبى ، فأقر هذا بأنه لم يخبره بعزمه وأنه لم يقابله الا مرة واحدة للسلام عليه لانه معلمه القديم ، وسئل الحلبى ألم يحرضه علماء المدينة على القتل ، فأجاب بأنه لم يفض بعزمه الا للازهريين الاربعة

سئل ألم تخاطب فى ذلك الشيخ الشرقاوى ، فأجاب بأنه لم ير الشيخ الشرقاوى قط لانه شافعى المذهب أما هو فعلى مذهب الامام أبى حنيفة

المحاكمة

أسفر التحقيق عن اتهام سليمان الحلبى والازهريين الاربعة الذين أفضى اليهم بعزمه على ارتكاب الجناية ، وهم محمد الغزى ، وأحمد الوالى ، وعبد الله الغزى ، وعبد قادر الغزى ، وكذلك مصطفى افندى البروسه لى الذى بات عنده حين حضوره الى

مصر ، فكان عدد المتهمين ستة ، ولما كان رابع الازهريين وهو عبد القادر الغزى فارا قبل المحاكمة فقد حوكم غيابياً

وطلب المدعى العمومى من المتهمين أن يمهدوا بالدفاع عنهم الى رجل ليترافع أمام المحكمة ، فأجابوا بأنهم لا يعرفون أحداً ، فنَدب للدفاع عنهم المترجم لوماكا

وانعقدت المحكمة العسكرية يوم ١٦ يونيه وأخذت فى سماع مرافعة المدعى العمومى ودفاع المتهمين ، فقام المدعى العمومى وطلب الحكم بتوقيع العقاب على القاتل وشركائه ، ونعى فى مرافعته الجنرال كليبر وأشاد بمواقفه الحربية فى ميادين القتال ، ونسب الجريمة الى تحريض الصدر الاعظم يوسف باشا وقال ان الذى تولى اغراء سليمان الحلبى على القتل هو أحمد اغا الذى كان مغضوبا عليه من الوزير فأراد أن يتقرب اليه بهذا العمل الفظيع لينال رضاه ، وأن القاتل اندفع الى القتل تحت تأثير هذا التحريض ، وان تهمة شركائه المشايخ الاربعة انهم علموا بنية القاتل وتصميمه عليها ومع ذلك لم يخبروا ولاة الامور بعزمه ، فهم يعتبرون شركاء للقاتل فى جريمته ، وقال عن مصطفى افندى انه لا دليل على اشتراكه فى الجريمة لانه ثبت انه لم يعلم بنية القاتل ، وعلى ذلك طلب له البراءة ، وطلب الحكم على سليمان الحلبى باحراق يده اليمنى التى باشر بها القتل ثم اعدامه على الخازوق وترك جثته تأكلها جوارح الطير ، وبالنسبة للمشايخ الاربعة طلب الحكم فى غيبة عبد القادر الغزى وبحضور الثلاثة الآخرين بقطع رءوسهم ، وبعد أن تمت مرافعة المدعى العمومى طلبت المحكمة من المتهمين أن يدافعوا عن أنفسهم فلم يجيبوا بشىء وأعيدوا الى السجن ، وأمرت باخلاء قاعة الجلسة فاخليت من الحاضرين

الحكم

واختلت المحكمة للمداولة ، ثم أصدرت حكمها باعتبار سليمان الحلبى وشركائه الأربعة مذنبين وبراءة مصطفى افندى واطلاق سراحه ، وحكمت باحراق يد سليمان الحلبى اليمنى ثم اعدامه على الخازوق وترك جثته تأكلها الطير واعدام شركائه الاربعة بقطع

رءوسهم واحراق جثثهم بعد الاعدام مع مصادرة أموال المتهم الغائب عبد القادر الغزى (ولم يكن له مال)

ولا جدال فى أن محاكمة المتهمين فى هذه القضية كانت عنوانا للعدالة العسكرية وخاصة اذا لاحظنا شخصية المجنى عليه والظروف التى وقعت فيها الجنـاية ، ومن الانصاف أن نقول ان القضاة الفرنسيين الذين تولوا تحقيق القضية والحكم فيها قد أظهروا شيئاً كثيرا من ضبط النفس والميل الى العدل ، وقد كان فى استطاعتهم أن يأخذوا كثيرا من الابرياء بجناية القاتل ، لـكنهم لم يفعلوا ، فكانوا نموذجا للعدل ومدعاة للاعجاب ، ولم يفت الجبرتى فى تاريخه أن يعرب عن هذا الاعجاب لمناسبة نقله محاضر جلسات التحقيق والمحاكمة فقـال انها « تتضمن خبر الواقعة وكيفية الحـكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الاحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يدينون بدين ، وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم[1] رجل آفاق أهوج وغدره وقبضوا عليه وقرروه (أى حملوه على الاقرار) ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم وأميرهم ، بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفراد ومجتمعين ، ثم نفذوا الحكم فيهم بما اقتضاه التحكيم ، وأطلقوا مصطفى افندى البرصلي الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور ، بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر (العثمانيين) الذين يدعون الاسلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الانفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية »

جنازة كليبر

وبعد أن تمت المحاكمة أخذوا يستعدون للاحتفال بتشييع رفات الجنرال كليبر

---

(١) أى عظيمهم وقائدهم

فى مشهد مهيب ، فشيعت جنازته يوم الثلاثاء ١٧ يونيه (٢٥ محرم سنة ١٢١٥) وأطلقت مدافع القلاع عند تحرك موكب الجنازة ، وسارت الجنازة تتقدمها كتائب الجيش من الفرسان والمدفعية وحرس القائد العام والموسيقى ، ووراءها النعش مجللا بالسواد محمولا على مركبة تجرها ستة من الجياد الصافنات وعليه سيف كليبر وقبعته وشاراته ، ووراء النعش الجنرال (منو) وقواد الجيش وأركان الحرب وياوران كليبر ووراءهم قومندان المدينة فأركان حربه وضباط فرقة الهندسة وأعضاء المجمع العلمى وكبار رجال الادارة وحسين كاشف مندوب مراد بك ومماليكه والاغوات (رؤساء الشرطة) والقاضى وأعضاء الديوان والعلماء والقساوسة ومندوبو طوائف الصناع فى القاهرة وغيرهم ، وسارت الجنازة من الازبكية الى درب الجماميز الى الناصرية الى أن وصلوا الى تل العقاب على مقربة من القلعة التى بنوها هناك (١) وخرجوا من باب (غيط الباشا) القريب من دار المجمع العلمى ثم تابعوا السير الى (قصر العينى) حيث أعدوا فى حديقته قبر الجنرال على درج عال وضعوا فوقه التابوت وأقاموا حول القبر حاجزا وزرعوا حوله أعواد السرو ، وهناك دفنت الجثة فى خشوع رهيب ، والقى المسيو فوريه سكرتير المجمع العلمى والقوميسير الفرنسى لدى الديوان كلمة تأبين طويلة ذكر فيها صفات الجنرال كليبر « بطل معركتى مايستريك وعين شمس » ومواقفه الحربية على ضفاف الرين والاردن والنيل ، وذكر كيف هزم جيش يوسف باشا وكيف أخمد ثورة القاهرة ثم عفا بعد ذلك عمن اشتركوا فى الثورة وكيف أن القاتل قد حرضه رؤساء الجيش العثمانى على اغتيال حياة الجنرال كليبر بعد ما انتصر عليهم فى ميدان القتال ، وحيى فوريه ذكرى الفرنسيين الذين ماتوا فى معارك سورية وأبوقير وعين شمس وخاصة ذكرى كافريللى الذى كانت تربطه بكليبر صلات الصداقة والود

---

(١) طابية قاسم بك بالناصرية ويسميها الفرنسيون طابية المجمع العلمى انظر الجزء الاول ص ٣١٣

وعقب انتهاء الجنازة ودفن الجثة نفذ حكم الاعدام (١) فى المحكوم عليهم عند تل العقاب قريبا من طابية قاسم بك على مشهد من الجنود وأعيان المدينة ، فقطعت رءوس الازهريين الثلاثة ثم أعدم سليمان الحلبى على الخازوق (٢)

وانقضت تلك الايام الثلاثة والفزع مخيم على القاهرة والناس تعروهم الدهشة من تعاقب الحوادث الرهيبة على المدينة العظيمة التى ظلت السنين الطوال قبل الحملة الفرنسية غارقة فى لجة الهدوء والسكون .

إقفال الازهر

زاد ارتياب الفرنسيين فى الازهر بعد مقتل الجنرال كليبر إذ كان يأوى اليه سليمان الحلبى وشركاؤه ، وبه قضى القاتل نحو ثلاثين يوما مصمما على القتل ، فلم يقتنع الفرنسيون بأن علماء الازهر كانوا يجهلون نية القاتل قبل ارتكاب الجناية ، وقد مر بك ما قاله نابليون فى مذكراته فى هذا الصدد ، فلما انقضت محاكمة سليمان الحلبى وشركائه ذهب الجنرال (منو) الى الازهر يصحبه قومندان المدينة (الجنرال بليار) والاغا (المحافظ) وطافوا به وشرعوا فى حفر ما به من الاماكن بحجة التفتيش على السلاح ، فأخذ طلبة العلم فى نقل أمتعتهم منه ونقل كتبهم واخلاء الاروقة ، وكتب

---

(١) يقول الجبرتى ان حكم الاعدام نفذ قبل دفن جثة كليبر ، وهذا خطأ فان تنفيذ الحكم كان بعد الدفن باتفاق المراجع الفرنسية فضلا عن ان حكم المحكمة العسكرية كان يقضى بذلك ، ولعل الجبرتى لم يحضر الجنازة ولا تنفيذ الحكم ولم يغادر بيته فى ذلك اليوم الرهيب فلم تصله حوادثه كلها على حقيقتها

(٢) شرح كبير الجراحين لارى Larrey جثة سليمان الحلبى بعد اعدامه واستبقى هيكل رأسه ونقله الى غرفة التشريح بمدرسة الطب بباريس ، كما ان الخنجر الذى قتل به كليبر محفوظ فى مدينة كاركاسون Carcassonne بفرنسا فقد اودعه به المسيو بيروس Peyrusse سكرتير الجنرال كليبر بعد عودته من مصر (وكاركاسون هى مسقط رأس بيروس)

الفرنسيون أسماء الطلبة فى كشوف وأمروهم أن لا يؤووا بالجامع غريبا ، وأخرجوا منه المجاورين العثمانيين ، فلما رأى العلماء أن الازهر أصبح عرضة للريبة والتفتيش عرضوا على الفرنسيين اقفاله مؤقتا ، قال الجبرتى فى هذا الصدد :

« ان المشايخ الشرقاوى والمهدى والصاوى توجهوا عند كبير الفرنسيس (منو) واستأذنوه فى اقفال الجامع ، وكان قصدهم من ذلك منع الريبة بالكلية فان للأزهر سعة لا يمكن الاحاطة بمن يدخله ، فربما دس العدو من يبيت به واحتج بذلك الى انجاز غرضه ونيل مراده من المسلمين والفقهاء ، ولا يمكن الاحتراس من ذلك ، فأذن كبير الفرنسيس بذلك لما فيه من موافقة غرضه باطنا ، فلما أصبحوا (١) أقفلوه وسمروا أبوابه من سائر الجهات »

وظل الازهر مقفلا الى أن شرع الفرنسيون فى الجلاء عن مصر فأعيد فتحه فى غاية محرم سنة ١٢١٦ (٢)

وساد الذعر فى المدينة بعد مقتل الجنرال كليبر ومحاكمة القاتل وشركائه فهاجر كثير من العلماء والاعيان الى الاقاليم وتبعتهم الجماهير من الناس حتى اضطرت السلطة الفرنسية لوقف تيار الهجرة الى اصدار أمرها بمنع انتقال الناس ورجوع المهاجرين منهم وأنذرت من لم يرجع بعد خمسة عشر يوما بنهب داره ،فعاد أكثر المهاجرين خوفا على بيوتهم أن تنهب وأموالهم أن تصادر

---

(١) يوم الجمعة ٢٨ محرم سنة ١٢١٥ — ٢١ يونيه سنة ١٨٠٠

(٢) ٢ يونيه سنة ١٨٠١

الفصل الحادى عشر

قيادة الجنرال منو Menou

لم يكن تولى الجنرال (منو) قيادة الجيش الفرنسى راجعا الى كفاية عسكرية أو مواهب سياسية أو ادارية ، بل لانه أقدم قواد الفرق فى الخدمة ، فالصدفة هى التى قضت بأن يخلف كليبر ونابليون ، أما منو فى ذاته فلم يكن على صفات تؤهله لتولى ذلك المنصب الخطير ، فقد كان فى حياته الحربية بعيدا عن خوض غمار المعارك ، وكأنما كان يجتهد على الدوام فى أن يكون بعيدا عنها

ولد جاك فرنسوا منو سنة ١٧٥٠ من عائلة عريقة فى النسب وانتظم فى سلك الجندية ، ولما اقترب عصر الثورة الفرنسية كان مؤمنا بمبادئها وانتخب سنة ١٧٨٩ عضوا فى الجمعية العمومية ، وبالرغم من أنه من نواب الاشراف فانه انضم الى نواب الشعب وأعلن تنازله عن امتيازاته ورتبته (بارون) وعاد الى سلك الجندية بعد انحلال الجمعية الوطنية الفرنسية الاولى وحارب لاخماد فتنة (الفانديه) فهزم فى تلك الحرب الداخلية ، ثم عهدت اليه حكومة الجمعية الوطنية قمع فتنة الخارجين عليها بباريس لكنه أظهر عجزا كبيرا فى أداء هذه المهمة فأبدلت به الجنرال بونابرت (نابليون) الذى قمع الفتنة وأنقذ الجمعية الوطنية من فتنة الثائرين ودسائس الملكيين فى اكتوبر سنة ١٧٩٥ ، وقد لمح (منو) من ذلك الحين نجم نابليون يتألق فى سماء العبقرية والعظمة فأخذ يتملق القائد العظيم ويحوم حوله ، ومن هنا جاء عطف نابليون عليه ، وقد اصطحبه ضمن قواد الحملة الفرنسية ، وأصيب (منو) بجرح فى حصار الاسكندرية ، فعينه نابليون حاكما لرشيد ، وظل منزويا فيها دون أن يشترك فى وقائع الحملة ، ودعاه نابليون عند ما زحف على سورية ليلحق بالجيش المقاتل وعينه قومندانا لفلسطين (١) فأخذ يتباطأ وينتحل الاعذار حتى انتهى القتال ولم يتحرك

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٠٣١

للسفر الا بعد أن أخفقت الحملة ورجع الجيش الفرنسى الى حدود مصر

وعند ما قاتل الفرنسيون الجيش العثمانى فى معركة (أبو قير) لم يشترك فى القتال وانما قام بعمل حربى ضئيل عهده اليه نابليون وهو القيام على حصار قلعة أبو قير بعد انتهاء المعركة (١) ودعاه كليبر ليقاتل فى معركة (عين شمس) فلم يحضر الا بعد انتهاء المعركة واخماد ثورة القاهرة ، فهو من الوجهة الحربية لم يألف خوض غمرات الحرب وقلما رآه الجنود فى ميادين القتال ، فلم ينل فى الجيش منزلة القواد الذين أكسبتهم بطولتهم محبة الجند واحترامهم

وكان من الوجهة السياسية مجردا من الكفاية والحزم وحسن التدبير ، على أنه كان على جانب كبير من الغرور والاعتداد بنفسه ، ولعل السبب فى ذلك راجع الى أنه كان زمنا ما عضوا فى الجمعية الوطنية الفرنسية وشهد المعارك السياسية وخالط أقطاب الثورة الفرنسية الكبرى فظن أن عضويته فى الجمعية الوطنية قد وضعته فى مصاف رجال السياسة والدولة ، على أنه فى الواقع كان خلوا من الكفاية السياسية ولكنه وصل الى التقرب من نابليون بالتملق والرياء والتظاهر بالاخلاص له ، فكسب عطفه ورعايته ، ورسائله الى نابليون عديدة وطويلة تنم عن ادعائه العلم بالمسائل التشريعية والاقتصادية والادارية وهو مجرد منها ، وكان معروفا عنه الحقد على كليبر لمنزلته بين القواد والجند ، والجنرال كليبر هو الذى عينه قومندانا للقاهرة بعد اخماد ثورتها الثانية ، ويرجع ذلك الى أن كليبر كان يشك فى اخلاصه وقد بلغه عنه أنه كان يبعث بالرسائل من الاسكندرية ورشيد الى نابليون بعد رحيله الى فرنسا للوقيعة بكليبر ، فأراد أن يبعده عن الثغور ويجعله تحت نظره فلا يسهل عليه أن يراسل نابليون ، وقد بقى قومندانا للقاهرة الى أن قتل الجنرال كليبر ، ولو ترك أمر اختيار من يخلفه لقواد الجيش الفرنسى وضباطه لما فكر واحد منهم فى اختيار (منو) ولاختاروا الجنرال (رينييه) الذى كان موضع احترامهم كما كان موضع ثقة كليبر ،

---

(١) انظر ص ٧٩

وكان منو يحس فى نفسه العجز عن الاضطلاع بهذا المركز الخطير ، فاجتمع بالجنرال (رينييه) عقب مقتل كليبر وتباحث واياه فيمن يخلف القائد المقتول ، وكان منو يعلم أن القواد لا يرضون به فى منصب القيادة العامة ، لكن أقدميته تخوله هذا الحق فى الظروف التى خلا فيها المنصب ، فتظاهر بأنه لا يرغب فى تولى القيادة العامة وانه اذا شغلها بحكم أقدميته فلا يكون الا بصفة مؤقتة، ولهذا نوه فى الامر العسكرى الذى أصدره للجيش فى ١٥ يونيه أنه يشغل هذا المنصب « مؤقتا » بحكم أقدميته

سياسة (منو) ازاء الجيش

على انه لم يكد يتولى القيادة حتى عمل على توطيد مركزه فيها ، ولما كان يعتقد أنه لايستطيع أن يصل الى كسب احترام القواد والضباط فقد أخذ يوطد مركزه بالدسائس والسعايات ، وكان معروفا عنه كراهيته لسلفه ، فاخذ يعمل على اقصاء أصدقاء كليبر وخلق حزب من المتملقين الذين يأسرهم بترقيتهم واغداق النعم عليهم ليكونوا عونا له فى قضاء أغراضه ، فنقم عليه قواد الجيش وضباطه الاكفاء وسخروا منه لما كان يأتيه من الاعمال البعيدة عن الحكمة ، وغنى عن البيان أن الجيش الذى يتولاه قائد غير حائز لثقة رجاله لايمكن أن يستبقى قوته ووحدته ولا بد أن يدب فى صفوفه التفكك والانقسام ، وقد كان هذا حال الجيش الفرنسى فى مصر بعد ما تولى (منو) قيادته العامة ، وشعر قواد الجيش وكبار ضباطه أنه يعبث بهم ويعرض مصير الجيش للخطر ، فمن ذلك أنه أكثر من تنقلات الجنود بلا جدوى ونقل بعض القواد من مراكزهم ، فاستدعى الجنرال (لانوس) الذى كان قومندانا للاسكندرية (١) الى

---

(١) عينه الجنرال كليبر فى هذا المنصب فى أوائل عهد قيادته ، ويذكر القارىء أن نابليون قبل رحيله عين (منو) قومندانا للاسكندرية ورشيد والبحيرة وكان هذا المركز يقتضى اتخاذه الاسكندرية مقرا له ، لكن (منو) ظل مستقرا برشيد واعتزم أن يجعلها عاصمة للمديريات الثلاث فتركه كليبر برشيد ثم طلبه الى القاهرة وعين الجنرال لانوس قومندانا للاسكندرية فاستاء من ذلك وأسرها

القاهرة وتركه بلا عمل لانه كان من اصدقاء الجنرال كليبر ، وعزل الجنرال (داماس) رئيس أركان الحرب من منصبه للسبب نفسه وجعله قومندانا لبنى سويف والفيوم ، وعين بدله الجنرال لاجرانج Lagrange ، وعزل القوميسير دور Daure مدير مهمات الجيش من وظيفته وأسند اليه وظيفة كبير مفتشى الجيش وجرده من كل سلطة وعين بدله أحد أصدقائه القوميسير سارتلون Sartelon ، ورقى كثيرا من الضباط الى رتب أعلى ليكونوا تبعاً له ، فأصبح محاطا ببطانة من الاصدقاء والمحاسيب استولى بهم على زمام الجيش والادارة ، فالجنرال لاجرانج فى رآسة أركان الحرب ، وسارتلون فى الادارة وأبقى المسيو « استيف » Estève مديرا للايرادات العامة وكان بمثابة مدير للشؤون المالية لانه لم يلق منه معارضة فى خططه (١)

ولم يكتم (منو) كراهيته لكليبر ولا كان يبدو منه احترام لذكراه ، و بلغت به كراهيته أنه رزق ولدا من زوجته المصرية فاسماه « سليمان » وهذا الاسم كان يثير فى نفوس الجنود والقواد الفرنسيين لوعة الحزن على فقيدهم لانه اسم سليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر ، فكان لاختيار منو لهذا الاسم أثر استياء كبير فى نفوس الجيش

سخط رجال الجيش من تصرفات (منو) وسخط عليه كذلك أعضاء لجنة العلوم والفنون والمجمع العلمى فقد أخذ يصدر اليهم الاوامر و يتدخل فى شئونهم العلمية ويضع لهم الخطط ويختار لهم الجهات التى يكتشفونها و ينقبون فيها فى حين انه كان لايدرى شيئاً من أبحاثهم وا كتشافاتهم ، فنقموا عليه تدخله وخاصة عندما حال بينهم و بين ا كتشافاتهم العلمية ، وكان كليبر قد استدعاهم من الصعيد بعد التوقيع على معاهدة

فى نفسه ، فلما تولى قيادة الجيش بعد مقتل كليبر عزل لانوس من قومندانية الاسكندرية وعين الجنرال فريان Friant بدله

(١) لما ابحر المسيو بوسليج الذى كان مديرا للشئون المالية فى عهد نابليون وكليبر الى فرنسا عين كليبر مكانه المسيو جلوتيه ثم مات هذا أثناء ثورة القاهرة فالغى كليبر هذا المنصب وعين المسيو استيف مدير الخزانة سابقا مديرا للايرادات العامة

العريش استعدادا للرحيل الى فرنسا ، ولكن بعد تجدد القتال والاتفاق مع مراد بك عزموا على استئناف ابحاثهم وا كتشاف الآثار المصرية والتنقيب عليها حتى بلاد النوبة ، ولكن منو لم يأذن لهم بالسفر وكان كثير التردد يعدهم تارة ويسوف اخرى وظلوا ثلاثة أشهر معطلين فى القاهرة مع أنهم أعدوا عدتهم فى كل لحظة للسفر الى الصعيد لخدمة العلم وا كتشاف الاثار ، ولما أدركوا أن ليس فى مقدورهم السفر بهيئتهم الكاملة لمعارضة منو شرعوا فى العمل فرادى متفرقين ونقبوا فى الآثار وبين الاطلال

ولما أسرف (منو) فى سوء التدبير عزم قواد الجيش على مفاتحته فى الامر ولكنهم لم يفوزوا منه بطائل ، وزاد صلفه بعد ماورد من فرنسا أمر تثبيته فى منصب القيادة العامة للجيش (نوفمبر سنة ١٨٠٠) فاعتمد منو على هذا الامر وطلب من القواد الناقمين عليه الرحيل الى فرنسا وهم لانوس ، وفرديبه ، وداماس ، ولكن ضباط الجيش رفضوا أن يغادرهم أولئك القواد وبقوا فى مصر رغم ارادته

مسألة اسلام منو وزواجه

فكر الجنرال منو وهو حاكم لرشيد فى التقرب الى الشعب لدرجة الاندماج فيه ، فاعتزم التزوج من سيدة مصرية شريفة المحتد ، والجنرال منو كما رأيت من سلالة أشراف فرنسا ، فأراد أن يجمع بين شرف أسرته وشرف مصاهرته عائلة مصرية عريقة فى النسب ، وقد استتبع هذا المشروع اعتناقه الاسلام ليتسنى له التزوج من سيدة مسلمة فأسلم قبل الزواج

ولم يكن منو يقصد اختيار سيدة بالذات كما زعم بعض المؤلفين بل كل ما كان يرمى اليه أن يصاهر عائلة تتصل بالسلالة النبوية ، فرغب بداءة ذى بدء فى مصاهرة الشيخ الجارم عميد أسرة الجارم العريقة فى الشرف والعلم ، ولكن يظهر أن الشيخ تورع عن هذه المصاهرة وأراد أن يسد الطريق أمام الجنرال منو فلم يكد يسمع بهذه الرغبة حتى بادر بتزويج كريمتيه الاثنتين الى اثنين من الاهلين ليتخلص من مصاهرة الجنرال ، وقد حققت الحوادث صدق نظره فان الجنرال منو أساء معاملة زوجته المصرية بعد جلاء الفرنسيين كما سيجىء بيانه ، وإذ ذاك طلب منو التزوج

من سيدة أخرى تدعى زبيدة كريمة السيد محمد البواب أحد أعيان رشيد وكانت مطلقة سليم اغا نعمة الله ، فقبل أبوها وقبلت هى الزواج بالجنرال ، وتم عقد زواجهما فى وثيقة شرعية تضمنت اعتناقه للاسلام وزواجه بالسيدة المذكورة ، وتسمى منو فى وثيقة الزواج باسم « عبد الله باشا منو » ، وهذه الوثيقة مؤرخة فى ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣ (١) وقد اكتشفها العلامة على بك بهجت فى دفترخانة محكمة رشيد الشرعية واكتشف كذلك عقد الاتفاق الملحق بها وأخذ صورة الوثيقتين بالفوتوغرافيا وترجمهما الى اللغة الفرنسية وعلق عليهما بمحاضرتين نفيستين ألقاهما بدار المجمع العلمى بالقاهرة ونشرتا فى مجلة المجمع (٢)

وقد تظاهر الجنرال منو بتمسكه بالشعائر الاسلامية حتى كان يؤدى صلاة التراويح فى شهر رمضان المعظم بمساجد رشيد وكتب الى نابليون ينبئه بذلك ويقول فى رسالة اليه ان هذه الطريقة قد حببته الى نفوس الاهالى

وكانت حادثة زواج منو فريدة فى بابها لانه لم يسبقه اليها أحد من قواد الجيش الفرنسى فلا غرو ان كان موضع تهكم زملائه

وقد رزق من زوجته ولدا اسماه (سليمان مراد جاك منو) وكانت ولادته كما ذكر الجبرتى فى شهر شعبان سنة ١٢١٥ (يناير سنة ١٨٠١) وأقامت السيدة زبيدة مع زوجها برشيد وبقيت بها بعد أن تولى القيادة العامة للجيش الفرنسى وظلت بها الى أن احتلها الاتراك والانجليز فخرجت صحبة أخيها لأمها السيد على الحمامى (ويسميه الجبرتى السيد على الرشيدى) وانتقل بها الى الرحمانية ، ولما احتلها الحلفاء قدم بها الى مصر فدخلاها فى أوائل محرم سنة ١٢١٦ ونزلا بدار القائد العام — بيت الالفى بك — بالازبكية ثم انتقلا الى القلعة ليكونا بمأمن من الاضطرابات ، وكان (منو) وقتئذ بالاسكندرية .

وبقيت السيدة زبيدة وابنها وحاشيتها بالقاهرة الى أن ابرم الجنرال بليار شروط

---

(١) يوافق ٢ مارس سنة ١٧٩٩

(٢) مجموعة سنة ١٨٩٨ وعدد فبراير سنة ١٩٠٠

التسليم وتم جلاء الفرنسيين عنها فأذن لها الجنرال هتشنسون قائد الجيش الانجليزى بالسفر الى الاسكندرية لتلحق بزوجها ، على ان منو طلب الاذن لها بالسفر الى الى فرنسا فرحلت اليها على احدى السفن التى اقلت جيش الجنرال بليار، ولما جلا الجيش الفرنسى عن الاسكندرية ووصل منو الى فرنسا التقى بزوجته هناك وظلت فى عصمته ، على انه يؤخذ من الوثائق التى رجع اليها العلامة على بك بهجت (١) ومما ذكره المسيو ريجو فى كتابه (٢) ان منو قد أساء معاملة زوجته المصرية وتنكر لها وهجرها فى تورينو (بايطاليا) وأبدل بها بعض الراقصات واتخذهن خليلاته وتركها تعانى غصص العيش وغضاضة الهجر الى أن توفيت بها ، وقد نشرنا فى قسم الوثائق التاريخية الوثيقتين اللتين اكتشفهما العلامة على بك بهجت فى دفترخانة محكمة رشيد الشرعية

سياسة منو ازاء المصريين

أوضحنا سياسة (منو) ازاء مواطنيه الفرنسيين ، فلننظر ماذا كانت سياسته حيال المصريين

كان (منو) من دعاة اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية ، فهو فى سياسته نحو المصريين من حزب الاستعمار ، وهذا وحده كاف للدلالة على مافى نفسه من نزعة الظلم والعدوان ، وهـذه النزعة تفسر لك كثيرا من تصرفاته ، فانه لم يكن فى علاقته بالشعب خيرا من سلفه .

ضرائب واتاوات فادحة

فقد أخذ يجبى الباقى من الغرامة التى فرضها كليبر على المدينة ، وفرض عليها هو ضريبة جديدة قدرها أربعة ملايين فرنك فرضها على ملاك الدور ومستأجريها والملتزمين والتجار وأرباب الحرف ، فهال الناس أمر هـذه الضريبة لقرب عهدهم

---

(١) مجلة المجمع العلمى المصرى عدد فبراير سنة ١٩٠٠

(٢) الجنرال عبد الله منو والفترة الاخيرة من الحملة الفرنسية فى مصر

بالغرامة الفادحة التى فرضها كليبر عليهم وماقاسوه بسبب جبايتها من الأهوال، وعهد الفرنسيون أمر تحصيل الضريبة الجديدة الى مشايخ الحارات والمماليك الساكنين بالمدينة وكانوا اذا أصابوا دارا مغلقة قد غاب صاحبها يأخذون الضريبة التى عليها من الجيران !! وفرضوا كذلك ضريبة أخرى قدرها مليون فرنك على التجار وأرباب الصنائع والحرف، قال الجبرتى فى هذا الصدد «واستهل شهر رجب (سنة ١٢١٥ (١)) والطلب والنهب والهدم مستمر ومتزايد، وأبرزوا أيضاً أوامر بتقرير مليون على الصنائع والحرف يقومون بدفعه كل سنة قدره مائة ألف وستة وثمانون ألف ريال فرانسه، فدهى الناس وتحيرت أفكارهم واختلطت أذهانهم وزادت وساوسهم»

وقال الجنرال رينييه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية (٢) «ان التجارة التى أرهقتها المكوس والاتاوات المختلفة قد ازداد كسادها وحل بها البوار بعد الأمر الذى أصدره (منو) بفرض اتاوات جديدة على نقابات الحرف والنجار، فان تجار القاهرة وبولاق الذين نهبت دكاكينهم أو صودرت متاجرهم بعد الثورة واخمادها ودفعوا نحو نصف الاثنى عشر مليون فرنك التى فرضت على المدينة كغرامة حربية لم يكادوا يتنفسون ويعودون الى العمل حتى باغتتهم الاتاوات الجديدة، وكذلك حدث لتجار دمياط والمحلة الكبرى وطنطا وغيرها، ففرضت عليهم ضرائب أوقعتهم فى الضيق فاضطر معظمهم الى اقفال دكاكينهم وترك الاشتغال بالتجارة»

ويقول المسيو ريجو (٣) «ان تجارة مصر قد تلاشت فى عهد الحملة الفرنسية، فان الحصر البحرى الذى ضربه الانجليز على سواحل البحر الابيض المتوسط منع حركة التجارة وكذلك وجود قوات الصدر الاعظم فى حدود سورية، هذا فضلا عن أن الغرامات والضرائب التى فرضها نابليون وكليبر قد أفقرت تجار المدن، وقد اتبع (منو) سنة سلفيه فى فرض الغرامات والقروض الاجبارية»

ففى هاتين الشهادتين تأييد لرواية الجبرتى

---

(١) نوفمبر سنة ١٨٠٠ (٢) فى كتابه (مصر بعد واقعة عين شمس)

(٣) فى كتابه (الجنرال عبدالله منو والفترة الاخيرة للحملة الفرنسية فى مصر)

نهب وارهاق وتخريب

ضج سكان العاصمة من ترادف المظالم وضاقت بهم المسالك ، فكثر عدد المهاجرين من المدينة فرارا من الظلم ، فنادى الفرنسيون بين الناس بان من لم يحضر بعد اثنين وثلاثين يوما من يوم المناداة نهبت داره وصودرت أملاكه واعتبر من المذنبين ، قال الجبرتى « وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة ولا شفيع تقبل شفاعته ، أو متكلم تسمع كلمته ، واحتجب سارى عسكر (منو) عن الناس وامتنع عن مقابلة المسلمين وكذلك عظماء الجنرالات وانحرفت طباعهم عن المسلمين زيادة عن أول واستوحشوا منهم ونزل بالرعية الذل والهوان »

وصادروا العروض والبضائع ونهبوها فى مقابل سداد ما فرضوه من الغرامات والاتاوات ، وهدموا كثيرا من الدور وخاصة بيوت من هاجروا من المدينة، قال الجبرتى « واغلقوا جميع الوكائل والخانات على حين غفلة فى يوم واحد (١) وختموا على جميعها ، ثم كانوا يفتحونها وينهبون ما فيها من جميع البضائع والاقمشة والعطر والدخان خانا بعد خان ، فاذا فتحوا حاصلا من الحواصل قوموا ما فيه بما أحبوا بابخس الاثمان ، وحسبوا غرامته ، فان بقى لهم شىء أخذوه من حاصل جاره ، وان زاد له شىء أحالوه على جاره الآخر ، ونقلوا البضائع على الجمال والحمير والبغال وأصحابهم ينظرون وقلوبهم تتقطع حسرة على مالهم ، واذا فتحوا مخزنا دخله أمناؤهم ووكلاؤهم فيأخذون ما يجدونه من الودائع الخفيفة أو الدراهم وصاحب المحل لا يقدر على التكلم بل ربما هرب أو كان غائباً ، وحرروا دفاتر العشور وأحصوا جميع الاشياء الجليلة والحقيرة ورتبوها بدفاتر وجعلوها أقلاما ينتقلدها من يقوم بدفع مالها المحرر ، وجعلوا جامع أزبك الذى بالازبكية سوقا لمزاد ذلك بكيفية يطول شرحها ، وأقاموا على ذلك أياما كثيرة يجتمعون لذلك فى كل يوم ويشترك الاثنان فأكثر فى القلم

---

(١) خلال شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٥ (اغسطس سنة ١٨٠٠)

الواحد وفى الاقلام المتعددة ، وكثر الهدم فى الدور وخصوصاً فى دور الامراء ومن فر من الناس ، واستهل شهر جمادى الاولى سنة ١٢١٥ (١) والأمور من أنواع ذلك تتضاعف والظلومات تتكاثف »

وقد أكثروا من الهدم والتخريب لأغراض حربية ، ذلك انهم أخذوا فى اتمام بناء القلاع التى شرع الجنرال كليبر فى انشائها لاحاطة المدينة بسلسلة من الحصون تمنع قيام ثورة أخرى ، فهدموا كثيرا من البيوت والعمارات اما لاخذ أخشابها وأدوات البناء منها واستخدامها فى بناء القلاع والحصون أو كشف الجهات التى شرعوا فى اقامة الحصون فيها ، وهدموا بيوتا أخرى لبيع اخشابها أو اتخاذها وقودا ، فعم الهدم والتدمير خططا بأكملها كالحسينية ، والخروبى (٢) وبركة جناق ، وبركة الفيل ، وكشفوا سور القاهرة القديم من باب النصر الى باب الحديد وحصنوا أبوابه وأقاموا حولها الاسلاك الشائكة ، وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق

ومن العمارات التى هدموها جامع الجنبلاطية بباب النصر ومبانى رأس الصوة

---

(١) سبتمبر سنة ١٨٠٠

(٢) خط الخروبى بمصر القديمة ، ولم يزل جزء من المدرسة الخروبية قائما الى اليوم على رأس شارع القبوة بمصر القديمة أمام الطريق الموصل الى مقياس الروضة ، وبركة جناق هى المعروفة الآن ببركة درب عجور بباب الشعرية ، وجامع الجنبلاطية هو المعروف بجامع جنبلاط ، ورأس الصوة بنهاية شارع الحجر بالميدان القائم الآن بين جامع السلطان حسن والقلعة (باب العزب) والذى به جامع المحمودية ، ومدرسة القانبية هى مسجد قانيباى الموجود على رأس درب السماكين ، أما جامع السبع سلاطين فهو الآن متخرب لاتقام فيه الشعائر وواقع بالقرب من باب الوداع الموصل منه الى قرافة باب الوزير من جهة القلعة ، وجامع الشركسى بميدان السيدة عائشة بالمنشية ، وقبة خوند بركة هى بقرافة المجاورين بقرب شارع السلطان احمد ، وقد رجعنا فى هذه البيانات الى صديقنا الاستاذ المؤرخ مصطفى بك منير أدهم ، فله منى جزيل الشكر والثناء

حيث الحطابة وباب الوزير وهدموا أعالى المدرسة النظامية ، ومدرسة القانبية ، والجامع المعروف بالسبع سلاطين وجامع الجركسى وجامع خوند بركة خارج باب البرقية وكذلك ابنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها والقباب والمدافن الكائنة تحت القلعة ، وجامع الرويعى وقد جعلوه خمارة ، وجزء من جامع عثمان كتخدا القزدغلى بالقرب من رصيف الخشاب ، وجامع خير بك حديد بدرب الحمام بالقرب من بركة الفيل ، وجامع البنهاوى ، والطرطوشى ، والعدوى ، وجامع عبد الرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح ولم يبق منه الا بعض الجدران

قال الجبرتى : « فهدم للناس من الاملاك والعقار ما لا يقدر قدره ، وذلك مع مطالبتهم بما قرر على املاكهم ودورهم من الفردة (الضريبة) ، فيجتمع على الشخص الواحد النهب والهدم والمطالبة فى ان واحد ، وبعد أن يدفع ما على داره أو عقاره وما صدق انه سدد ماعليه الا وقد دهموه بالهدم فيستغيث فلا يغاث ، فترى الناس سكارى وحيارى ، ثم بعد ذلك كله يطالب بالمنكسر من الفردة »

وأمعنوا فى الهدم والتخريب بمختلف الوسائل ، فهدموا مساطب الحوانيت واقتلعوا أحجارها ، وتعللوا فى ذلك برغبتهم توسيع الشوارع والازقة ، وغرضهم الحقيقى منع الناس من اتخاذها متاريس فى حالة قيام الثورة كما حدث فى ثورة القاهرة الاولى والثانية ، وهدموا تلك المساطب فى أحياء بأكملها ، كالصليبة ، وقناطر السباع ، ودرب الجماميز ودرب سعادة وباب الخلق فما يليه الى باب الشعرية ، فاشتد الضيق بأصحاب الحوانيت لانهم اضطروا بعد هدم مساطبهم أن ينزووا داخل حوانيتهم فصارت أشبه بالسجون

وأمعنوا فى مصادرة الاخشاب فقطعوا الاشجار والنخيل من جميع الحدائق والبساتين الكائنة بالقاهرة وبولاق وقصر العينى والروضة ومصر القديمة وخارج الحسينية وبركة الرطلى وأرض الطبالة وبساتين الخليج ، وكذلك فى كثير من الاقاليم ، وأخذوا أيضا أخشاب المراكب والسفن مع شدة الحاجة اليها للنقل وعدم امكان انشاء مراكب جديدة فتعطلت المواصلات مما أدى الى صعوبة النقل وارتفاع أجور الشحن وغلو الاسعار واشتداد الضيق بالناس

يتبين مما تقدم ان السياسة التى اتبعها (منو) حيال الشعب كانت اذن سياسة ارهاق وظلم، ونهب ومصادرة، وهدم وتخريب، فلا غرو أن زادت النفوس نفورا من حكم الفرنسيين على الرغم من اعتناق منو الاسلام فان المصريين قد رأوا بأعينهم وشاهدوا بأنفسهم أن سيل المظالم والمغارم على عهده فى ازدياد وطغيان

اعادة الديوان

أبطل الديوان بعد التوقيع على معاهدة العريش وأخذ الفرنسيون من ذلك الحين يستعدون للجلاء عن مصر، فلما نقض الانجليز المعاهدة وتجدد القتال وشبت الثورة فى القاهرة استمر الديوان معطلا ولم يفكر كليبر فى اعادته بعد اخماد الثورة، ويقول الجنرال رينييه فى كتابه (١) ان كليبر رأى ان لا يعيد الديوان الا بعد أن تسدد القاهرة الغرامة التى فرضها عليها، وسواء أصح هذا التعليل أم أن كليبر لم يفكر أصلا فى اعادة الديوان فانه مما لا ريب فيه أن الديوان بقى معطلا من حين التوقيع على معاهدة العريش، فلما تولى منو القيادة العامة سار سيرة سلفه فى ارهاق الناس بالمغارم والضرائب، ثم عزم على اعادة الديوان لاستمالة قلوب المصريين، فأعاد تنظيمه فى شهر اكتوبر سنة ١٨٠٠

تأليف الديوان

لم يتبع (منو) النظام الذى ابتكره نابليون من جعل الديوان هيئتين، الديوان العمومى والديوان الخصوصى، بل جعله ديوانا واحداً مؤلفا من تسعة أعضاء كلهم من المسلمين، وقد ظن أنه بهذه الوسيلة يكسب رضاء غالبية الشعب ويستميلهم اليه، على أن ذلك لم يكن له أثر ما فى حالتهم النفسية ولا فى عواطفهم حيال الفرنسيين

أما الاعضاء الذين اختارهم منو للديوان الجديد فهم الشيخ عبد الله الشرقاوى، والشيخ محمد المهدى، والشيخ سليمان الفيومى، والشيخ محمد الامير، والشيخ مصطفى الصاوى، والشيخ عبد الرحمن الجبرتى مؤرخ ذلك العصر، والسيد على الخامى (٢)

---

(١) مصر بعد واقعة عين شمس

(٢) يسميه الجبرتى السيد على الرشيدى

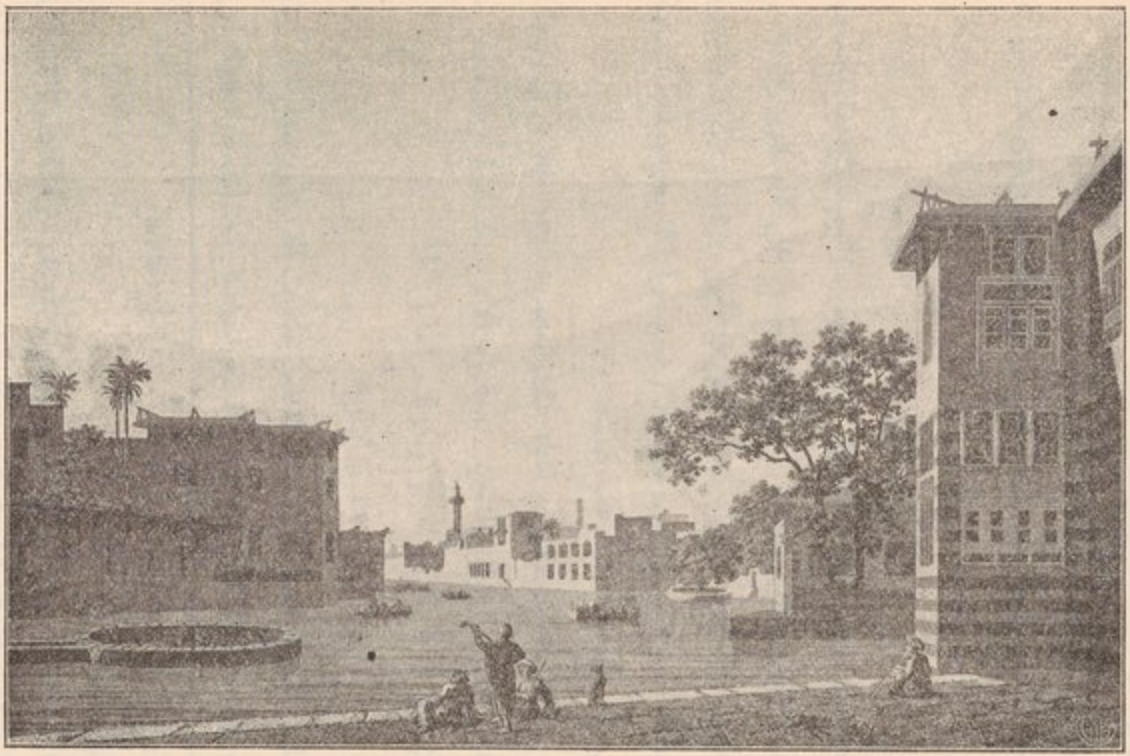

بركة الفيل بالقاهرة فى أواخر القرن الثامن عشر

صورتها قبل ان تتخرب فى عهد الحملة الفرنسية « انظر ص ٢١٨ » وقد ذكر الجبرتى ما أصابها من الخراب في حوادث سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) بقوله « ومنها توالى خراب بركة الفيل وخصوصا بيوت الامراء «المماليك » التى كانت بها وأخذوا أخشابها لعمارة القلاع ووقود النيران وكذلك ما كان بها من الرصاص والحديد والرخام وكانت هذه البركة من جملة محاسن مصر »

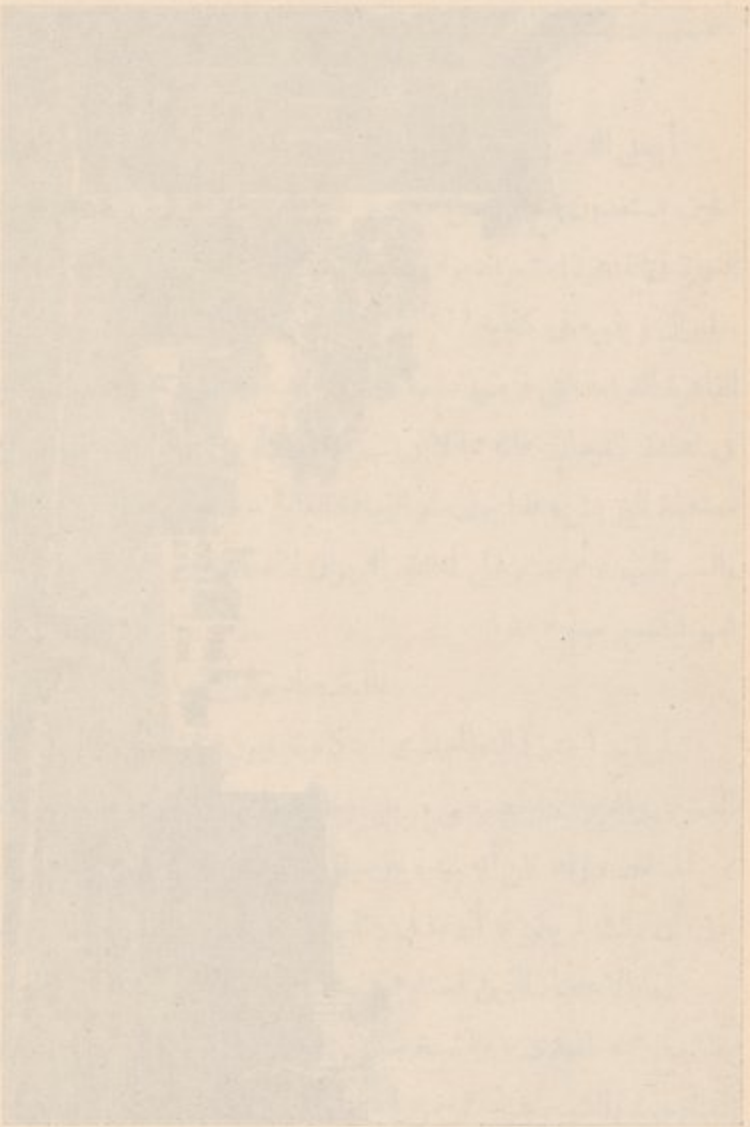

(نسيب الجنرال منو) ، والشيخ خليل البكرى ، والشيخ موسى السرسى .

أولئك هم الاعضاء وقد وردت أسماؤهم فى كتاب « ريبو » (١) وذكرت بالفرنسية والعربية فى كتاب تخطيط مصر Description de lEgypte (٢) وذكرها الجبرتى فى تاريخه وأشار الى نفسه بقوله (وكاتبه)

وقد انتخب الشيخ الشرقاوى رئيسا للديوان والشيخ المهدى سكرتيرا له (كاتم السر)

موظفو الديوان

أما موظفو الديوان فهم الشيخ اسماعيل الزرقانى قاضياً، والسيد اسماعيل الخشاب أمينا لمحفوظات الديوان وكاتبا لسلسلة التاريخ ، والشيخ على كاتبا عربيا ، وقاسم افندى أمين الدين كاتبا روميا (تركيا) ، والقس روفائيل ترجمانا أول ، والياس نخر ترجمانا مساعدا ، والمسيو فورييه وكيلا (قوميسيرا) للديوان ومديرا لسياسة الاحكام الشرعية(٣) ، ومقدم ، وخمسة قواسة

والسيد اسماعيل الخشاب هو من أدباء ذلك العصر ، ترجمه الجبرتى فى وفيات سنة ١٢٣٠ هجرية فوصفه بالبليغ النجيب ، والنبيه الأريب، نادرة الزمان، وفريد الاوان ، وذكر عنه أنه قال الشعر الرائق ونثر النثر الفائق (٤)

سلسلة التاريخ

أما (سلسلة التاريخ) فهى عبارة عن محاضر جلسات الديوان وسجل الحوادث اليومية الهامة ،وقد ذكرها الجبرتى فى ترجمة السيد اسماعيل الخشاب بقوله «ولمارتب

---

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثامن

(٢) الجزء الخامس عشر

(٣) فى الاصل الفرنسى للامر ان المسيو فورييه عين «مديرا للادارة القضائية ووكيلا فرنسيا للديوان » والجبرتى يسميه الوكيل فورييه ، وفى بعض المواطن يسميه الوكيل الكمثارى (كذا) فورييه

(٤) له ديوان شعر موجود فى دار الكتب الملكية

الفرنساوية ديوانا لقضايا المسلمين تعين المترجم فى كتابة التاريخ لحوادث الديوان وما يقع فيه من ذلك اليوم لان القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية فى جميع دواوينهم وأماكن احكامهم ثم يجمعون المتفرق فى ملخص يرفع فى سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخا عديدة يوزعونها فى جميع الجيش حتى لمن يكون منهم فى غير المصر من قرى الارياف، فتجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم، فلما رتبوا ذلك الديوان كما ذكر كان هو المتقيد برقم كل ما يصدر فى المجلس من أمر أو نهى أو خطاب أو جواب أو خطأ أوصواب، وقرروا له فى كل شهر سبعة آلاف نصف فضة فلم يزل متقيدا فى تلك الوظيفة مدة ولاية عبد الله جاك منو حتى ارتحلوا من الاقليم مضافا لما هو فيه من حرفة الشهادة بالمحكمة وديوانهم هذا ضحوة يومين فى الجمعة فجمع من ذلك عدة كراريس ولا أدرى مافعل بها »

دار الديوان

وقد اختاروا للديوان بيت رشوان بك بحارة عابدين وكان يسكنه برتلمى الرومى فانتقل منه وخصص للديوان بعد أن عمر، وهيئت قاعة الحرم لجلسات الديوان وفرشوها فرشا فاخرا وحددوا لانعقاده عشر جلسات فى كل شهر وجعلوا دار الديوان مسكنا للقوميسير فوربيه وأعدوا به جناحا للمترجمين والكتبة الفرنسيين يجلسون به على الدوام لترجمة أوراق الديوان وجعلوا به خزائن للسجلات والحقوا بالديوان دارا للمحكمة التجارية للفصل فى دعاوى التجار

وصف احدى جلسات الديوان

وصف الجبرتى احدى جلسات الديوان وما حصل فيها من الاجراءات والمناقشات قال « وشرعوا فى جلسة الديوان، وصورته انه اذا تكامل حضور المشايخ يخرج اليهم الوكيل فوربيه وصحبته المترجمون فيقومون له، فيجلس معهم، ويقف الترجمان الكبير رفائيل ويجتمع أرباب الدعاوى فيقفون خلف الحاجز عند آخر الديوان وهو من خشب مقفص وله باب كذلك وعنده الجاويش يمنع الداخلين

خلاف أرباب الحوائج، ويدخلهم بالترتيب الاسبق فالاسبق، فيحكى صاحب الدعوى قضيته فيترجمها له الترجمان، فان كانت من القضايا الشرعية فاما أن يتمها قاضى الديوان بما يراه العلماء أو يرسلوها الى القاضى الكبير بالمحكمة ان احتاج الحال فيها الى كتابة حجج أو كشف من السجل، وان كانت من غير جنس القضايا الشرعية كامور الالتزام أو نحو ذلك يقول الوكيل ليس هذا من شغل الديوان، فان ألح أرباب الديوان فى ذلك يقول اكتبوا عرضا لسارى عسكر فيكتب الكاتب العربى والسيد اسماعيل يكتب عنده فى سجله كل ماقال المدعى والمدعى عليه وما وقع فى ذلك من المناقشة، وربما تكلم قاضى الديوان فى بعض مايتعلق بالامور الشرعية، ومدة الجلسة من قبيل الظهر بنحو ثلاث ساعات الى الاذان أو بعده بقليل بحسب الاقتضاء، ورتبوا لكل شخص من مشايخ الديوان التسعة أربعة عشر الف فضه فى كل شهر عن كل يوم اربعمائة نصف فضة(١)، وللقاضى والمقيد والكاتب العربى والمترجمين وباقى الخدم مقادير متفاوتة »

اختصاص الديوان

أمل الناس خيرا باعادة الديوان وظنوا أنه سينصفهم من المظالم التى تكاثرت عليهم، فازدحم الديوان بكثرة الشاكين، قال الجبرتى «وسر الناس لظنهم أنه انفتح لهم باب الفرج بهذا الديوان ولما كانت الجلسة الثانية ازدحم بكثرة الناس وأتوا اليه من كل فج يشكون »

ولكن سلطته كانت محدودة ولم يكن فى مقدوره رفع المظالم ولا منع إقرار المغارم، وتبين من تجربته انه لاحول له ولاقوة، واستمر الفرنسيون يفرضون الضرائب بعد اعادة الديوان والطلب والنهب والهدم مستمر مزداد

على أن الجنرال (منو) قد وسع من عمل الديوان وزاد فى اختصاصه القديم، فجعله بمثابة محكمة استئناف لها حق نقض الاحكام التى يتبين خطؤها وتتقدم له بشأنها «فتاوى» بما حوته من الخطأ أو من مخالفة الاحكام الشرعية، وجعله كذلك مجلسا استشاريا للحكومة للسهر

---

(١) كذا في الجبرتي، على ان مقتضى الحساب مادام المرتب اليومي أربعمائة نصف فضة أن يكون المرتب الشهرى اثنى عشر الف نصف فضة، والله أعلم

على تقرير العدالة وادارة المساجد والتكايا وجهات البر ومعاهد التعليم والانفاق على الحج، وعليه ان يعلن للاهالى المنشورات التى يوجهها القائد العام اليهم ويتصل بالقائد العام لعرض مطالب الاهالى على الحكومة (١)

وكذلك جعل من اختصاصه انتخاب القضاة وترشيحهم لمناصبهم وطلب عزلهم، اى أنه عمم الطريقة التى وضعها نابليون لانتخاب قاضى مصر كما رأيت فى الكلام على مسألة القضاء الشرعى (٢)، وقد طلب (منو) من الديوان طبقا لهذا النظام أن ينتخب قاضى مصر من جديد فوقع اختياره على الشيخ احمد العريشى الذى كان متوليا القضاء من قبل (٣)، واليك ماذكره الجبرتى عن انتخاب القضاة « وفيه أمر الوكيل بتحرير قائمة تتضمن اسماء الذين تقلدوا قضاء البلاد من طرف القاضى والذين لم يتقلدوا، وأخبر أن السر فى ذلك أن مناصب الاحكام الشرعية استقر النظر فيها له وانه لابد من استئناف ولايات القضاة حتى قاضى مصر بالقرعة (بالانتخاب) من ابتداء سنة الفرنساوية ويكتب لمن تطلع له القرعة تقليد من سارى عسكر الكبير، فكتبت له القائمة كما أشار، وفى سادسه عملت القرعة على شرطها، بل زاد تكرارها ثلاث مرات لقاضى مصر واستقرت للعريشى على ماهو عليه وخرج له التقليد بعد مدة طويلة »

ويظهر أن السبب فى اعادة الاقتراع لانتخاب قاضى مصر أن الفرنسيين كانوا مرتابين فى الشيخ العريشى من يوم وقوع حادثة مقتل كليبر لأن القاتل كان سوريا والشيخ العريشى كان شيخا لرواق الشوام بالازهر، فعزلوه من المشيخة، ثم تبينت لهم براءته، وبالرغم من ذلك كانوا غير راضين عنه، فلما أعيد الديوان وفوض اليه منو انتخاب

---

(١) مادة ٣ من الامر الصادر من (منو) المؤرخ ١٠ فاندمير من السنة العاشرة (١٢ اكتوبر سنة ١٨٠٠) (٢) ص ٦٧ الفصل الرابع

(٣) وهو الذى اختاره العلماء لقضاء مصر كما سبق بيان ذلك فى الفصل الرابع وكان قد اعتزل القضاء لما دخل العثمانيون، وبعد اخماد ثورة القاهرة الثانية اعاده الفرنسيون الى القضاء قبل مقتل كليبر

قاضى مصر وقعت القرعة على الشيخ العريشى نفسه، والظاهر ان الفرنسيين لم يكونوا مرتاحين لهذه النتيجة فأعادوا الانتخاب ثلاث مرات كما يقول الجبرتى ، فاستقرت للعريشى ، وقد ظل متوليا هذا المنصب الى أن جاء العثمانيون ، فعادوا الى طريقتهم القديمة فى تعيين قاضى مصر من الاتراك ، فانفصل العريشى عن القضاء وتوفى سنة ١٢١٨ هجرية

وخلاصة ما تقدم ان الديوان فى عهد منو كان بمثابة هيئة استشارية للحكومة تنظر فى الشؤون المدنية والدينية ، وكان فى الوقت نفسه محكمة استئناف ومجلسا أعلى لانتخاب القضاة

مشروعات منو

كان منو كثير المشروعات كثير النظريات متضارب الآراء والافكار ، فمن مشروعاته اعادة تنظيم الديوان وتوسيع اختصاصه على النحو المتقدم

ومنها انه قرر أن يكون تعيين مشايخ البلاد (١) فى القرى بأمر من القائد العام وأن يسرى هذا النظام على جميع المشايخ الموجودين فعلا ، وكان يرمى بذلك الى جمع ما يستطيع جبايته من المال من المشايخ فى مقابل أوامر التعيين ، وكان ينوى تكرار صدور أوامر التعيين وتجديدها كل سنة ، وجعل لهيئة مشايخ البلاد مفتشين ، وجعل لها رئيسين أحدهما فرنسى وهو المسيو بريزون Brizon والآخر مصرى وهو الشيخ سليمان الفيومى ، وفى ذلك يقول الجبرتى :

« واستهل شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٥ (٢) وفيه قرروا على مشايخ البلدان مقررات يقومون بدفعها فى كل سنة، أعلى وأوسط وأدنى ، فالأعلى وهو ما كانت بلده ألف فدان فأكثر خمسمائة ريال ، والاوسط وهو ما كانت خمسمائة فأزيد ثلثمائة ريال ، والأدنى مائة وخمسون ريالا ، وجعلوا الشيخ سليمان الفيومى وكيلا فى ذلك فيكون عبارة عن شيخ المشايخ ، وعليه حساب ذلك ، وهو تحت يد الوكيل الفرنساوى

---

(١) العمد (٢) اكتوبر سنة ١٨٠٠

الذى يقال له بربزون ، فلما شاع ذلك ضجت مشايخ البلاد لان منهم من لا يملك عشاءه ، فاتفقوا على أن وزعوا ذلك على الاطيان وزادت فى الخراج »

ويقول المسيو ريجو Rigault فى كتابه (١) ان الشيخ الفيومى كان يعمل تحت رقابة المسيو بريزون ، وهذا يؤيد رواية الجبرتى

وعزم منو على تنفيذ مشروع احصاء المواليد والوفيات وهو المشروع الذى فكر فيه نابليون ونفذه فيما يتعلق بالوفيات ، فعرض المسيو فوريه على أعضاء الديوان فى جلسة السادس عشر من شعبان سنة ١٢١٥ (٢) رغبة الجنرال منو فى تنفيذ هذا المشروع وبين لهم مزاياه التى منها ضبط الانساب ومعرفة الاعمار وبذلك يتيسر للحاكم الشرعى الحكم بالعدل والانصاف وينقطع الخلف والخصام بين الورثة ، وطلب اليهم أن يبحثوا فى طريقة تنفيذه فوافق الاعضاء على المشروع واتفق رأيهم على أن يعهدوا بالاحصاء الى قلقات الحارات والخطط وهم يكلفون بها من تحت أيديهم من مشايخ الحارات وهؤلاء يتعرفون المواليد والوفيات من أهل كل بيت ومن النساء القوابل وخدمة الموتى وغيرهم ، والمعروف أن نظام ضبط الوفيات كان معمولا به من بدء الحملة الفرنسية وكان يتولى هذا الاحصاء الطبيب ديجنيت Desgenette كبير أطباء الحملة .

وشرع منو فى تحرير دفاتر للزواج

ووضع نظاما لمساحة الاطيان الزراعية

وأنشأ حديقة للنبات بالقاهرة

وشرع فى اصدار جريدة يومية اختار لها اسم « التنبيه » وأصدر أمرا بذلك فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٠٠ ، وأسند رئاسة تحريرها الى الشيخ اسماعيل الخشاب

---

(١) الجنرال عبد الله منو والفترة الاخيرة للحملة الفرنسية فى مصر

(٢) ٢ يناير سنة ١٨٠١

أمين محفوظات الديوان (١) لكن الامر لم ينفذ والجريدة لم تصدر

ولما ظهر الطاعون فى شهر يناير سنة ١٨٠١ وانزعج الفرنسيون لاستفحاله وضعوا نظاما للوقاية من عـدواه وعرضه المسيو فورييه على الديوان ، ولم يكن الغرض من عرضه تعليق تنفيذه على اقراره بل كان القصد استشارته ومجاملته ؛ وقد نفذ فعلا

وفكر فى انشاء مصنع للجوخ فى القاهرة لسد الحاجة الماسة الى الاجواخ التى انقطع ورودها من أوروبا بسبب الحصر البحرى ، لكن أعضاء اللجنة الادارية (٢) عارضوا فى قبول العمال المصريين فى هذا المصنع بحجة الضرر الذى يلحق الصناعة الفرنسية اذا عرف المصريون أسرارها ، وكتبت اللجنة رسالة فى هذا الصدد قالت فيها :

« ان مقدرة المصريين فى تقليد المبتكرات الصناعية من شأنها أن تضر بالمصانع الفرنسية » وصرح المسيو كونتى Conté مدير المصنع الميكانيكى الذى أنشأه الفرنسيون انه لا يقبل البتة تعليم أحد من الاهالى أساليب الصـناعة ، وأخيرا تم الاتفاق بين (منو) واللجنة الادارية على انشاء مصنع للأجواخ بادارة المسيو كونتى على أن لا يقبل فيه عامل مصرى(٣)، وهكذا أقام الحكم الفرنسى دليلا جديدا على أن الفرنسيين لم يبتغوا من الحملة على مصر الا اتخاذها مستعمرة يستغلونها لمصلحتهم ويضحون فى سبيل هذه الغاية بمصالح مصر والمصريين

---

(١) أمر منو وثيقة رقم ٣١، كتاب كليبر ومنو فى مصر للمسيو روسو

(٢) هى لجنة فرنسية تشرف على اعمال الحكومة الادارية ويدخل فى خصائصها الشؤون المالية والزراعية والاقتصادية

(٣) كتاب الجنرال عبد الله منو والفترة الاخيرة من الحملة الفرنسية تأليف المسيو ريجو

استعداد الانجليز والأتراك للزحف على مصر

ما فتئت الحكومة الانجليزية بعد هزيمة الاتراك فى معركة عين شمس تسعى سعياً حثيثاً فى اعداد حملة عثمانية انجليزية للزحف على مصر

سياسة انجلترا إزاء مصر

ان سياسة انجلترا حيال مصر تقتضى أن لا ترى لدولة قوية سواها نفوذاً فى وادى النيل، وهى أيضاً لا تدع مصر نفسها تنهض وتصبح دولة قوية مهيبة الجانب محفوظة الكيان، ذلك ان مطامع انجلترا الاستعمارية جعلتها تطمح فى التسلط على وادى النيل واتخاذ مصر قاعدة حربية وبحرية لتضمن سيادتها فى البحر الأبيض المتوسط وتبسط نفوذها السياسي والتجارى فى الشرق وتطمئن على مستعمراتها فى الهند وفيما وراء البحار، تلك كانت ولم تزل سياستها من القرن الثامن عشر الى اليوم، وعلى هذه القاعدة تقوم وجهة النظر الانجليزية فى المسألة المصرية ومن أجل ذلك حاربت محمد على الكبير وخلقت له العقبات والعراقيل وجردت عليه الحملة الانجليزية المشهورة بحملة الجنرال فريزر سنة ١٨٠٧ التى يأتى الكلام عنها فى الفصل الأول من الجزء الثالث، وما فتئت تقاومه طوال مدة حكمه، وكل الحوادث السياسية التى وقعت فى وادى النيل خلال القرن التاسع عشر الى القرن العشرين تدور من الوجهة الانجليزية على هذا المحور

كانت الحكومة الانجليزية تحرض تركيا على محاربة فرنسا واجلائها عن مصر، وكانت ترمى لا الى جلاء الفرنسيين عنها فحسب، بل أخذت تنتهز الفرص لاحتلالها وتثبيت قدمها فيها، وكانت مهمة انجلترا فى الحملة العثمانية الاولى مقصورة على معاونتها بأساطيلها فى البحر الأبيض المتوسط، ولكن هزيمة العثمانيين فى موقعة عين شمس جعلتها تفكر فى الدخول الى ميدان القتال براً واعداد جيش انجليزى يشترك مع الجيش العثمانى فى الزحف على مصر، لأن الجيش العثمانى قد برهن على عجزه عن طرد الفرنسيين منها، فأخذت انجلترا تعد حملة برية، وجعلت فى الوقت نفسه تواصل سعيها فى الاستانة ليعد

الباب العالى حملة جديدة تسير بالاشتراك مع الحملة الانجليزية لتتحد حركتهما وتتناصر القوات العثمانية والانجليزية براً وبحراً .

كانت الخطة الحربية التى رسمتها الحكومة الانجليزية بالاتفاق مع الباب العالى ان يزحف الجيش العثمانى براً من طريق العريش وقطية وفى الوقت نفسه ينزل فى (أبو قير) جيش انجليزى تركى بحماية الاسطول البريطانى والعمارة التركية ، وينزل بالسويس جيش هندى قادم من الهند على ظهر العمارة الانجليزية فى البحر الاحمر ، فتلتقى القوات الثلاث فى أرض مصر وتطوق الجيش الفرنسى بها

مساعى نابليون فى امداد الحملة الفرنسية

لم تفت هذه الاستعدادات عين نابليون البصيرة على الرغم من تكتم الحكومة الانجليزية معدات المشروع ، فقد فطن الى مشروع الدولتين واستشفه من حركات الانجليز فى البحر الابيض وإعدادهم فى جبل طارق والجزائر الايونية ومساعيهم لدى الباب العالى ومن الاخبار التى تلقاها من الاستانة عن مشروع الحملة الجديدة ، وأخذ يعمل لامداد الجيش الفرنسى فى مصر بعد أن شغلته الحوادث السياسية الاوروبية وقتا ما عن التفكير فيه ، فانه عقب عودته الى فرنسا انصرف فى الاشهر الاولى الى احداث الانقلاب الذى رفعه الى قمة السلطة فأسقط حكومة الديركتوار وحل مجلس الخمسمائة وأنشأ نظام القنصلية ونودى به «قنصلا أول» فصار صاحب السلطة الفعالة والكلمة التى لا ترد فى شؤون فرنسا ، وبعد أن استتب له الامر أخذ يسعى لاعادة السلم فى أوروبا ، وعرض على انجلترا والنمسا دعوة الصلح والسلام ، لكن انجلترا والنمسا وقفتا له بالمرصاد وحالتا دون توطيد مركزه واستمتاعه بالسلم ، وكانت انجلترا تحاصر جزيرة (مالطه) وتشدد الحصار عليها بغية أخذها لأن احتلالها يبسط سيادتها فى البحر الابيض المتوسط ويمكنها من تجريد حملة برية على مصر ويحول دون امداد فرنسا لجيشها بوادى النيل ، والنمسا كانت تعمل على تثبيت قدمها فى ايطاليا ، فتجدد القتال فى القارة الاوروبية ، وزحف نابليون بجنوده

على شمال ايطاليا وهزم جيوش النمسا فى معركة « مارنجو » الشهيرة (١٤ يونيه سنة ١٨٠٠) واسترد ايطاليا

ولما عاد ظافراً من هذه الحرب أخذ يفكر فى امداد الجيش الفرنسى فى مصر ، ولكن سيادة انجلترا فى البحر الأبيض المتوسط حالت دون تحقيق مشروعه ، وقد زاد فى تمكين هذه السيادة احتلال الانجليز جزيرة (مالطة) فى شهر سبتمبر سنة ١٨٠٠ ، فقد كانت الحامية الفرنسية محصورة فى ميناء مالطه تدافع عنها مدى عامين والانجليز يشددون فى حصارها حتى سلمت الحامية واحتلت انجلترا تلك المحطة البحرية التى جعلها موقعها الطبيعى نقطة ارتكاز مهمة فى مواصلات البحر الأبيض المتوسط ، وكان لسقوط مالطة فى يد الانجليز أثر كبير فى التعجيل باتمام معدات الحملة الانجليزية على مصر ، فانها لم تكد تحتل مالطة حتى حشدت جيشاً فى جبل طارق لتبعث به الى السواحل المصرية

على أن نابليون ما فتىء يسعى لايجاد الصلة بين فرنسا وجيشها فى مصر رغم رقابة البوارج الانجليزية ، وأخذت المراكب الفرنسية تغامر فى الرحلة الى مصر فتضبط السفن الانجليزية بعضها ويصل بعضها سالما الى السواحل المصرية وكان نابليون يقصد من هذه المحاولات تقوية الروح المعنوية للجنود الفرنسية واحياء الأمل فى نفوسهم بأنه لاينساهم على البعد وأنه ممدهم بالجند والعتاد ، وكان لوصول هذه السفن الى الاسكندرية أثر ابتهاج كبير فى نفوس الفرنسيين ، ومن هذه السفن سفينتان حربيتان جاءتا الاسكندرية يوم ٣ فبراير سنة ١٨٠١ وعلى ظهر كل منهما ثلثمائة جندى وكثير من الذخائر والمدافع ، وقد ذكر الجبرتى نبأ وصولها بقوله

« وفى رابع عشرين رمضان سنة ١٢١٥ (يوافق ٨ فبراير سنة ١٨٠١) ضربت مدافع كثيرة لورود مركبين عظيمين من فرنسا فيهما عساكر وآلات حرب وأخبار بان بونابارته أغار على بلاد النمسا وحاربهم وحاصرهم وضايقهم وأنهم نزلوا على حكمه وبقى الامر بينهم وبينه على شروط الصلح ، وأنه استغنى عن هذه الاشياء المرسلة

وسيأتى فى أثرها مركبان آخران فيهما اخبار تمام الصلح ، ويستدل بذلك على أن مملكة مصر صارت فى حكم الفرنسيس لايشاركهم غيرهم فيها ، هكذا قالوا وقرءوه فى ورقة بالديوان »

وغنى عن البيان أن ماذكره الفرنسيون من ان الحرب بين فرنسا والنمسا أسفرت عن بقاء مصر فى حكمهم كان من تمويهاتهم التى أرادوا ان يؤثروا بها على المصريين ، فان المعاهدة التى ختمت بها الحرب بين الدولتين لم تتعرض لمصر ، وقد صدق الجبرتى فى ارتيابه فى صحة الخبر مما يفهم من قوله « هكذا قالوا الخ »

وأشار الجبرتى الى وصول سفينتين أخريين بقوله :

وفى ذلك اليوم (٢٠ شوال سنة ١٢١٥ الموافق ٦ مارس سنة ١٨٠١) عملوا شنكا وضربوا عدة مدافع من القلاع ، فارتاع الناس لذلك واضطربوا اضطراباً شديداً ، فسئل من الفرنسيس فأخبروا أن ذلك سرور بقدوم مركبين من فرانسه الى الاسكندرية »

وأعد نابليون فى ميناء (برست) (١) عمارة حربية بقيادة الكونترامبرال جانتوم Ganteaume تقل أربعة آلاف الى خمسة آلاف مقاتل وكثيرا من الذخائر والمهمات لانفاذها الى مصر ، وقد تمكنت هذه العمارة من اختراق الاقيانوس واجتياز بوغاز جبل طارق واتخذت سبيلها نحو الاسكندرية ولكن الاميرال جانتوم لمح فى طريقه بعض السفن الانجليزية فخشى أن يلتقى بالاسطول الانجليزى ، ومع أن هذه السفن كانت أقل عدداً من عمارته إلا أن ما استحوذ عليه من الذعر جعله يعدل عن المضى الى مصر وذهب بعمارته الى ثغر طولون (٢) ، وانفصلت عنه سفينة استطاعت الوصول سالمة الى ثغر الاسكندرية يوم أول مارس سنة ١٨٠١ ، وحاول جانتوم أن يقلع بعمارته الى مصر مرة ثانية ثم ثالثة ولكنه أخفق فى محاولته

---

(١) ثغر حربى لفرنسا على شاطىء المحيط الاطلنطى

(٢) على شاطىء فرنسا الجنوبى

وانقطعت المواصلات نهائيا بين فرنسا والثغور المصرية فى الوقت الذى أتمت فيه انجلترا معدات حملتها وسارت فى طريقها الى مصر

موقف منو

تمت هذه المعدات والجنرال (منو) غارق فى تأملاته ومشروعاته ، وقد علم مراد بك وهو فى الصعيد بأنباء هذه الاستعدادات إذ كان يتلقاها عن رسل المماليك الذين أوفدهم اليه زميله ابراهيم بك من معسكر الجيش العثمانى ، وكان مراد فى ذلك الحين على تمام الولاء للفرنسيين ، فاعتزم أن يفضى بهذه الأنباء الى الجنرال (منو) ليأخذ للأمر عدته ، وأوفد اليه عثمان بك البرديسى لمناسبة سداد الخراج عن الصعيد وأطلعه على رسائل ابراهيم بك وأبلغه نبأ اقتراب الحملة التركية الانجليزية وطلب اليه أن يعنى فى حالة فتح باب المفاوضة للتفاهم مع تركيا بالمحافظة على الامتيازات التى نالها مراد بك (١) ، وأكد له أنه فى حالة اخفاق المفاوضة وتجدد القتال يضع قواته تحت تصرف القيادة الفرنسية طبقاً للاتفاق المبرم بينهما ، على أن منو لم يكترث لهذه الأنباء ولم يأخذ عدته لمواجهة الحملة القادمة ، فلما قدمت لم تلق المقاومة التى لقيتها أيام نابليون وكليبر ، وصدقت نبوءة عثمان بك البرديسى التى تنبأ بها حينما يئس من اقناع الجنرال منو بضرورة الاستعداد لمصادمة الحملة التركية الانجليزية ، فانه قابل الجنرال داماس أحد قواد الحملة وقال له « ان قائداً مثل الجنرال منو سيكون سببا فى ضياع الجيش الفرنسى »

وصول الحملة الانجليزية العثمانية الى (أبو قير)

استغرق اعداد الحملة المشتركة بين انجلترا وتركيا ووصولها الى مصر عدة أشهر ، فقد تحرك الجيش الانجليزى من جبل طارق فى أوائل نوفمبر سنة ١٨٠٠ وأقلعت به

---

(١) بمقتضى اتفاقية كليبر — مراد

العمارة الانجليزية الى شواطىء الاناضول ورست بميناء مرمريس (١) فى أواخر ديسمبر وأوائل يناير ، ونزل الجيش الانجليزى ببر الاناضول ، وهناك قضى زمنا طويلا ليتزود من المؤونة ويتدرب على الرسو بمراكبه على سواحل اليابسة وينتظر أن تتم تركيا استعدادها وتتفق الدولتان على الخطة المشتركة فى القتال ، وأعدت تركيا جيشين ، الأول بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا يزحف عن طريق برزخ السويس ، والثانى يبحر من ميناء مرمريس على ظهر العمارة التركية بقيادة حسين قبطان باشا قاصداً شواطىء مصر الشمالية

لكن عمارة حسين باشا أبطأت فى السفر ، فأقلعت العمارة الانجليزية فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٠١ بقيادة الاميرال اللورد كيث قائد القوات البحرية البريطانية فى البحر الابيض وكان يصحبها بعض السفن المدفعية التركية ونحو ستمائة جندى من الاتراك وسارت قاصدة سواحل مصر ، فوصلت تجاه الاسكندرية مساء أول مارس ، وفى صباح اليوم التالى ألقت مراسيها فى خليج (أبو قير) وعلى ظهرها الجيش الانجليزى وعدده ١٧٫٥٠٠ مقاتل (٢) بقيادة الجنرال السير رالف أبركرومبى — Ralph Abercromby ، وظلت العمارة عدة أيام فى عرض البحر لاتستطيع انزال الجنود لهياج الماء واضطرابه ، فانتهز الجنرال (فريان) قومندان الجنود الفرنسية فى الاسكندرية هذه الفرصة لاعداد الدفاع وسار الى أبو قير للاقاة الانجليز وأعد مدافع قلعة أبو قير للضرب وركب مدافع أخرى على أكمة عالية تشرف على الشاطىء

---

(١) من ثغور الاناضول

(٢) أخذنا هذا الاحصاء عن كتاب الجنرال رينييه أحد قواد الحملة الفرنسية (مصر بعد واقعة عين شمس) ، وفى كتاب الكابتن ولش أحد ضباط الجيش الانجليزى الذى حارب فى هذه الحملة ان عدهم ١٦٫٧٠٠ ، على اننا نرجح احصاء رينييه لان الكابتن ولش يميل فى احصائه الى انقاص عدد الجيش الانجليزى ليزيد من فخره ، وهذا العدد بخلاف المدد الذى تلقاه الجيش الانكليزى بعد ذلك الى انتهاء القتال ويبلغ نحو ستة آلاف مقاتل

نزول الانجليز الى البر

بدأت الجنود الانجليزية تنزل الى شاطىء أبو قير يوم ٨ مارس وانحدر منهم ذلك اليوم ستة آلاف جندى ، فاشتبكوا فى قتال شديد مع قوات الجنرال فريان الذى جاء على عجل فى نحو ٢٠٠٠ من الجنود ، فأطلقت المدافع الفرنسية نيرانها على الجنود الانجليزية فى طريقها الى اليابسة ، فخسر الانجليز كثيراً من القتلى فى المراكب وأثناء نزولهم الى البر ، ودار قتال عنيف على الشاطىء ، لكن القوات الانجليزية كانت أكثر عدداً وأعظم استعداداً فظهرت على الفرنسيين وهزمتهم ووضعت الحصار حول قلعة أبو قير (١) ، وتقهقر الفرنسيون غربا بعد أن خسروا فى تلك المعركة نحو ٤٠٠ قتيل وجريح وخسر الانجليز نحو ٦٥٠ من القتلى والجرحى ، وقد أشار الجبرتى الى هذه الواقعة بقوله « ان الانجليز وصلوا الى أبو قير وطلعوا الى البر وتحاربوا مع أمير الاسكندرية (يريد قومندانها الجنرال فريان) ومن معه من الفرنساوية وظهروا عليهم »

تراجع جيش الجنرال فريان وعسكر فى المندرة (٢) أما الانجليز فقد أنزلوا بقية جنودهم الى البر ، ودخلت قواربهم المسلحة الى بحيرة أبو قير لتعرقل تقهقر الفرنسيين . (أنظر خرطة بين الاسكندرية وأبو قير مقابل ص ٧٨ وخرطة معركة سيدى جابر ص ٢٣٨)

معركة سيدى جابر

١٣ مارس سنة ١٨٠١

تقدم الانجليز يوم ١٢ مارس قاصدين (المندرة) فانسحب الفرنسيون منها

---

(١) ظلت القلعة تقاوم الى أن سلمت يوم ١٨ مارس سنة ١٨٠١

(٢) ضاحية من ضواحى الاسكندرية على شاطىء البحر الابيض تقع الآن بين (سيدى بشر) و (المنتزه)

وواصلوا تقهقرهم حتى أطلال قصر القياصرة (١) وتحصنوا به

واصل الانجليز تقدمهم الى أن اقتربوا من مواقع الفرنسيين ، فدارت معركة شديدة بين الفريقين يوم ١٣ مارس ، وكان الجيش الفرنسى يقوده الجنرال لانوس Lanausse والجنرال فريان ، ولما التقى الجمعان هجم الانجليز على مواقع الفرنسيين فاصلتهم المدافع الفرنسية نارا حامية أوقعت فى صفوفهم خسائر فادحة وكر عليهم الفرنسيون وحمى وطيس القتال ثم انتهى بهزيمة الفرنسيين وتراجعهم الى أسوار الاسكندرية واحتلال الانجليز قصر القياصرة ، وكان الفضل فى انتصارهم لكثرة عددهم فان الجيش الانجليزى بلغ نحو ١٤٫٠٠٠ مقاتل بينما الجيش الفرنسى نحو ٥٠٠٠ وقد تكبد الانجليز خسائر فادحة فبلغ عدد قتلاهم وجرحاهم نحو ١٣٠٠ قتيل وجريح وخسر الفرنسيون نحو سبعمائة بين قتيل وجريح

سمينا هذه المعركة معركة (سيدى جابر) لانها وقعت على مقربة من المسجد المعروف باسمه ، أما الانجليز فيسمونها معركة ١٣ مارس سنة ١٨٠١ ، والفرنسيون يسمونها معركة (نيكوبوليس) ، ونيكوبوليس اسم رومانى لضاحية قديمة من ضواحى الاسكندرية انتصر فيها اكتافيوس على مارك انطونيوس ، ولذلك سميت نيكوبوليس ومعناها (مدينة مصر) ، وتقع تقريبا فى الجهة المعروفة الآن ببولكلى وما حولها (٢) ، وهذه التسمية فيها شىء من التعميم كما ترى ، ولا تدل على المكان الذى وقعت فيه المعركة ، لذلك

---

(١) أو (معسكر قيصر) على شاطىء البحر بالقرب من النقطة المعروفة الآن بمحطة مصطفى باشا من محطات رمل الاسكندرية ، وهو حصن من حصون الرومان بقيت اطلاله الى سنة ١٨٧٥ وأطلق عليه علماء الجغرافية من العرب اسم (قصر القياصرة) وورد اسمه العربى فى خريطة دانفيل D' Anville التى خططها حوالى سنة ١٧٧٢ ، ومنه اشتق الافرنج اسم (معسكر قيصر) Camp de Cesar (كامب دى سيزار) وبهذا الاسم سميت احدى محطات رمل الاسكندرية ولكن هذه المحطة تبعد قليلا عن موقعه القديم

(٢) شرق مصطفى باشا لغاية الجهة المعروفة اليوم بجليمنو بولو

اخترنا لها اسم (سيدى جابر) وهو اسم مشهور وموقعه معروف وكان المسجد قائما فى زمن المعركة، فتسميتها باسمه تقرب الى الذهن حقيقة موقعها

تقدم الانجليز بعد انتهاء المعركة يريدون الاسكندرية لكنهم استهدفوا لنيران المدافع الفرنسية المركبة فى قلعتى كريتان (كوم الدكة) وكافريللى (كوم الناضورة) فاضطروا الى الانسحاب وتحصنوا على الاكمات القائمة حول قصر القياصرة ورابط جيشهم فى خط ممتد بين البحر وبحيرة أبو قير

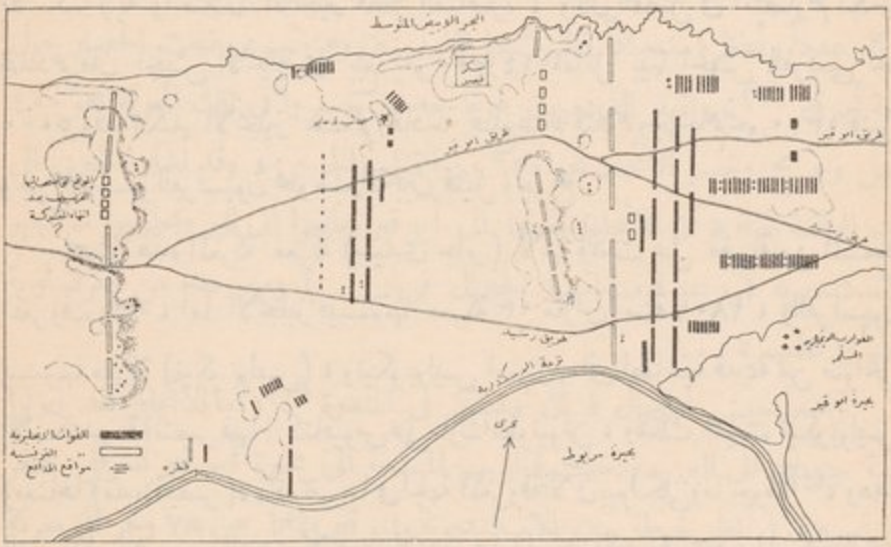

خرطة معركة سيدى جابر (١٣ مارس سنة ١٨٠١)

وترى بها موقع مسجد سيدى جابر، وعلى مقربة منه معسكر قيصر (قصر القياصرة) القديم، ومواقع القوات الانجليزية والقوات الفرنسية أثناء المعركة، والمواقع التى انسحب اليها الفرنسيون بعد انتهاء المعركة، وترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) وبحيرة أبو قير (غير موجودة الآن) وفيها القوارب الانجليزية المسلحة، وبحيرة مريوط (تخطيط سنة ١٨٠١)

ارتباك الجنرال منو

لما علم الجنرال منو بقدوم العمارة الانجليزية فى مياه أبو قير أسقط فى يده لانه لم

يكن مستعدا لمقاومتها ولم يفكر من قبل فى اتخاذ الحيطة بتحصين شواطىء أبو قير ولم يتبع خطة نابليون فى الاسراع بحشد جنوده والانتقال بهم الى الشاطىء لمفاجأة الجنود النازلة من السفن قبل أن تتهيأ للقتال، بل ارتبك فى أمره، وطفق يصدر الاوامر والنداءات العقيمة، وأخذ يوزع جنوده شرقا وغربا، فانفذ الجنرال موران Morand الى دمياط، والجنرال رينييه Reynier الى بلبيس لتوقعه مجيء الجيش التركى من الحدود الشرقية، وأنفذ الجنرال لانوس الى الاسكندرية، فكانت القوات الفرنسية موزعة بين القاهرة، والاسكندرية، وأبو قير، ودمياط، وعزبة البرج، ورشيد، والسويس والجيزة، وبلبيس، والصالحية، والمنصورة، وميت غمر، ومنوف، والبرلس والرحمانية، والوجه القبلى، ولما تحقق منو من نزول الانجليز الى البر عزم آخر الامر على السير لملاقاتهم واستقدم الجنرال (موران) والجنرال (رينييه) ثم ارتحل ومعه نصف الجيش [1] الى الاسكندرية فوصلها بعد هزيمة الفرنسيين فى معركة (سيدى جابر)

حالة الافكار فى القاهرة

ساد الاضطراب بين الفرنسيين عند ما علموا بقدوم الحملة الانجليزية التركيه، وأخذ منو يتوعد كل من يذيع أخبارها بين الاهالى، فاصدر منشورا مؤرخا ١١ شوال سنة ١٢١٥ [2] يطمئن فيه المصريين ويحذرهم تصديق الاخبار (الكاذبة) واندر كل من يثبت عليه اذاعة هذه الاخبار بالقتل

قال الجبرتى «فعلم الناس من ذلك الفرمان (المنشور) ورود شىء وحصول شىء على حد «كاد المرتاب أن يقول خذونى»، وليس للناس ذكر ولا فكر الا فى بواقى الفردة (الضريبة) ومالزمهم من المليون، ولاشغل لكل فرد الا بتحصيل مافرض عليه»

وبالرغم من تكتم الفرنسيين انباء الحملة وتوعدهم من يذيع بين الناس أخبارها فان انباءها قد استفاضت وعلم بها الناس قاطبة، فلم ير (منو) بدا من أن يكاشف

---

(١) ترك النصف الآخر بالقاهرة بقيادة الجنرال بليار

(٢) ٢٥ فبراير سنة ١٨٠١

أعضاء الديوان بقدوم الانجليز والعثمانيين ، فانعقد الديوان فى ٢٠ شوال سنة ١٢١٥ (١) وحضر الاجتماع المسيو (فورييه) القوميسير الفرنسى وخاطب الاعضاء فى شأن الموقف الحربى ، فزعم ان السفن الانجليزية التى قدمت أبوقير قد رجعت ادراجها ، وأبلغ الاعضاء ترجمة منشور للجنرال (منو) يذكر فيه أن الانجليز « الذين يظلمون كل جنس للبشر » قد ظهروا فى السواحل ومعهم العثمانيون وان الفرنسيين عازمون على ردهم جميعا على أعقابهم ، وطلب من المصريين ان يلزموا السكينة ، وتوعد من يتحرك للفتنة بالقتل ، ونوه فى منشوره بما وقع بالمصريين من القتل والنكال والمغارم فى ثورة القاهرة الاخيرة ، وأمضى المنشور بتوقيع (خالص الفؤاد عبد الله جاك منو)

فلما تليت ترجمه المنشور علم الاعضاء بخطورة الموقف ، ودارت مناقشة بينهم وبين المسيو فورييه فى تحديد مركزهم حيال هذا المنشور ، قال الجبرتى فى هذا الصدد ما فحواه « ولما قرئ الفرمان المذكور قال بعض الحاضرين ان العقلاء لايسعون فى الفساد ، واذا تحركت فتنة لزموا بيوتهم ، فأجاب المسيو فورييه : ينبغى للعقلاء ولامثالكم نصيحة المفسدين فان البلاء يعم المفسد وغيره ، فقال بعضهم هذا ليس بجيد بل العقاب لايكون الا على المذنب ، قال تعالى « كل نفس بما كسبت رهينة » وقال آخر قال تعالى ايضا « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فقال فورييه : المفسدون فيما تقدم هاجوا الفتنة فعمت العقوبة ، والمدافع لاعقل لها حتى تميز بين المفسد والمصلح ، فانها لاتقرأ القرآن ، وقال آخر : المخلص نيته تخلصه ، فقال فورييه ان المصلح من يشمل صلاحه الرعية فان صلاحه فى حد ذاته يخصه فقط والثانى أكثر نفعا ، »

وطال البحث والجدل على هذا النحو وانتهت الجلسة على غير نتيجة ، ولما علم الجنرال منو بما دار من المناقشة بين الاعضاء والمسيو فورييه ارتاب فى نية أعضاء الديوان وكتب منشورا آخر أبلغه ذلك اليوم الى فورييه وهذا أرسله الى الاعضاء فى بيوتهم ليطالعهم به ، ومضمونه انذارهم بانه يلقى عليهم علانية تبعة كل ثورة تحصل

---

(١) ٦ مارس سنة ١٨٠١

من الاهالى ، ولعله أراد بتحميلهم هـذه التبعة أن يرهبهم ويكرههم على استخدام نفوذهم لمنع وقوع أى حركه فى العاصمة وغيرها من البلاد .

ألقى هذا الانذار على عاتق أعضاء الديوان تبعة رهيبة لانهم اذا ضمنوا أنفسهم فمن أين لهم أن يضمنوا سلوك الجماهير ؟ على أنهم تلقاء هذا الانذار اجتمعوا بدار الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان ، وحضر الاجتماع الاغا (المحافظ) والوالى (رئيس الشرطة) والمحتسب « وأحضروا مشايخ الحارات وكبراء الاخطاط ونصحوهم وأنذروهم ، وأمروهم بضبط من هو دونهم وألا يغفلوا أمر عامتهم وحذروهم وخوفوهم العاقبة وما يترتب على قيام المفسدين وجهل الجاهلين وانهم هم المأخوذون بذلك كما أن من فوقهم مأخوذ عنهم فالعاقل يشتغل بما يعنيه (١) »

والواقع أن سكان القاهرة فى ذلك الحين لم يكونوا يفكرون فى القيام بثورة أو فتنة لأن ما نزل بهم من المغارم والمظالم المتتابعة وما كان يشغلهم من سداد ما فرض عليهم من الضرائب الفادحة والغرامات كان يحول دون قيامهم بثورة

وأخـذ الفرنسيون من جهتهم يستعدون للحرب والقتال وينقلون أمتعتهم الى القلعـة فتوهم الناس انهم سيضربون المدينة بالمدافع فشرعوا فى الهجرة من القاهرة الى الاقاليم

اعتقال واضطهاد

اشتد انزعاج الفرنسيين واضطرابهم فاعتقلوا السيد محمد السادات وأصعدوه الى القلعة « من غير اهانة » كما يقول الجبرتى « فسأل السيد السادات الموكل به عن ذنبه وجرمه ، فقال له لم يكن الا الحذر من اثارة الفتنة فى البـلد واهاجة العامة لبغضك للفرنسيس لما سبق لك منهم من الايذاء » ، وبقى السيد السادات رهن الاعتقال الى ان جلا الفرنسيون عن مصر ، ومات ولده أثناء الاعتقال فلم يفرجوا عنه وأذنوا

---

(١) الـكلمات التى بين قوسين مأخوذة عن الجبرتى

له فقط بحضور الجنازة ونزل من القلعة يصحبه حارس الى أن انتهت الجنازة وعاد به الحارس الى السجن ، واعتقلوا كذلك حسن أغا المحتسب وحبسوه بالبرج الكبير بالقلعة ، ولما عزم الجنرال (منو) على السفر الى الاسكندرية استدعى اليه أعضاء الديوان ورؤساء التجار وآذنهم بعزمه على السفر ، وأنه أناب عنه الجنرال بليار « قائمقام » وقائدا على الجنود الباقين بالقاهرة ، وطلب اليهم أن يسهروا على ضبط الامن فى المدينة ، وأبلغهم أنه كان فى عزمه اعتقالهم رهائن لمنع وقوع الفتن ، لكنه استصوب ارجاء ذلك ، وسافر (منو) بجيشه يوم ١٢ مارس (١) ولم يعد بعد ذلك الى القاهرة

واتسعت حركة القبض والاعتقال عند ما وردت الاخبار بقدوم الجيش العثمانى برا من جنوب سورية بقيادة يوسف باشا ضيا واحتلاله العريش ، واشتد اضطراب الفرنسيين فى القاهرة ، فاستدعى المسيو فورييه أعضاء الديوان للاجتماع يوم ٢٤ مارس سنة ١٨٠١ وحضر الجلسة مندوب عن الجنرال بليار ، وأبلغهم المسيو فورييه انه تحقق لهم ان الجيش العثماني بقيادة يوسف باشا قادم الى مصر ، وان السلطة الفرنسية رأت بناء على ذلك اعتقال بعض الاعيان كما تقضى بذلك ضرورات الحرب ، وتلطف فى ابلاغ الاعضاء نبأ الاعتقال ، فقال لهم على رواية الجبرتى « ولا يكون عندكم كدر ولا هم بسبب ذلك ، فليس الا الاعزاز والاكرام أينما كنتم ، والوكيل (فورييه) دائما نظره معكم ، ولا يغفل عن تعليل مزاجكم فى كل وقت ويوم » وانتهى الكلام بالقبض على أربعة من أعضاء الديوان وهم الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد المهدى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى « فأصعدوهم الى القلعة فى الساعة الرابعة من الليل مكرمين وأجلسوهم بجامع سارية ونقلوا الى مكانهم

---

(١) اعتمدنا فى هذا التاريخ عن كتاب المسيو مارتان أحد مهندسى الحملة الفرنسية وعلى مذكرات نابليون وكتاب المسيو ريجو (الجنرال عبد الله منو والفترة الاخيرة من الحملة الفرنسية)

الشيخ السادات فاستمر وايهم بالمسجد ، وكلفوا الاربعة الباقين من أعضاء الديوان وهم الشيخ خليل البكرى ، والشيخ محمد الامير ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ الجبرتى مؤرخ ذلك العصر(١) ، أن يتولوا النظر فى شؤون البلد وأن يجتمعوا بالجنرال بليار ولا ينقطعوا عنه ، وأبلغوهم أن المشايخ المعتقلين لا خوف عليهم ولا ضرر وأنهم معززون مكرمون وخصصوا لكل شيخ منهم خادما يختلف اليه فى أعماله وما يحتاج اليه من منزله ، وسمحوا لمن يريد زيارتهم من أصدقائهم بأن يزورهم فى القلعة بتصريح كتابى من الجنرال بليار ، واعتقل الفرنسيون كذلك نحو خمسة عشر من أعيان القاهرة

ثم أفرجوا فى ١١ ذى القعدة سنة ١٢١٥ (٢) عن الشيخ سليمان الفيومى وأذنوا له بالاجتماع هو وأعضاء الديوان للنظر فى شؤون البلد ، على أن حالة الاضطراب التى سادت المدينة قد جعلت الديوان قليل العمل ، واشتد فزع الفرنسيين وخاصة بعد أن وردت أنباء معركة كانوب التى سيرد الكلام عنها فيما يلى ، واستمروا ينقلون أمتعتهم وذخائرهم الى القلعة ، وانتقل المسيو فوربيه الى القلعة أيضا ولم ينزل منها ، وأرسل الى الشيخ سليمان الفيومى بأن ينقل أمتعة الديوان الى داره ، فنقلها ولم يبق منها الا الحصر ، وأخذ أعضاء الديوان يحضرون كعادتهم « فكانوا يفرشون سجاجيدهم ويجلسون عليها وقت الاجتماع ثم ينصرفون » وحل المسيو جيرار محل المسيو فوربيه فى وكالة الديوان ورآسة الادارة القضائية

---

(١) أعضاء الديوان تسعة كما تقدم ص ٢٢٠ ، اعتقل منهم أربعة وكلف أربعة بالقيام بالعمل ، ولم يرد بالجبرتى ذكر للعضو التاسع السيد على الحمامى ، ولعل السبب فى ذلك أنه لم يكن بالقاهرة وقتئذ كما يستفاد من رواية الجبرتى نفسه فقد ذكر فى حوادث سنة ١٢١٦ هـ ان السيد على المذكور حضر الى مصر صحبة أخته زوجة الجنرال منو وابنها فى أوائل محرم سنة ١٢١٦ ، فيفهم من ذلك أنه كان برشيد حينما اعتقل الفرنسيون الاعضاء الاربعة

(٢) ٢٦ مارس سنة ١٨٠١

وقبضوا على الشيخ محمد الامير أحد أعضاء الديوان فى أوائل محرم سنة ١٢١٦ (أواخر مايو سنة ١٨٠١) واعتقلوه مع المشايخ بجامع سارية بحجة ان ابنه كان من المحرضين على ثورة القاهرة الثانية وأنه لما انتهت الثورة هاجر من المدينة الى الوجه البحرى ثم حضر الى مصر فأقام بها أياما ، ثم قصد الى (فوه) باذن من السلطة الفرنسية فلما تجدد القتال واشتد انزعاج الفرنسيين وآخذوا الناس بأدنى شبهة وتقرب اليهم المنافقون بالدعاية والتجسس وشى البعض للجنرال بليار فى ابن الشيخ الامير وألقى فى روعه انه انضم الى الجيش العثمانى ، فاستدعى الجنرال بليار الشيخ الامير وسأله عن ابنه فأجاب بأنه لم يزل فى فوه ، فقال له الجنرال انه لم يكن هناك بل هو عند القادمين (العثمانيين) فأنكر الشيخ ذلك وقال ان شئتم أرسلت اليه بالحضور ، فأمهله الجنرال بليار ثمانية أيام أى مسافة الذهاب الى فوه والمجىء منها فى ذلك العصر ، ثم كرر عليه الطلب بلسان وكيل الديوان فوعده الشيخ بحضور ابنه أو حضور الجواب بعد يومين ولما انقضى الميعاد ولم يحضر ابنه اعتقله الفرنسيون وحبسوه فى القلعة

وقد أفرجوا فى السادس عشر من محرم سنة ١٢١٦ عن الشيخ مصطفى الصاوى لمرضه

الفصل الثانى عشر

هزيمة الفرنسيين وجلاؤهم عن مصر

معركة كانوب — ٢١ مارس سنة ١٨٠١

رحل الجنرال (منو) عن القاهرة ومضى قاصدا الاسكندرية كما قدمنا ، فبلغ الرحمانية ، وسار منها الى دمنهور حيث لحق به القائدان رينييه Reynier ورامبون Rampon ، ثم واصل سيره فبلغ الاسكندرية يوم ١٩ مارس ، واستعد للمعركة التى نشبت بينه وبين الجيش الانجليزى ، وكان الانجليز فى غضون ذلك قد أنزلوا كل ما بسفنهم من الذخائر والمدافع ، واستعدوا للقتال استعدادا عظيما

اعتزم الجنرال (منو) أن يهاجم الجيش الانجليزى وخشى اذا هو تأخر عن الهجوم أن يباغته الانجليز ويضربوا الحصار على الاسكندرية فيصبح الفرنسيون محصورين بين أسوارها ويستهدفون للمجاعة اذا أحكم الانجليز حصارها برا وبحرا ، فضلا عن أن الجيش الانجليزى يصبح حرا فى التوغل فى داخلية البلاد ، فرأى أن يغامر بمهاجمة الجيش الانجليزى على أمل أن يكون النصر حليفه كما انتصر نابليون على الاتراك فى معركة أبو قير من قبل ، على أن الفرق كبير بين الموقفين ، فان نابليون جمع فى يوليه سنة ١٧٩٩ كل جنوده وهاجم بهم الجيش التركى قبل أن ينظم مصطفى باشا صفوفه ، وكان له من عبقريته وسرعته فى القتال ما كفل له النصر فى واقعة أبو قير ، لكن (منو) كان مجردا من الكفاية الحربية ، فضلا عن أنه ترك نصف الجيش تقريبا فى القاهرة وأبطأ فى التقدم بالنصف الآخر ، وترك للانجليز الوقت الكافى لتنظيم صفوفهم وتثبيت أقدامهم شرقى الاسكندرية ، وقد أدرك معظم القواد الفرنسيين خطأ منو فى مغامرته المتأخرة ونصحوا اليه أن يتريث فى الامر حتى يأخذ له عدته ، لكنه أصر على خطته ، فوقعت الواقعة يوم ٢١ مارس

سنة ١٨٠١ وهى المعروفة بمعركة كانوب

اذا أردت أن تعرف ميدان هذه المعركة فتأمل فى خرطة (بين الاسكندرية وأبو قير) مقابل ص ٧٨ و الخرطة الملحقة بهذا الفصل ص ٢٤٨ ، تجد أن مواقع الانجليز فى خط يمتد من البحر شرقى قصر القياصرة الى ترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) بالقرب من حجر النوتية ، ومواقع الفرنسيين على بعد نحو أربعة آلاف متر تقريبا شرقى باب رشيد فى خط يمتد من البحر الى ترعة الاسكندرية ، بالقرب من النقطة المعروفة الآن بمحطة (النزهة) ، وقد سميت المعركة واقعة (كانوب) لانها وقعت على مقربة من باب من أبواب الاسكندرية القديمة يسمى باب كانوب (شرقى باب رشيد) ينتهى اليه شارع من شوارعها القديمة كان يعرف بشارع كانوب ويعرف الآن بشارع باب رشيد أو باب شرقى (١)

فى هذا الميدان نشبت المعركة ، وهى من أهم المعارك التى كانت لها نتائج حاسمة فى سير القتال وتطور الموقف الحربى والسياسى فى مصر ، تولى قيادة الجيش الفرنسى فيها الجنرال (منو) والجيش الانجليزى الجنرال السير رالف ابركرومبى ، وكان موقف الانجليز من بدء القتال أرجح من مركز الفرنسيين فقد امتاز الجيش البريطانى بتفوقه فى العدد اذ كان مؤلفا من نحو ١٦٫٠٠٠ من المشاة ومائتين من الفرسان بينما كان الجيش الفرنسى لايزيد عن ٨٫٣٥٠ من المشاة و١٫٣٨٠ من الفرسان ، هذا فضلا عن أن الجيش الانجليزى تحمى ميمنته من البحر بعض السفن المدفعية وميسرته بعض القوارب المسلحة فى بحيرة أبو قير ، فكان لهذه العمارة البحرية أثر كبير فى سير القتال اذ كانت تصب قنابلها على الصفوف الفرنسية أثناء هجومها ، فالجيش الفرنسى كان اذن أقل من الانجليزى عدداً وأضعف مركزا ، ولو تولى قيادته قائد أكفأ من الجنرال (منو) لما تغيرت نتيجة القتال تغيراً جوهريا اللهم إلا فى مبلغ الخسائر التى نالت الفرنسيين فان أوامر (منو) عرضت صفوفهم للخسائر الفادحة

---

(١) يسمى اليوم شارع فؤاد الاول

بدأت القوات الفرنسية تتحرك من مواقعها الاولى شرقى باب رشيد فى نحو الساعة الثالثة من صبيحة يوم المعركة، فكانت الميمنة بقيادة الجنرال (رينييه)، والميسرة بقيادة الجنرال (لانوس) والقلب بقيادة الجنرال (رامبون)، وابتدأ الهجوم بعد طلوع الفجر، فاخذت كتيبة من الهجانة تهاجم بعض المواقع الانجليزية الامامية لتخادعها عن خطة الهجوم التى رسمتها القيادة الفرنسية، ثم تقدمت فرقة الجنرال (لانوس)، وتبعتها الفرق الاخرى، ولم يكن الهجوم متناسقا لضعف القيادة الفرنسية وارتباكها، ففى خلال الهجمة الاولى تعرضت صفوف الفرنسيين لنيران القنابل والرصاص، وأصيب الجنرال (لانوس) بقنبلة جاءته من احدى السفن المدفعية الانجليزية فكانت القاضية على حياته، فوقع الارتباك فى صفوف جنوده، وعبثا حاول الجنرال رامبون أن يهجم بجنوده فردتهم نيران المدافع والبنادق، وهجمت الكتائب الأخرى ولكن المدافع الانجليزية كسرت هجمتهم، وصار الفرنسيون مكشوفين أمام أعدائهم، فحلت بهم الخسائر الفادحة، وظل الجنرال (منو) يرقب هزائم جنوده جامداً لا يدرى كيف يأخذ فى أمره، الى أن تراءى له ان يقذف بفرقة الفرسان التى يقودها الجنرال رواز Roize الى المعمعة، وكانت هذه الحركة عقيمة، فتردد الجنرال رواز فى اتباع ما أمر به القائد العام وأفضى اليه بما ينطوى تحت هذا الهجوم الجنونى من الخطر المحقق، ولكن منو ألح فى التقدم، فصدع الجنرال (رواز) بالأمر وهو عالم أن مصيره الى الهلاك لا محالة، ومما يؤثر عنه فى هذا الصدد أنه خاطب جنوده بقوله « أيها الرفاق! انهم يبعثون بنا الى المجد، والى الموت، فالى الأمام! » وهجم بجنوده هجوم اليائس المستميت واقتحم الفرسان الصفوف والاستحكامات الانجليزية، فأحيط بهم وأتاهم الموت من كل مكان، وقتل الجنرال (رواز) ومعظم رجاله

ولما رأى الجنرال منو ان لا سبيل الى استمرار القتال أصدر أمره بالانسحاب الى الاسكندرية، فانتهت المعركة فى نحو الساعة الحادية عشرة بعد ان خسر الجيش الفرنسى نحو الف وخمسمائة من القتلى والف من الجرحى، وكان من القتلى نخبة من

القواد والضباط مثل الجنرال (لانوس) والجنرال (رواز) والجنرال بودو Baudot

وبالرغم من انتصار الانجليز فان خسارتهم كانت فادحة فقد فقدوا نحو ١٥٠٠ قتيل منهم قائد الجيش نفسه الجنرال أبركرومبى، وجرح بعض قوادهم ومنهم السر سدنى سميث الذى اشترك فى القتال

وخلف الجنرال ابركرومبى فى قيادة الجيش البريطانى الجنرال السر هتشنسون Hutchinson

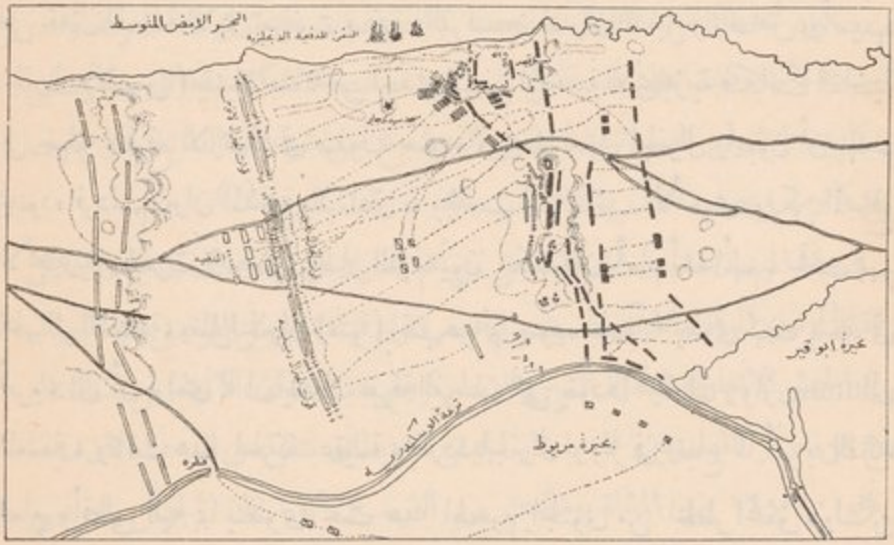

خرطة معركة كانوب (٢١ مارس سنة ١٨٠١)

يسمى الانجليز هذه المعركة (معركة الاسكندرية)، ولها فى تاريخهم الحربى منزلة ممتازة، يدلك على ذلك انهم اقاموا لها سنة ١٩٠١ نُصُبا تذكاريا لمناسبة مرور مائة عام على وقوعها، فاذا ذهبت يوما الى محطة سيدى جابر وأخذت طريق شارع (مصطفى باشا) متجها الى البحر تجد فى ملتقاه بشارع سيدى جابر ميدانا صغيرا مقاما بوسطه تمثال مصنوع من المرمر وعلى جوانبه منقوش بالانجليزية انه اقيم تذكارا للجنرال السر رالف ابركرومبى ورفاقه الذين قتلوا فى معركة الاسكندرية على مقربة من مكان

التمثال ، فاذا جاوزت هـذا التمثال تجد أمامك الثكنات التى انشأها الانجليز بعد الاحتلال البريطانى الاخير والباقية الى اليوم (سنة ١٩٢٩) وهى المعروفة بثكنات مصطفى باشا ، ولعلهم اتخذوا هذه الجهة معسكرا لهم لانها تذكرهم بانتصار حربى ناله أسلافهم ، كما اتخذوا جهة أبو قير معسكرا لهم لانها توحى اليهم ذكرى انتصار الاميرال ناسن فى معركة أبو قير الشهيرة .

كان من نتائج معركة كانوب أن ارتد الجيش الفرنسى الى أسوار الاسكندرية وانفتح الطريق أمام الجيش الانجليزى للتوغل فى البلاد ، على انه بالرغم من تضعضع الجيش الفرنسى وما حل به من الخسائر فى معارك ٨ و ١٣ و ٢١ مارس فقد أحجم الانجليز عن الزحف ، وكان الجنرال هتشنسون شديد التردد كثير الوجل ، فقضى وقتا طويلا قبل ، أن يبت رأيا فى الهجوم ولم يكن الجنرال (منو) أقل منه ترددا ، وكانت الظواهر تدل على أن الانجليز لا يتجاوزون الشواطىء ولا يلبثون أن يعودوا الى سفنهم ، والواقع أنهم كانوا مترددين فى التقدم الى داخل البلاد وفكر بعض قوادهم فى الانسحاب والرجوع الى السفن لولا قدوم المدد على ظهر العمارة التركية التي جاءت الى أبو قير يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٠١ ، جاءت فى هذه العمارة يقودها حسين قبطان باشا تقل ستة آلاف جندى من خيرة الجنود الانكشارية ، فنزلوا الى البر وانضموا الى الجيش الانجليزى فازداد بهم قوة وعزم على الزحف فى داخل البلاد

احتلال رشيد

فى خلال شهر ابريل اعتزم الجنرال هتشنسون الزحف على رشيد بعد أن استطلع اخبارها وتبين له ضعف حاميتها الفرنسية ، فقصد اليها الكولونل سبنسر Spencer على رأس جيش مؤلف من خمسة آلاف مقاتل منهم أربعة آلاف من الانراك ، تحرك هذا الجيش من أبو قير وسار حذاء الساحل قاصداً صوب رشيد فانسحبت منها الحامية

الفرنسية واحتلها الحلفاء ، وأبدى الفرنسيون مقاومة فى قلعة رشيد ، لكن الحلفاء غلبوا عليهم واحتلوا القلعة ثم تقدموا يريدون الرحمانية

قال الجبرتى فى حوادث شهر ذى الحجة سنة ١٢١٥ (١) «وفيه أشيع أن الانجليز ومن معهم من العثمانيين ملكوا ثغر رشيد وأبراجها وحاربوا من كان بها من الفرنسيس حتى أجلوهم عنها ودخلوها »

استطراد الى قلعة رشيد

واهميتها التاريخية

هى قلعة قديمة رممها الفرنسيون خلال الحملة وأطلقوا عليها اسم قلعة « جوليان » Jullien وهو قائد لواء قتل فى أوائل عهد الحملة الفرنسية ، وتعرف القلعة بهذا الاسم فى كتبهم ، وهى واقعة بالبر الغربى لفرع رشيد فى منتصف المسافة تقريبا بين رشيد والبوغاز ، وقد ورد ذكرها فى رحلات الافرنج قبل الحملة الفرنسية ، فوصفها المسيو سافارى Savary السائح الفرنسى خلال زيارته رشيد سنة ١٧٧٧ فقال انها قلعة مربعة بها أربعة أبراج مركبة فيها المدافع وهى على بعد فرسخ شمالى رشيد على البر الغربى للنيل ، وذكر أن بالجهة المقابلة لها بالبر الشرقى قلعة أخرى ، وقال عن هاتين القلعتين انهما كافيتان لمنع مرور السفن الحربية فى النيل وان طبيعة بوغاز رشيد تجعل دخول السفن الحربية محفوفا بالخطر (٢) وذكرهما المسيو سونينى Sonnini فى رحلته سنة ١٧٧٧ وقال ان احداهما كانت فى حالة تهدم ومدافعهما لم تكن تصلح للضرب (٣)

ويظهر لنا أن اهمال حكومة المماليك هو السبب فى تهدم هاتين القلعتين ، فقد

---

(١) ابريل سنة ١٨٠١

(٢) كتاب (رسائل عن مصر) للمسيو سافارى

(٣) رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا للمسيو سونينى

شاهدهما السائح الالمانى فانسليب Vansleb فى النصف الثانى من القرن السابع عشر سنة ١٦٧٢ ، أى قبل مشاهدة سافارى بمائة عام ، فقال عن القلعة القائمة بالبر الغربى انها قلعة قديمة متينة البناء بها ٧٤ مدفعا منها سبعة مدافع ضخمة ، أما القلعة الاخرى القائمة بالبر الشرقى فهى مسجد يحميه سبعة مدافع (١)

وقد شاهد المسيو جالوا (٢) Jallois فى الايام الاولى من الحملة الفرنسية قلعة رشيد القديمة وكانت فى حالة تهدم وقال عنها :

« مررنا على بقايا القلعة القديمة التى كانت معدة لحراسة مصب النيل وهى التى رممت بعد ذلك وسميت قلعة جوليان ، وهذه القلعة هى التى هاجمها الانجليز فى ٩ ابريل سنة ١٨٠١ ودافعت عنها حاميتها الفرنسية دفاع الابطال الى أن سلمت فى ٢٩ ابريل » (٣)

وشهد المسيو فيفان دينون Vivant Denon هاتين القلعتين سنة ١٧٩٨ كما ذكر ذلك فى كتابه (٤) ورسمهما و وقال انه يقدر أن عهد بنائهما يرجع الى ثلثمائة سنة ، ووصفهما وقت أن شاهدهما فقال عن القلعة الغربية أنها حصن كبير مربع مقام على زواياه أربعة ابراج ضخمة ومركب بها مدافع طول الواحد منها ٢٥ قدما ، أما القلعة الشرقية فقال عنها انها مسجد (كما وصفها فانسليب سنة ١٦٧٢) وأمامه بطارية متخربة من المدافع

وقد جرنا الى هذا الاستطراد ان لقلعة رشيد (أو قلعة جوليان كما يسميها الفرنسيون) أهمية تاريخية كبيرة ، لان فى انقاضها اكتشف المسيو بوشار Bouchard احد ضباط الحملة الفرنسية أثناء الحفر والترميم بالقلعة فى شهر اغسطس سنة ١٧٩٩ الحجر المشهور المسمى

---

(١) رحلة فى مصر . للرحالة فانسليب

(٢) من مهندسى الطرق والجسور فى عهد الحملة الفرنسية

(٣) كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر

(٤) رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا اثناء حروب الجنرال بونابارت الجزء الاول

(حجر رشيد) وهذا الحجر كان مفتاح اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) فقد وجدت عليه كتابة باللغة الهيروغليفية وتحتها كتابة أخرى مصرية بالقلم المعروف بالعامى أو الديموتيكى ، وتحت هذه الكتابة ثالثة باليونانية ، فنقل هذا الحجر الاثرى الى دار المجمع العلمى بالقاهرة أثناء الحملة الفرنسية ثم أخذه الجنرال هتشنسون قائد الجيش الانجليزى عند جلاء الفرنسيين ووضع فى المتحف البريطانى بلندن ولا يزال به الى اليوم ، وهذا الحجر هو الذى حل رموزه العلامة الفرنسى شامبوليون Champollion مكتشف تفسير اللغة المصرية القديمة سنة ١٨٢٢

قطع سد أبوقير
وعزلة الاسكندرية

تراجع الجنرال (منو) كما قدمنا الى الاسكندرية بعد هزيمته فى معركة كانوب ، وأخذ يستعد للدفاع عنها ، على أن مركزه بات مزعزعا وخاصة بعد أن قطع الجنرال هتشنسون سد أبوقير (١) ليعزل الاسكندرية ويمنع ورود المياه العذبة اليها

كان سد أبوقير يفصل بحيرة أبوقير القديمة عن بحيرة مريوط ، وفوق هذا السد كانت تجرى ترعة الاسكندرية (٢) ، فلما قطع السد تلفت الترعة وطغت مياه البحر التى كانت تغذى بحيرة أبوقير على بحيرة مريوط (٣) فغمرتها بالمياه ، وكانت بحيرة مريوط قبل هذا القطع قليلة المياه تكاد تكون جافة لعدم اتصالها بالبحر الابيض ولم تكن تصل اليها الامياه الامطار فى الشتاء ومياه النيل من ترعة الاسكندرية

---

(١) ابريل سنة ١٨٠١

(٢) انظر خرطة (بين الاسكندريه وأبو قير) مقابل ص ٧٨

(٣) كانت بحيرة أبوقير تتصل بالبحر الابيض بواسطة فتحة اسمها (المعدية) ومن هنا سماها الفرنسيون (بحيرة المعدية) وقد أمر محمد على الكبير بسد هذه الفتحة وأقام جسرا عاليا لهذا الغرض لكى لاتطغى مياه البحر على ترعة المحمودية وقد أخذت مياه البحر تنحسر عن البحيرة الى أن صرمعظمها الآن أراضى زراعية ، ويلاحظ ان فتحة بحيرة ادكو الموجودة الى اليوم تسمى أيضا (المعدية)

اذا زاد الفيضان ، فلما قطع السد أخذت مياه البحر تطغى على بطاح مريوط فغمرتها وخربت عدداً كبيرا من القرى والبلاد أحصاها المهندس جرايتان لوبير(١) بثلاثين قرية وانقطعت مواصلات الاسكندرية بالداخل ولم يبق للفرنسيين طريق مسلوك سوى طريق الصحراء الشاقة (صحراء مريوط) وأصبحت محاطة بالمياه شمالا وجنوبا ، وقد أشار الجبرتى الى قطع سد أبو قير وحصار الاسكندرية فى موضعين الاول فى حوادث ذى القعدة سنة ١٢١٥ فقال « وأخبر المخبرون أن الانكليز أطلقوا حبوس المياه الملحة حتى أغرقت طرق الاسكندرية وصارت جميعها لجة ماء ولم يبق لهم طريق مسلوك الا من جهة العجمى الى البرية (الصحراء) وان الانكليز تترسوا قبالهم من جهة الباب الغربى (غرب الاسكندرية) » وقال فى حوادث محرم سنة ١٢١٦ « ان الاخبار تواترت بأن العساكر الشرقية (الاتراك) وصلت أوائلها الى بنها وطحلا بساحل النيل وأن طائفة من الانجليز رجعوا الى جهة اسكندرية ، وأن الحرب قائم بها ، وأن الفرنساوية محصورون بداخل الاسكندرية ، والانكليز ومن معهم من العساكر يحاربون من خارج وهى فى غاية المنعة والتحصين ، وان الانكليز بعد قدومهم وطلوعهم الى البر ومحاربتهم لهم المرات السابقة أطلقوا الحبوس عن المياه السائلة من البحر المالح الى الجسر المقطوع حتى سالت المياه وعمت الاراضى المحيطة بالاسكندرية وأغرقت أطيانا كثيرة وبلادا ومزارع ، وانهم قعدوا فى الاماكن التى يمكن الفرنسيس النفوذ منها بحيث انهم قطعوا عليهم الطرق من كل ناحية »

معركة الرحمانية (٩ مايو سنة ١٨٠١)

والزحف على القاهرة

كانت الحامية الفرنسية فى الرحمانية أضعف من أن تقاوم هجوم الجيش العثمانى الانجليزى القادم من رشيد ، ولم يكن فى استطاعة الجنرال بليار أن يرسل اليها المدد من القاهرة لان القوات التى تحت قيادته لم تكن فى ذاتها كافية للدفاع عنها ، وقد

---

(١) أحد مهندسى الحملة الفرنسية . كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر

أرسل الجنرال (منو) من الاسكندرية كتيبة من الجنود بقيادة الجنرال فالنتان Valentin لامداد حامية الرحمانية لكنها لم تكن تكفى لنجدتها، فأنفذ اليها فرقة من الجنود بقيادة الجنرال لاجرانج Lagrange رئيس أركان حربه ، وكان موقع الرحمانية على جانب عظيم من الاهمية لامتناع حاميتها بالقلعة التى انشأها الفرنسيون بها ولكونها صلة الاتصال بين جيش القاهرة وجيش الاسكندرية ، واذا سقطت فى يد الحلفاء انقطع الاتصال تماما بين الجيشين ، لذلك اعتزم الفرنسيون الدفاع عنها جهد المستطاع وتحصنوا فيها وفى (فوه) و (العطف) (١)

بدأ الجنرال هتشنسون يتحرك من رشيد فى أوائل مايو قاصدا الزحف على الرحمانية بعد أن كلف الماجور جنرال كوت Coot المرابطة بقوة كافية أمام الاسكندرية لمنع الجنرال منو من الخروج منها

بلغ عدد الجيش الفرنسى فى الرحمانية والعطف وفوه بعد المدد الذى تلقاه من الاسكندرية نحو خمسة آلاف بقيادة الجنرال (لاجرانج) فهاجم الاتراك والانجليز مواقعهم تعاونهم السفن المدفعية الانجليزية التى دخلت النيل من بوغاز رشيد ، وكان الجنرال لاجرانج مرابطا فى العطف ، فأدرك حرج موقفه فأخلاها ، وانسحب الى الرحمانية بقصد الامتناع فيها ، لكن قوات الجيش الزاحف والسفن الانجليزية التى رافقت الجيش جعلت كل مقاومة غير مجدية فأخلى الجنرال لاجرانج الرحمانية ليلة ١٠ مايو بعد مقاومة ضعيفة واضطر أن يترك بها سفنه وماعليها من الذخائر والاقوات

احتل الانجليز والاتراك الرحمانية وقلعتها واستولوا على السفن الفرنسية وكان احتلالهم لهذا الموقع بعد ثلاثة وستين يوما من نزولهم الى أبوقير ، ومن ذلك يتبين مقدار البطء الذى سارت به الحملة العثمانية الانجليزية رغم ضعف القوات التى حاربتها وقد ذكر الجبرتى نبأ احتلال الرحمانية فى حوادث شهر محرم سنة ١٢١٦ (٢)

---

(١) انظر خرطة (بين رشيد وشبراخيت) مقابل ص ٥٨

(٢) مايو سنة ١٨٠١

قال « وفيه حضر جملة من عساكر الفرنساوية من جهة بحرى وتواترت الاخبار بوصول القادمين من الانكليز والعثمانية الى الرحمانية وتملكهم القلعة وما بالقرب منها من الحصون الكائنة بالعطف وغيره ، وذلك يوم السبت خامس وعشرين الحجة »

تراجع الجنرال لاجرانج بجنوده الى القاهرة وانقطعت المواصلات بين مصر والاسكندرية ، وساءت حالة الجيش الفرنسى فى كلتيهما ، واشتدت المجاعة فى الاسكندرية لانقطاع مواصلاتها بالداخل ، ثم واصل الانجليز والاتراك سيرهم على شاطىء النيل وساروا قاصدين القاهرة

انتقام منو من خصومه

وفى خلال ذلك كان الجنرال (منو) بالاسكندرية متمكنا في الانتقام من قواد جيشه الذين كان يضطغن عليهم من عهد قيادة كليبر وفى مقدمة هؤلاء القواد الجنرال (رينييه) ، ففى ليلة ١٤ مايو حاصر منزله بقوة من الجنود وأصدر أمرا بنفيه الى فرنسا كما أمر بنفى الجنرال داماس Damas والقوميسير دور D'Aure والادجودان جنرال بوييه Boyer فنقلوا على ظهر سفينتين نزحتا بهم عن مصر

رواية الجبرتى

ذكر الجبرتى خبر نفى الجنرال رينييه والجنرال داماس فى كلامه عن معركة كانوب ، وهو وان لم يذكر اسم المعركة الا أن كلامه عنها والتاريخ الذى أورده فيها يدل على أنه يعنيها بروايته ، واليك ما كتبه فى هذا الصدد

« وفى تاسع عشر ذى القعدة سنة ١٢١٥ (١) سمع ونقل عن بعض الفرنسيس انه وقع الحرب بين الفرنساوية والانجليز وكانت الهزيمة على الفرنساوية ، وقتل بينهم مقتلة كبيرة ، وانحازوا الى داخل الاسكندرية ووقع بينهم الاختلاف ، واتهم منو ساري عسكر رينه وداماص ورابه منهما مارابه ، وكان سببا لهزيمته فيما يظن ويعتقد

---

(١) ابريل سنة ١٨٠١

فقبض عليهما وعزلهما من امارتهما ، وذلك ان رينه وداماص لما ذهبا على الصورة المتقدمة ونظر رينه وأرسل من كشف على مناريس الانكليز فوجدها فى غاية الوضع والاتقان، فاجتمعوا للمشورة على عادتهم، ودبروا بينهم أمر المحاربة فرأى ساري عسكر منو رأيه ، فلم يعجب رينه ذلك الرأى وقال ان فعلنا ذلك وقعت الغلبة علينا، وانما الرأى عندى كذا وكذا ، ووافقه على ذلك داماص وكثير من عقلائهم، فلم يرض بذلك منو ، وقال انا ساري عسكر وقد رأيت رأيى ، فلم يسعهم مخالفته ، وفعلوا ما أمر به ، فوقعت عليهم الهزيمة وقتل منهم فى تلك الليلة خمسة عشر الفا ، (١) وتنحى رينه ودماص ناحية ، ولم يدخلا فى الحرب بعسكرهما (٢) ، فاغتاظ منو ونسبهما للخيانة والمخامرة عليه وتسفيههم لرأيه، وأكد ذلك عنده أنهما لما حضرا الى الاسكندرية أخذا معهما أثقالهما وما كان لهما بمصر لعلمهما عاقبة الامر وسوء رأى كبيرهما ، فاشتد انكاره عليهما ، وعزل عنهما العسكر وحبسهما ثم أطلقهما ، ونزلا الى المراكب مع عدة من أكابرهم وسافرا الى بلادهما »

زحف الجيش العثمانى

معركة (الزوامل) ـ ١٦ مايو سنة ١٨٠١

أما الجيش العثماني الذى قدم من سورية بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا وعدده نحو عشرين الف مقاتل فقد تحرك من العريش خلال شهر ابريل وتابع سيره دون مقاومة ، وأخلى الفرنسيون قطية والصالحية وبلبيس بعد أن نسفوا قلاعها والمخازن التى كانت لهم بها، وارتدت حامياتها الى القاهرة ، ولما وصل الصدر الاعظم الى بلبيس عزم الجنرال بليار على أن يهاجمه بجيشه قبل ان يتفرغ لصد الجيش الانجليزى العثمانى القادم من رشيد ، وكان بليار يأمل ان يهزم الجيش التركى كما هزمه

---

(١) الصواب الف وخمسمائة

(٢) الواقع انهما قاتلا فى المعركة وكان رينييه قائد الميمنة وداماس من قوادها

كليبر من قبل ، ولاسيما بعد أن زاد عدد جنوده بعودة جيش الجنرال لاجرانج الى القاهرة

كان عدد الجنود الذين يقودهم بليار نحو عشرة آلاف مقاتل ، فترك بالقاهرة قوة من المشاة تحتل الجيزة والقلاع المشرفة على المدينة ، وعهد بقيادتهم الى الجنرال الميرا Almeyras وسار ببقية جيشه لملاقاة الصدر الاعظم ، فوصل يوم ١٦ مايو الى الزوامل فى منتصف الطريق بين الخانكة و بلبيس (١) ، فاشتبك بطلائع الجيش العثمانى فيها ودارت معركة بدأت بانتصار الفرنسيين وانتهت بهزيمتهم وتراجعهم الى القاهرة

وفى خلال ذلك استولى الاتراك على دمياط بعد أن انسحب منها الفرنسيون ، وأخلى الفرنسيون كذلك قلعة عزبة البرج وقلعة البرلس

تحرج موقف الفرنسيين فى القاهرة

موت مراد بك

امتنع الجيش الفرنسى فى القاهرة واتخذ فيها خطة الدفاع ، وفكر الجنرال بليار منذ تجدد القتال فى الاستنجاد بحليف الفرنسيين مراد بك وطلب اليه العمل بشروط الاتفاق المبرم بينه وبين كليبر ، فشرع مراد بك فى امداد بليار وسار برجاله الى مصر ، لكنه لم يكد يصل الى سوهاج حتى أصيب بالطاعون وأدركته الوفاة يوم رابع ذى الحجة سنة ١٢١٥ ـ ١٨ ابريل سنة ١٨٠١ (٢) ـ ودفن بسوهاج عند الشيخ العارف ، وقد نعاه الجبرتى فى وفيات سنة ١٢١٥ هجرية ، ومن أبلغ ما قاله فيه : « انه كان من أعظم

---

(١) انظر خرطة (بين القاهرة وبلبيس) ص ١٤٧

(٢) يوجد خلاف بين الجبرتى والمراجع الفرنسية فى تاريخ وفاة مراد بك فالجبرتى يقول ان وفاته كانت رابع ذى الحجة سنة ١٢١٥ وهـذا يوافق ١٨ ابريل سنة ١٨٠١ ، والمسيو مانجان يقول انه مات فى ٢١ مارس ، ورواية الجبرتى أرجح

الاسباب فى خراب الاقليم المصرى بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور ومسامحته لهم ، فلعل الهم يزول بزواله »

وكانت وفاته ضربة كبيرة أصابت آمال الفرنسيين لأنهم فقدوا بموته حليفا قويا كان يمكن أن يمدهم بما لديه من حول وقوة ، وحزنوا عليه حزنا شديدا ، واختار المماليك عثمان بك الطنبورجى خلفا له واعتمده الفرنسيون خليفة لمراد بك وأميرا على الصعيد ، فأرسل هذا الى بليار يعرب له عن ولائه وولاء المماليك للفرنسيين ، لكنه بعد ذلك نقض المعاهدة لما رأى كفة الانجليز والاتراك راجحة واتصل بابراهيم بك زميله القديم الذى جاء صحبة الصدر الاعظم

انتشار الوباء

وازداد مركز الفرنسيين حرجا باستفحال فتك الطاعون فى البلاد وخاصة فى القاهرة والصعيد، بدأ هذا الطاعون فى شهر يناير سنة ١٨٠١ واشتدت وطأته فى أوائل ابريل، فكان يموت به فى اليوم نحو مائة من الاهالى وعشرين من الفرنسيين، ومات من هؤلاء فى القاهرة نحو خمسمائة بالرغم من الجهود التى بذلها أطباء الجيش الفرنسى فى مقاومته ، ولم يشهد الناس وباء يحاكيه فى شدة وطأته منذ وباء سنة ١٧٩١ المعروف بوباء اسماعيل بك ، ويقول الجبرتى انه كان يموت بالطاعون من الفرنسيين الذين بالقلعة ثلاثون أو أربعون كل يوم « وينزلون بهم من كرنتيلة القلعة على الاخشاب فيدفنونهم جماعات فى حفر عميقة خارج باب القرافة » ، ويقول المسيو جومار(١) الذى شهد هذا الوباء ان فتكه كان ذريعا فقد مات به فى شهر واحد عشرة آلاف شخص من سكان القاهرة (٢)

ووصف الدكتور لارى Larrey كبير جراحى الحملة الفرنسية هذا الوباء فى مشاهداته عن الامراض فى مصر فقال انه أودى بحياة مائة وخمسين ألف نسمة من

---

(١) أحد مهندسى الحملة الفرنسية انظر ترجمته بالجزء الاول ص ١٢٦

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

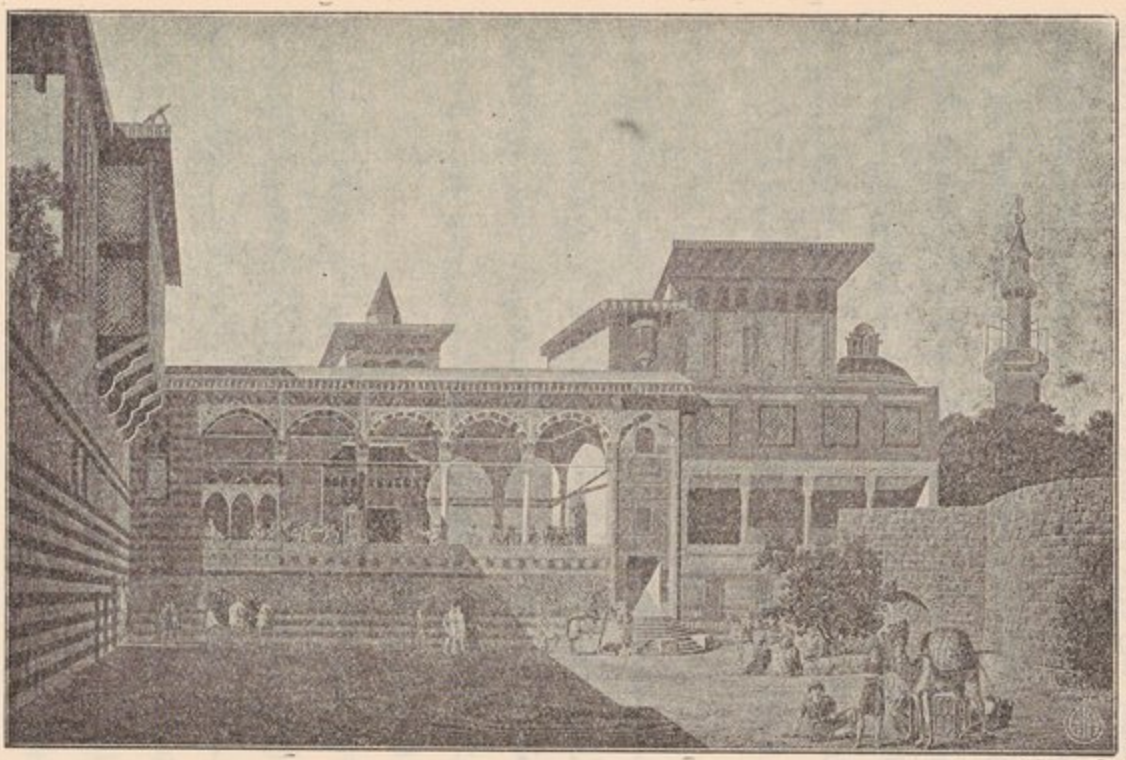

سراى عثمان بك الطنبورجى خليفة مراد بك (أنظر ص ٢٥٨)

وهى تمثل قصور المماليك بالقاهرة في ذلك العصر

المصريين فى القاهرة والوجه القبلى (١) ، ولا نظن أن فى هذا الاحصاء مبالغة وخاصة اذا رجعنا الى ما ذكره الجبرتى عن استفحاله فى الصعيد ، فقد أورد رسالة عنه للشيخ حسن العطار الذى كان نزيل أسيوط وقتئذ قال فيها ماخلاصته: «انه وقع فى قطر الصعيد طاعون لم يعهد ولم نسمع بمثله وخصوصا ما وقع منه بأسيوط ، وقد انتشر هذا البلاء فى جميع البلاد شرقا وغربا وشاهدنا منه العجائب فى أطواره وأحواله وذلك انه أباد معظم أهل البلاد وكان أكثره فى الرجال سيما الشبان والعظماء وكل ذى منقبة وفضيلة ، وأغلقت الاسواق وعزت الاكفان وصار معظم الناس بين ميت ومشيع ومريض وعائد ، وكان مبدؤه من شعبان سنة ١٢١٥ وأخذ فى الزيادة فى شهر ذى القعدة والحجة فكان يموت كل يوم بأسيوط خاصة زيادة عن الستمائة »(٢)

اجتماع بليار بأعضاء الديوان

اجتمعت كل هذه الاسباب فكانت نذيرا للفرنسيين بانقراض حكمهم فى مصر، على أن الجنرال بليار أظهر الجلد أمام الشعب ، وتظاهر بأن فى استطاعته مقاومة الجيوش الزاحفة على القاهرة ، وعاد يتهدد ويتوعد وينذر المصريين بالانتقام والنكال اذا جنحوا الى الثورة ، فاستدعى أعضاء الديوان فى شهر محرم سنة ١٢١٦ وخاطبهم على لسان المترجم قائلا :

« نخبركم ان الخصم قد قرب منا ، ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنساوية ، وأن تنصحوا أهل البلد والرعية بأن يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوئهم ، ولا يتداخلوا فى الشر والشغب ، فان الرعية بمنزلة الولد ، وأنتم بمنزلة الوالد ، والواجب على الوالد نصح ولده وتأديبه وتدريبه على الطريق المستقيم التى يكون فيها الخير والصلاح ، فانهم ان داموا على الهدوء حصل لهم الخير ونجوا من كل شر ، وان حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار وأحرقت دورهم ، ونهبت أموالهم ومتاعهم ، ويتمت أولادهم

---

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء الثالث عشر

(٢) الجبرتى الجزء الثالث

وسبيت نساؤهم ، وألزموا بالاموال والفرد (جمع فردة أى ضريبة) التى لا طاقة لهم بها ، فقد رأيتم ما حصل فى الوقائع السابقة ، فاحذروا من ذلك فانكم لا تدرون العاقبة ، ولا نكلفكم المساعدة لنا ولا المعاونة لحرب عدونا ، وانما نطلب منكم السكون والهدوء لا غير » قال الجبرتى فأجابوه بالسمع والطاعة وقولهم « كذلك »

تقدم الحلفاء

اعتزم يوسف باشا بعد معركة الزوامل أن يتصل بجيش الجنرال هتشنسون ليزحف الجيشان معا على القاهرة ، فواصل الجيش الانجليزى تقدمه بالبر الغربى للنيل الى أن بلغ امبابه ، بينما وصلت طلائع الجيش العثمانى القادم من الشرق بقيادة يوسف باشا الى منية الشيرج (١) بالبر الشرقى للنيل ، والمراكب بينهما ، والتقى القائدان فى معسكر الصدر الاعظم بالبر الشرقى للنيل وكان يصحب الصدر الاعظم وزير الخارجية العثمانية وابراهيم بك أمير المماليك وطائفة من كبار موظفى الدولة ، وصحب الجنرال هتشنسون طائفة من ضباطه وحسين قبطان باشا ، وكانت المقابلة فى غاية الود وضع القائدان فيها الخطة المشتركة للزحف على القاهرة ثم واصل الحلفاء تقدمهم فتجاوز الجيش الانجليزى (امبابه) و بلغ الجيش العثمانى (القبة) .

قطع الانجليز المسافة بين الرحمانية وامبابة فى أربعين يوماً وهى مدة طويلة ويرجع بعض المؤرخين هذا البطء الى أن الجنرال هتشنسون كان ينتظر الجيش القادم من الهند بقيادة الجنرال بيرد Baird فان هذا الجيش تأخر عن الموعد المضروب له (٢)

---

(١) غرب الوايلى الكبرى على نحو ربع ساعة منها بالغرب من شبرا واسمها كما فى المقريزى (منية الامراء) انظر خرطة (بين القاهرة و بلبيس) ص ١٤٧

(٢) لم يشترك هذا الجيش فى القتال ، فقد حشدته انجلترا فى الهند وسافر من ضفاف الجنج فى ديسمبر سنة ١٨٠٠ واخترق المحيط الهندى فالبحر الاحمر ونزل بالقصير وبقى بها شهراً ينتظر تعليمات القائد العام للجيش الانجليزى الذى

ولما وصل الجنرال هتشنسون الى الجيزة جاءته كتيبة من جيش الجنرال بيرد انفصلت عن الجيش ونزلت بالسويس وجاءت الى القاهرة بقيادة اللفتننت كولونل لويد Lloyd وتلقى مددا آخر جاء من شواطىء أبو قير فاحتشدت قوات الانجليز على الشاطىء الأيسر للنيل وقوات يوسف باشا على الشاطىء الأيمن وأقام الانجليز جسراً من المراكب بشبرا لاتصال الجيشين فبلغت قواتهما فى ذلك الحين نحو أربعين ألفاً من المقاتلة .

ولم يكن الجيش الفرنسى بالقاهرة يزيد عن عشرة آلاف مقاتل على الاكثر صالحين للقتال موزعين على خط طويل يمتد من الجيزة الى حدود القاهرة شرقا وشمالا ومن مصر القديمة الى بولاق

وغنى عن البيان ان مركز الجيش الفرنسى كان على جانب عظيم من الضعف ازاء قوات الحلفاء وتحفز سكان القاهرة للانتقاض عليه

المجلس الحربى الفرنسى

وقرار الجلاء عن مصر

أدرك الجنرال بليار ضعف مركزه فرأى أن يعقد مجلسا حربيا من قواد الجيش الفرنسى وكبار ضباطه كى يعرض عليهم الموقف الحربى ليقرروا ما يرونه ، اجتمع المجلس فى القلعة وعرض عليه بليار الحالة تفصيلا ، فشرح موقف الجيشين المتحاربين وقوات كل منهما ، وتكلم عن فتك الوباء بالجنود الفرنسية وعن النتيجة المحتملة

كان منهمكا فى قتال الفرنسيين ، ثم غادر ساحل البحر الاحمر سالكا طريق وادى القصير فبلغ قنا ثم وصل الى الجيزة فى شهر أغسطس سنة ١٨٠١ واستقر بها ثلاثة أسابيع وسار معظمه الى رشيد بعد انتهاء الحرب وتسليم الجنرال منو فلم يخض غمار الحرب ، على ان الامراض قد فتكت به كثيرا وخاصة الوباء الذى أصابه فى قنا وفى طريقه منها الى رشيد

المقاومة ، ونوه بعدد جنود الحلفاء وانضمام أهل القاهرة اليهم عند اشتداد القتال ، واحتفظ برأيه فيما يجب عمله ، على ان أقواله كانت تنم عن ميله الى التسليم وتجنب القتال ، وتكلم بعده الجنرال لاجرانج Lagrange رئيس أركان الحرب وهو من القواد الميالين الى (منو) فقال انه لا يصح الدخول فى مفاوضة مع الحلفاء قبل أن يأذن بذلك القائد العام لان الاتفاق على تسليم خاص بجنود القاهرة هو تقرير لمبدأ الجلاء وهذا من اختصاص القائد العام ونصح بأن يكون التسليم بعد استنفاد كل وسائل المقاومة

ثم تكلم بعده الجنرال دنزلو Donzelot وكان قادما من الوجه القبلى عارفا باساليب القتال فيه ، فاشار بانسحاب الجيش الفرنسى من القاهرة وامتناعه فى الصعيد واستمراره فى المقاومة هناك مستندا على ان الوجه القبلى اصلح من الوجه البحرى لمقاومة الجيوش النظامية وان فى استطاعة الجيش الفرنسى ارهاق الانجليز وانهاك قواهم فى الصعيد الى أن يتسنى للحكومة الفرنسية التفكير فى شأن مصر وامداد الجيش الفرنسى بها ، وتكلم بعده بعض كبار الضباط وتعددت آراؤهم فعارض الكولونل دوباس Dupas قومندان قلعة القاهرة فكرة التسليم ، وقال باستمرار المقاومة فى القاهرة واتفق لاجرانج ودنزلو ودوباس على المعارضة فى فتح باب المفاوضات مع الانجليز والاتراك ، واعترض آخرون على هذا الرأى قائلين انه من العبث انتظار ورود أوامر من الجنرال (منو) لان الحالة خطيرة تدعو الى التعجيل فى اتخاذ قرار بشأنها لان الانتظار ربما يؤدى الى استفحال الضرر ووقوع الجيش الفرنسى فى الاسر وهنالك لا يمكن الاتفاق على شروط للتسليم ، وقالوا ان الانسحاب الى الصعيد لا يؤدى الى نتيجة مالان الانجليز والاتراك يستطيعون بقواتهم مطاردة الجيش الفرنسى الى الشلالات ، وبعد أن تمت المناقشة أخذت الآراء فكانت الاغلبية الكبرى مؤيدة للمفاوضة مع الانجليز على قاعدة الجلاء ولم يشذ عن هذا الرأى سوى الجنرال لاجرانج وديرانتو Duranteau وفالنتان ودوباس

وبينما كان الجيش الانجليزى التركى يتأهب للهجوم على مواقع الفرنسيين فى القاهرة هجوما عاما جاء مندوب من قبل الجنرال بليار الى المعسكر الانجليزى يوم ٢٢ يونيه سنة ١٨٠١ يطلب وقف القتال وفتح باب المفاوضة على قاعدة الجلاء، فقبل الجنرال هتشنسون والصدر الاعظم هذا الطلب بارتياح، وفى اليوم التالى اجتمع مندوبو الفريقين فى مكان أعدلهم ببر الجيزة ، فحضر البرجادييه جنرال هوب Hope عن الجنرال هتشنسون ، وعثمان بك عن الصدر الاعظم ، واسحق بك عن حسين قبطان باشا ، وعن الجنرال بليار كل من الجنرال موران Morand والجنرال دنزلو Donzelot والكولونل تاريير Tarayre

توقيع اتفاقية الجلاء

٢٧ يونيه سنة ١٨٠١

استمرت المفاوضة أربعة أيام وانتهت بالاتفاق على جلاء الجيش الفرنسى عن مصر، ووقع المندوبون على هذا الاتفاق ، وتقتضى شروطه أن تجلو الجنود الفرنسية البرية والبحرية التى تحت قيادة الجنرال بليار عن مدينة القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والجيزة وعن كل جهة تحتلها من الاراضى المصرية ، وأن يكون جلاء الجنود باسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم بطريق فرع رشيد ومن رشيد وأبو قير يبحرون الى فرنسا على نفقة الحلفاء ، وأن يتم الجلاء فى أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسين يوما من يوم التصديق على الاتفاق ، وحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنى عشر يوما

وتعهد قواد الجيش الانجليزى والتركى بتقديم المراكب اللازمة لنقل الجنود وأمتعة الجيش وأثقاله ، وأن ترافق الفرنسيين فى انسحابهم كتائب من الجيش الانجليزى والتركى لتقديم المؤونة اللازمة للجنود ، وتعهد الانجليز والاتراك أيضا بتقديم السفن اللازمة لنقلهم الى ثغور فرنسا ، ونص الاتفاق (المادة ١١) على أن الملكيين من موظفى الادارة وأعضاء لجنة العلوم والفنون تسرى عليهم أحكام الاتفاق ويتمتعون بالمزايا

المخولة للعسكريين ، ويحق لهم أن يحملوا معهم الاوراق التى ترتبط بعملهم وأوراقهم الخاصة والاشياء الاخرى التى تخصهم ، ونصت المادة ١٢ على انه يجوز لأى مصرى أن يرافق الجيش الفرنسى فى الجلاء دون أن تصادر أملاكه أو تضطهد عائلته وذووقرباه، ولا يجوز ايذاء أى مصرى بما أظهره من الولاء للجيش الفرنسى مدة احتلاله للبلاد (مادة ١٣) ، ونصت المادة ٢٠ على أن هذا الاتفاق يبلغ الى الجنرال (منو) بالاسكندرية ينهيه اليه أحد ضباط الجيش الفرنسى وله أن يقبله فيما يخص الجنود الذين معه بالاسكندرية وعليه أن يعلن بذلك قائد القوات البريطانية المرابطة أمام الاسكندرية ، وقد عملت أربع نسخ من هـذا الاتفاق ، ووقع عليه المندوبون بتاريخ ٢٧ يونيه سنة ١٨٠١ ، وصدق عليه فى اليوم التالى الجنرال هتشنسون القائد العام للجيش البريطانى ، والكابتن ستفنسن بالنيابة عن اللورد كيث ، ويوسف باشا الصدر الاعظم ، والقبطان حسين باشا ، والجنرال بليار (١)

والظاهر أن نابليون لم ينقم على بليار إبرامه تلك الاتفاقية بدليل أن الجنرال بليار نال رضاه بعد عودته الى فرنسا وحارب تحت لوائه فى حروب الامبراطورية

والمتأمل فى نصوص الاتفاق يجد أنه لا يختلف فى جوهره عن معاهدة العريش وهى المعاهدة التى رفضت الحكومة الانجليزية تنفيذها ونقضتها ثم عادت الى قبول اتفاق لايختلف عنها بعد أن سفكت الدماء وضاعت الارواح وخربت البلاد وعم البلاء

إطلاق سراح المعتقلين

علم الناس فى القاهرة بنبأ الصلح فقابلوه بابتهاج عظيم وأفرج الفرنسيون عن الاسرى العثمانيين ثم أطلقوا سراح المشايخ والاعيان المعتقلين فى القلعة وباقى المحبوسين من الفلاحين والعرب ، واستعد الجنود الفرنسيون للجلاء ونقل مهماتهم من القلعة وباقى قلاع المدينة ، ودعوا أعضاء الديوان للاجتماع لابلاغهم نبأ الصلح فاجتمعوا

---

(١) نشرنا نص الاتفاق فى قسم الوثائق التاريخية ليرجع اليه القارىء اذا أراد زيادة البيان

يوم الثلاثاء ٣٠ يونيه سنة ١٨٠١ وحضر المسيو جيرار Girard قوميسير (وكيل) الديوان وأعلن وقوع الصلح وعودة السلم ووعد بأن يتلو عليهم فى الجلسة المقبلة شروط الصلح ، وطبعوا منشورات بالعربية والفرنسية تتضمن نص الشرطين الثانى عشر والثالث عشر من شروط الصلح وألصقوها بالاسواق ليطلع عليها الجمهور .

وفى يوم الجمعة ٢١ صفر انعقد الديوان وحضر المشايخ والمسيو جيرار فتلا المترجم شروط الصلح ، فقال الاعضاء هذه شروط عليها علامة القبول وهذا الصلح رحمة للجميع وسيكون الصلح العام ، فقال المسيو جيرار انى أرجو أن يكون هذا الصلح الخاص مبدأ للصلح العام فى أوروبا

آخر جلسة للديوان

ثم انعقد الديوان لآخر مرة يوم ٢٤ صفر سنة ١٢١٦ (١) فاجتمع المشايخ والتجار و بعض الوجاقلية والمسيو استيف Esteve مدير الشؤون المالية (ويسميه الجبرتى استيف الخازندار) والمسيو جيرار والترجمان روفائيل ، وكانت هذه جلسة الوداع ، فأظهر فيها الفرنسيون تلطفاً كبيراً مع الاعضاء وجاملهم الاعضاء كذلك فى جوابهم ، ومن غرائب المصادفات أن الجنرال منو كان يجهل توقيع الصلح وكان يظن وهو فى الاسكندرية أن الحرب مستمرة ، فأرسل إلى الجنرال بليار رسالة مؤرخة ١٨ صفر برسم أعضاء الديوان وقد وردت هذه الرسالة قبل انعقاد آخر جلسة للديوان ، ومع أنها صارت لغواً بعد التوقيع على الصلح فان المسيو جيرار أمر المترجم بتلاوتها على مسامع الاعضاء ، وهى تتضمن الاعراب عن أحسن تمنيات منو لاعضاء الديوان ، وينبئهم فيها بان جيوش الجمهورية الفرنسية قد انتصرت فى أوروبا ، وعما قريب ستنتصر فى مصر وطلب اليهم الاعتماد على الوكيل جيرار وعلى المسيو استيف «المأمور بتدبير الامور» ، وأوصاهم بزوجته السيدة زبيدة وولده سليمان مراد ، وأبدى أسفه لوفاة مراد بك وأطرى فضائله وعزى الست نفيسة خاتون زوجته ، وختم

---

(١) ٦ يوليه سنة ١٨٠١

كتابه بدعوته الى الله تعالى « أن ينعم عليكم وعلى عيالكم فى الايام بالبشرى والاقبال » وأمضاه « عبد الله جاك منو » ، ويقول الجبرتى ان الرسالة من تراكيب لوماكا الترجمان ، وقد تكلم المسيو جيرار بعد تلاوة الرسالة وأعرب عن تمنياته للبلد، ثم أعقبه المسيو استيف مدير الشؤون المالية فتلا خطبة طويلة بالفرنسية وتلا الترجمان روفائيل عربيتها ، وهذه الرسالة هى آخر وثيقة رسمية تليت فى الديوان دفاعا عن الحكم الفرنسى فى مصر ، اعرب فيها المسيو « استيف » عن نيات نابليون الحسنة نحو البلاد وأهلها ، وان الفرنسيين يريدون الخير لمصر ، وأعرب عن أمله فى أن يذكر المصريون مدة حكمهم بالخير، وأن يكون هذا الفراق إلى حين، وان فرنسا لم تقصد من مجيئها إلى الديار المصرية الا حب الخير لاهلها، وأعرب عن أمله فى أن تدرك الدولة العثمانية التى استرسلت فى محالفتها لانجلترا ان فرنسا لم تكن تقصد من الحملة الفرنسية الا محاربة الانجليز واحباط مساعيهم فى السيطرة على البحار واحتكار متاجر العالم ، ولما انتهى من تلاوة الرسالة قال الاعضاء « إن الأمر لله ، والملك له ، وهو الذى يمكن منه من شاء » وكان ذلك ختام آخر جلسات الديوان

خلاصة تاريخ الديوان

طويت بهذه الجلسة صحيفة الديوان الذى أسسه الفرنسيون فى مصر، ولهذه المناسبة نرى أن نذكر هنا خلاصة ما فصلناه عن تاريخ الديوان والادوار التى تعاقبت عليه

الدور الاول ـ أنشأ نابليون أول ديوان بالقاهرة فى ٢٥ يوليه سنة ١٧٩٨ وجعله مؤلفاً من تسعة أعضاء وأمر كذلك بانشاء ديوان فى كل مديرية، ثم أسس (ديواناً عاماً) وهو هيئة تتألف من مندوبين يمثلون القاهرة وسائر مديريات القطر المصرى ، ولم يجتمع (الديوان العام) الا مرة واحدة فى عهد الحملة الفرنسية، وقد بسطنا الكلام عن هذه الدواوين ونظامها وتاريخها فى الفصل الثالث من الجزء الاول (ص ٩٥ وما بعدها)

الدور الثانى — ولما ثارت القاهرة ثورتها الاولى (اكتوبر سنة ١٧٩٨) أبطل

نابليون ديوان القاهرة عقاباً لاهلها على ثورتهم ، ثم بدا له بعد اخماد الثورة أن يعيده على نظام جديد فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، فجعله من هيئتين (الديوان العمومى) وهو مؤلف من ستين عضواً (١) يمثلون سكان القاهرة على اختلاف طبقاتهم ، و (الديوان الخصوصى) ويتألف من أربعة عشر عضواً ينتخبهم اعضاء الديوان العمومى ، وقد بسطنا الكلام عن نظام الهيئتين فى الفصل الاول من الجزء الثانى (ص ٩ وما بعدها)

أما دواوين الاقاليم فقد بقى نظامها كما وضعه نابليون من قبل

وقد استمر هذا النظام فى جملته متبعاً على عهد كليبر الى أن أبرمت معاهدة العريش فأبطل الديوان ثم نقضت وتجددت الحرب وثارت القاهرة ثورتها الثانية (مارس — ابريل سنة ١٨٠٠) ، فلما أخمدها الجنرال كليبر استمر الديوان معطلا وظل كذلك بقية مدة كليبر

الدور الثالث — ولما قتل كليبر وخلفه الجنرال (منو) أعاد الديوان على نظام جديد اذ جعله هيئة واحدة مؤلفة من تسعة أعضاء ووسع فى اختصاصه كما فصلنا ذلك فى الصحيفة ٢٢٠ وما بعدها

وهذا الديوان هو الذى استمر الى حين جلاء الفرنسيين عن القاهرة

---

(١) تجد بالصحيفة ١٦ من هذا الجزء اسماء هؤلاء الاعضاء ، واذا راجعت اسماءهم وعددهم فقد يلتبس عليك الامر اذ تجد ان عددهم ٦١ ، ولكن حقيقتهم ستون ، لان اسم احمد المحروقى تكرر ضمن تجار البن والبهار ثم ضمن تجار البضائع التركية باسم السيد احمد العقاد المحروقى ، وقد ورد هذا التكرار فى اصل البيان المنشور فى جريدة كوريه دليجبت ، جريدة الحملة الفرنسية ، لكنه اسم واحد لشخص واحد ، فعدة الاعضاء ستون

جلاء الفرنسيين عن القاهرة

أخلى الفرنسيون قلعة المقطم وباقى القلاع والحصون والمتاريس وانتقلوا الى الروضة وقصر العينى والجيزة استعداداً لنزولهم فى السفن التى أعدت لنقلهم بالنيل إلى رشيد تنفيذاً لشروط الصلح ، ودخلت الجنود العثمانية المدينة

وفى ١٤ يوليه سنة ١٨٠١ (٤ ربيع الاول سنة ١٢١٦) أخلوا قصر العينى والروضة والجيزة وأقلعت بهم المراكب وعددها ثلثمائة مركب إلى رشيد ، وبذلك تم جلاؤهم عن القاهرة وضواحيها ، وأخذوا معهم رفات الجنرال كليبر ، وساروا من رشيد الى أبو قير ومن هناك أبحرت بهم السفن فى أوائل شهر أغسطس سنة ١٨٠١ (١) إلى فرنسا وجلوا نهائياً عن الديار المصرية .

وكان عددهم يوم جلائهم نحو ١٣٫٠٠٠ رجل منهم ٩٫٠٠٠ مقاتل صالحون للقتال والباقون من الجنود المرضى والرجال الملكيين ، و بذلك تم جلاء أكثر من نصف الجيش الفرنسى الذى كان يحتل مصر و بقى النصف الآخر فى الاسكندرية

ويقول نابليون فى مذكراته إنه لما خرج الفرنسيون من القاهرة عجب الانجليز من كثرة عددهم وعتادهم واستعظموا الفوز الذى نالوه من غير قتال

موقف (منو) فى الاسكندرية

تم جلاء الفرنسيين عن القاهرة وآلت السلطة الفعلية فيها الى قواد الجيش التركى والانجليزى ، وبقى فيها الجنرال هتشنسون عدة ايام يشرف على نظام الحكم الجديد ، ثم اعتزم العودة الى الاسكندرية لمحاربة الجيش الفرنسى بها

كانت الاسكندرية فى حالة حصار من يوم انكسار الفرنسيين فى معركة كانوب ، وخاصة من حين قطع سد بحيرة ابو قير ، وقد ترك الجنرال هتشنسون قبل زحفه على القاهرة قوة من الجنود بقيادة الماجور جنرال كوت Coot لتشديد الحصار على الاسكندرية ،

---

(١) اول و٢ و٦ و٩ و١١ اغسطس سنة ١٨٠١

فساءت حالتها لقلة الزاد ونفاد المؤونة وغلاء الاسعار ، واستهدف الاهالى والجيش الفرنسى للمجاعة

وفى خلال ذلك وصلت البارجة الفرنسية « هليو بوليس » من نوع الفرقاطة الى ثغر الاسكندرية يوم ٩ يونيه سنة ١٨٠١ ، فتجدد الأمل فى نفوس الفرنسيين بقرب وصول المدد من فرنسا ، وظنوا ان البارجة القادمة هى طليعة الاسطول الفرنسى المنتظر ، والواقع ان نابليون بعد اخفاق الاميرال جانتوم فى الوصول باسطوله الى المياه المصرية ورجوعه الى طولون لام جانتوم على تقصيره فى اداء مهمته وكلفه استئناف السفر لامداد جيش فرنسا فى مصر ، فأقلع بأسطوله المرة الثالثة من طولون(١) وكانت التعليمات الصادرة اليه تقتضى أن يصل بالمدد الى مصر وفى حالة مطاردة الاسطول الانجليزى برسو فى جهة من شواطىء افريقية ليسير براً الى مصر ، وكان هذا المدد مؤلفاً من أربعة آلاف مقاتل مزودين بالذخائر والمهمات ، فلما اقترب جانتوم من مياه الاسكندرية خشى الاصطدام بالبوارج الانجليزية ، فعاد أدراجه محاذياً شواطىء افريقية ، وانفصلت عنه البارجة هليو بوليس فوصلت سليمة الى ميناء الاسكندرية(٢) وواصل جانتوم سيره الى أن رسا ببنى غازى (٣) وأراد أن ينزل الجنود الى البر ، ولكن الاهالى حينما شعروا بهذه الحركة تسلحوا جميعاً واستعدوا لقتال الفرنسيين عند نزولهم الى الساحل فخشى الاميرال جانتوم عاقبة هذه المغامرة ورأى السلامة فى ارتداده ثانية الى طولون

نبهت هذه المحاولة أذهان الانجليز الى تشديد المراقبة على شواطىء مصر ، فشددوا الحصار البحرى على ثغر الاسكندرية ، فانقطع كل أمل للفرنسيين فى وصول المدد اليهم ، ولم يكن عدد جيشهم بها يزيد عن سبعة آلاف مقاتل يقودهم الجنرال (منو) ويعاونه فى القيادة الجنرالات فريان ، ورامبون ، وسونجى Songis ودستانج ،

---

(١) يوم ٢٥ ابريل سنة ١٨٠١ (٢) يوم ٩ يونيه سنة ١٨٠١

(٣) بطرابلس الغرب

وزايونشك ، والجنرال سانسون قائد فرقة الهندسة ، وكان الجيش الانجليزى العثمانى المحاصر للاسكندرية يزداد عدداً بما كان يتلقاه من المدد وخاصة بعد انتهاء الحرب فى القاهرة، ومع ذلك أصر الجنرال (منو) على عناده ، ولما بلغه تسليم الجنرال بليار ثار غضبه وأذاع منشوراً بين الجنود حمل فيه حملة شعواء على الجنرال بليار واعتبر تسليمه تفريطا فى الشرف الحربى ، وأرسل الى نابليون تقريراً يلقى على بليار تبعة الجلاء عن القاهرة ، على أنه لم يمض خمسون يوماً على تسليم القاهرة حتى أذعن الجنرال منو للتسليم بشروط أسوأ من الشروط التى قبلها الجنرال بليار

و بيان ذلك أنه بعد أن تم جلاء الجنود الفرنسية عن القاهرة وأقلعت بهم السفن من أبو قير حشد الجنرال هتشنسون قواته حول الاسكندرية واستأنف قتال الفرنسيين المرابطين بها ، وشدد عليهم الحصار براً و بحراً ، واحتل جنود الجنرال كوت Coot ساحل العجمى (غرب الاسكندرية) ، واستولوا على قلعة العجمى[1] ليلة ٢٢ اغسطس سنة ١٨٠١ ، ودخلت السفن الانجليزية الميناء الغربية ، فصارت المدينة فى حصار محكم ، وتقدم الجنرال كوت فاحتل طابية القمرية (غرب القبارى) بعد قتال شديد

أشار الجبرتى الى هذه الوقائع بقوله « وفى يوم الاحد ٢٠ ربيع الثانى سنة ١٢١٦ (يوافق ٣٠ أغسطس سنة ١٨٠١) وردت أخبار من اسكندرية بتملك العساكر الاسلامية والانجليزية متاريس الفرنساوية وأخذهم المتاريس التى جهة العجمى و باب رشيد وجانباً من اسكندرية القديمة ، وتخطت المراكب وعبرت الى الميناء وأن الفرنساوية انحصروا داخل الابراج وأخذ منهم نحو المائة وسبعين أسيراً وقتل منهم عدة وافرة ووقعت بين الفريقين مقتلة عظيمة لم يقع نظيرها ، وقتل الكثير من عساكر قبطان باشا وكذلك من الانجليز ، ثم انجلت الحرب عما ذكره فلما ورد الخبر بذلك ضربوا عدة مدافع وسر الناس بذلك »

اشتد الضيق بالحامية الفرنسية وفتكت بها الامراض ونفدت الاقوات حتى

---

(١) بجزيرة العجمي . انظر الجزء الاول ص ١٦٥ و ٢٤٣

اضطروا أن يأكلوا لحوم الخيل الهزيلة ، ولم يبق من الحامية من يصلح للقتال أكثر من سبعة آلاف مقاتل يحاربون وهم على تمام الاعتقاد بأنها حرب عقيم لا تؤدى الى نتيجة ، وأدرك القواد الذين تحت أمرة (منو) أن اطالة القتال ليس فيها الا سفك الدماء فاتفقوا على مفاتحته فى وقف القتال ، فقابله الجنرال رامبون يوم ٢٥ اغسطس سنة ١٨٠١ وشرح له خطر الموقف وعقم الاستمرار فى المقاومة وضرورة الجلاء عن الاسكندرية ، وعلم منو أن هذا هو رأى قواد الجيش ، فمالت نفسه الى المفاوضة ، ووقعت حادثة كان لها تأثير كبير فى نفس منو جعلته يجنح الى كف القتال ، ذلك أن زوجته المصرية وابنها وحاشيتها كانوا فى القاهرة حينما جلا الفرنسيون عنها ، فطلبت من السلطات الانجليزية السماح لها باللحاق بزوجها الجنرال فى الاسكندرية ، فسهل لها الجنرال هتشنسون الوصول الى الثغر ووصلت سالمة هى وحاشيتها فكان لهذا العمل الانسانى أثر كبير فى نفس منو

المفاوضة فى الجلاء

وأخيراً أرسل منو اثنين من ياورانه يوم ٢٦ أغسطس الساعة الرابعة بعد الظهر الى الجنرال هتشنسون والجنرال كوت يطلب وقف القتال ثلاثة أيام ريثما يعدّ طلب التسليم ، فأجابه الجنرال هتشنسون الى هذا الطلب ، وفى خلال هذه المدة دعا الجنرال منو قواد الجيش الفرنسى الى الاجتماع فى مجلس حربى على مثال المجلس الذى عقده الجنرال بليار فى القاهرة قبل التسليم ليقرر قراراً حاسما فى الحالة ، فاجتمع المجلس الحربى بوكالة فرنسا بالاسكندرية يوم ٢٨ اغسطس سنة ١٨٠١ برآسة الجنرال منو وعضوية القواد فريان Friant ورامبون Rampon ، وسونجى Songis ودستانج Destaing ، وزايونشك Zayonchek ، وفوجيير Fugiere ، وسانسون Sonson وفولتربيه Faultrier ، و بوسار Boussart ، ودلجورج Delegorgue ، ولفيفر Lefebvre ، ودارمنياك Darmgnac ، وهبلر Hepler ، ومدير مهمات الجيش سارتلون ، ومدير مهمات البحرية لروا Le Roy ، وقومندان الميناء ريشيه Recher ، فتداول المجلس فى الموقف واستقر رأيه على أن الحالة لا تسمح باستمرار الدفاع عن الاسكندرية

لان نسبة الحامية الى القوات التى تحاصرها كنسبة واحد الى عشرة ولان الحلفاء يحاصرون المدينة براً وبحراً ولهم فى البحر أربعون بارجة حربية مخصصة للحصار فضلا عن أن الامراض قد فتكت بالحامية ونفدت الاقوات من المدينة وانقطع ورود المياه العذبة اليها ، وعلى ذلك قرر المجلس تكليف الجنرال منو مفاوضة قواد جيوش الحلفاء على قاعدة جلاء الجيش الفرنسى عن الاسكندرية على أن تكون الشروط « مشرّفة لرجال الجيش والملحقين به »

وترك المجلس للجنرالات رامبون وفريان وسونجى وسانسون ودلجورج وضع شروط الجلاء على أن تعرض على المجلس ، فلما عرضت اختلف القواد فيما بينهم وظهر الجنرال منو بمظهر المتردد ، وانتهى ميعاد الثلاثة الايام المضروبة لتقديم طلب الجلاء ، فتهدد الجنرال هتشنسون باستئناف الهجوم على المدينة ، وأخيراً قبل مد الهدنة الى صباح ٣٠ اغسطس ، وفى الموعد المحدد أرسل الجنرال منو شروط التسليم التى يرتضيها الى الجنرال هتشنسون ، فأجاب هذا عليها بارسال الشروط التى يفرضها الجيشان الانجليزى والتركى للجلاء

اتفاقية الجلاء

٣١ اغسطس سنة ١٨٠١

تم الاتفاق على شروط الجلاء يوم ٣١ أغسطس سنة ١٨٠١ ووقع عليها كل من اللورد كيث والجنرال هتشنسون وحسين قبطان باشا والجنرال منو

وتقتضى هذه الشروط أن يتم جلاء الجنود الفرنسية عن المدينة وقلاعها وملحقاتها فى عشرة أيام من يوم التوقيع على الاتفاق ، وأن يسلم الفرنسيون السفن التى لهم ، وأن تنقل الجنود الفرنسية على سفن الحلفاء ومعهم أسلحتهم وأمتعتهم وعشرة مدافع من مدافعهم ويسلموا باقى مدافعهم وذخيرتهم ثم تقلهم السفن الى أحد الثغور الفرنسية بالبحر الابيض المتوسط ، وأن يسلم أعضاء المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون جميع الآثار والمجاميع والخرط والرسوم والمخطوطات التى جمعوها فى مصر الى قواد الحلفاء

رواية الجبرتى

قال الجبرتي فى حوادث ٢١ ربيع الثانى سنة ١٢١٦(١) « وفيه ورد خبر من اسكندرية بانقضاء الحرب وطلب الفرنسيس الصلح بعد وقوع الغلبة عليهم وهزيمتهم وأخذ منهم عدة أسرى وانحصروا فى الابراج فأمنوهم وأجلوهم خمسة أيام آخرها يوم الخميس سابع عشرينه »

وقال فى موضع آخر « وفى غايته (ربيع الثانى) عمل شنك ومدافع كثيرة وذلك لوصول خبر بتسليم الاسكندرية »

جلاء الفرنسيين عن الاسكندرية

بدأ الفرنسيون يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٠١ يسلمون قلاع المدينة واستحكاماتها ومدافعها والسفن الحربية التى كانت لهم فى الثغر ، ولما جاء دور تسليم مقتنيات أعضاء المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون احتج أولئك الاعضاء على حرمانهم ثمرة ابحاثهم وجهودهم واكتشافاتهم ، وأوفدوا ثلاثة منهم وهم جوفرواسان هيلير Geoffroy Saint Hilaire ، وسافينى Savigny ، ودليل Delille لمقابلة الجنرال هتشنسون لاقناعه بالعدول عن هذا الشرط ، فرفض طلبهم ، فاجمعوا رأياً على الامتناع عن تسليم تلك الكنوز العلمية ، وأنذروا القائد الانجليزى باحراقها بدلا من التفريط فيها وتسليمها ، وأبلغوه أنهم يلقون على عاتقه تبعة حرمان العلم من هذه النفائس فى حالة اصراره على طلبه ، فبهت القائد الانجليزى أمام هذا التهديد ، وقبل مكرها أن يتنازل عن نفاذ هذا الشرط وترك لهم مقتنياتهم ، بيْد أنه منعهم من أخذ العاديات التى أرادوا تهريبها معهم وحجزها بحجة أنها ملك مصر ، لكن مصر حرمت منها ونقلها الانجليز الى بلادهم وزانوا بها متاحفهم ، ومن هذه الآثار (حجر رشيد) المشهور الموجود إلى اليوم فى المتحف البريطانى بلندن

وفى خلال الوقائع الحربية التى انتهت بها الحملة الفرنسية كانت المفاوضات بين فرنسا وانجلترا دائرة حول عقد الصلح بينهما لاقرار السلم فى القارة الاوروبية وانتهت هذه المفاوضات بتوقيع مقدمات الصلح المعروفة بمقدمات لندن (أول اكتوبر سنة

---

(١) ٣١ اغسطس سنة ١٨٠١

١٨٠١)، وهذه المقدمات تتضمن القواعد الاساسية التى بنيت عليها فيما بعد معاهدة الصلح المعروفة بمعاهدة أميان Amiens (٢٧ مارس سنة ١٨٠٢) التى أبرمت بين انجلترا وفرنسا وحليفتيها هولندا واسبانيا

جرت هذه المفاوضات والحرب قائمة فى مصر بين الجيش الفرنسى والجيشين التركى والانجليزى ، وكان نابليون يعلم أن لا أمل له فى انجاد جيش الجنرال (منو)، فرضى أن يكون أساس الصلح بالنسبة لمصر جلاء الانجليز والفرنسيين معاً، فكان هذا الشرط أهم الشروط التى احتوتها (مقدمات لندن) ، أما الشروط الاخرى فخلاصتها أن تعيد انجلترا الى فرنسا وحليفتيها هولندا واسبانيا الاملاك التى استولت عليها القوات البريطانية فى البحار ماعدا جزيرة (سيلان) بالهند وجزيرة (ترينتيه) (١) فقد استبقتهما انجلترا ورضيت بالجلاء عن الاملاك الاخرى وخاصة جزيرة مالطه

ومن مصادفات القدر أنه لم تكد تنقضى ثمانى ساعات على ابرام (مقدمات الصلح) حتى ورد البريد الى لندن يحمل نبأ تسليم الجنرال (منو) وتوقيعه شروط الجلاء عن مصر

أخذت السفن المقلة للجنود الفرنسيين تقلع من الاسكندرية فى خلال شهر سبتمبر سنة ١٨٠١ (٢) قاصدة الى فرنسا ، وكان عددهم يوم رحيلهم ٧٢٠٠ من الجنود و١٥٠٠ من البحارة و١٤٠٠ من المرضى و٦٨٠ من الملكيين ، وكان آخر من أبحر منهم الجنرال (منو) الذى أصيب بالطاعون فى أواخر أيامه فغادر ثغر الاسكندرية يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨٠١ (٣)

وبجلاء الفرنسيين عن الاسكندرية طويت صحيفة الاحتلال الفرنسى فى مصر

---

(١) من جزر الانتيل بامريكا وكانت تابعة لاسبانيا

(٢) يقول المسيو مالوس فى يومياته ان جلاء الفرنسيين عن الاسكندرية وقع بين ١٤ و٣٠ سبتمبر سنة ١٨٠١

(٣) لم ينقم نابليون على الجنرال (منو) اخطاءه فى مصر بل اعلن رضاه عنه لتملقه اياه وأنعم عليه فى عهد الامبراطورية بلقب (كونت) وعينه حاكما للبيمونت فى ايطاليا ثم للبندقية حيث مات بها سنة ١٧١٠

الفصل الثالث عشر

نتائج ظهور العامل القومى
على مسرح الحوادث السياسية

ألمعنا فى مقدمة الكتاب الى أن بدء الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث يرجع الى أواخر القرن الثامن عشر ، وأن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الاهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، وقلنا فى بيان هذه الحقيقة : « بدأ العامل القومى يظهر على مسرح الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية ، ذلك حين نهضت الامة لمقاومة الاحتلال الفرنسى بكل ماأوتيت من حول وقوة ، وجادت بكل تضحية ، واحتملت ضروب العنت وصنوف الأذى لتتخلص من احتلال الفرنسيين ، وظل العامل القومى محتفظا بقوته بعد جلاء الجيش الفرنسى ، فلم يستطع الترك ، ولا المماليك ، ولا الانجليز ، أن يهزموه ، أو يقهروه ، أو يبعدوه عن الميدان ، وكان من نتائجه بعد انتهاء الحملة الفرنسية ثورة الشعب على حكم المماليك ، ثم على الوالى التركى ، ثم المناداة بمحمد على والياً مختارا على مصر ، ثم اخفاق الحملة البريطانية التى جردتها انجلترا لتحقيق أطماعها فى وادى النيل ، وهزيمتها فى رشيد والحماد » (١)

ولقد فصلنا فى الجزء الاول والفصول التى مرت بك من الجزء الثانى مبلغ مقاومة الامة للاحتلال الفرنسى ومدى الحركات الشعبية التى حدثت فى خلال تلك السنوات ، فانتهينا من ذكر النتائج الاولى لظهور العامل القومى ، والآن فلنتكلم عن النتائج التى أعقبت جلاء الفرنسيين ، وتمهيداً لهذا البيان يجدر بنا أن نوضح الحالة السياسية فى مصر بعد انتهاء الحملة الفرنسية

---

(١) ص٥ الجزء الاول ، و(الحماد) واقعة بالبر الغربى للنيل جنوب رشيد ، وتجد موقعها بالخرطة المنشورة مقابل ص ٥٨ من الجزء الثانى

الحالة السياسية فى مصر

بعد جلاء الفرنسيين

جلا الفرنسيون عن مصر بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين ، فتنازع السلطة فى البلاد ثلاث قوات مختلفة المصالح متباينة الاغراض اتحدت وقتا ما على محاربة الفرنسيين ولما تم لها النصر عليهم بدأت كل قوة تعمل على تحقيق أطماعها الخاصة فى وادى النيل

هذه القوات الثلاث هى الاتراك ، والانجليز ، والمماليك

الاتراك

تطلعت تركيا الى بسط حكمها المطلق فى مصر بحجة انها فتحتها بحد السيف ، وأرادت أن تجعل منها ولاية أو عدة ولايات تحكمها كما كانت تحكم ولايات السلطنة العثمانية بولاتها الذين لم تر البلاد منهم منذ عهد الفتح العثمانى سوى الظلم والفوضى وسوء الادارة

أرادت تركيا أن تستخلص مصر لنفسها ، لذلك استقر عزمها على محاربة المماليك والقضاء عليهم حتى لا ينازعوها سلطة الحكم فى البلاد ، فكانت تعليماتها للصدر الاعظم يوسف باشا ضيا تقضى بابادة بقية المماليك كيلا تقوم لهم قائمة أو ابعادهم عن مصر وإسكانهم فى ولاية أخرى من ولايات السلطنة العثمانية

كانت القوات العثمانية فى مصر مؤلفة من جيشين ، الجيش الاول وعدده نحو ٢٥ الى ٣٠ الف مقاتل بقيادة الصدر الاعظم ، ويتألف من الانكشارية وحرس الوزير والجنود الذين حشدهم فى سورية ، والمعسكر العام لهذا الجيش فى القاهرة ، وجنوده تحتل العاصمة ومعظم بنادر مصر الوسطى والصعيد كبنى سويف والمنيا واسيوط

أما الجيش الثانى فكان مرابطا شمال الدلتا بقيادة حسين قبطان باشا قومندان

العمارة العثمانية التى كانت راسية فى خليج أبو قير ، وعدد هذا الجيش نحو ستة آلاف مقاتل معظمهم من الارناؤد والانكشارية يحتلون المواقع القريبة من مرسى العمارة

الانجليز

كانت انجلترا تطمع فى أن تبسط نفوذها فى وادى النيل وتحتل بعض المواقع المهمة على شواطئه فى البحر الابيض والبحر الاحمر لتضمن لنفسها السيادة فى البحار وترقب طريقها الى الهند كما سبق لنا بيان ذلك (ص ٢٣٠) ، وكان الجيش الانجليزى فى مصر مؤلفا من ستة عشر الف مقاتل بقيادة الجنرال هتشنسون يحتلون الاسكندرية ورشيد ودمنهور ويلحق به الجيش الذى قدم من الهند بقيادة الجنرال بيرد Baird وعدده نحو ستة آلاف مقاتل معسكرين فى الجيزة

كانت انجلترا ترمى الى تخليد احتلالها لتلك المواقع ، وقد احتلتها مرتكنة على معاهدة التحالف المعقودة بينها وبين تركيا فى ٥ يناير سنة ١٧٩٩ ، على انها لم تكن ترمى من هذه المعاهدة الى طرد الفرنسيين من مصر فحسب ، بل كانت لها اطماع اخرى تضمرها لوادى النيل ، ومع ان المعاهدة كانت مقصورة على « ضمان الحكومة البريطانية سلامة أملاك السلطنة العثمانية بلا استثناء كما كانت قبل الحملة الفرنسية على مصر » لكن اللورد الجين Elgin سفير انجلترا المفوض فى الاستانة توصل الى اضافة شرط ملحق بالمعاهدة وهو « ان الجيش الانجليزى لا يجلو عن مصر الا بعد استتباب الامن فى ربوعها »

فالحكومة الانجليزية لم تضع هذا الشرط الاضافى عبثا ، بل كانت ترمى الى التذرع به لتعطيل أجل احتلالها للبلاد ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، وما أشبه هذا النص بالحجج التى تذرعت بها بعد ثمانين عاما لتسيغ لنفسها احتلال مصر سنة ١٨٨٢ وتطيل أجل هذا الاحتلال ، والتاريخ يعيد نفسه

المماليك

أما المماليك فقد كانوا يطمعون بعد انتهاء الحملة الفرنسية فى استعادة حكمهم فى مصر ، وحجتهم أنهم حكامها الأقدمون الذين دانت لهم البلاد السنين الطوال ، وقد فطنوا الى ان الاتراك يأتمرون بهم ويريدون التخلص منهم ، فاتجهوا بأنظارهم الى الانجليز يطلبون حمايتهم ويستمدون منهم المعونة لتحقيق أطماعهم ، وكانت خطة الانجليز حيال المماليك مُغرية لهم على الاسترسال فى اوهامهم وآمالهم ، ذلك ان الجنرال هتشنسون سعى قبل أن يزحف على القاهرة فى ضم المماليك من خلفاء مراد بك الى صفوفه ، وكانوا فى ذلك الحين موالين للفرنسيين بحكم اتفاق مراد — كليبر فوعدهم أن يعيد لهم سلطتهم القديمة فى مصر اذا هم انضموا الى جيوش الحلفاء ، فرأى المماليك أن صفقة الانجليز أربح وأن نجم الفرنسيين آخذ فى الافول ، فانتقضوا عليهم ونكثوا اتفاق مراد بك وانضموا الى صفوف الانجليز ، وعزم هؤلاء على أن يتخذوهم صنائع لسياستهم فى وادى النيل ، فأيدوهم وناصروهم ومالؤهم على استعادة سلطتهم القديمة فى مصر ولا عجب فى ذلك فان حكم المماليك قائم على الظلم والفوضى ومن مصلحة انجلترا انتشار الفوضى والمظالم فى البلاد لتجد سبيلا لاحتلالها والتدخل فى شؤونها ، من أجل ذلك توثقت عرا المودة بين المماليك والانجليز واعتقد المماليك أن سلامتهم فى الاستظلال ، بحمايتهم . ولما انتهت الحرب بجلاء الفرنسيين أبدى الجنرال هتشنسون عطفا كبيراً على مطالب المماليك .

على ان المماليك تضعضعت قوتهم وتحطمت شوكتهم فى المعارك التى نشبت بينهم وبين الفرنسيين خلال الحملة الفرنسية ، ولم يبق منهم سوى عدد يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسمائة الى أربعة آلاف مملوك بما فيهم بضع مئين من الارقاء الذين اشتروهم من القوافل القادمة من سنار ، وضموهم الى صفوفهم وبضع مئات

من الفرنسيين (١) الذين لم يرحلوا مع الجنود الفرنسية حين الجلاء وآثروا البقاء فى مصر فانضموا الى صفوف المماليك ، فمثل هذه القوة لم تكن لتقف أمام قوة الجيش العثمانى المرابط فى مصر وخاصة بعد أن منعت الدولة جلب الرقيق من بلاد الشركس فنضب معين المماليك وحرموا من اكمال النقص الواقع فى صفوفهم ، هـذا فضلا عن عوامل الانقسام والتنافس التى كانت تضعف قوتهم وتصدع وحدتهم ، فان التنافس القديم الذى كان بين حزبى ابراهيم بك ومراد بك قبل الحملة الفرنسية قد استمر بعد انتهائها ، فكان لكل منهما أنصار وشيعة من الاتباع والبكوات ، ولما مات مراد بك استمر الانقسام بين أنصار ابراهيم بك وخلفـاء مراد بك ، وقد استخدمت تركيا هـذا التنافس لتضرب المماليك بعضهم ببعض ، وعمل الصـدر الاعظم يوسف باشا ضيا وحسين قبطان باشا على تحريك هـذا التنافس القديم ، فكان كل منهما يعد كل حزب من حزبى المماليك بأن تكون له السلطة والسيادة فى مصر ، وكان أنصار ابراهيم بك مقيمين فى القاهرة لأنهم قدموا صحبة الجيش العثمانى ، أما خلفاء مراد بك فقد اصطحب معظمهم حسين باشا القبطان ومضى بهم الى شمال الدلتا وعهد اليهم حراسة الجنود الفرنسية عند جلائها عن القاهرة فى طريقها الى رشيد ، وبعد أن تم رحيل الجنود الفرنسية تخلفوا بالاسكندرية وابو قير يتلقون الاوامر من حسين باشا القبطان بعيدين عن ابراهيم بك وأنصاره ، فهذا التباعد بين المماليك والتنافس القديم بين زعمائهم زاد فى ضعفهم وفل من حدهم ، وكان المماليك مختلفين كذلك فى وجهة النظر السياسية ، ففريق منهم وهو الاغلب كانوا يرون السلامة فى الاستظلال بحماية الانجليز يتخذونهم حماة واولياء ، وعلى رأس هذا الفريق محمد بك الالفى ، وفريق آخر كان يرى الاستنجاد بفرنسا ومنهم عثمان بك البرديسى ، وفريق ثالث يرى الكف عن القتال

---

(١) قدرهم المسيو فلكس مانجان فى كتابه بثلثمائة

والتزام الحياد وموالاة الاتراك وعلى رأسهم عثمان بك حسن ، وكان الالفى والبرديسى زعيمى المماليك المرادية (اتباع مراد بك) ، وكان لابراهيم بك حزب آخر يتبعه ينافس البكوات المرادية فى الزعامة والسلطة ، على ان ابراهيم بك قد تضعضعت شوكته لكبر سنه فلم يكن له من الاحترام الا ما كان جديرا به لشيخوخته وسابق سلطته

فالتباعد بين المماليك ، والتنافس القديم بين زعمائهم ، وأطماعهم الشخصية ، واختلاف وجهة نظرهم السياسية ، كل هذه الظروف مجتمعة كانت من الاسباب التى عجلت بانقراض دولتهم واراحة مصر من حكمهم

العامل القومى

تلك هى القوات التى تنازعت النفوذ والسلطة فى مصر ، وهناك قوة رابعة ظهرت على مسرح النضال السياسى وأخذت تنمو ويشتد ساعدها دون أن تأبه لها تلك القوات الثلاث أو تحسب لها حساباً ، على أنها القوة الثابتة الخالدة المؤيدة بحقها الشرعى فى تقرير مصير البلاد ، تلك هى قوة الشعب المصرى

بدأت هذه القوة تظهر فى الميدان خلال السنوات التى قضاها الجيش الفرنسى فى البلاد ، ظهرت الأمة بشخصية جديدة ، وروح فتية ، وعزيمة قوية ، كونتها الحوادث والشدائد ، وصقلتها التجارب والآلام ، كانت هذه السنوات الثلاث بمثابة مران على النضال والكفاح السياسى وتطور فى الحياة القومية ، رأت الامة خلالها من الحوادث والانقلابات ما فتح أعينها وهز أعصابها واستثار فيها روح التطلع الى المجد والعلا ، رأت نابليون بونابارت يخطب ودها ، ويشيد بعظمتها ، ويتملق كبرياءها القومى ، ويتغنى بماضيها ، ويعلن حقها فى أن تحكم نفسها بنفسها .

ثارت فى وجه الحكم الفرنسى غير مرة ، فاعتادت مقاومة الاضطهاد ومكافحة القوة المسلحة ، وألفت خوض غمار الوقائع والمعارك ، قاومت نابليون قاهر الملوك ومزلزل العروش ، رأت خلاصة علماء فرنسا واطبائها ومهندسيها يعرضون عليها آثار علمهم وفلسفتهم وحضارتهم وتجاربهم ، رأت علوماً وأفكاراً جديدة ، ومنشآت ونظماً

حديثة ، رأت « ديواناً » مؤلفاً من صفوة أبنائها بعد أن كان الديوان القديم مقصوراً على المماليك ، أيقظت الحوادث فيها روح المقاومة الشعبية ، تلك الروح التى تنهض بالاخلاق وترقى بالافكار ، وتفتق الاذهان ، وتنير البصائر ، وتغرس الفضائل فى النفوس ، وأخذ ترادف الحوادث فى خلال تلك السنوات الثلاث يمزق أستار الصمت والجمود التى كانت تحجب عنها نور الحياة والنشاط ، فلا غرو ان ظهرت الامة المصرية العريقة فى الحضارة والمدنية بشخصية جديدة ولدتها الحوادث ، وأن تقتحم ميدان النضال السياسى بروح معنوية جديدة تختلف كثيراً عن حالتها القديمة ، وكذلك الأمم المستعدة للرقى تتطور نفسيتها وتتجدد شخصيتها تحت تأثير الحوادث السياسية والانقلابات ، وهنالك يظهر مبلغ استعداد كل أمة للرقى ومقدار ما هو كامن فى قرارة نفسها من المواهب الدفينة ، فالأمة المصرية التى ظلت السنين الطوال رازحة تحت نير الاستبداد لم تفقد مواهبها القديمة التى ورثتها عن المدنيات المتعاقبة ، بل كانت هذه المواهب كامنة تحت الرماد ، يعلوها الصدأ ، فما إن صدمتها الحملة الفرنسية حتى أخذت تبدو للعيان كما تُصقل المعادن وتُجلى جواهرها فى لهب النار ، ونهضت الامة فى وجه الاحتلال الاجنبى تحمل بين جنبيها قوة حيوية كبيرة ، ظهر الشعب المصرى فى الميدان قوياً فتياً لا يمل الجهاد ولا ينكص على الأعقاب ، ولما طويت صحيفة الغزوة الفرنسية ظل يناضل عن كيانه فى وجه العوامل المثبطة والقوات المتألبة عليه ، واذا تتبعت التقلبات التى أعقبت جلاء الفرنسيين رأيت العامل القومى ذا أثر فعال فى سير الحوادث وتطورها ، فهذا العامل الوليد الذى تمخضت عنه المقاومة المستمرة فى عهد الحملة الفرنسية أخذ ينمو ويترعرع ويشتد ساعده ، وأبى أن يعود الى نظام الحكم القديم أو يكون مطية لاهواء الدول الطامعة فى وادى النيل ، وجعل يتطلع الى نظام للحكم أرقى من النظم التى رزحت تحتها البلاد السنين الطوال

فى خلال تلك السنوات ، وفى غمار المنازعات والاطماع المختلفة ، اخذ الشعب ينظر بعين السخط والمقت الى عودة حكم المماليك وحكم الاتراك معاً ، أما حكم المماليك

فلم يكن قد نسى مظالمه القديمة ، وما جره على البلاد من الخراب ، وأما الحكم التركى فقد ظهر من سيئاته ومظالمه فى خلال السنوات التى أعقبت جلاء الفرنسيين ما جعل الشعب يكره أن يعود الى نيره القديم ، وكانت الجنود العثمانية التى ساقتها تركيا الى مصر خليطا من اردأ عناصر السلطنة العثمانية مجردة من النظام والرقى والتهذيب ، يقودها رؤساء جهلاء لم يألفوا من اساليب الحكم سوى الظلم والارتكاب ، ولم يكن لهم همٌّ سوى النهب والتخريب والاستهانة بأرواح الناس وارهاق الشعب بمختلف أنواع المظالم والمغارم كما ستراه مفصلا فيما يلى ، فلا جرم ان كره الشعب حكم المماليك والاتراك وأخذ يدأب ويعمل للتخلص من كلا الحكمين معا

قادة الشعب وزعماؤه

ظهر للشعب فى خلال تلك السنين زعماء معدودون كونتهم الحوادث وثقفتهم التجارب ، فكان لهم فضل كبير فى إظهار شخصية الامة وتوجيهها الى ما فيه خيرها وصالحها ، نالوا هذه الزعامة بما كان لهم من المقام المحمود بين الناس قبل الحملة الفرنسية وما اكسبهم اضطهاد الفرنسيين من المحبة والجلال وما اشتهروا به من نصرة المظلوم وحماية الضعفاء فى وجه القوة والظلم

وقد ساعد على زيادة نفوذهم بعد جلاء الفرنسيين ان التنازع بين المماليك والاتراك قد أضعف مركز الفريقين ، فاستطاع الشعب فى خلال هذا التنازع أن يكسب نفوذاً جديداً وسلطة جديدة ، وظهر لزعماء الشعب صوت مسموع فى حكومة البلاد وتطور الحوادث وعزل الولاة وتعيينهم ، فالنفوذ الجديد الذى اكتسبه الشعب وزعماؤه هو من أكبر مميزات سنوات الانتقال التى أعقبت الحملة الفرنسية .

فلنستعرض شخصية أولئك الزعماء الذين ملكوا قيادة الشعب فى دور من اهم ادوار حياته القومية ونخص بالذكر من كانوا اكثرهم عملا واكبرهم اثراً فى سير الحوادث وتطورها .

السيد عمر مكرم

هو أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر فى فجر النهضة القومية ، كان أكبر

قادة الشعب وزعماؤه
في فجر النهضة القومية

السيد محمد السادات

الشيخ عبد الله الشرقاوي

السيد
عمر مكرم
نقيب الأشراف

الشيخ
مصطفى الصاوي

الشيخ
محمد الأمير

الشيخ محمد المهدي

السيد
احمد المحروقي
كبير التجار

الشيخ سليمان القويسني

صور قادة الشعب وزعمائه في اواخر القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر، ومن لم نعثر على صورهم اكتفينا بكتابة اسمائهم داخل الاطار (تاريخ الحركة القومية الجزء ٢ ص ٢٤٨ وما بعدها)

زعماء الشعب نفساً ، وأكثرهم شجاعة واقداماً ، وأعظمهم نفوذاً ، وأرفعهم كلمة ، فلا غرو أن نعده زعيم الزعماء ورئيس الرؤساء

لا نعرف الشيء الكثير عن مولده ونشأته ، ذلك لأن الجبرتى لم يترجم له كما ترجم لمعظم معاصريه ، لأن عادة الجبرتى أن يذكر تراجم الوفيات من رجالات مصر ، وهو لم يدرك وفاة السيد عمر مكرم ، ولذلك حرمنا ترجمة وافية لهذا الرجل النبيل من قلم مؤرخ محقق كانت ميزته البحث والاستقصاء ، على أننا مع ذلك لم نحرم إسهاب الجبرتى فى سرد اعمال السيد عمر مكرم والأدوار الخطيرة التى قام بها على مسرح الحوادث السياسية .

والذى عرفناه من خلال تحقيقات الجبرتى أن السيد عمر مكرم أسيوطى المولد والنشأة ، ولد فى أسيوط ونشأ فيها ، ولذلك يسميه فى بعض المواطن السيد عمر الأسيوطى ، وقد تحققنا أنه من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه

كان نقيباً للأشراف فى مصر قبل مجىء الحملة الفرنسية ، فهو بحكم توليه النقابة فى مقدمة رجالات مصر منزلة وجاها ، فلما جاء الفرنسيون ظهرت شخصيته الكبيرة ونفسيته القوية بما دعا الشعب اليه من التطوع للقتال وما بثّه فى نفوس الجماهير من روح المقاومة ، يدلك على ذلك ما ذكره الجبرتى عن حالة القاهرة قبل واقعة الاهرام بأربعة أيام من النداء بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس استعداداً للمقاومة ، قال « وصعد السيد عمر افندى نقيب الاشراف الى القلعة فأنزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة البيرق النبوى فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق وأمامه ألوف من العامة » ، وهذا هو بعينه استنفار الشعب الى التطوع العام لصد هجمات الفاتح المغير والسير فى طليعة المتطوعين للقتال ، فتأمل فى حالة نقيب الأشراف النفسية وهو ينزل من القلعة ناشراً علم الجهاد يشق المدينة من شرقيها الى غربيها وحوله الالوف من الناس ذاهباً بهم الى بولاق تجاه امبابه حيث وقعت الواقعة ، ان هذه الحالة النفسية هى أرقى ما يتصف به زعماء الشعب فى ساعة الشدة وهى لا تقل نبلا عن الدعوة للتطوع العام التى بثّها زعماء الثورة الفرنسية فى نفوس الشعب الفرنسى حينما نادوا « ان الوطن فى

خطر » ، فالسيد عمر مكرم كان إذن فى طليعة المتطوعين للقتال المدافعين عن القاهرة فى وجه الاحتلال الفرنسى ، ولما وقعت الهزيمة فى معركة الاهرام لم يرض البقاء فى القاهرة بعد أن أصبحت تحت رحمة الغزاة ، ولم تلن قناته لهم على الرغم من أنهم اختاروه لعضوية الديوان الأول كما مر بيان ذلك بالجزء الاول (١) ، فرفض عضوية الديوان وهاجر الى سورية وأبى العودة الى القاهرة ، ولو هو عاد اليها لنال من احترام الفرنسيين وعطفهم ما يغرى النفوس ويكسر من حدتها ، ولكنه آثر الهجرة والنفى وشظف العيش إباء للضيم ونفوراً من الذل ، وترك فى مصر أملاكه وأمواله عرضة للنهب والمصادرة ، وظل فى منفاه بمدينة (يافا) الى ان احتلها الفرنسيون اثناء الحملة على سورية ، فقابله بها نابليون ، وكان يعرف منزلته من قبل ، فأمر بارجاعه الى مصر معززا مكرما ، فعاد اليها لكنه اعتزل الفرنسيين واعتكف فى بيته ولم يشأ ان يتصل بهم أو يتقرب اليهم ، ولو أنه أراد ذلك لاغدقوا عليه النعم وخصوه بأعظم المزايا ليجتذبوه الى صفوفهم ، وبقى فى عزلته إلى أن ابرمت معاهدة العريش ثم نقضت وتجددت الحرب بين الفرنسيين والعثمانيين وثارت القاهرة ثورتها الثانية ، فكان من زعمائها ، وذلك باتفاق الجبرتى والمراجع الفرنسية ، ولما أخمد الفرنسيون تلك الثورة هاجر من مصر ثانية ، واستهدف فى هذه المدة ايضا للنهب والمصادرة ، ثم عاد الى مصر بعد جلاء الفرنسيين فزادت منزلته القديمة فى نفوس الشعب وعادت اليه نقابة الاشراف التى نزعت منه اثناء هجرته الأولى ، واذا تأملت فى الحركات التى تتابعت فى البلاد بعد انتهاء الحملة الفرنسية تجد ان اسم السيد عمر مكرم يملأ الجو السياسى بما كان له من عظيم النفوذ والمكانة السامية والأثر البالغ فى تطور الحوادث ، وتتبين ان له اليد الطولى فى الثورة التي قامت ضد حكم المماليك سنة ١٨٠٤ ، وضد الوالى التركى سنة ١٨٠٥ ، وكان منظورا اليه من الشعب كرئيس تستجاب دعوته وتطاع كلمته وملجأ يأوى اليه المظلومون فيرفع عنهم شر المظالم ويقيهم طغيان الحكام

---

(١) ص ٩٧

فترجمته مقترنة بالحوادث الجسيمة التى وقعت فى البلاد بعد جلاء الفرنسيين الى ارتقاء محمد على عرش مصر ، وتجد هذه الترجمة فى تتبع الفصول الآتية ، ولقد أفردنا له فوق ذلك نبذة خاصة تحت عنوان (عمر مكرم روح الحركة) يتبين منها مبلغ ما كان له من الفضل فى ثورة الشعب على الوالى التركى

السيد محمد السادات

سليل بيت السادات العريق فى المجد وشرف المحتد ، تربى فى مهاد العز والنعمة ، وتلقى العلوم الشرعية واللغوية على شيوخ الازهر فوصل فى العلم والثقافة الى ماوصل اليه علماء ذلك العصر ، وجمع بين العلم وشرف النسب ، ذلك الى ما ورثه عن أسلافه من الثروة والجاه ، تولى خلافة آل السادات ومشيخة سجادتهم سنة ١١٨٢ هجرية على عهد على بك الكبير ، فعظمت مكانته وزادت منزلته لما اتصف به من الشمم والاباء والحزم مع الكرم وحسن المعاشرة والترفع عن الصغائر ، وحب المحاضرة فى العلم والادب ، وصفه الجبرتى من هذه الناحية وصفاً دقيقاً يعطيك صورة وافية عن نفسيته عند ماتولى خلافة أسلافه ، قال « وأحسن سلوكه بشهامة وحشمة ورئاسة وتؤدة وأدب مع الاشياخ والاقران ، وتحبب الى أرباب المظاهر والاكابر واستجلاب الخواطر وسلوكه الطرائق الحميدة والتباعد عن الامور المخلة بالمروءة ، والاخذ بالحزم والرفق مع الاشتغال فى بعض الاحيان بالمطالعة والمذاكرة فى المسائل الدينية والأدبية ومعاشرة الأدباء والفضلاء والمناقشة معهم فى النكات ، واقتناء الكتب من كل فن ، كل ذلك مع الجد والتحصيل للاسباب الدنيوية وما يتوصل به الى كثرة الايراد بحسن تدخل وجميل طريقة مبعدة عما يخل بالمقدار »

عاش السيد محمد السادات وافر الحرمة نافذ الكلمة عظيم المكانة بين الناس سواء قبل الحملة الفرنسية وفى خلالها و بعد انتهائها ، كان جريئا فى الحق لايهاب من بيدهم سلطة الحكم ، وبحسبك أن تتأمل فى موقفه حينما أوفدت الدولة العثمانية حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٨٦ الى مصر لمحاربة المماليك واستعادة سلطتها المطلقة لتحكم

على مبلغ ما اتصف به من الشهامة والمروءة ، فقد أسرف حسن باشا فى القسوة والجبروت واستباح أموال المماليك وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بانزالهم سوق المزاد و بيعهم زاعماً أنهم ارقاء لبيت المال ، فاجتمع الشيوخ والعلماء وذهبوا اليه معترضين ، وكان السيد محمد السادات هو المتكلم عنهم ، فاشتد فى مخاطبته وقال له أأنت أتيت الى هذا البلد وأرسلك السلطان لاقامة العدل ورفع الظلم كما تقول أم لبيع الاحرار وأمهات الأولاد وهتك الحرمات ؟ فقال له حسن باشا هؤلاء ارقاء لبيت المال ، فقال له هذا لا يجوز ولم يقل به أحد ، فحنق حسن باشا على السادات والمشايخ وتهددهم بأن يبلغ السلطان معارضتهم لاوامره ، فلم يعبأ السادات بتهديده وأصر على معارضته حتى أفحمه وحمله على العدول عن قصده .

كان السادات فى موقفه هذا معارضاً سياسة الدولة ، متحديا نائبها ، مؤيداً قوماً تعدهم الدولة من العصاة ، ووقف كذلك فى وجه حسن باشا عند ماصادر أموال الامراء المماليك ، فقد فر زعماؤهم من القاهرة الى الوجه القبلى حتى لا يبطش بهم حسن باشا وأودع كبيرهم ابراهيم بك عند السادات ودائعه الثمينة ، فعلم بذلك حسن باشا ، فأرسل يطلب الوديعة ، فرفض باباء أن يسلمها وقال فى ذلك

« ان صاحبها لم يمت ، وقد كتبت على نفسى وثيقة بذلك فلا اسلمها مادام صاحبها فى قيد الحياة » فحنق عليه حسن باشا وكاد يبطش به لولا ان خشى نفوذه ومنزلته بين قومه

وقف السادات هذا الموقف وهو أعزل لا سلاح معه الا سلاح الحق ، وقاوم إرادة وزير من وزراء الدولة جاء على رأس جيش ليعيد فى مصر سلطة الحكومة العثمانية ، ولا يقف الرجل مثل هذا الموقف وخاصة فى ذلك العصر الا اذا كان على حظ عظيم من الشجاعة وعلو النفس ، فلا غرو أن يقول الجبرتى فى هذا الصدد « فاشتد غيظ حسن باشا منه وقصد البطش به فحماه الله منه ببركة الانتصار للحق ، وكان الباشا يقول لم أر فى جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل »

ومما يذكر عنه فى مجابهة امراء المماليك انه لما جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ووصلت العاصمة أخبار احتلال الاسكندرية وجمع ابراهيم بك ومراد بك المشايخ للتشاور فى الامر كان السيد السادات ضمن المجتمعين ، فوبخ الامراء على سوء سياستهم وقال لهم « ان كل هذا من سوء فعالكم وظلمكم ، وآخر أمرنا معكم انكم ملكتمونا للافرنج » وخص مراد بك بالتوبيخ قائلا له « وخصوصاً بأفعالك وتعديك انت وأمراؤك على متاجرهم وأخذ بضائعهم »

فنقم عليه مراد بك هـذه اللهجة فى الخطاب ، وأسرها فى نفسه ، قال الجبرتى فى هذا الصدد ان مراد بك بعد أن اصطلح مع الفرنسيين اغراهم بالسيد السادات فكان هذا الاغراء من أسباب اضطهادهم اياه ، وقد ذكر عنه المسيو فلكس مانجان (١) انه لم يكن بحب المماليك وكان المماليك من جهتهم لا يحبونه ويحقدون عليه لمكانته من الشعب .

وقد رفض عضوية الديوان فى عهد الحملة الفرنسية وظل محفوظ الكرامة مقبول الشفاعة ، ولم تلن قناته للفرنسيين ولاهم كانوا يثقون به ، وحدثت بينه وبينهم مشادة فى بعض المواطن ، فقد تقدم القول بأنهم اتهموه بزعامة ثورة القاهرة الاولى ، وقامت عليه البينات بذلك ، ولـكن نابليون رأى أن محاكمته تجعله شهيداً فى نظر الشعب وأن الضرر من قتله أكثر من نفعه (٢) فأبقى عليه ، وحدث أنه لما أمر نابليون بعزل ملا زاده ابن القاضى التركى واعتقله كان الشيخ السادات اكثر العلماء اعتراضاً على حبسه ، وعلم نابليون بموقفه فى هذا الصدد ، فنقم ذلك منه فاستدعاه ولامه على مسلـكه ، فتدخل بينهما الشيخ محمد المهدى (الذى كان موضع ثقة نابليون) والقوميسير الفرنسى للديوان فانتهت المسألة بسلام ، قال الجبرتى فى هذا الصدد « فتكلم بينهما الشيخ محمد المهدى ووكيل الديوان الفرنساوى حتى سكن غيظه وأمره بالانصراف الى

---

(١) فى كتابه تاريخ مصر تحت حكم محمد على

(٢) انظر الجزء الاول ص ٣٠٤

منزله بعد أن عوّقه (١) حصة من الليل »

ويقول عنه المسيو فيلكس مانجان انه كان من زعماء ثورة القاهرة الثانية ووصفه بأنه رجل يميل الى الهياج والشغب

وقد ناله من اضطهاد الفرنسيين فى عهد كليبر ومنو ما تقدم بيانه فى الفصل التاسع والفصل الثانى عشر (٢) ، فلما جلا الفرنسيون عن البلاد علت منزلته فى نظر الشعب واشترك فى الحركات الشعبية التى قامت فى مصر على النحو الذى بسطناه فى هذا الجزء وفى الفصول الثلاثة الأولى من الجزء الثالث ، ومع أن السيد عمر مكرم والسادات كانا فى مقدمة رؤساء الشعب منزلة ونفوذا فقد وقعت بينهما المجافاة فى عهد محمد على باشا ، وانضم السادات الى محمد على فى الوقيعة بالسيد عمر مكرم ، وتولى نقابة الأشراف بدله كما تراه مفصلا فى موضعه بالفصل الثالث من الجزء الثالث ، وتوفى السادات سنة ١٢٢٨ هجرية

الشيخ عبد الله الشرقاوى

هو الشيخ عبد الله بن حجازى بن ابراهيم ، ولد كما يقول الجبرتى فى حدود سنة ١١٥٠ هجرية فى قرية (الطويلة) باقليم الشرقية ، ولذلك سمى الشرقاوى ، وحفظ القرآن فى قرية (القرين) القريبة من الطويلة ثم أرسله أبوه الى الازهر ليتلقى العلم على شيوخ ذلك العصر ، وكان شأنه شأن طلبة العلم الذين يفدون على الازهر ويتلقون علومه ثم ينتظمون فى سلك العلماء ، وتميز بالجد والمثابرة فى التحصيل ، وكان شافعى المذهب وله مؤلفات فى العلوم الفقهية والتصوف ، وكان فى بداءة عهده « فى قلة من خشونة العيش وضيق المعيشة » كما يقول الجبرتى ، فكان بعض معارفه يواسونه ويمدونه بالعون الى أن اشتهر ذكره بين الناس ، فواصله بعض السراة والتجار بالهدايا والصلات « فراج حاله وتجمل بالملابس وكبر تاجه » وبعد وفاة الشيخ احمد العروسى سنة ١٢٠٨ هـ تولى مشيخة الازهر ، فعظمت منزلته واكسبته المشيخة نفوذا كبيرا ومكانة عظمى فى

---

(١) أى حجزه (٢) ص ١٨٧ و ص ٢٤١

مصر لان شيخ الازهر هو بمثابة كبير علماء المصر ، وكان امراء المماليك يحترمونه ويراعون نفوذه الادبى والدينى ، وله فى مقاومة مظالمهم مواقف تدل على مبلغ ما له من النفوذ والجاه

ذكر الجبرتى ما خلاصته انه فى سنة ١٢٠٩ هجرية أى قبل مجىء الحملة الفرنسية بعدة سنوات حضر اليه أهل قرية بالشرقية له فيها حصة وذكروا له أن أتباع محمد بك الالفى ظلموهم وطلبوا منهم مالا قدرة لهم عليه ، فغضب الشرقاوى ، وخاطب مراد بك وابراهيم بك فى رفع هذا الظلم ، فلم يكترثا للامر ، فحضر الى الازهر وجمع المشايخ وأقفلوا أبواب الجامع « وأمر المشايخ الناس بغلق الاسواق والحوانيت ، ثم ركبوا ثانى يوم الى بيت السادات وتبعهم كثير من العامة ، وازدحموا أمام الباب والبركة بحيث يراهم ابراهيم بك ، فارسل اليهم أيوب بك الدفتردار (مدير الشؤون المالية) فوقف بين أيديهم وسألهم عن مرادهم ، فقالوا نريد العدل و إبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها ، فقال لا يمكن اجابة هذا كله ، فانا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش ، فقالوا له ليس هذا بعذر عند الله ، وما الباعث على الاكثار من النفقات والمماليك ، والامير يكون أميرا بالاعطاء لا بالاخذ ، فقال حتى أبلغ ، وانصرف ، وانفض المجلس ، وركب المشايخ الى الازهر واجتمع أهل الاطراف وباتوا به » ، هذا ما ذكره الجبرتى ومعناه ان الشيخ الشرقاوى حرض الناس على الهياج والمقاومة ولبى الناس دعوته من أطراف القاهرة وجاءوا الى الازهر و باتوا به متحفزين للهياج ، والظاهر أن مراد بك خشى مغبة هذه الحركة لان اقفال الحوانيت والاسواق ، وغلق أبواب الجامع الازهر ، واحتشاد الجماهير أمام بيت ابراهيم بك ، كل ذلك من علامات الهياج ، قال الجبرتى « فبعث مراد بك يقول اجيبكم الى ما ذكرتموه الا شيئين ديوان (جمرك) بولاق ، وطلبكم المتأخر من الجامكية (الرواتب) ثم طلب أربعة مشايخ عينهم باسمائهم ، فذهبوا اليه بقصره بالجيزة ، فلاطفهم والتمس منهم السعى فى الصلح ، وفى اليوم الثالث اجتمع الامراء والمشايخ

في بيت ابراهيم بك وفيهم الشيخ الشرقاوى ، وانعقد الصلح على رفع المظالم ماعدا ديوان بولاق ، وأن يكفوا اتباعهم عن مد أيديهم الى أموال الناس ويسيروا فيهم سيرة حسنة ، وكتب القاضى حجة بذلك وفرمن عليها (أى وقع عليها) الباشا والامراء وانجلت الفتنة وفرح الناس وسكن الحال »

فهذه الواقعة التى رواها الجبرتى تدلك على مبلغ نفوذ الشرقاوى ومكانته فى عهد المماليك .

ولما جاء الفرنسيون تولى فى عهدهم رآسة الديوان الذى أنشئوه ، وأسندت اليه رآسته فى أدواره الثلاثة التى تعاقبت عليه ، فكان رئيسا للديوان الذى تأسس فى أول عهد الحملة ، ثم للديوان العام ، ثم للديوان العمومى والديوان الخصوصى اللذين أنشأهما نابليون فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، ثم للديوان الذى تأسس فى عهد الجنرال منو ، وجمع بين رآسة الديوان ومشيخة الازهر ، فعظم جاهه وازداد نفوذه

وكان له مع الفرنسيين شأن طويل ، فقد غضبوا عليه ثلاث مرات ، الاولى فى عهد نابليون حينما رفض أن يرتدى طيلسان الجمهورية المثلث الالوان ورمى به الى الارض ، فغضب عليه نابليون وقال انه لا يصلح لرآسة الديوان (١)

والثانية فى عهد الجنرال (منو) ، فقد ارتاب الفرنسيون فى موقفه بعد مقتل الجنرال (كليبر) لان قاتل كليبر كان يبيت فى الازهر ويقيم به فأحضر الفرنسيون الشيخ الشرقاوى على اعتباره شيخ الجامع الازهر والشيخ احمد العريشى قاضى مصر وحجزوهما الى منتصف الليل ، وألزموهما البحث عن الازهريين الاربعة الذين ذكرهم سليمان الحلبى فى اعترافه واحضارهم ، وكان من نتائج هذه الحادثة وما أعقبها من تفتيش الازهر أن العلماء وعلى رأسهم الشرقاوى أقفلوا أبواب المسجد وظل مقفلا الى ان شرع الفرنسيون فى الجلاء عن مصر

---

(١) انظر الجزء الاول ص ٢٧٤

والمرة الثالثة في عهد (منو) أيضا حيث اعتقل فى القلعة كما فصلنا ذلك فى الفصل الثانى عشر (١)

و يعد الشرقاوى اعتقاله تشريفا له ، فقد ذكره بشيء من الفخر والزهو فى كتابه (تحفة الناظرين) حيث قال متحدثا عن نفسه « وقد حبسونا فى القلعة مع اخواننا العلماء خوفا من قيام أهل البلد عليهم كما وقع منهم سابقا، فمكثنا فى القلعة مائة يوم من تسعة ذى القعدة الى أواخر صفر سنة ١٢١٦، وسبب خروجنا من الحبس وقوع الصلح بين المسلمين و بين الفرنسيس على أن يخرجوا من البلد و يسافروا الى رشيد وأبى قير »

وفيما عدا هذه المرات الثلاث كان الشرقاوى يجامل الفرنسيين و يداريهم ، و يتبع حيالهم خطة المسالمة والمحاسنة ، ولعله شعر بما احتمل من تبعة أدبية جسيمة بانتهاج هذه الخطة، فحاول فى كتابه (تحفة الناظرين) أن يدافع عن نفسه وعمن سلك مسلكه على عهد الحملة الفرنسية ، قال

« والسبب الذى أوجب أهل مصر وقراها بعض الانقياد اليهم (الى الفرنسيين) عجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال، وأنهم عند قدومهم كتبوا كتبا فرقوها فى البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لانهم يقولون ان الله واحد، وأنهم يعظمون محمدا و يحترمون القرآن ، وأنهم يحبون العثمانلى (كذا) ولم يأتوا الا لطرد المماليك الظلمة لانهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ولا يتعرضون للرعايا فى شيء »

هذه هى الروح التى أملت على الشرقاوى خطته فى محاسنة المحتلين ومجاملتهم ، وقد كان يجمل بكبير علماء مصر ألا ينهج هذه الخطة ، وكان مطلوبا منه على الاقل أن يتبع خطة السيد عمر مكرم أو السيد محمد السادات، ومهما دافع عن نفسه وعن خطته فدفاعه لا يثبت أمام البحث والتحقيق ، لانه ليس صحيحا أن الفرنسيين انما جاءوا لطرد المماليك الظلمة وأنهم لا يتعرضون للرعايا فى شيء ، فانهم جاءوا للفتح والغزو

---

(١) ص ٢٤٢

وإخضاع مصر والمصريين لحكمهم ، والشيخ الشرقاوى نفسه يعترف فى كتابه أن الفرنسيين أخلفوا عهدهم الذى أعلنوه فى كتبهم ومنشوراتهم ، فقد قال فى هذا الصدد « ولكن لما دخلوا مصر لم يقتصروا على نهب أموال المماليك بل نهبوا الرعايا وقتلوا جملة من الناس لما قامت عليهم أهل مصر بسبب طلبهم تفريد غرامة (فرض ضريبة) على البيوت وقتل منهم ما يقرب من الألف وهتكوا بعض الاعراض فى مصر وقراها فان كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وأخذوا نساءها وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالما »

مع اعتراف الشرقاوى بهذه الحقائق لا يقبل منه عذر فيما اختطه لنفسه حيال الفرنسيين من المداراة والمجاملة ، ولو أنه لم ينتفع فى ذات نفسه من هذه السياسة لكان محتملا أن يكون اتباعه إياها نتيجة اعتقاد منه بصلاحها للبلاد ، ولكن انتفاعه من ورائها مما يدعو الى الشك فى أن خطته كانت عن عقيدة سليمة بريئة من الشوائب ، فالجبرتى وهو مؤرخ نزيه صادق يقول فى ترجمته ان الدنيا قد اتسعت عليه فى عهد الفرنسيس وزاد طمعه فيها ، ويقول انه انتفع فى أيامهم بما كان يؤدى له من راتب رآسة الديوان وما كان يحصل عليه من « قضايا وشفعات لبعض الاجناد المصرية ، وجعالات على ذلك ، واستيلاء على تركات وودائع خرج أربابها فى حادثة الفرنساوية وهلكوا ، واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها واشترى داراً واسعة بظاهر الازهر فى مساكن الامراء الأقدمين »

وقد ظل الشرقاوى مرعياً مشارا اليه بالبنان لمكانته العلمية ولما كانت تسبغه عليه مشيخة الازهر من الاحترام والرآسة ، واشترك بعد جلاء الفرنسيين فى الحوادث التى أدت الى مبايعة محمد على الكبير واقترن اسمه بهذا الحادث العظيم فى حياة مصر القومية ، ويكفيك أنه ثانى اثنين البسا (محمد على) خلعة الحكم والولاية كما تراه مفصلا فيما يلى ، وكانت وفاته سنة ١٢٢٧ هجرية

الشيخ محمد الأمير

من كبار العلماء المشار اليهم بالبنان ، ولد فى (سنبو) [١] سنة ١١٥٤ هجرية وحفظ القرآن وطلب العلم على شيوخ عصره ،وتلقى علوم الهيئة والهندسة على الشيخ حسن الجبرتى والد المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتى ، فجمع بين العلوم الشرعية والرياضية ، وذلك الى تضلعه فى علوم الأدب واللغة ، واشتهر بمؤلفاته العديدة فى مختلف العلوم ، فلا غرو ان وصفه الجبرتى بالعالم العلامة ، الفاضل الفهامة ، صاحب التحقيقات الرائقة ، والتأليفات الفائقة ، شيخ شيوخ أهل العلم ، وصدر صدور أهل الفهم ، المتفنن فى العلوم كلها ، نقليها وعقليها وادبيها ، اليه انتهت الرياسة فى العلوم بالديار المصرية [٢]

اشتهر ذكره فى مصر وفى مختلف انحاء الشرق ، فكانت تأتيه الصلات من سلطان المغرب الاقصى ومن مختلف نواحيه كل عام ، وبلغت شهرته الاستانة وذهب اليها وألقى بها دروساً حضرها علماء الاستانة وشهدوا له بالفضل والعلم

وقد انتخب عضوا بالديوان فى عهد نابليون ثم فى عهد منو ، واعتقله الفرنسيون بالقلعة فى شهر مايو سنة ١٨٠١ كما اسلفنا ذلك فى الفصل الثانى عشر

واشتهر بجرأته وشجاعته ، وكان فصيحاً متكلما لاتأخذه فى الحق لومة لائم ، يغلظ القول للبكوات المماليك والولاة الاتراك ، ذكر الجبرتى فى ترجمته ما كان من خورشد باشا الوالى واعتقاله السيدة نفيسة المرادية وغيرها من نساء المماليك بعد انتهاء الحملة الفرنسية ، فقال ماخلاصته انه لما شاع الخبر تغيرت خواطر الناس وركب القاضى ونقيب الاشراف (السيد عمر مكرم) والشيخ السادات والشيخ الامير وذهبوا الى الباشا وتحدثوا إليه فى شأنها ،فنهمها بانها ارسلت الى بعض كبار رؤساء الجند تستميلهم الى المماليك العصاة وأنها وعدتهم بدفع رواتبهم، وقال انها مادامت تستطيع أن تدفع

---

(١) بمركز ديروط بمديرية أسيوط

(٢) الجبرتى الجزء الرابع

للجند رواتبهم فينبغى أن تدفعها لخزانة الحكومة ، واتضح أن غرضه ارهاق السيدة نفيسة وابتزاز المال منها قهرا ، فقال الشيوخ ان الامر يحتاج الى تحقيق ، وقام الشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى وخاطبا الست نفيسة فى ذلك فأنكرت ما نسب اليها ، وقالت : « اذا كان قصده مصادرة أموالى فلم يبق عندى شىء » فاعترض الشيوخ على خورشد باشا وحدث أخذ ورد بينهم وقال الشيخ الامير غاضبا ان هذا أمر غير مناسب ويترتب عليه مفاسد ويقع اللوم علينا فاذا كان الأمر كذلك فلا علاقة لنا بشىء من هذا الوقت أو نخرج من هذا البلد ، ومعنى ذلك أن الشيخ الأمير يهدد الوالى بمقاطعة الشيوخ له ، وهذا أمر له عواقبه ، فتوسط بعض أعوان خورشد باشا فى الخلاف وتحدثوا اليه فى اطلاق سراح الست نفيسة المرادية والسماح لها بان تقيم فى بيت السادات ، فرضى الوالى بذلك وانزلوها من القلعة الى بيت السادات

فهذه الحادثة تدلك على مكانة الشيخ محمد الأمير وما كان له من الهيبة والجرأة فى مقاومة مظالم الحكام

وكانت وفاته سنة ١٢٣٢ هـ

الشيخ سليمان الفيومى

ولد بالفيوم وحضر الى مصر وحفظ القرآن وتلقى العلوم بالازهر ، ومع قلة بضاعته فى العلم كما يقول الجبرتى فقد نال مكانة كبيرة بين الناس بما اشتهر عنه من الكرم والجود وحسن المعاشرة والبشاشة والتواضع والمواساة للكبير والصغير ، فكان الناس يلجئون اليه لرفع المظالم وقضاء الحاجات فلا يبخل على أحد بجاهه وسعيه

قال الجبرتى فى هذا الصدد « انه اتفق له مرارا أن يركب من الصباح فى حوائج الناس فلا يعود الا بعد العشاء الاخيرة فيلاقيه آخر ذو حاجة فى نصف الطريق أو آخره ، فينهى اليه قصته اما بشفاعة عند أمير أو خلاص مسجون أو غير ذلك ، فيقف وهو راكب ، فيقول له فى غد نذهب اليه فان الوقت صار ليلاً ، فيقول صاحب الحاجة انه فى داره فى هذا الوقت فيعود من طريقه مع صاحب الحاجة الى ذلك

الأمير ولو بعدت داره ويقضى حاجته ويعود بعد حصة من الليل ، وهكذا كان شأنه ولا ينتظر ولا يؤمل جعالة ولا أجرة نظير سعيه »

فالرجل اذن كان مثال الشهامة والمروءة ، فلا غرو ان نال احترام الناس ومحبتهم، قال الجبرتى « فمالت اليه القلوب ووفد اليه ذوو الحاجات من كل ناحية فلا يرد أحداً ويستقبلهم بالبشاشة وينزلهم فى داره ويطعمهم ويكرمهم ويستمرون فى ضيافته حتى يقضى حوائجهم ويزودهم ويرجعون الى أوطانهم مسرورين ومجبورين شاكرين »

ونال احترام الامراء المماليك ونسائهم بما اشتهر عنه من مكارم الاخلاق والتعفف والتورع ، فكان يدخل بيوتهم ويتلقاه نساء الامراء فى مجالسهن ويجلس معهن ويسرهن محادثته ويقلن — على رواية الجبرتى « زارنا أبونا الشيخ ، وشاورنا أبانا الشيخ ، فأشار علينا بكذا ونحو ذلك »

وله مواقف مشهورة تدل على الشهامة والمروءة ، فمن ذلك ماذكره الجبرتى أنه لما جاء حسن باشا الجزائرلى الى مصر سنة ١٧٨٦ لاعادة الحكم التركى ومحاربة المماليك ارتحل هؤلاء الى الصعيد وأحاط حسن باشا بدورهم وطلب الاموال من نسائهم واعتقل أولادهم وجواريهم وأزواجهم وأنزلهم الى سوق المزاد فالتجأ الى المترجم الكثير من نساء الامراء فآواهن وأجهد نفسه فى السعى لحمايتهن ومواساتهن مدة إقامة حسن باشا بمصر

ولما جاء الفرنسيون الى مصر وطردوا المماليك خرج نساؤهم من بيوتهم وذهبن اليه أفواجاً لاجئات اليه ، فامتلأت بهن داره وما حولها من الدور ، فحماهن وتصدى للدفاع عنهن أمام الفرنسيين .

وكان مرعىً المكانة مقبول الشفاعة فى عهد الحملة الفرنسية ، وانتخب عضواً بالديوان فى عهد نابليون ثم فى عهد الجنرال (منو) ، وهو من أعضائه النابهين وكان له ضلع فى ثورة أمير الحج كما أومأنا الى ذلك بالفصل الثالث (١) فقد أخذ

---

(١) ص ٥٠

يطوف البلاد مع مصطفى بك أمير الحج لاثارة الفلاحين، وكتب عنه الجنرال (دوجا) فى رسالة الى نابليون أن طوافه مع أمير الحج كان من أسباب استفحال الثورة لما له من المكانة بين الناس، وقد رجع الى القاهرة بعد اخماد ثورة أمير الحج ووضع تحت المراقبة.

وفى عهد الجنرال منو وضع الفرنسيون نظاماً جديداً لتعيين مشايخ البلاد (العمد)، فأوجبوا أن يكون تعيين كل شيخ بلد بأمر من القائد العام وجعلوا لهيئة مشايخ البلاد مفتشين وجعلوا لها رئيسين أحدهما فرنسى وهو المسيو بريزون Brizon والآخر مصرى وهو الشيخ سليمان الفيومى، فصار كما يقول الجبرتى «شيخا للمشايخ»، فازدحمت داره بمشايخ البلدان يأتون اليه أفواجا ويذهبون أفواجاً

وفى آخر عهد الحملة الفرنسية اعتقل فى القلعة حين وردت أنباء الحملة الانجليزية العثمانية، ولم يلبث قليلا حتى أفرجوا عنه

وجاء العثمانيون والمترجم فى عداد العلماء والرؤساء والمتصدرين « وافر الحرمة، شهير الذكر، بعيد الصيت، مرعى الجانب، مقبول القول عند الأكابر والاصاغر »

وقد لازمته سجيته التى اشتهر بها فى إيواء المنكوبين ومواساتهم، فلما وقعت الفتنة التى أدت الى مقتل طاهر باشا مما سنفصله فى موضعه وقتل خليل افندى الرجائى الدفتردار التجأ اليه أخو الدفتردار وحاشيته فآواهم فى داره وأقاموا عنده وحماهم وواساهم حتى سافروا الى بلادهم، ومات سنة ١٢٢٤ هجرية

الشيخ مصطفى الصاوى

من كبار العلماء والفصحاء المشار اليهم بالبنان، وسمى الصاوى نسبة الى بلدة أبيه (الصوة) من أعمال الشرقية، وقد انتقل منها أبوه الى السويس وولد بها المترجم فارتحل الى مصر، وكان والده من أعيان التجار فألحق ابنه بالازهر فحفظ القرآن واشتغل بالقراءة وحضر الدروس على شيوخ ذلك العصر، وتضلع من العلوم وضرب بسهم فى الادب والبلاغة، فكان كاتباً بليغاً وشاعراً أديباً وقد أورد الجبرتى شيئا من نظمه ونثره، وكان علماء الازهر يعترفون له بالتفوق فى الكتابة والفصاحة.

ويدلك على منزلته من العلم أنه كان مرشحاً لمشيخة الجامع الازهر بعد وفاة الشيخ العروسى ، وزاحم فيها الشيخ الشرقاوى فهو إذن قرين الشرقاوى ونده فى العلم والمكانة ، ولكن مشيخة الجامع استقرت للشرقاوى ، وكان الشيخ الصاوى يتولى من قبل وظيفة التدريس فى المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الامام الشافعى ، وهى من وظائف مشيخة الازهر ، فلما تولى الشرقاوى المشيخة بقيت وظيفة التدريس فى يد الشيخ الصاوى ، وتلك ميزة تدل على ماله من المكانة العلمية

ولما جاء الفرنسيون ووقعت هزيمة امبابه كان الشيخ مصطفى الصاوى هو والشيخ سليمان الفيومى على رأس الوفد الذى ذهب بالنيابة عن سكان القاهرة لمقابلة نابليون(١)، وانتخب عضواً بالديوان وظل عضواً به فى عهد نابليون وفى عهد الجنرال منو ، واضطهده الفرنسيون بعد اخماد ثورة القاهرة الثانية فخصوه بجزء من الغرامة التى فرضوها على سكان القاهرة ، واعتقلوه حتى سدد مافرض عليه ، وكان نصيبه فى الغرامة خمسين الف ريال

واعتقلوه للمرة الثانية فى مارس سنة ١٨٠١ بعد وصول الحملة الانجليزية العثمانية ثم أفرجوا عنه لمرضه

وكانت وفاته فى شهر ذى القعدة سنة ١٢١٦ ، ولم يدرك ثورة الشعب على حكم المماليك وعلى الوالى التركى

الشيخ محمد المهدى

عالم من كبار العلماء ، اشتهر بسعة العلم وحدة الذكاء وقوة العارضة ، وضرب بسهم فى الأدب والانشاء ، تردد اسمه كثيراً فى مذكرات نابليون وقواد جيشه وفى معظم المراجع الفرنسية

لعب دوراً كبيراً على مسرح الحوادث السياسية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر

---

(١) انظر الجزء الاول ص ٩٢

ترجمه الجبرتى فى وفيات سنة ١٢٣٠ هجرية فوصفه بالاستاذ الفريد واللوذعى المجيد ، الامام العلامة ، والنحرير الفهامة ، الفقيه النحوى الاصولى الجدلى المنطقى الشيخ محمد المهدى الحفنى ، ولد فى (ناهية) من اعمال الجيزة ، وسبب تسميته بالحفنى أن والده كان قبطيا وأسلم المترجم وهو دون البلوغ على يد الشيخ الحفنى من شيوخ ذلك العصر وفارق أهله وحضنه الشيخ الحفنى ورباه وأحبه واستمر بمنزله مع أولاده واعتنى بشأنه ، فقرأ القرآن ولما ترعرع اشتغل بطلب العلم واجتهد فى التحصيل ليلا ونهارا فظهرت عليه مخايل النباهة والجد ، وانتقل من التحصيل الى التدريس فى الازهر سنة ١١٩٠ هـ فاشتهر بسعة العلم وحسن الالقاء مع الفصاحة والبيان وسلامة التعبير وتحقيق المشكلات ، فادرك مكانة سامية بين أقرانه ، وساعده الحظ بانضمامه الى الامير اسماعيل بك الذى كان ينافس مراد بك وابراهيم بك فى امارة مصر أواخر القرن الثامن عشر ، فلما فاز اسماعيل بك على خصميه بمعاونة حسن باشا الجزائرلى (١) نال الشيخ محمد المهدى حظوة كبيرة لديه وأغدق عليه الخلع والعطايا وأسند له وظائف بالضربخانة (دار الضرب) وغيرها ، وقد وقع فى عهد اسماعيل بك ذلك الطاعون الجارف الذى أفنى كثيراً من امراء مصر وحكامها ومات به عشرات الآلاف من الناس ، فاختص الشيخ المهدى بما أحبه — كما يقول الجبرتى « مما انحل عن الموتى من إقطاعات ورزق (جمع رزقه) وغيرها وزادت ثروته ورغبته وسعيه فى أسباب تحصيل الدنيا وعانى الشركات والمتاجر فى كثير من الاشياء مثل السكتان والقطن والارز وغير ذلك من الاصناف والتزم (٢) بعدة حصص بالبحيرة مثل شابور وخلافها

---

(١) انظر الجزء الاول ص ٢٢

(٢) اى صار (ملتزما) طبقا لنظام الالتزام الذى كان معروفا فى ذلك العصر وقد شرحناه بالجزء الاول ص ٢٩

و بالمنوفية والجيزة والغربية وابتنى داراً عظيمة بالازبكية بناحية الرويعى »(١)

هذا ما ذكره الجبرتى عن حياة المترجم ومكانته الى أن جاءت الحملة الفرنسية، وهنا يبدأ عهد جديد للمهدى نستخلصه من المراجع الفرنسية ومما ذكره الجبرتى، فالشيخ المهدى قد نال من ثناء نابليون ومديحه ما جعله فى نظره وفى نظر قواد الحملة الفرنسية فى طليعة العلماء، فقال عنه فى مذكراته « إنه أذكى علماء الازهر وأفصحهم لساناً واكثرهم علماً وأصغرهم سناً » ، وكان يخصه بالثقة فى كثير من المواطن ، فقد كان سكرتيراً لاول ديوان انشأه نابليون ، وأدرك من السلطة والنفوذ ما لم يتوافر لاحد من اعضاء الديوان ولا لرئيسه ، وكان نابليون يعهد اليه بصياغة منشوراته فى القالب العربى المسجع ، ولما زحف على سورية واحتل قلعة العريش وعزم على ان يبلغ نبأ هذا الانتصار الى المصريين أنفذ الى الجنرال (دوجا) نائبه فى القاهرة كتيبة من الجنود تحمل الاعلام التى استولى عليها من العثمانيين وعهد اليه أن يرفعها على منارات الازهر ، وكتب اليه فى هذا الصدد يقول « أريد أن تقابلوا الشيخ المهدى واعضاء الديوان وتتفقوا معهم على اقامة احتفال صغير لمقابلة الاعلام المرسلة لكم(٢) »

فاختصاص نابليون الشيخ المهدى بالذكر دليل على ما كان يشعر نحوه من الاحترام والثقة .

وكان الجنرال دوجا الذى استخلفه نابليون فى القاهرة اثناء الحملة على سورية يركن الى المهدى ويشاوره فى كثير من الامور

ولما غضب نابليون على السادات لاعتراضه على اعتقال ملا زاده ابن القاضى التركى كان الشيخ المهدى هو الداخل فى الصلح بينهما ، فهذه الوقائع تدلك على ما كان للمهدى من المكانة عند أقطاب الحملة الفرنسية

ولعل سبب هذه المكانة أنه كان يداريهم ويجاملهم ، فهو من هذه الناحية قد

---

(١) الجبرتى الجزء الرابع

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٨٧

فاق الشيخ الشرقاوى فى موادّة الفرنسيين ، وناله من وراء هـذه السياسة من المنافع والمزايا أكثر مما نال الشيخ الشرقاوى ، قال الجبرتى فى هـذا الصدد « ولما حضر الفرنساوية الى الديار المصرية وخافهم الناس وخرج الكثير من الاعيان وغيرهم هاربين من مصر تأخر المترجم عن الخروج ولم ينقبض كغيره عن المداخلة فيهم ، بل اجتمع بهم ، وواصلهم ، وانضم اليهم ، وسايرهم ، ولاطفهم فى أغراضهم ، وأحبوه واكرموه ، وقبلوا شفاعته ، ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار اليه فى دولتهم مدة اقامتهم بمصر ، والواسطة العظمى بينهم وبين الناس فى قضاء حوائجهم ، وأوراقه وأوامره نافذة عند ولاة أعمالهم حتى لقب عندهم وعند الناس بكاتم السر »

ولا نعتقد أن الجبرتى فيما قاله عن الشيخ المهدى متحامل أو صادر عن هوى ، لأن ميزة الجبرتى فى تاريخه أنه يتحرى الصدق ولا يميل عن الحق ، وهو فى تاريخه لم يفته أن يثنى على المهدى فيما يستحق الثناء ، اعتبر ذلك فيما ذكره عن اضطراب الاحوال فى القاهرة أثناء غيبة نابليون فى معركة أبو قير البرية ، وما كان للمهدى من موقف محمود ، فقد راجت الاشاعات بأن سكان القاهرة عاملون على إثارة الفتنة ، فاستدعى الجنرال دوجا الشيخ المهدى وكلمه فى هذا الصدد ، فخاجّه المهدى ، ونفى التهمة عن المصريين ، وانعقد الديوان فى اليوم التالى وكذب المهدى أقوال الوشاة ودافع عن سكان العاصمة ، وأثنى الجبرتى على المهدى فى موقفه هذا وقال ان هذا المقام من مقاماته المحمودة ، فالجبرتى اذن يذكر ما للمهدى وما عليه ، بل أغلب الظن أنه كان يميل اليه بعض الميل ، فانه لما ذكر منشور نابليون الذى أذاعه على لسان الديوان عقب عودته من سورية قال « انه من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء » والاشارة هنا الى الشيخ المهدى ، لانه باتفاق المراجع الفرنسية هو الكاتب للمنشور ، فعدم افصاح الجبرتى عن اسمه والاكتفاء بالاشارة الى أنه من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء دليل على ما يختلج فى قلبه من الميل اليه

وليس من شك فى أن المهدى كان أكثر العلماء نفوذاً لدى الفرنسيين ، وهذا باتفاق الجبرتى والمراجع الفرنسية ، وذلك أنه لما أنشىء الديوان الاول كان سكرتيراً

له ، وهو وان لم يكن من اعضائه إلا أن نفوذه كان أكبر من نفوذ الاعضاء جميعاً ، ولما أعيد تنظيم الديوان فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ كان من ضمن أعضاء الديوانين العمومى والخصوصى ، وانتخب فى هذه المرة أيضاً سكرتيراً للديوان، فجمع بين العضوية والسكرتارية ، وكذلك كان عضواً فى الديوان الذى أنشىء فى عهد الجنرال منو وسكرتيراً له ، فاستقراره فى سكرتارية الديوان فى أدواره المتعاقبة دليل على ما ناله من ثقة الفرنسيين واحترامهم ، وقد كان فى خلال تلك الادوار يزداد انتفاعاً من مكانته لديهم ، قال الجبرتى « ولما رتبوا الديوان الذى رتبوه كان هو المشار اليه فيه ، وخدمة الديوان الموظفون فيه تحت أوامره ، واذا ركب أو مشى يمشون حوله وأمامه ، و بأيديهم العصى يوسعون له الطريق ، وراج أمره فى أيامهم جداً وزاد ايراده وجمعه ، واحتوى بلاداً وجهات وارزاقاً ، وأقاموه وكيلا عنهم فى أشياء كثيرة ، و بلاد وقرى يجبى اليهم خراجها »

ولما ثارت القاهرة ثورتها الثانية وأخمدها الفرنسيون واستعادوا سلطتهم وضربوا عليها الغرامات الفادحة وخصوا بعض كبار العلماء والاعيان بنصيب جسيم من الغرامة استثنوا منها الشيخ المهدى والشيخ خليل البكرى ، أما البكرى فلما تقيه من اهانة العامة واعتدائهم عليه خلال الثورة ، وأما المهدى فقد قال عنه الجبرتى فى هذا الصدد «انه كان يستعمل المداهنة و ينافق الطرفين بصناعته وعادته »

وقد ذكر الجبرتى أن انهماكه فى الاطماع الدنيوية قد صرفه عن التفرغ لما يجب على العلماء ، قال فى هذا الصدد « انه كان من فحول العلماء ، يدرس الكتب الصعاب فى المعقول والمنقول بالتحقيق والتدقيق و يقررها بالحاصل ، وانتفع عليه الكثير من الطلبة ، ومنهم الآن مدرسون مشتهرون ومميزون بين نظرائهم من أهل العصر ، ولو استمر على طريقة أهل العلم السابقين و بعض اللاحقين ولم يشتغل بالانهماك فى الدنيا لكان نادرة عصره ، وقد أداه ذلك الى قطع الاشتغال، فكان إذا شرع فى الاقراء لا يتم الكتاب فى الغالب و يحضر الدرس فى الجمعة يوما أو يومين و يهمل كذلك ، ولم يصنف تأليفا ولا رسالة فى فن من الفنون مع تأهله لذلك ، ولم يعان الشعر ولا

النظم، ونثره فى المراسلات ونحوها متوسط فى بعض القوافى السهلة » ذلك قول الجبرتى فى المهدى ، وهو معاصره وصديقه ، وقد يكون للشيخ المهدى عذره فى مداراة الفرنسيين إذ كانوا أصحاب الحول والطول ، فرأى من الحكمة مسالمتهم ، والواقع أنه لم يؤد اليهم خدمة ما ، ولم يسالمهم عن عقيدة ، بل كان يحرص كثيرا على الدفاع عن مصالح مواطنيه أيام حكمهم ، ولعل أدق وصف لنفسيته من هذه الناحية ما ذكره عنه المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية فى رسالة الى نابليون حيث قال : « إن الشيخ المهدى رجل يطمع فى الشهرة والتزلف للجماهير وانه يضحى بجميع الفرنسيين فى سبيل ألا يفقد شيئا من منزلته بين الناس » ، وهى شهادة حسنة للمهدى تدل على سلامة قصده فى مسلكه

ولعل هذا المعنى هو الذى يقصده الجبرتى بقوله عن المهدى « و بالجملة فكان لوجوده وتصدره فى تلك الايام النفع العام ، سدّ بعقله ثقوبا واسعة وخروقا ، وداوى برأيه جروحا وفتوقا ، لا سيما أيام اليهازع ، والخصومات والتنازع ، وما يكدر الفرنساوية ، من مخارق الرعية ، فيتلافاه بمراهم كلماته ، ويسكن حدتهم بملاطفاته »

والظاهر أنه لم يستهدف لغضب المحتلين الا مرة واحدة أو مرتين ، فالمرة الاولى لما عاد نابليون بعد انتصاره فى معركة (أبو قير) البرية ، فقد ساءه ماعلمه عن المهدى أنه كان يعارض محافظ المدينة فى أحكامه ، وأظهر استياءه من سلوك المهدى والصاوى و بقية أعضاء الديوان وعاتبهم على مسلكهم ولكنه ما لبث أمام حسن بيان الشيخ المهدى أن تجاوز عن عتابه ، قال الجبرتى : « فلما حضر عاتبهم فى شأن ذلك فلاطفوه حتى انجلى خاطره وأخذ يحدثهم عما وقع له من القادمين الى أبى قير والنصر عليهم وغير ذلك »

والمرة الثانية فى أواخر عهد الحملة الفرنسية حيث اعتقلوه بالقلعة ضمن من اعتقلوه من أعضاء الديوان

وقد احتفظ الشيخ المهدى بمكانته بعد جلاء الفرنسيين فصار من المتقدمين والمتصدرين فى الحركات الشعبية التى ظهرت على مسرح الحوادث السياسية ،

واشترك مع السيد عمر مكرم والسادات والشرقاوى وغيرهم فى تولية محمد على حكم مصر ، وكان له فى هذا الصدد فضل مشهود ومقام محمود ، وهو الذى تولى تحرير محضر اجتماع العلماء وقرارهم بعزل خورشد باشا ، وهو موقف تاريخى يشرف المترجم ويخلد اسمه ، ولكنه بعد أن تم الامر لمحمد على باشا كان قوام الوقيعة بالسيد عمر مكرم مما تراه مفصلا فى الفصل الثالث من الجزء الثالث ، ولم يزل مرعى المقام عظيم المكانة ، الى أن توفاه الله سنة ١٢٣٠ هجرية عن نحو خمس وسبعين سنة

السيد احمد المحروقى

كبير تجار القاهرة ، بل كبير تجار مصر فى ذلك العصر ، تختلف شخصيته عن الشخصيات المتقدمة بأنه نشأ فى غير البيئة التى نشئوا فيها ، فلا هو تخرج من الازهر ، ولا نال مكانته بانتسابه للعلم ، بل نشأ من بيت تجارى عريق ، ومارس التجارة فنال فيها منزلة سامية وأدرك بفضلها مركزا اجتماعيا كبيرا لا يقل رفعة وسموا عن منزلة كبار الرؤساء والعلماء ، بل فاق بعضهم فى المكانة والاعتبار ، وهذا يدلك على مبلغ ما للتجارة والاعمال الاقتصادية من الاحترام عند الشعب ، ولا غرو فقد كانت طبقة التجار هيئة ممتازة بين طبقات الامة كما بينا ذلك فى الفصل الأول من الجزء الاول

وصفه الجبرتى فى ترجمته بعين الاعيان ، ونادرة الزمان ، شاه بندر التجار ، والمرتقى بهمته الى مقام الفخار ، النبيه النجيب ، والحسيب النسيب ، السيد احمد ابن احمد الشهير بالمحروقى

وذكر عن منشئه ومرباه ان أباه كان من تجار الحرير بسوق العنبريين بمصر واشتهر بالصدق والامانة والتدين والصلاح ، فأحسن تربية ابنه فلما ترعرع خالط الناس ومرن على الكتابة ، وكان على غاية من الحذق والنباهة ، وأخذ وأعطى ، وباع واشترى ، وشارك وتداخل مع التجار ، وحاسب على الالوف

وقد شارك المترجم فى العمل تاجرا من كبار تجار الجملة بالقاهرة يسمى السيد احمد بن

عبدالسلام، فضرب فى تجارة الصادرات والواردات بسهم وافر، ولما مات السيد احمد المذكور خلفه المترجم فى مركزه التجارى وفى منصبه (شاه بندر التجار) فصار كبير تجار القاهرة ، واذا لاحظنا ان القاهرة عاصمة القطر التجارية كان المحروقى كبير تجار مصر قاطبة ، وقد ظهرت مواهبه ومزاياه فى مركزه الجديد « فزادت شهرته ، وعظم شأنه ووجاهته ، ونفذت كلمته على أقرانه » واتصل بأمراء مصر من المماليك مثل اسماعيل بك ثم مراد بك وابراهيم بك وتصدى لقضاء مطالبهم وهم أصحاب الحل والعقد و بيدهم سلطة الحكم ، فكانوا يبتاعون منه مطالبهم ومطالب الحكومة ، فاتسعت تجارته وذاع صيته فى الاقطار البعيدة وصار أكبر تجار الصادرات والواردات، وتعددت معاملاته التجارية مع سائر الاقطار الشرقية و بعض الاقطار الافرنجية ، قال الجبرتى فى هذا الصدد ماخلاصته « ولم يزل طالعه يسمو ، وسعده يزيد وينمو ، وعاد مراد بك والامراء المصريون (المماليك) بعد موت اسماعيل بك وانقلاب دولته الى امارة مصر ، فاختص المترجم بخدمته وقضاء سائر أشغاله ، وكذلك ابراهيم بك وباقى الامراء ، وقدم لهم الهدايا والطرائف ، وواسى الجميع أعلاهم وأدناهم بحسن الصنيع ، حتى جذب اليه قلوب الجميع ، ونافس الرجال وانعطفت اليه الآمال ، وعامل تجار النواحى والامصار ، من سائر الجهات والاقطار ، واشتهر ذكره بالاراضى الحجازية ، وكذا بالبلاد الشامية والرومية ، واعتمدوه وكاتبوه ، وراسلوه وأودعوه الودائع وأصناف التجارات والبضائع »

فالمحروقى إذن هو نموذج صالح يصح أن يقتدى به الى اليوم فى الاضطلاع بالاعمال التجارية والاقتصادية العظيمة المدى ، وفى انماء ثروة مصر القومية

ويدلك على مبلغ مكانته بين الناس أنه لما اعتزم أداء فريضة الحج سنة ١٢١٢ هجرية « كان يوم خروجه يوما مشهوداً اجتمع الكثير من العامة والنساء وجلسوا بالطريق للفرجة عليه » كما يقول الجبرتى

وذكر أيضاً أنه لمناسبة زواج ابنه السيد محمد أقام مهرجانا فخما وصفه بقوله : « وزوج ولده السيد محمد وعمل له مهماً عظيما افتخر به الى الغاية ، ودعا اليه الامراء

والاكابر والاعيان ، وأرسل اليه ابراهيم بك ومراد بك الهدايا العظيمة المحملة على الجمال الكثيرة ، وكذلك باقى الامراء ومعها الاجراس التى لها رنة تسمع من البعد ، ويقدمها جمل عليه طبل نقارية ، وذلك خلاف هدايا التجار وعظماء الناس والنصارى الاروام والاقباط الكتبة وتجار الافرنج والاتراك والشوام والمغاربة وغيرهم ، وخلع الخلع الكثيرة »

فهذا الوصف الذى نقلناه كما أورده الجبرتى يعطيك صورة عن منزلة المترجم بين عظماء عصره وما أدركه من العز والجاه

وظل على هذه المكانة حينما جاء الفرنسيون الى مصر ووقعت هزيمة امبابه أثناء رجوعه من الاقطار الحجازية ، وقد جاء فى قافلة نهبها العربان بالقرب من بلبيس ، وكان نابليون وقتئذ يتعقب ابراهيم بك فى الشرقية ، فقابله وعرف مكانته فاكرم مثواه ووعده برد مانهب منه وأرسل يتعقب المعتدين ورد اليه ما أمكنه استخلاصه ورجع الى القاهرة ، فكان لمنزلته التجارية والمالية موضع احترام الفرنسيين ، وانتخب عن التجار ضمن أعضاء الديوانين العمومى والخصوصى اللذين انشئا فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ واصطحبه نابليون فى رحلته الى السويس ، ولما وقعت ثورة القاهرة الثانية كان من زعمائها والمتصدرين لتنظيمها بماله وهمته ونفوذه ، والى ذلك يشير الجبرتى بقوله :

« ووصل عُرضى (١) العثمانية والامراء المصرية (المماليك) فخرج فيمن خرج لملاقاتهم ، وحصل بعد ذلك ماحصل من نقض الصلح (٢) والحروب ، واجتهد المترجم فى أيام الحرب وساعد وتصدى بكل همته وصرف أموالا جمة فى المهمات والمؤن » .

يتبين مما تقدم أن السيد المحروقى لم يكن متوفراً على أعمال تجارته الواسعة فحسب ، بل كان يشترك فى الحياة العامة فارتفع الى مستوى زعماء الشعب ، فهو من هذه الناحية خير مثال لكبار الاعيان والتجار يقتدى به فى الجمع بين تنمية الثروة

---

(١) جيش

(٢) معاهدة العريش

الشخصية وأداء الواجبات الوطنية ، والواقع أن إنماء الثروة وتعهدها بالحزم وحسن التدبير ليس عملا شخصياً فحسب بل هو عمل قومى جليل لانه انماء للثروة القومية العامة ، والخير فيها يعم البلاد وأهلها

اشترك المترجم فى ثورة القاهرة الثانية ، ولما أخفقت هاجر الى سورية صحبة السيد عمر مكرم نقيب الاشراف ، ولازمه فى منفاه وهجرته ، وصادر الفرنسيون أملاكه فى غيبته ، ولم يعد الى مصر إلا بعد جلاء الفرنسيين ، وازدادت مكانته وعظم جاهه بعد عودته من منفاه ، وصار موضع الاحترام عند ولاة الامور والجمهور معاً ، وزاره الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا فى بيته تكريماً له ودامت الزيارة ساعة من الزمن ، ويكفيك لتتعرف مبلغ ماوصل اليه من النفوذ والجاه بعد جلاء الفرنسيين أن ترجع الى قول الجبرتى عنه « فصار المترجم هو المشار اليه فى الدولة ، والتزم بالاقطاعات والبلاد ، وحضر الوزير (١) الى داره وقدم اليه التقادم والهدايا ، وباشر الامور العظيمة ، والقضايا الجسيمة ، وما يتعلق بالدول والدواوين ، والمهمات السلطانية ، وازدحم الناس ببابه وكثرت عليه الاتباع والاعوان والقواسة والفراشون وعساكر رومية (تركية) ومترجمون وكلارجية ووكلاء ، وحضرت مشايخ البلاد والفلاحون بالهدايا والتقادم والاغنام والجمال والخيول وضاقت داره بهم فاتخذ دوراً بجواره وأنزل بها الوافدين »

وعظم نفوذه فى عهد خسرو باشا « فاختص به اختصاصاً كلياً وسلم اليه المقاليد الكلية والجزئية ، وجعله أمين الضربخانة (٢) وزادت صولته وشهرته ، وطار صيته ،

---

(١) الصدر الاعظم يوسف باشا ضيا

(٢) مدير دار الضرب وكانت من أكبر مناصب الدولة فى ذلك العصر وقد ذكر الجبرتى فى حوادث ربيع الثانى سنة ١٢١٧ (اغسطس سنة ١٨٠٢) ان السيد المحروقى لما تقلد أمانة الضربخانة أقام مهرجانا ابتهاجا بتقلده هذا المنصب « وفرق ذهباً كثيراً وعمل ليلة بالمشهد الحسينى ودعا الباشا (خسرو) والدفتردار

واتسعت دائرته ، وصار بمنزلة شيخ البلد (١) بل أعظم ، ونفذت أوامره فى الاقليم المصرى والرومى والحجازى والشامى ، وأدرك من العز والجاه والعظمة مالم يتفق لامثاله من أولاد البلد ، وكان ديوان بيته أعظم الدواوين بمصر ، وتقرب وجهاء الناس لخدمته ، والوصول الى سدته ، ووهب وأعطى ، وراعى جانب كل من انتمى اليه وأغدق عليه »

فالسيد المحروقى قد نال إذن من المنزلة الاجتماعية والسياسية بفضل كفايته الاقتصادية والمالية ماسما به الى الصف الاول من الرؤساء والزعماء فى فجر النهضة القومية ، فلا غرو أن نعده شخصية ممتازة من شخصيات ذلك العصر

وقد استهدف لمظالم طاهر باشا الذى تولى الحكم بعد الفتنة العسكرية التى انتهت بطرد خسرو باشا ، فنهب الجنود المتمردون داره بالازبكية لما اشتهر عنه من ولائه لخسرو ، واعتقله طاهر بالقلعة ، فكان لاعتقاله وقع أليم فى النفوس ، وتوسط العلماء فى أمره فأفرج عنه طاهر وأمره أن يلزم بيته وجعله رهن مراقبة الجنود وفرض عليه اتاوة كبيرة من المال يفتدى بها نفسه ، ولم ينج المحروقى من شرور طاهر باشا إلا بعد مقتله ، وقد جاء ذكره فى تقرير للكولونل سباستيانى الذي أوفده نابليون الى مصر فى اكتوبر سنة ١٨٠٢ ليتعرف أحوالها ويرقب موقف الانجليز فيها ، مما سيجىء بيانه ، فبعث الى نابليون بتقرير عن الحالة فى مصر ورد فيه أسماء بعض كبراء مصر فى ذلك العهد فذكر السيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والشيخ سليمان الفيومى وذا الفقار (الذى كان كتخدا نابليون فى عهد إقامته بمصر) ، والسيد

(مدير الشؤون المالية) وأعيان الدولة والعلماء وأولم لهم وليمة عظيمة ، وأوقد بالمسجد وقدة كبيرة ، وقدم للباشا تقدمة ، وفى صبحها أرسل مع ولده هدية وتعبية اقمشة نفيسة ، فخلع عليه الباشا فروة سمور »

(١) هو اللقب الذى كان يعطى لكبير المماليك فى إبان سطوتهم وهو بمثابة أمير مصر

المحروقى ، وقال عنه انه أكثر الاعيان نفوذاً عند خسرو باشا (١)

وظل محتفظا بمكانته واسع الجاه عظيم المقام والاحترام الى أن أدركته الوفاة سنة ١٢١٩ هجرية

* * *

أولئك هم قادة الشعب وزعماؤه فى فجر النهضة القومية ، ومهما لاحظت فى تراجم بعضهم من مواطن ضعف أو نقد فلا تنس أنهم رجال ظهروا على مسرح الحياة القومية منذ نيف ومائة وثلاثين عاماً ، أى قبل أن يسبقهم غيرهم الى تمهيد سبيل العمل والجهاد فى عهدهم ، ففضلهم من هذه الناحية لا يصح أن ينكر ، وحقهم لا يجوز أن يغمط ، ولا تنس أيضاً أنك إذا طلبت اليهم أن يقدموا حسابا أمام التاريخ وأمام الاجيال المتعاقبة عن نصيبهم فى الحركة القومية فحسبهم أنهم فى مجموعهم أصحاب الفضل الاكبر واليد الطولى فى الحركات الشعبية التى ظهرت فى توجيه ارادة الامة الى مقاومة الحكم الفرنسى ، ثم مقاومة حكم المماليك ، ثم مقاومة الحكم التركى ، ثم إحياء سلطة الامة باختيار ولى الامر واجلاسه على عرش مصر ، فهم إذاً دعاة التطور السياسى الذى شهدته مصر فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وهم فى تواضعهم وخمول ذكر الاكثرين منهم قد قام على أكتافهم وبارادتهم أكبر انقلاب فى نظام الحكم ، فهم الذين أعلنوا حق الشعب فى تقرير مصيره بخلعهم الوالى التركى واسناد زمام الحكم الى عبقرية محمد على العظيم ، ولا يعزب عن البال أن هذا الانقلاب كان فاتحة الخير والاستقلال لمصر والمصريين ، وهو الاساس الذى شيدت عليه دعائم الدولة المصرية فى تاريخ مصر الحديث

---

(١) تقرير الكولونل سباستيانى المنشور بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ والوارد فى مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دى تستا الجزء الثانى

ظهور محمد على الكبير

قلنا إن القوات الثلاث التى تنازعت السلطة فى وادى النيل تجاهلت العامل القومى الذى ظهر فى الميدان ولم تحسب له حساباً ، لكن رجلا واحدا قد أدرك مبلغ تأثير هذا العامل الجديد فى مصير البلاد ، ورأى بثاقب نظره أن النصر مكفول لمن يستعين به ويضمن تأييده فى ميدان الكفاح والنضال ، هذا الرجل هو محمد على الكبير

نشأ محمد على بمدينة (قوله) من ثغور مقدونية موطن الاسكندر الاكبر ، ولد سنة ١٧٦٩ فى السنة التى أنجبت طائفة من عظماء الرجال ، ففيها ولد نابليون وولنجتون (١) ، كان أبوه ابراهيم أغا رئيس الحرس المنوط به خفارة الطرق ببلده وكان له سبعة عشر ولدا لم يعش منهم سوى محمد على ، ومات عنه صغير السن يتيما من الابوين لايتجاوز الرابعة عشرة من عمره فكفله عمه طوسون ، ثم توفى عمه بعد ذلك بمدة يسيرة ، فكفله حاكم المدينة (الشوربجى) وكان صديقاً لوالده ، فلما بلغ محمد على أشده انتظم فى سلك الجهادية وسرعان ماتجلت شجاعته فى الميدان قبل أن يظهر نجمه فى الافق ، فقد حدث أن امتنعت احدى القرى (٢) التابعة لمتصرفية قوله عن دفع ماعليها من الضرائب ، فحار المتصرف فى أي طريق يسلكه ، فعرض عليه محمد على أن يعهد اليه فى اجبار أهل القرية على اداء ماعليهم ، فدهش المتصرف لهذه الجرأة لان القرية كانت خالية من حامية عسكرية ترهب الاهالى وتكرههم على الدفع ، لكنه ازاء الحاح محمد على قبل أن يعهد اليه فى هذه المهمة ، فسار محمد على الى القرية مصطحباً عشرة من الجند ، ولما بلغها ذهب رأسا الى المسجد دون

---

(١) وفيها ولد شاتوبريان الكاتب الفرنسى الشهير وكوفييه العالم الكيميائى وشلر الشاعر الألمانى

(٢) واسمها (براوسطه)

أن يبدو عليه أنه قادم لمهمة ذات شأن ، وأخذ يؤدى فريضة الصلاة فظنه الناس زائراً أو سائحا ، وهناك أرسل يستدعى أربعة من أعيان القرية بحجة مقابلته في شأن تخصهم ، فجاء الاعيان دون أن يعلموا أن فى الامر محظوراً ، وما هو إلا أن دخلوا المسجد حتى أمر محمد على رجاله فانقضوا عليهم وكبلوهم فى الحديد وساقوهم الى قوله ، فلما علم الاهالى بما حل بأعيانهم اقبلوا سراعا لنجدتهم وفك اسارهم ، لكن محمد على سدد الاسلحة على الاعيان المعتقلين وتوعد بقتلهم اذا همّ أهل القرية باطلاق سراحهم ، فانثنوا عن قصدهم ووصل محمد على الى (قوله) وفى ركابه الاعيان مأسورين وبهذه الوسيلة دفع الاهالى ماعليهم من الضريبة ليفتدوا رؤساءهم ، فأعجب المتصرف بمهارة محمد على وبسالته فى هذه الحادثة ورقاه الى رتبة بلوك باشى

والواقع أن هذه الحادثة تدل على ما جبلت عليه نفس محمد على منذ صباه من الجرأة واقتحام المخاطر اذ كان من المحتمل ان يذهب ضحية مغامرته فى هذه القرية الثائرة ، فالشجاعة التى ظهرت عليه منذ نعومة اظفاره كانت من اخص صفات محمد على بل هى من اسباب نجاحه فى تأسيس ملكه العظيم

وقد زوجه متصرف قوله بقريبة له مطلقة ذات ثروة واسعة وهى التى أنجبت له ابراهيم وطوسون واسماعيل وتفرغ لتجارة الدخان فربح منها ، وكان لممارسته التجارة دخل كبير فى تثقيف ذهنه ومرانه على معالجة الشؤون المالية ، ولعلها السبب فيما بدا عليه بعد ان تولى الحكم من الحذق فى المسائل التجارية والاقتصادية ، وقد لازمه الميل الى ممارسة التجارة والتطلع الى ارباحها الوفيرة حتى انه احتكر تجارة القطر المصرى باجمعها كما سيجىء بيانه

وكان فى المدينة تاجر فرنسى يدعى المسيو (ليون) عرف محمد على فى صباه واخلصه الود والعطف ، وافاده بخبرته فى التجارة ، فلم ينس محمد على بعد ماوصل الى قمة المجد فضل ذلك التاجر فاستفسر عنه وعلم انه عاد الى مرسليا فأرسل سنة ١٨٢٠

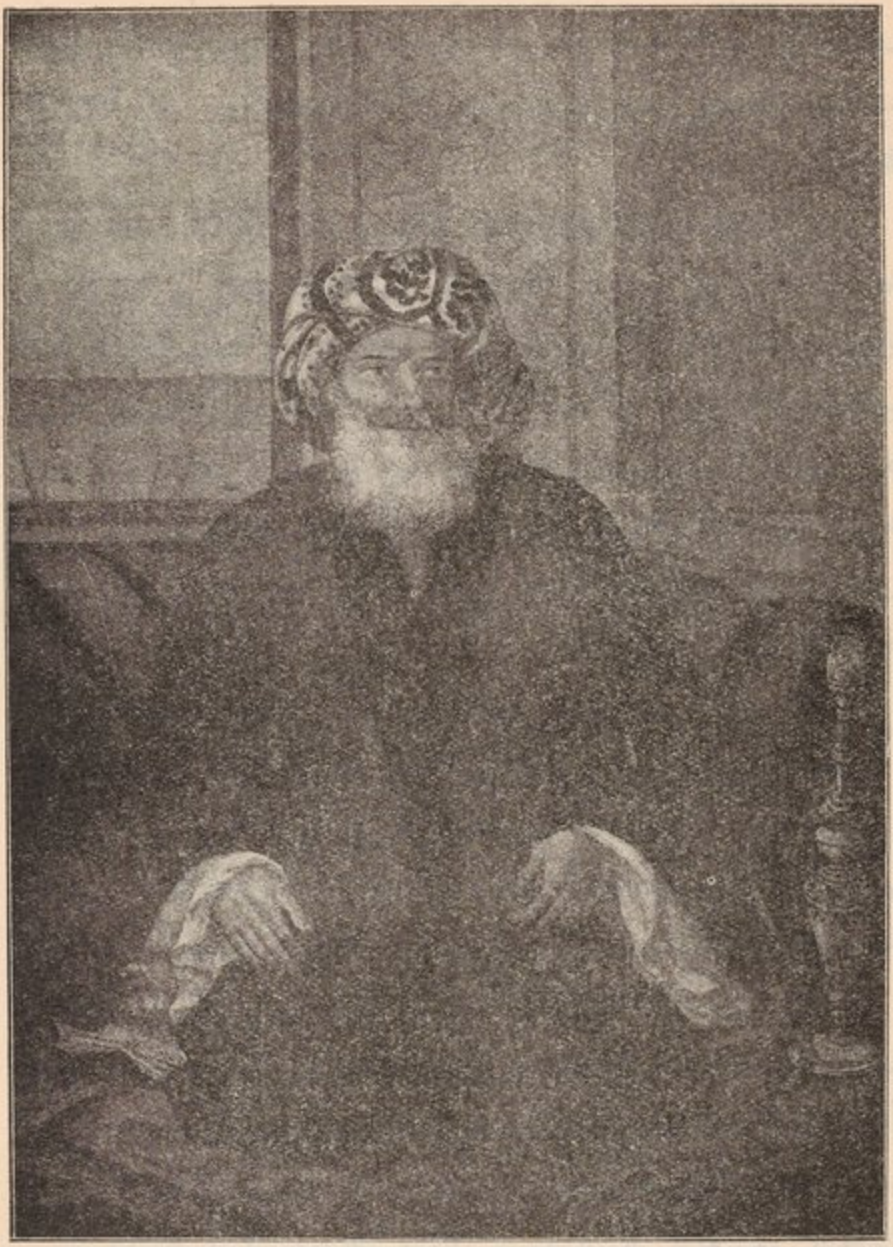

محمد على باشا

فى أوائل حكمه — أخذت هذه الصورة بالاسكندرية سنة ١٨١٨
ونقلناها عن رسوم كتاب المسيو مانجان الذى ظهر فى عصر محمد على

مقابل ص ٣١٢

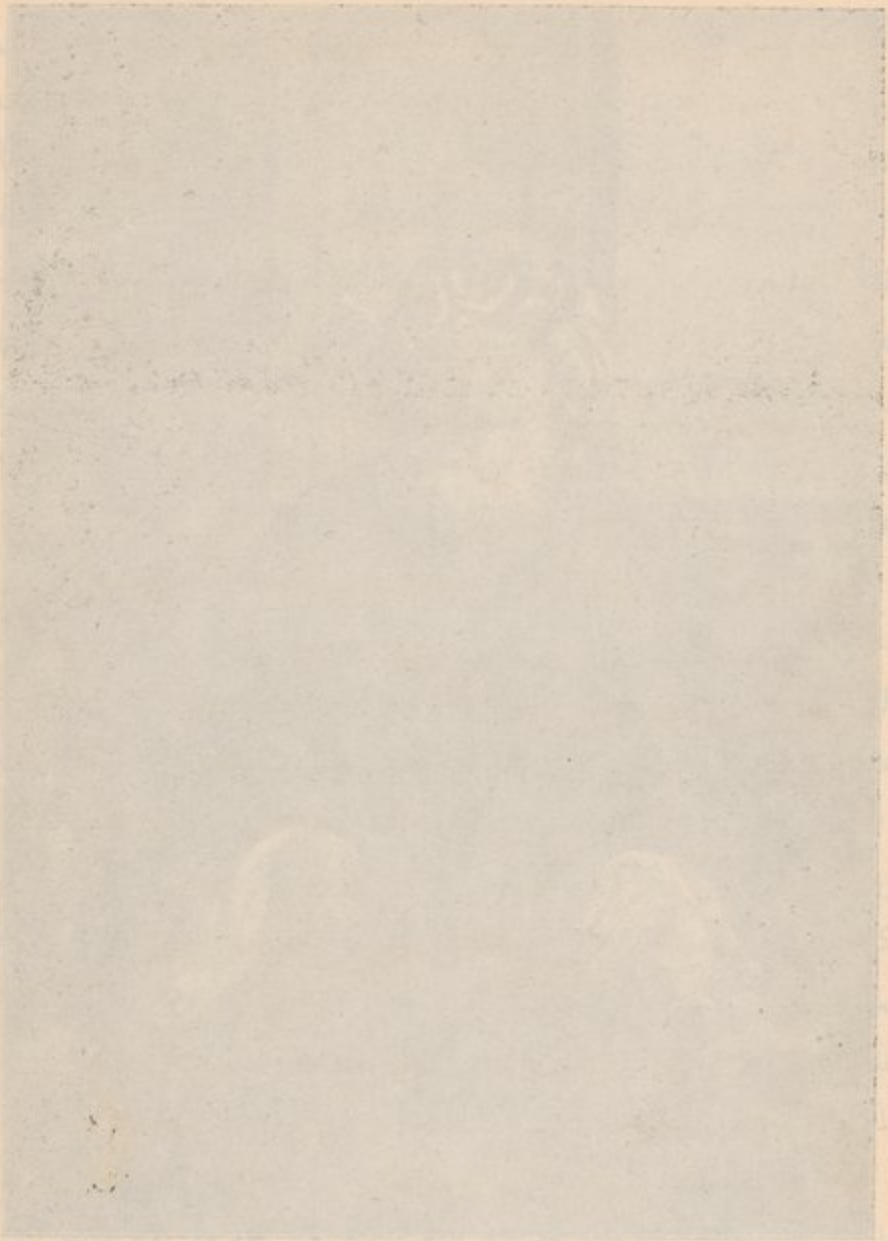

يستدعيه الى مصر لكن المنية عاجلته فى الوقت الذى اعتزم تلبية دعوة الباشا فأسف عليه محمد على و بعث الى أخته بعشرة آلاف فرنك اعرابا عن أسفه على وفاة أخيها .

مارس محمدعلى تجارة الدخان ، وكانت تجارته ولم تزل من أهم موارد مقدونية ومن أعظم صادراتها ، على انه ما لبث أن عاد الى الحياة العسكرية التى مهر فيها قبل أن يمارس التجارة ، ذلك انه لما أغار نابليون على مصر وشرع الباب العالى فى تعبئة جيوشه لمحاربة الفرنسيين فيها صدر الامر الى متصرف قوله بتقديم ما لديه من الجنود فألف كتيبة من ثلثمائة جندى انتظم محمد على فى سلكها وكان ابن الحاكم (على اغا) رئيسا لها ومحمد على معاونا له ، جاءت هذه الكتيبة على ظهر العمارة التركية التى رست فى ساحل أبوقير بقيادة حسين قبطان باشا فى شهر مارس سنة ١٨٠١ .

جاء محمد على الى مصر، فوجد الميدان خصبا لظهور مواهبه وعبقريته، واشترك فى المعارك الاخيرة التى دارت رحاها بين الانجليز والاتراك من جانب والفرنسيين من جانب آخر ، وظهر اسمه فى هجوم الجيش التركى على الرحمانية إذ كان يدافع عنها الجنرال لاجرانج Lagrange، وناط به حسين قبطان باشا مهاجمة القلعة واحتلالها فساعده الحظ فى مهمته بانسحاب الفرنسيين من قلعة الرحمانية فاحتلها محمدعلى دون عناء

وقد شهد انتهاء عهد الحملة الفرنسية و بقى فى مصر وارتقى فى غضون ذلك الى مرتبة كبار الضباط فنال رتبة (بكباشى) قبل جلاء الفرنسيين ثم رقاه خسرو باشا فى أواخر سنة ١٨٠١ الى رتبة سرجشمه أى (لواء) ، وأخذ يرقب تطور الصراع بين القوات الثلاث التى كانت تتنازع السلطة فى مصر ، ولمح من خلال الافق ان هذه القوات مصيرها الى الزوال ، ووضع لنفسه خطة تدل على اصالة رأيه و بعد نظره ، خطة لم يسبقه اليها فى ذلك العصر قائد أو حاكم سياسى ، وهى أن يتحبب الى الشعب و يستميل اليه زعماءه و يستعين به للوصول الى قمة السلطة .

وفى الحق ان هـذه الخطة كانت جديدة بل كانت غير مألوفة فى ذلك العصر وخاصة فى الشرق . فالقوات التى تنازعت السلطة فى مصر كانت تعتمد على قوة الجند ولم تكن تحسب حسابا لارادة الشعب ، أما محمـد على فهو أول من استعان بالعامل القومى الذى ظهر على مسرح الحوادث السياسية ، فهو من هذه الناحية ثمرة من ثمرات الحركة القومية ، وهو دور من أدوارها التاريخية ، اقترن ظهوره بظهور العامل القومى ، وكانت ولايته نتيجة اختيار وكلاء الشعب ومناداتهم به واليا مختارا على مصر ، ولقد برهن بعد أن تولى الحكم على انه أكبر بنّاء فى صرح القومية المصرية .

فمحمد على هو غرس الارادة القومية ، ولولا تلك الارادة لدفنت عبقريته ومواهبه فى ولاية من أقاصى السلطة العثمانية أو فى ناحية من نواحى « المابين »

الصراع بين القوات الثلاث

تلك كلمة اجمالية وصفنا بها حالة مصر السياسية خلال السنوات التى أعقبت جلاء الفرنسيين ، والآن فلننتقل من الاجمال الى التفصيل ولنستعرض الحوادث من بدء الصراع بين القوات الثلاث الى أن تمت مبايعـة محمد على واليا على مصر بارادة الشعب .

تعيين خسرو باشا واليا لمصر

أخذت القوات الثلاث يرقب بعضها بعضا مدى شهرين كل منها بمرصد للاخرى تتحين الفرص لتحقيق اطماعها ، وفى خلال هـذه المدة ظل يوسف باشا ضيا (الصدر الاعظم) فى معسكره بالقاهرة صاحب الحول والطول ينظم الادارة ويعزل من شاء ويولى من شاء من صنائعه

وتقلد محمد خسرو باشا ولاية مصر ، وهو أول وال عثمانى عين بعد جلاء الفرنسيين وكان قبل توليته كتخدا (وكيل) حسين قبطان باشا ومن خاصة

أصدقائه وهو الذى سعى له فى تقليده ولاية مصر (١) وقد بقى الوالى بأبو قير بجانب رئيسه قبطان باشا واكتفى بارسال خازنداره الى القاهرة

كان الصدر الاعظم يتظاهر بالود للمماليك ، فاغتر هؤلاء بظاهره على حين كان فى الوقت نفسه يعمل على الفرقة وايقاع الانقسام بينهم ليضربهم بعضهم ببعض تمهيداً للقضاء عليهم جميعا عند سنوح الفرصة ، فعين محمد بك الالفى أميرا على الصعيد وكان هذا المنصب مطمع كثير من البكوات المماليك فحنقوا ونفسوا على الالفى انفراده بهذه الامارة ، واعتزم الصدر الاعظم وحسين باشا القبطان أن يأخذا رؤساءهم غيلة ، وكانت هذه الأساليب مألوفة فى ذلك العهد ، فاتفقا على أن يدعو كل منهما فريقا من زعماء المماليك الى الاجتماع به ، الاول فى القاهرة والثانى فى الاسكندرية بحجة تكريمهم وتقليدهم سلطة الحكم فى البلاد ، فاذا ما اجتمعوا فتك بهم الجند أو غلاهم فى الحبوس وأرسلوهم الى الاستانة لتقرر الحكومة التركية فى مصيرهم ما تراه

المؤامرة على المماليك

ففى أوائل اكتوبر سنة ١٨٠١ أرسل حسين باشا يدعو كلا من عثمان بك الطنبورجى زعيم المماليك وخليفة مراد بك وعثمان بك البرديسى ومراد بك الصغير وغيرهم من البكوات من بيت مراد بك (اتباعه) الى زيارته بمعسكره بأبو قير وأعلمهم أن الغرض من هذه الزيارة هو الاتفاق معهم على تخويلهم سلطة الحكم فى القاهرة بدلا من ابراهيم بك وأنصاره

---

(١) كان خسرو باشا من مماليك قبطان باشا قبل أن يكون وكيله ، وقد وقع خلاف بين حسين باشا والصدر الاعظم على هذا التعيين لان الصدر الاعظم كان يرغب اسناد ولاية مصر الى محمد باشا أبى مرق أحد رؤساء الجيش العثمانى الذى جاء صحبة الصدر الاعظم ودخل معه القاهرة على أن يكون واليا لمصر . لكن نفوذ حسين قبطان باشا تغلب على رغبة الصدر الاعظم اذ كان حسين باشا مقربا الى السلطان سليم وله عنده حرمة الود وقد تربى معه . وكان له فضلا عن ذلك مكانة ممتازة نالها من كونه مجدد العمارة التركية ومنشىء معظم سفنها فى ذلك العصر فاستطاع بنفوذه لدى السلطان أن يستصدر فرمانا باسناد ولاية مصر الى خسرو باشا

فلبى المماليك الدعوة وساروا لمقابلته فى معسكره وبالغ فى الحفاوة بهم وظلوا فى ضيافته أياما عدة ثم عقد اجتماعا تلا عليهم فيه فرمانا قال انه صدر من السلطان باعلان رضاه عن المماليك وابقائهم فى مناصبهم التى كانوا عليها من قبل فى حكومة البلاد ، ثم دعاهم لهذه المناسبة الى زيارة بارجته الراسية فى خليج أبو قير ، فنزل البكوات فى زورقه الخاص به لينقلهم الى بارجة القبطان باشا ، وبعد أن ابتعد الزورق عن البر وأصبح فى اللجة التقوا بمركب آت من عرض البحر وفيه جماعة من السعاة أخبروا أن لديهم رسالة باسم قبطان باشا فنهض الباشا وتركهم بحجة الاطلاع على الرسائل وانتقل الى المركب الآخر وأمر أن يُدفع به وبقى المماليك وحدهم ، فكانت هذه العلامة نذيرا بانفاذ المؤامرة ، فما هى الا لحظة حتى أخذ الرصاص ينهال عليهم من رجال قبطان باشا ، وعلموا أنهم وقعوا فى الفخ الذى نصب لهم ، فدافع المماليك عن أنفسهم دفاعا شديداً وقتلوا كثيراً من العساكر الذين عهد اليهم بالفتك بهم ولكنهم غلبوا على أمرهم أمام كثرة الجنود والبحارة فقتل فى هذه المؤامرة من زعماء المماليك عثمان بك الطنبورجى خليفة مراد بك وعثمان بك الاشقر (١) ومراد بك الصغير ، وعلى بك أيوب ، ومحمد بك المنفوخ ، ومحمد بك الحسينى ، وابراهيم كتخدا السنّارى (وكيل مراد بك) وجرح كل من عثمان بك البرديسى وحسين بك . وسليمان أغا جروحا بليغة . وسيقوا مع باقى المماليك الى بارجة قبطان باشا واعتقلوا بها

كان الانجليز يجهلون تدبير المؤامرة ، فلما علموا بها غضب الجنرال هتشنسون غضباً شديداً واعتبرها عملا عدائيا موجها ضد الانجليز ، وعدها وحشية ، وكادت الحرب تنشب بين الانجليز والعثمانيين لولا أن سلم حسين باشا القبطان باطلاق سراح المماليك المسجونين وتسليم جثث القتلى منهم وانتقل المماليك من معسكر أبوقير

---

(١) هو من مماليك ابراهيم وممن تبعوه الى سورية بعد موقعة الاهرام وعاد معه صحبة الجيش العثمانى ثم سافر مع حسين باشا القبطان الى أبو قير وقتل فى المؤامرة

الى الاسكندرية ليكونوا فى حمى الانجليز ، واحتفل هؤلاء بدفن قتلى المماليك احتفالا عظيما بالاسكندرية وأرسل الجنرال هتشنسون نبأ هذه المؤامرة الى الجيش الانجليزى المرابط بالجيزة

رواية الجبرتى

واليك ماذكره الجبرتى من خبر هذه المؤامرة :

« وفيه (١) وردت الاخبار بان حسين باشا القبطان لم يزل يتحيل وينصب الفخاخ للامراء الذين عنده وهم محترزون منه وخائفون من الوقوع فى حباله فكانوا لا يأتون اليه إلا وهم متسلحون ومحترزون وهو يلاطفهم ويبش فى وجوههم الى أن كان اليوم الموعود به فعزم عليهم فى الغليون الكبير الذي يقال له « ازج عنبرلى » فلما طلعوا الى الغليون وجلسوا فلم يجدوا القبودان فاحسوا بالشر . وقيل انه كان بصحبتهم فحضر اليه رسول وأخبره أنه حضر معه ثلاثة من السعاة بمكاتبة . فقام ليرى تلك المراسلة . فما هو إلا أن حضر اليهم بعض الامراء وأعلمهم انه ورد خط شريف باستدعائهم الى حضرة مولانا السلطان وأمرهم بنزع السلاح فأبوا ونهض محمد بك المنفوخ وسل سيفه وضرب ذلك الكبير فقتله . فما وسع البقية إلا أنهم فعلوا كفعله وقاتلوا من بالغليون من العساكر وقصدوا الفرار . فقتل عثمان بك المرادى الكبير ، وعثمان بك الاشقر . ومراد بك الصغير . وعلى بك أيوب . ومحمد بك المنفوخ ومحمد بك الحسينى وابراهيم كتخدا السنارى . وقبض على الكثير منهم وأنزلوهم المراكب ، وفر البقية مجروحين الى عند الانكليز . وكانوا واقعين عليهم من ابتداء الامر . فاغتاظ الانكليز وانحازوا الى اسكندرية وطردوا من بها من العثمانيين وأغلقوا أبواب الابراج وحضر منهم عدة وافرة وهم طوابير بالسلاح والمدافع واحتاطوا بقبطان باشا من البر والبحر فتهيأ عساكره لحربهم فمنعهم . فطلب الانجليز بروزه بعساكره لحربهم . فقال لم يكن بيننا وبينكم حرب . واستمر جالساً فى صيوانه .

---

(١) الخميس ٢٠ جمادى الثانية سنة ١٢١٦ (٢٨ اكتوبر سنة ١٨٠١)

فحضر اليه كبير الانجليز (الجنرال هتشنسون) وتكلم معه كثيراً وصمم على أخذ بقية الامراء المسجونين فاطلقهم له فتسلمهم وأخذ أيضاً المقتولين . ونقل عرضى (معسكر) الامراء من محطتهم الى جهة الاسكندرية . وعملوا مشهداً للقتلى مشى فيه عساكر الانجليز على طريقتهم فى موتى عظمائهم »

مؤامرة القاهرة

وحدث لمماليك القاهرة ماحدث لاخوانهم بالاسكندرية غير أن الصدر الاعظم كان أقل فظاعة من حسين باشا

ذلك أنه دعا ابراهيم بك والبكوات المماليك الذين كانوا فى القاهرة وضواحيها الى ديوان عقده بقصره وأمر بتلاوة فرمان يشبه الفرمان الذى تلاه حسين باشا فى مؤامرة أبو قير ، وزاد فيه أن ابراهيم بك عين « شيخ البلد » وهو اللقب الذى كان يعرف به رئيس حكومة مصر فى عهد المماليك ، وبعد أن أغدق عليهم الهدايا ومناهم بالوعود الخلابة قلب لهم ظهر المجن وأمر بتلاوة فرمان آخر ينقض الفرمان الاول ويقضى بالقبض عليهم وتغليلهم بالحديد وارسالهم مخفورين الى الاستانة ، وقد قبض عليهم فعلا وسيقوا الى سجن القلعة ، وأصدر يوسف باشا أوامره للجنود العثمانية بالقبض على كل من يعثرون عليه من المماليك فى القاهرة وضواحيها وتهديد من يؤويهم من الناس ، وأنفذ طاهر باشا أحد قواد الجند الالبانيين بطائفة من جنوده ليقبض على محمد بك الالفى فى الصعيد ، وذهبت طائفة أخرى الى سليم بك أبى دياب أحد زعماء المماليك وكان مقيما بالمنيل لاعتقاله ولكنها لم توفق الى القبض عليه لهربه واحتمائه بالجيش الانجليزى الذى كان مرابطا بالجيزة وطلب سليم بك أبو دياب وباقى المماليك الذين لم يقبض عليهم حماية الانجليز لهموم وطلب الجنرال هتشنسون من الصدر الاعظم اطلاق سراح الامراء المماليك والا أعلن الحرب على الجنود العثمانية ، وأنفذ لهذا الغرض الجنرال ستوارت Stuart فحضر الى الجيزة يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٨٠١ ، فخشى الصدر الاعظم عاقبة القتال وأفرج عن السجناء

رواية الجبرتى

واليك ماذكره الجبرتى عن هذه المؤامرة :

« وفى يوم الثلاثاء (حادى عشر جمادى الثانية) [١] عمل الوزير الديوان وحضر عنده الأمراء فقبض على ابراهيم بك الكبير وباقى الامراء الصناجق وحبسهم. وأرسل طاهر باشا بطائفة من العساكر الارناؤود الى محمد بك الالفى بالصعيد وكان أشيع هروبه الى جهة الواحات ، وذهبت طائفة الى سليم بك أبى دياب وكان مقيما بالمنيل فلما أخذ الخبر طلب الهرب وترك حملته . فلما حضر العسكر اليه ولم يجدوه نهبوا القرية وأخذوا جماله وهى نحو السبعين وهجنه وهى نيف وثلاثون هجينا وذهبت اليه طائفة بناحية طره فقاتلهم ووقع بينهم بعض قتلى ومجاريح ثم هرب الى جهة قبلى من على الحاجر ووقفت طائفة العسكر والارناؤود بالاخطاط والجهات وخارج البلد يقبضون على من يصادفونه من المماليك والاجناد . ونودى فى ذلك اليوم بالامن والامان على الرعية والوجاقلية . وأطلق الوزير (الصدر الاعظم) مرزوق بك ورضوان كتخدا ابراهيم بك وسليمان اغا كتخداه المسمى بالحنفى وأحاطت العسكر بالامراء المعتقلين واختفى باقيهم ونودى عليهم وبالتوعد لمن أخفاهم أو آواهم وباتوا ليلة كانت اسوأ عليهم من ليلة كسرتهم وهزيمتهم من الفرنسيس (فى معركة الاهرام) وخاب أملهم وضاع تعبهم وطمعهم. وكان فى ظنهم أن العثملى يرجع الى بلاده ويترك لهم مصر ويعودون الى حالتهم الاولى يتصرفون فى الاقاليم كيفما شاؤا . فاستمروا فى الحبس ثم تبين أن سليم بك أبا دياب ذهب الى عند الانجليز والتجأ اليهم بالجيزة »

هذا وقد ذهب المماليك بعد إطلاق سراحهم الى الجيزة يصحبهم رجالهم وأتباعهم وهناك التقوا بمن فروا من اخوانهم وانضم اليهم المماليك الناجون من مؤامرة أبو قير وبلغ

---

(١) سنة ١٢١٦ (يوافق ١٩ اكتوبر سنة ١٨٠١)

عددهم جميعاً نحو ٢٥٠٠ مملوك واتفقوا على الانتقام من الاتراك

وقد كسبا لانجليز بهذا التدخل جانب المماليك وأصبحوا حماتهم وصار القوم صنائع لهم فى قضاء مآربهم ، على أن الحوادث السياسية خيبت آمال الفريقين فخلصت البلاد من المماليك ومن الدسائس الانجليزية كما سيراه القارىء فيما يلي

انتهت المؤامرة على المماليك بالفشل وتحرج مركز حسين باشا القبطان أمام حلفائه الانجليز فلم يلبث ان سافر من أبوقير الى الاستانة فى أواخر نوفمبر سنة ١٨٠١ (رجب سنة ١٢١٦)

تغير وقتى فى وجهة النظر الانجليزية

جمع المماليك شملهم واجتمع زعماؤهم الذين نجوا من مؤامرة الاسكندرية بمن نجوا من مؤامرة القاهرة ، وبقوا بالجيزة يعدون العدة لقتال الاتراك وينتظرون المدد والعون من الانجليز ، على أن السياسة الانجليزية اقتضت أن تتظاهر مؤقتا بالتزام الحياد وأن تدخرهم لوقت آخر ، ذلك أن فرنسا أخذت تتقرب الى الباب العالى بعد جلاء جيشها عن مصر وتسعى لاعادة روابط الصداقة القديمة التى كانت تصلها بتركيا وتراخت مدة الحملة الفرنسية ، فلما زالت أسباب الجفاء سعت فى عقد معاهدة صلح من شروطها اعادة العمل بالمعاهدات القديمة بين الدولتين ، أبرمت هذه المعاهدة فى باريس يوم ٩ اكتوبر سنة ١٨٠١ (١) ووقعها المسيو (تاليران) وزير خارجية فرنسا والسيد على افندى سفير تركيا فى باريس ، فلما علمت بها الحكومة الانجليزية ساءها أن ترى فرنسا منافستها وعدوتها اللدود تسترد مركزها فى الشرق بالاتفاق مع تركيا فأخذت تسعى لدى الباب العالى فى منع التصديق على المعاهدة ، وقد وجدت بادىء الامر فتورا من الحكومة التركية لما بلغها من معاونتها للمماليك العصاة وتأييدها لمطالبهم ، فاضطرت انجلترا أن تنكر هذه المعاونة وأنكرت موقف الجنرال هتشنسون والجنرال

---

(١) مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دى تستا الجزء الاول

ستوارت واستدعت أولها ارضاء لتركيا ، وسعى اللورد (الجين) Elgin سفير انجلترا فى الاستانة سعيا متواصلا ليحمل الباب العالى أن يعدل عن تصديق المعاهدة ، وكان لنفوذه الفعال على شاطىء البوسفور أثر كبير فى نجاح مسعاه ، فلم يقبل الباب العالى من شروط المعاهـدة الا ما لا يتعارض مع مقدمات الصلح التى أبرمت بين فرنسا وانجلترا فى لندن بتاريخ أول اكتوبر سنة ١٨٠١ (١) وهذا معناه عدم التصديق على المعاهدة .

رحل الجنرال هتشنسون إذاً عن مصر وخلفه فى قيادة الجيش الانجليزى الماجور جنرال اللورد كافان Cavan وجاء الى مصر المستر ستراتن Straton سكرتير السفارة الانجليزية فى الاستانة يحمل تعليمات الحكومة البريطانية عن سياستها فى مصر وأفهم اللورد كافان والمستر ستراتن زعماء المماليك أن نصيحة الحكومة الى « أصدقائها البكوات » أن يقبلوا شروط الصـدر الاعظم ، ومعنى ذلك أنها تخلت وقتا ما عن حمايتهم .

رأى المماليك أن ينتظروا الى أن تحين فرصة جديدة تساعدهم فيها الحكومة الانجليزية ، فانتقلوا فى أواخر يناير سنة ١٨٠٢ الى الصعيد لينظموا قواتهم استعدادا لقتال الاتراك ، وأصبحت السلطة فى القاهرة والوجه البحرى فى يد الاتراك لا ينازعهم فيها منازع ، واعتزم الصدر الاعظم الرحيل الى الاستانة ، فاستدعى محمد خسرو باشا ليسلمه زمام الحكم قبل ارتحاله فحضر الى القاهرة يوم ٢١ يناير سنة ١٨٠٢ واستقر فى الحكم ثم ارتحل الصدر الاعظم الى سورية يصحبه جزء من الجيش العثمانى ، وصار محمد خسرو باشا صاحب الحل والعقد فى العاصمة .

---

(١) هى المقدمات التى وضعت فيها قواعد معاهدة الصلح المعروفة بمعاهدة اميان انظر ص ٢٧٦

استنجاد المماليك بنابليون

واخفاقهم

ولما وجد المماليك ان حماتهم الانجليز تخلوا عنهم وتركوهم لأعدائهم الاتراك ولوا وجوههم شطر فرنسا ، فأنفذ ابراهيم بك وعثمان بك البرديسى رسولا يحمل الى نابليون — وكان وقتئذ قنصلا أول — كتابا يستنجدونه لتحقيق آمالهم وهذا الكتاب يعطيك صورة من نفسيتهم قالوا فيه :

« لقد هدمتم سلطتنا التى كانت ثابتة فى مصر من سنوات عديدة ، والآن يحق لنا أن نلجأ الى عطفكم لتعيدوا لنا تلك السلطة ، لقد وقع الانقسام فى صفوفنا بعد وفاة مراد بك ، وصرنا من ذلك الى احوال تعسة هى التى اضطرتنا أن نلجأ الى الحماية الانجليزية ، وان الاتراك قد أعلنوا علينا حربا ظالمة ، ولا غرو فان الغدر من أخص صفاتهم ، وان لدينا من القوة ما يمكننا من مقاومتهم ، ولكننا فى حاجة الى عضد يأتينا من الخارج ، فاليك نلجأ ، ومنك نطلب النجدة ، وفيك وضعنا كل ثقتنا ، فساعدنا بوساطتك لدى الباب العالى ، ونحن على استعداد لقبول الشروط التى تفرضونها علينا ، وعرفاناً لجميلكم فانا نتعهد بأن نخص تجارة الامة الفرنسية بأعظم المزايا »

وقد سافر الرسول بهذا الكتاب الى ثغر (ليفورن)(١) وتسلمه منه الجنرال برون Bron حاكم الثغر فبعث به الى باريس ليطلع عليه نابليون ، ولكنه لم يعره التفاتا لان سياسة فرنسا فى ذلك الوقت كانت متجهة الى كسب صداقة تركيا ، وكان السفير العثمانى قد وصل الى باريس منذ عهد قريب وابتدأت المفاوضات لاعادة العلاقات الودية بين الدولتين ، فلم يجد نابليون وجها لمعاضدة المماليك ، وأرسل الى حاكم ليفورن يطلب اليه ألا يسمح لرسول المماليك بالذهاب الى باريس

وهكذا كان المماليك يتحولون من ناحية الى أخرى يبحثون عمن يحتمون به ليستعيدوا فى البلاد سلطتهم الممقوته

---

(١) من ثغور ايطاليا وكانت وقتئذ تحت سيطرة فرنسا

جلاء الانجليز عن الجيزة

أخذ مركز خسرو باشا يبدو وطيداً فى مصر وزاد فى ثباته أن الحكومة الانجليزية أرسلت الى الجيش المرابط بالجيزة تأمره بالعودة الى الهند ، فانسحب الجيش الانجليزى من معسكره فى شهر مايو سنة ١٨٠٢ ، وسلم الجيزة الى خسرو باشا ، ومضى الى السويس فاقلعت به السفن الى الهند فى أوائل يونيه ، ولم يبق من جيش الاحتلال الانجليزى فى مصر سوى القوة المرابطة بالاسكندرية

واليك خلاصة ما ذكره الجبرتى فى صدد الجلاء عن الجيزة ، قل فى حوادث ٩ محرم سنة ١٢١٧ (١)

« أخذ الباشا (خسرو باشا) فى الاهتمام بتشهيل الانكليز المسافرين الى السويس والقصير وما يحتاجون اليه من الجمال والادوات وجميع ما يلزم ولما حضر الانكليز الى عند الباشا دعوه للحضور الى عندهم فوعدهم ليوم الجمعة ، فلما كان يوم الجمعة ثالث عشره ركب الباشا وصحبته طاهر باشا فى نحو الخمسين ، وعدى الى الجيزة بعد الظهر ، ووقفت عساكر الانكليز صفوفا رجالا وركبانا وبأيديهم البنادق والسيوف وأظهروا زينتهم وأبهتهم ، وذلك عندهم من التعظيم للقادم ، فنزل الباشا ودخل القصر فوجدهم كذلك صفوفا بدهاليز القصر ومحل الجلوس ، فجلس عندهم ساعة زمانية ، وأهدوا له هدايا وتقادم ، وعند قيامه ورجوعه ضربوا له عدة مدافع على قدر ما ضرب لهم هو عند حضورهم اليه ، فقد أخبرنى بعض خواصهم أن الباشا ضرب لهم سبعة عشر مدفعاً ، ولقد عددت ما ضربه الانكليز للباشا ، فكان كذلك »

وذكر الجبرتى أن عددهم عند جلائهم نحو خمسة الاف « واستمرت طائفة كبيرة من الانكليز بالاسكندرية حتى يريد الله »

وقال أيضاً فى حوادث ١٤ محرم (٢)

---

(١) يوافق ١٢ مايو سنة ١٨٠٢ (٢) ١٧ مايو سنة ١٨٠٢

« شرع الانكليز المتوجهون الى جهة السويس فى تعدية البر الشرقى، ونصبوا وطاقهم عند جزيرة بدران ، وبعضهم جهة العادلية ، وذهبت طائفة منهم جهة البر الغربى متوجهين الى القصير ، واستمروا يعدون عدة أيام ويحضر أكابرهم عند الباشا (خسرو باشا) ويركبون فيرمون لهم مدافع حال ركوبهم الى أماكنهم ، وفى يوم الاثنين ثانى عشرينه عدى حسين بك وكيل القبطان الى الجيزة وتسلمها من الانكليز وأقام بها وسكن بالقصر »

الحرب بين الاتراك والمماليك

كان خسرو باشا يعتمد فى تأييد سلطته على الجيش التركى المؤلف من نحو سبعة عشر الف مقاتل موزعين بين العاصمة والبنادر المهمة ، ومعظمهم من الجنود الالبانيين (الارناؤد) ومن رؤسائهم طاهر باشا وحسن باشا ومحمد على باشا ، على أن هذه السلطة لم تكن ثابتة وطيدة لانها ترتكز على جيش لا نظام فيه مؤلف من جنود ميالين الى التمرد والعصيان

بدأ خسرو باشا حركاته الحربية بتجريد حملة على المماليك فى الصعيد للقضاء عليهم ، فأنفذ اليهم جزءاً من جيشه بقيادة حسن باشا وكان المماليك قد انتشروا فى الفيوم وبنى سويف والمنيا

فلما علموا بزحف الجيش العثمانى على الصعيد أرسلوا الى خسرو باشا يطلبون اليه وقف القتال لمدة خمسة اشهر ريثما يعرضون الامر على الباب العالى ليؤكدوا له إخلاصهم ، ولكن خسرو باشا رأى فى هذا الطلب دليل ضعف ، فأجابهم بان لا كلام بينهم وبينه إلا أن يحضروا الى مصر ويظهروا خضوعهم كما فعل زميلهم عثمان بك حسن من قبل ، وقد أعطاهم الامان على ذلك مستثنياً ابراهيم بك وعثمان بك البرديسى ومحمد بك الالفى وسليم بك أبا دياب

هزيمة الاتراك فى هُوْ

كان هـذا الجواب إذلالا لزعـماء المماليك ، فنسوا مؤقتاً أحقادهم واختلافاتهم القديمة واتحدوا على قتال الاتراك ، فالتقوا بهم على مقربة من (هو) [1] وكان الترك بقيادة البكباشى أجدر بك ، فظهر المماليك عليهم وغلبوهم واستولوا على مدافعهم وقتلوا أجدر بك

قال الجبرتى فى هذا الصدد

«وفيه[2] وردت الاخبار بوقوع حادثة بين الامراء القبالى (المماليك) والعثمانية وذلك أن شخصاً من العثمانية يقال له (أجدر) موصوفا بالشجاعة والاقدام أراد أن يكبس عليهم على حين غفلة ليكون له ذكر ومنقبة فى أقرانه ، فركب فى نحو الالف من العسكر المعدودين وكانوا فى طرف الجبل بالقرب من الهو فسبق العين الى الامراء وأخبرهم بذلك فلما توسطوا سطح الجبل واذا بالمصرلية (المماليك) أقبلت عليهم فى ثلاثة طوابير فحاطوا بهم فضرب العثمانية بنادقهم طلقا واحداً لاغير ، ونظروا واذا بهم فى وسطهم وتحت سيوفهم ففتكوا بهم وحصدوهم ولم ينج منهم إلا القليل ، وأخذ كبيرهم أجدر المذكور أسيراً ، وانجلت الحرب بينهم وأحضروا أجدر بين يدى الالفى ، فقال له لاى شىء سموك أجدر ، فقال الاجدر معناه الافعى العظيمة ، وقد صرت من أتباعك ، فقال لكن يحتاج الامر الى تطريمك واخراج سمك أولا ، وأمر به فأخذوه وقلعوا أسنانه ثم قتلوه ، وأخذوا جميع ماكان معهم ومن جملة ذلك أربعة مدافع كبار ، (وفيه) قلدوا أحمد كاشف سليم امارة أسيوط وعزل أميرها مقدار بك العثمانى بسبب شكوى أهل النواحى من ظلمه »

ويقول الجبرتى ان من أسباب هزيمة الجنود العثمانية فى الصعيد كثرة المظالم التى ارتكبوها فى البلاد والغرامات التى فرضوها على الاهالى والنهب والتخريب فنفر منهم

---

(١) (هو) قرية فى الصعيد تابعة لمركز نجع حمادى الآن بمديرية قنا

(٢) ٩ جمادى الاولى سنة ١٢١٧ (٧ سبتمبر سنة ١٨٠٢)

سكان الاريف وانضموا الى المماليك فى محاربتهم ، على أن المماليك لم يقلوا عن الاتراك فى النهب وارتكاب المظالم

معركة دمنهور

٢٠ نوفمبر سنة ١٨٠٢

وفى أثناء ذلك تغير موقف الانجليز فى مصر وعادوا الى خطتهم الاولى فى معاونة المماليك ، ذلك أن الحكومة الفرنسية تغلبت على مساعى السياسة الانجليزية وعقدت هى وتركيا معاهدة صلح بتاريخ ٢٦ يونيه سنة ١٨٠٢ صدق عليها السلطان فى ٢٥ أغسطس من تلك السنة ، فساءها ذلك التقرب بين الدولتين ، وعادت تدس لتركيا فى مصر واستخدمت لهذا الغرض صنائعها القدماء (المماليك) ، وعينت الجنرال ستوارت Stwart قائدا للقوات البريطانية فى الاسكندرية بدلا من اللورد كافان ، وكانت خطته أن يؤيد المماليك فى مطالبهم

سعى الجنرال ستوارت لدى حكومة الاستانة ثم لدى خسرو باشا فى ان يعيد للمماليك امتيازاتهم القديمة فى الحكم ، ولكن مساعيه لم تصادف إلا رفضاً ، وزحف المماليك على الوجه البحرى واتصلوا اتصالا وثيقاً بالجنرال ستوارت ، ومن المحقق أنهم لولا اعتمادهم على معونة الجيش الانجليزى المرابط فى الاسكندرية لما زحفوا على الوجه البحرى ولبقوا ممتنعين بالصعيد

وصل المماليك فى زحفهم الى مديرية البحيرة ، فجرد خسرو باشا جيشين لمحاربتهم أولهما بقيادة يوسف كتخدا (وكيل الباشا) ، والآخر بقيادة محمد على وامتنع المماليك بقيادة عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى ففى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٠٢ هجم جيش يوسف بك على المماليك بالقرب من دمنهور ، فانتصر عليه البرديسى انتصاراً عظيما مع قلة عدد رجاله بالنسبة لعدد الجنود العثمانية ، وفقد الجيش العثمانى فى هذه المعركة نحو خمسة آلاف بين قتيل وأسير ، واستولى المماليك على مدافع الجيش العثمانى وذخيرته

رواية الجبرتى

واليك ما ذكره الجبرتى عن معركة دمنهور

« وفى خامس عشرين رجب سنة ١٢١٧ (١) تواترت الأخبار بوقوع معركة بين العثمانيين والامراء المصرلية (المماليك) بأراضى دمنهور وقتل من العساكر العثمانية مقتلة عظيمة ، وكانت الغلبة للمصرليين وانتصروا على العثمانيين ، وصورة ذلك انه لما تراءى الجمعان واصطفت عساكر العثمانيين الرجالة ببنادقهم واصطف الخيالة بخيولهم ، وكان الألبانى بطائفه من الأجناد نحو الثلثمائة قريباً منهم وصحبتهم جماعة من الانكليز فلما رأوهم مجتمعين لحربهم قال لهم الانكليز ماذا تصنعون ، قالوا نصدمهم ونحاربهم ، قال الانكليز انظروا ماتقولون ، ان عساكرهم الموجهين اليكم أربعة عشر ألفاً وأنتم قليلون ، قالوا النصر بيد الله ، فقالوا دونكم ، فساقوا اليهم خيولهم واقتحموا الى الخيالة فقتل منهم من قتل ، فانهزم الباقون وتركوا الرجالة خلفهم ، ثم كروا على الرجالة ، فلم يتحركوا بشىء وطلبوا الأمان ، فساقوا منهم نحو السبعمائة مثل الأغنام ، وأخذوا الجبخانة (الذخيرة) والمدافع وغالب الحملة ، والانكليز وقوف على علوة ينظرون الى الفريقين بالنظارات »

كان جيش محمد على على مقربة من الواقعة ، لكنه لم يحرك ساكنا لنجدة يوسف كتخدا قائد الجيش الآخر ، ذلك أنه رأى من مصلحته أن يدع الترك والمماليك يتطاحنان فيفنى بعضهم بعضا ، وبذلك تخلص البلاد من الفريقين معاً ، ويتوصل هو بارادة زعماء الشعب الى الاستيلاء على زمام الحكم ، وقد تحقق خسرو باشا ان (محمد على) تعمد الامتناع عن نجدة يوسف بك ، فأزمع التنكيل به سرا ، وكتب اليه أن يوافيه فى منتصف الليل لمخابرته فى بعض الشؤون ، فأدرك محمد على مراده ولم يجب الدعوة ، وبدأ الصراع من ذلك الحين بين الاثنين وأخذ كل منهما يسعى للتخلص من خصمه ، والى ذلك يشير الجبرتى بقوله « فكانت بينهم (٢) واقعة

---

(١) ٢١ نوفمبر سنة ١٨٠٢

(٢) الترك والمماليك

عظيمة بمرأى من الانـكليز ، وكانت الغلبة له (لمحمد بك الألفى) على العسكر ، وأخذ منهم جملة أسرى ، وانهزم الباقون شر هزيمة ، وحضروا الى مصر فى أسوأ حال ، وهذه الـكسرة كانت سبباً لحصول الوحشة بين الباشا (محمد خسرو باشا) والعسكر فانه غضب عليهم وأمرهم بالخروج من مصر فطلبوا علائفهم (رواتبهم) فقال بأى شىء تستحقون العلائف ولم يخرج من ايديكم شىء فامتنعوا من الخروج ، وكان المشار اليه فيهم محمد على ، فأراد الباشا اصطياده فلم يتمكن منه لشدة احتراسه »

جلاء الانجليز عن مصر
ورحيلهم عن الاسكندرية

فى ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ ابرم الصلح المعروف بصلح (أميان) Amiens بين فرنسا وانجلترا وهولندا واسبانيا ، ومن شروطه جلاء الانجليز عن مصر ، لكنهم رغم عهودهم أخذوا يماطلون فى الجلاء ويعملون باتفاقهم مع صنائعهم المماليك على اطالة أجل احتلالهم ، وقد كان نابليون ينظر بعين القلق الى مماطلة انجلترا فى الجلاء عن مصر لأنه رأى بثاقب نظره أن رسوخ قدمهم فيها يهدد السلام فى البحر الأبيض المتوسط وما يليه ويبسط نفوذ انجلترا وسيطرتها فى نواحيه وفى البلاد المفضية اليه ويملكها زمام التجارة فى الشرق

فلما رأى مماطلتها فى الجلاء أنفذ الى مصر الكولونل سباستيانى Sebastiani ليتعرّف نيات الانجليز ويدرس الحالة فى مصر (١) والكولونل سباستيانى هذا من خاصة رجالات نابليون الذين حاربوا تحت لوائه واعتمد عليهم فى مهمات سياسية وقد عهد اليه برحلة سياسية الى الشرق وخاصة فى مصر وتركيا سنة ١٨٠٢ ، ورفعه الى درجة قائد فرقة بعد واقعة استرلتز ثم عينه سفيرا لفرنسا فى تركيا وبقى على هذا المنصب الى سنة ١٨٠٧

جاء سباستيانى الى الاسكندرية خـلال شهر اكتوبر سنة ١٨٠٢ ، وطالب الجنرال ستوارت قائد القوات البريطانية بالجلاء عنها ، لـكنه رأى منه العزم على

---

(١) مراسلات نابليون الجزء الثامن وثيقة رقم ٦٢٧٦ و ٦٣٠٨

البقاء وألفى الانجليز غير مكترثين لعهودهم، وكذلك شأنهم فى كل عهود الجلاء التى قطعوها على أنفسهم قديماً وحديثا ، وما أشبه الليلة بالبارحة !

ولما علم المصريون أن الكولونل سباستيانى قادم ليستعجل الانجليز فى الجلاء عن البلاد قابله كبراؤهم وعلماؤهم بالحفاوة والاكرام ، وقد ألمع فى تقريره الذى رفعه الى نابوليون بعد عودته الى مبلغ مالقيه منهم من كرم الوفادة ، وذكر أسماء كبراء مصر فى ذلك العصر الذين قابل بعضهم كالسيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والشيخ الشرقاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المسيرى والسيد احمد المحروقى (١) ، وكذلك قوبل من خسرو باشا الوالى بالاكرام لأن العلاقات بين تركيا وانجلترا اعتراها وقتئذ شىء من الجفاء والفتور لتلكؤ الانجليز فى الجلاء ومعاونتهم المماليك واتجاه الباب العالى الى مصادقة فرنسا

أحدثت زيارة الكولونل سباستيانى ضجة فى مصر ، وأخذ الناس يخوضون فى حديثها ، وقد أشار اليها الجبرتى فى حوادث شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٧ ، وهذا يدل على انها من الحوادث البارزة فى ذلك الحين ، وهو وان لم يذكر اسم الكولونل إلا أن سياق العبارة وتاريخها وقرائنها تدل يقيناً على أنه يعنى الكولونل سباستيانى ، قال: «وفيه ورد الخبر بورود مركب من فرنسا وبها الجى (٢) وقنصل وصحبتهما عدة فرنسيس، فعمل لهم الانكليز شنكا ومدافع بالاسكندرية ، فلما كان ليلة الثلاثاء ثامن عشرينه وصل ذلك الأجى وصحبته خمسة من أكابر الفرنسيس الى ساحل بولاق ، فأرسل الباشا لملاقاتهم خازنداره وصحبته عدة عساكر خيالة وبأيديهم السيوف المسلولة ، فقابلوهم وضربوا لهم مدافع من بولاق والجيزة والازبكية ، وركبوا الى دار أعدت

---

(١) تقرير الكولونل سباستيانى المنشور بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ والوارد فى مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دى تستا De Testa الجزء الثانى

(٢) كلمة الجى مأخوذة من الفارسية (ايلجى) ومعناها سفير

لهم بحارة البنادقة وحضروا فى صبحها عند الباشا وقابلوه ، وقدم لهم خيلا معدة وأهدى لهم هدايا وصاروا يركبون فى هيئة وأبهة معتبرة ، وكان فيهم جبير (١) ترجمان بونابارته »

وقال فى حوادث رجب سنة ١٢١٧ (نوفمبر ١٨٠٢)

« وفى خامسه يوم الثلاثاء سافر الالجى الفرنساوى وأصحابه فنزلوا الى بولاق وأمامهم مماليك الباشا بزينتهم وهم لابسون الزروخ والخوذ وبأيديهم السيوف المسلولة وخلفهم العبيد المختصة بالباشا ، وعلى رءوسهم طراطير حمر ، وبأيديهم البنادق على كواهلهم ، فلم يزالوا صحبتهم حتى نزلوا بيت راشتو (٢) ببولاق ثم رجعوا ثم نزلوا المراكب الى دمياط ، وضربوا لهم مدافع عند تعويمهم السفن »

انتهى الكولونل سباستيانى من رحلته بمصر وغادرها الى بعض الثغور السورية ثم الى الاستانة ثم رجع الى فرنسا وقدم الى نابليون تقريراً عن مهمته ، وما فتىء نابليون يطالب انجلترا بالجلاء حتى اضطرت ان تجلو عن مصر وارسلت أوامرها بذلك الى الجنرال ستوارت .

موقف المماليك بعد جلاء الانجليز

أبلغ الجنرال ستوارت زعماء المماليك أوامر حكومته بجلاء الجنود الانجليزية عن مصر ، فوقع هذا الخبر كالصاعقة على رءوسهم لأنهم كانوا ينظرون الى الانجليز كحماة وأولياء لهم ، وقد نصحهم الجنرال ستوارت بالعودة الى الصعيد فى انتظار ما تبذله الحكومة الانجليزية من المساعى لصالحهم ، وكان ستوارت قد خبر نفسية المماليك ، وعجم عودهم ، فاستيقن أنهم قوم آفاقيون لايهمهم إلا قضاء لباناتهم ولو باعوا فى

---

(١) هو المسيو جوبير Jaubert أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون التى اصطحبها نابليون فى مصر مدة الحملة الفرنسية وقد جاء فى تقرير الكولونل سباستيانى انه جاء معه فى رحلته الى مصر ، وهذا يؤيد رواية الجبرتى

(٢) هو المسيو روستى Rosetti قنصل النمسا فى مصر ، وقد ورد اسمه فى تقرير الكولونل سباستيانى

سبيلها حقوق مصر ومصالحها ، ورأى أن انجلترا رغم جلائها عن مصر تستطيع أن تدخرهم فى المستقبل لتحقيق اطماعها فى وادى النيل وأن تتخذهم أداة لبسط نفوذها فى البلاد ، فرغب الى محمد بك الألفى أن يسافر الى انجلترا ليطلب منها مساعدة المماليك على حكم البلاد و يساومها فى هذا الشأن

ولم يكن الألفى أقل منه رغبة فى الرحلة الى انجلترا ،فقد كانت هذه الرحلة تختلج فى صدره منذ حين حتى ذهب بعض المؤرخين الى أنه هو الذى عرض على الجنرال ستوارت ان يأذن له باصطحابه الى لندن ، وسواء أكان الالفى هو المبتكر لفكرة الرحلة أم ان الجنرال ستوارت هو الموعز بها اليه فما لا جدال فيه انه رحل الى لندن معتمداً على وعود الجنرال ستوارت واغرائه ، قال (فولا بل) فى هذا الصدد (١) « لقد دعا الجنرال ستوارت الألفى بك الى مغادرة مصر والسفر الى لندن ليبرهن للحكومة الانجليزية على سهولة الاستيلاء على مصر واستغلالها سياسيا واقتصاديا ، ولما كان عليه الألفى من الطمع والتطلع الى المنافع اغتنم هذه الفرصة وعزم على استغلالها لصالح نفسه دون أن يتعرف الغاية من وراء هذه الحركة ، ولم يفهم أن الانجليز اذا سمحوا له باصطحابهم فلكى يكون لديهم رهينة لبقاء المماليك على ولائهم ثم ليتخذوه آلة مسخرة فى أيديهم يستخدمونه كيفما يريدون لمحاربة زملائه أو لمحاربة الأتراك ، و بدلا من أن يبحث فى هذه الناحية نظر الى رحلته كفرصة للظهور بمظهر الأبهة فى البلاد الأوربية ووسيلة الى تحقيق أطماعه فى الحكم »

اعتزم الالفى إذاً أن يرحل الى انجلترا ليعرض عليها ولاءه وولاء زملائه

وأتم الجنرال ستوارت معدات الجلاء ، ثم سلم قلاع الاسكندرية وأبراجها الى خورشد باشا محافظ المدينة يوم ١٤ مارس سنة ١٨٠٣ ، وأقلعت العمارة البريطانية من الثغر يوم ١٦ تقل الجنود الانجليز وعددهم ٤٫٤٠٠ مقاتل

و بذلك خلصت مصر من الاحتلال الانجليزى الاول

---

(١) فى كتابه (مصر الحديثة) وهو معاصر لتلك الحوادث

سافر محمد بك الالفى صحبة العمارة الانجليزية وأخذ معه أموالا طائلة مما نهبه فى الوجه القبلى مدة امارته

قال الجبرتى « وفى يوم الاربعاء ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢١٧ تحقق الخبر بنزول طائفة الانكليز وسفرهم من ثغر الاسكندرية فى يوم السبت حادى عشر ونزل بصحبتهم محمد بك الالفى وصحبته جماعة من اتباعه »

تجدد الحرب بين المماليك والاتراك

صار الاتراك أصحاب الحول والطول فى الاسكندرية ، فاصبحت خطراً على المماليك بعد أن كانت ملجأ لهم مدة الاحتلال البريطانى ، ولم يطمئنوا الى مقامهم بالبحيرة رغم انتصارهم فى دمنهور فانسحبوا بقيادة عثمان بك البرديسى الى الصعيد حيث كان الجيش التركى محتلا بعض البنادر الكبيرة وأهمها المنيا وأسيوط وجرجا

احتلال المماليك المنيا

فهاجم البرديسى المنيا واحتلها بعد قتال شديد ، وكانت الجنود العثمانية تدافع عنها بقيادة حاكم المدينة (سليم كاشف) وهو من المماليك الذين انضموا الى الاتراك ، فلما تم للمماليك احتلال المنيا اعملوا فيها النار وقتلوا من فيها من الاهالى والجنود

واليك ما ذكره الجبرتى فى هذا الصدد :

« وفيه (١) وردت أخبار بأن الامراء المصرلية (المماليك) وصلوا الى منية ابن خصيب ، فأرسلوا الى حاكمها بأن ينتقل منها ويعدى هو ومن معه من العسكر الى البر الشرقى حتى انهم يقيمون بها أياما ويقضون اشغالهم ثم يرحلون ، فأبوا عليهم وحصنوا البلدة وزادوا فى عمل المتاريس ، وحاكمها المذكور سليم كاشف تابع عثمان بك الطنبرجى المرادى المقتول فانه سالم العثمانيين وانضم اليهم فألبسوه حاكما على المنية وأضافوا اليه عساكر فذهب اليها ولم يزل مجتهدا فى عمل متاريس ومدافع حتى

---

(١) يوم ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢١٧ (١٧ ابريل سنة ١٨٠٣)

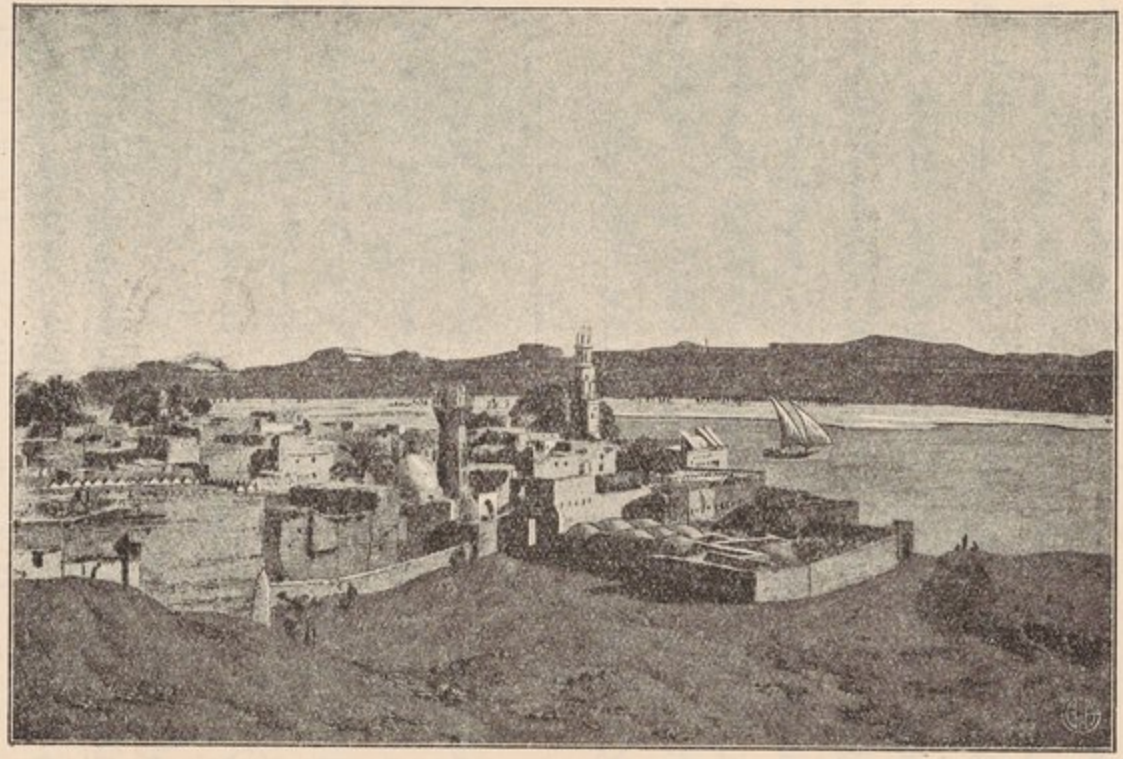

المنيا كما كانت في أوائل القرن التاسع عشر

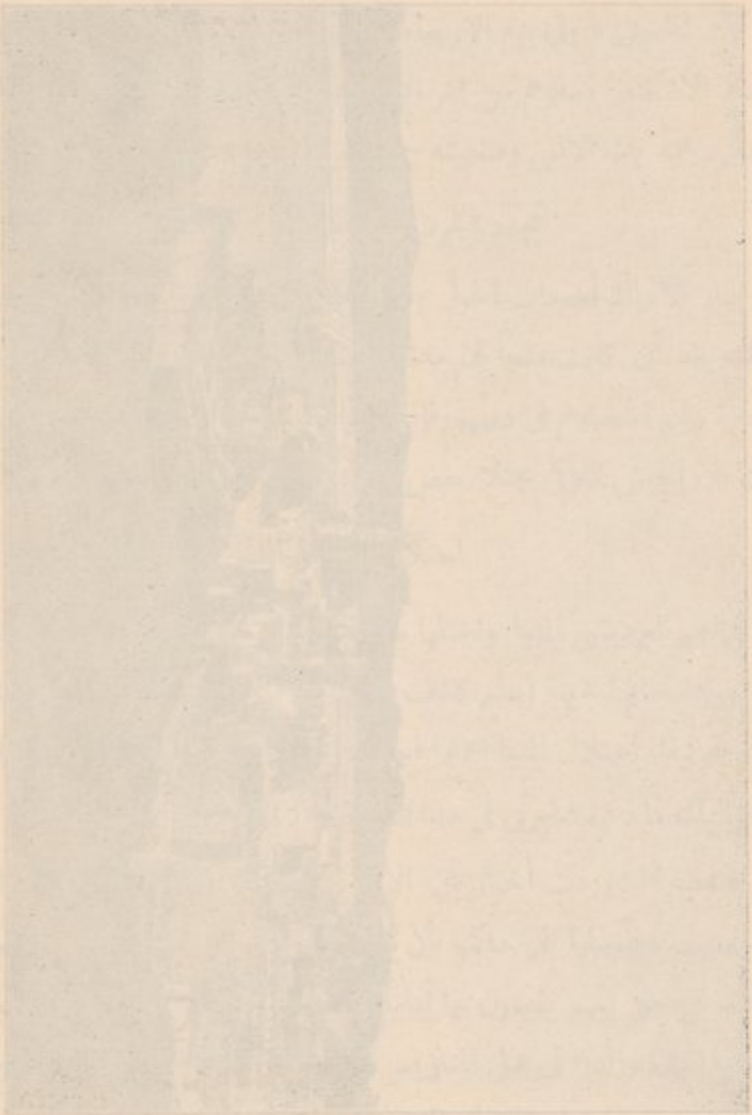

ظن أنه صار في منعة عظيمة ، فلما أجابهم بالامتناع حضروا الى البلدة وحاربهم أشد المحاربة مدة أربعة أيام بلياليها حتى غلبوا عليهم ودخلوا البلدة وأطلقوا فيها النار وقتلوا أهلها وما بها من العسكر ، ولم ينج منهم الا من القى نفسه فى البحر (النيل) وعام الى البر الآخر أو كان قد هرب قبل ذلك ، وأما سليم كاشف فانهم قبضوا عليه حيا وأخذوه أسيراً الى ابراهيم بيك ، فوبخه وأمر بضربه فضربوه علقة بالنبابيت »

كان لاحتلال المنيا أثر كبير فى سير القتال لأنه جعل الملاحة فى النيل تحت رحمة المماليك واستطاعوا أن يمنعوا وصول الغلال من الصعيد الى القاهرة والوجه البحرى ، وصارت الحاميات العثمانية فى أسيوط وجرجا فى خطر ، وقد أسرف الفريقان المتحاربان فى ظلم الاهالى وسلب أموالهم ، فكلما مروا بالقرى طلبوا من أهلها دفع الاتاوات والغرامات ووضعوا أيديهم قوة واقتدارا على ما يملكه الناس من مال وحاصلات ، فضج الناس من مظالم الفريقين وتمنوا الخلاص منهما

ثورة الجنود على الوالى

هال خسرو باشا استيلاء المماليك على المنيا وعزم على تجريد جيش يحاربهم ويقف تقدمهم ، فاستدعى قوات طاهر باشا ومحمد على ، فوصل الجيشان الى القاهرة ودخل جنود طاهر باشا المدينة وبقى جنود محمد على فى ضواحيها ، ورأى محمد على أن الفرصة سانحة للتخلص من خسرو باشا ، فأوعز هو وطاهر الى الجنود — ومعظمهم من الأرناؤد — بالمطالبة برواتبهم المتأخرة ، فسرعان ما لبوا الدعوة وتمردوا وخاصة لما علموا بمشروع تجريدهم على الصعيد

تكررت حوادث تمرد الجند حتى صارت القاهرة فى فتنة مستمرة ، ففى ٢٣ أبريل سنة ١٨٠٣ ذهب جماعة من رؤساء الجند الى خسرو باشا يطالبون برواتبهم المتأخرة فاحالهم على الدفتردار (١) (مدير الشؤون المالية) فذهبوا اليه فأحالهم هذا على محمد

---

(١) خليل افندى الرجائى

على ، فذهبوا اليه وكان قد وعدهم بدفع رواتبهم فى ذلك اليوم ، لـكنه اعتذر اليهم بأنه لم يقبض شيئاً ، فثار الجند أمام بيت محمد على ، ولم يخش شرهم لانه يعلم أن هذه الفتنة ليست موجهة ضده وانما وقعت بايعاز منه ، وذاع خبر الفتنة فى المدينة فتوجس التجار شرا مستطيراً لان الجنود اعتادوا عند تمردهم للمطالبة برواتبهم المتأخرة أن يبيحوا لانفسهم النهب والسلب ، فاقفل التجار حوانيتهم وأخذوا ينقلون منها الى بيوتهم ما خف حمله نجاةً به من النهب ، ثم وُعد الجنود بدفع رواتبهم بعد ستة أيام ، فسكنت الفتنة ، والظاهر أن هذا السكون لم يكن الا وقتيا وان الايام الستة انقضت فى العمل على استئناف التمرد

ففى اليوم التاسع والعشرين من شهر ابريل احتشد الجنود المتمردون وقصدوا بجموعهم الى ميدان الازبكية وحاصروا منزل الدفتردار وطالبوه برواتبهم ، فبعث الى خسرو باشا يطلب أن يوافيه بالمال ليكمل ما عنده و يدفع مايستطيع دفعه من رواتب الجند ، فكان جواب الباشا أن أمر بضرب الجند بالمدافع من القلعة ، فثارت ثائرتهم ونهبوا منزل الدفتردار ، وعظمت الفتنة وتسامع الناس دوى المدافع والبنادق ، فساد الذعر فى المدينة وأغلق التجار حوانيتهم ، ولم يعبأ خسرو باشا بهذه الفتنة وظن أن فى استطاعته اخمادها بالقوة ، وجاء اليه طاهر باشا يتظاهر بالوساطة بينه و بين الجند فرفض خسرو باشا مقابلته وأمره أن يلزم داره ، واستمر القتال الى اليوم التالى (السبت الموافق ٣٠ ابريل — ٩ محرم) ناشبا بين الجند المتمردين والعسكر الموالين للوالى وتمكن طاهر باشا وجنوده من الاستيلاء على القلعة وأخذوا يضربون قصر خسرو باشا بالمدافع واصبحت المدينة فى قبضتهم

فاسقط فى يد الباشا ، واستمرت الفتنة الى يوم الاحد ، فاستولى الجنود الأرناؤد على أهم مواقع المدينة وأضرموا النار فى قصر الوالى (١) وحاصروه ، فلم يسع خسرو

---

(١) هو بيت محمد بك الالفى القديم بالازبكية الذى سكنه نابليون ثم كليبر ثم منو وكان كل منهم يدخل فيه تحسينات وعمارات جديدة وسكن به الوالى خسرو باشا وادخل فيه عمارة كبيرة وقد التهمت النيران مبانيه العظيمة حتى لم يبق منه الا الجدران

باشاالا أن يلوذ بالهرب وفر هو وعائلته وحاشيته و بقية من جنوده ، وخرج من المدينة وقصدالى قليوب فالمنصورة فدمياط واستقر بها ، وأخذ يستعد لاسترجاع ولايته،ومن غريب امره انه وهو فى محنته وفى فراره ضرب الضرائب على البلاد التى مر بها وأخذ من الاموال مااستطاع نهبه، ذكر الجبرتى أنه فرض على أهل المنصورة تسعين الف ريال وضرب الضرائب على كثير من بلاد الدقهلية والغربية ، و بفرار خسرو باشا انتهت ولايته الفعلية ، فكانت مدتها سنة وثلاثة أشهر وواحدا وعشرين يوما ، وكان كما يقول الجبرتى «سيء التدبير لايحسن التصرف، يميل الى سفك الدماء ولا يضع شيئا فى محله» وقال عنه انه فى آخر مدته داخله الغرور وطاوع قرناء السوء المحدقين به والتفت الى المظالم وفرض الضرائب على الناس وأهل القرى « حتى انهم حرروا دفاتر فردة (ضريبة) على عامة الدور والاماكن باجرة ثلاث سنوات، وقيل أشنع من ذلك ، فانتقد الله عباده وسلط عليه جنده وعساكره وخرج مرغوما مقهورا »

تعيين طاهر باشا قائمقاما

ثم مقتله

وفى مساء هذا اليوم كانت المدينة فى قبضة يد طاهر باشا قائد الجنود الالبانيين (الارناؤد) وصار منصب الولاية على مصر شاغرا ، فطلب طاهر باشا الى المشايخ وكبار العلماء ، والوجاقلية أن يختاروا من يشغل هذا المنصب

فاجتمع المشايخ يوم الجمعة ١٤ محرم سنة ١٢١٨ (٦ مايو سنة ١٨٠٣) ببيت القاضى (دار المحكمة) وذهبوا صحبته الى بيت طاهر باشا وأعلنوه باختياره «قائمقاما» الى أن تحضر له الولاية أو يعين وال آخر، وطلبوا منه رفع المظالم التى كان الناس يشكون منها، وفى هذا المجلس نفسه عرض المشايخ رسالة من البكوات المماليك فى الوجه القبلى أرسلوها قبل حدوث الفتنة العسكرية التى انتهت بخلع خسرو باشا يعرضون فيها الصلح والكف عن القتال ، و يلقون تبعة استمرار الحرب على عاتق الصدر الاعظم وخسرو باشا ، و يطلبون من المشايخ ان يتوسطوا لهم فى الصلح، فانتهز طاهر باشا هذه

الفرصة ليجتذب اليه المماليك ، وكتب لهم جوابا يدعوهم الى الحضور والاقتراب من القاهرة .

ظهرت للمشايخ فى هذا التعيين سلطة رسمية، وان كانت فى الواقع اسمية، لان طاهر باشا انما وصل الى القائممقامية بحد السيف ، لكن مجرد استشعاره بضرورة اتفاق العلماء على اختياره هو تسليم منه بان لهم شأنا فى حل الازمات، كما أن تدخلهم فى الوساطة بين البكوات المماليك والوالى اكسبهم نفوذا على الفريقين، ومساعيهم فى رفع المظالم أعلت مكانتهم وزادت فى التفاف الناس حولهم

مظالم طاهر باشا

وقد كان للعلماء مقام محمود فى مقاومة المظالم التى ارتكبها طاهر باشا ، فان أول عمل له أنه القى القبض على جماعة من كبار الموظفين والاعيان بحجة أنهم من أنصار خسرو باشا، منهم السيد احمد المحروقى كبير التجار ، ورئيس الانكشارية ، وكاتب خزانة خسرو باشا ، ومصطفى الوكيل وغيرهم ، وسجنهم فى القلعة، فتدخل المشايخ وتوصلوا الى اطلاق سراح السيد المحروقى فنزل من القلعة فى اليوم التالى لاعتقاله ، وتدخل السادات للافراج عن مصطفى الوكيل وأخذه معه الى بيته وكان ذلك يوم الجمعة ٢١ محرم سنة ١٢١٨ ، فلما كان يوم الاحد أرسل طاهر باشا يطلب مصطفى الوكيل من عند الشيخ السادات فذهب معه السادات الى طاهر باشا ليحميه من بطشه ، فلما رآه الجنود القوا القبض عليه ثانية واخذوه الى القلعة، فخنق السيد السادات من هذا الظلم ودخل على طاهر باشا واعترضه اعتراضا شديدا أو كما يقول الجبرتى «تشاجر معه» ، فاطلعه طاهر باشا على خطاب مرسل الى مصطفى الوكيل من خسرو باشا يبرهن له على انه موال لخسرو وأن اعتقاله واجب ، فقال السادات ان هذا لا يؤاخذ به وانما يؤاخذ اذا كان المكتوب منه الى خسرو باشا ، وكان طاهر باشا مصمما على قتله ، فانتهى الامر على ألا يقتله وأن يبقى ببيت السادات مشمولا بحمايته ، وخشى طاهر باشا من تغير خاطر السادات بسبب هذه الحادثة فذهب اليه فى بيته يسترضيه ويعتذر اليه

ومن مظالم طاهر باشا انه أمر بقتل المعلم ملطى من كبار الكتبة الاقباط وهو الذى كان متوليا القضاء فى زمن الفرنسيين، وأمر كذلك بقتل المعلم حنا الصبحانى احد التجار السوريين ، ولم يذكر الجبرتى سبب قتلهما ، ولكن لانزاع فى أن مرجعه الطمع فى أموالهما ، وأمر أيضا بقتل اثنين من كبار الوجاقلية (الجهادية) وهما أحمد كتخدا على باش اختيار وجاق الانكشارية ومصطفى كتخدا الرزاز كتخدا وجاق العزب على أن طاهر باشا لم يدم له الامر ، فقد اشتهر بالظلم والجبروت واطلق لجنوده الالبانيين عنان السلب والنهب وضرب الغرامات الفادحة على التجار ، وكان الجنود الانكشارية الذين فى المدينة قد قاموا يطالبون برواتبهم المتأخرة مقتدين بالجنود الارناؤد ، فرفض طاهر باشا طلبهم وظهر تحيزه الى الارناؤد وتحامله على الانكشارية ، فبينما كان يغدق المال على أولئك كان يضن به على هؤلاء ، واذا طالبوه برواتبهم المتأخرة صارحهم بان ليس لهم عنده رواتب الا من عهد ولايته وأحالهم على خسرو باشا الوالى المطرود ، فحنقوا عليه ، وزاد من سخطهم ان الارناؤد اذلوهم فى عهده وكانوا يعتبرون انتصارهم على خسرو باشا فوزا على الانكشارية اجمعين ، فشمخوا بأنوفهم وجعلوا ينظرون اليهم بعين الاحتقار والزراية ، فأوغر كل ذلك صدور الانكشارية وبيّتوا فيما بينهم ان ينتقموا من الأرناؤد وعزموا على الفتك بطاهر باشا وتعيين أحد رؤساء الانكشارية بدله

فلما كان يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٠٣ (١) ذهب رهط منهم يبلغ عدده نحو ٢٥٠ فى اسلحتهم الى طاهر باشا وعلى رأسهم اثنان من اغواتهم (رؤسائهم) وهما موسى اغا واسماعيل اغا ، فدخلا على طاهر باشا وكلماه فى الشكوى من تأخير دفع الرواتب ، فانتهرهما ورفض ان يسمع الى شكواهما واشتد الجدال والخصام بينهم فجرد أحدهما سيفه وضرب طاهر باشا فقطع رأسه ورمياه من الشباك ، فعادت السلطة مؤقتا الى الانكشارية واحرقوا دار طاهر باشا ونهبوها ، وكانت مدة حكمه أياما معدودة ، قال الجبرتى « ولو طال عمره اكثر من ذلك لاهلك الحرث والنسل »

---

(١) ٤ صفر سنة ١٢١٨

تعيين احمد باشا

كانت قوات المماليك وجنود محمد على على أبواب القاهرة، فرأى الانكشارية أن يبادروا الى تعيين وال منهم يخلف طاهر باشا فى الحكم ليضعوا المماليك ومحمد على أمام الامر الواقع، فوقع اختيارهم على أحمد باشا والى المدينة المنورة وكان موجودا وقتئذ بالقاهرة فولوه الحكم وارسل يستميل اليه محمد على الذى احتل القلعة واصبح بعد موت طاهر باشا قائد الجنود الالبانيين وعددهم نحو ٤٠٠٠ مقاتل

تحالف محمد على والمماليك

لكن محمد على رأى من مصلحته الاتفاق مع المماليك للتخلص من القوة التركية أولا على أن يعود فيتخلص بعد ذلك من المماليك، وكان محمد على ملتزما الحيدة ظاهرا وان لم يكن بعيدا عن حركة الالبانيين التى انتهت بعزل خسرو باشا، وظل فى القاهرة متظاهرا بالحيدة اثناء ولاية طاهر باشا، يرقب الحوادث عن كثب، وينتظر الفرصة السانحة ليحقق برنامجه، فلما عين الانكشارية أحمد باشا صمم على الخروج من حيدته وعزم على التحالف مع المماليك

وأراد أحمد باشا أن يستميل اليه العلماء ويستخدم نفوذهم لتثبيت مركزه واقناع محمد على بقبول ولايته، فأحضرهم وطلب اليهم أن يذهبوا الى محمد على ويخاطبوه فى الاذعان للطاعة، فذهبوا اليه وخاطبوه فى ذلك فأجاب بأن أحمد باشا ليس والياً على مصر، وانما هو والى المدينة المنورة وليس له علاقة بمصر، وقال « انى أنا الذى وليت طاهر باشا لكونه محافظ الديار المصرية من طرف الدولة وله شبهة فى الجملة، وأما أحمد باشا فليس له شبهة فيجب أن يخرج من البلد ويأخذ معه الانكشارية ونجهزه ويسافر الى ولايته » فقام العلماء على ذلك، وطلب اليهم أحمد باشا أن يأمروا الرعية بالقيام على الالبانيين وقتلهم، فلم يجيبوه الى طلبه، وقاموا من عنده ليتشاوروا فى الامر، فطلب اليهم أحمد باشا أن يبقوا عنده وأن يرسلوا للناس بما يأمرهم به، وكان غرضه أن يُكرههم فيملى عليهم فلا يعصوا له أمرا، فقالوا « ان عادتنا أن يكون جلوسنا فى

المهمات بالجامع الازهر نجتمع به ونرسل الى الرعية فانهم عند ذلك لايخالفوننا » ولم يزالوا به حتى تخلصوا وخرجوا من عنده

أما محمد على فقد جاهر بتحالفه والمماليك، واجتمع بابراهيم بك فى الجيزة ، وألقى فى روعه أنه يؤيده وأنه أولى الناس بولاية مصر ، فدخل محمد على وابراهيم بك وعثمان بك البرديسى و باقى زعماء المماليك القاهرة متحالفين وطردوا أحمد باشا ، فكانت مدة ولايته يوماً وليلة ، وأعلنوا فى المدينة تحالف المماليك والالبانيين واستولوا على زمام الحكم، وقتل الارناؤد اسماعيل اغا وموسى اغا اللذين قتلا طاهر باشا، وقتلوا أيضاً خليل افندى الرجائى الدفتردار السابق ويوسف كتخدا بيك وكيل خسرو باشا بعد أن نهبوا منازلهما

بدأت سلطة محمد على تظهر فى الميدان، ونادى المنادون فى القاهرة «بالامان حسب مارسم ابراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد على »

فكان هـذا النداء فى شوارع القاهرة إعلاناً باقتسام السلطة بين ابراهيم بك ومحمد على ، وليذكر القارىء هـذا النداء ، فان عبارة « حسب مارسم به فلان » هى اعلان باسم من أصبح قابضا على زمام السلطة فى ذلك العصر

اتفق محمد على وابراهيم وعثمان البرديسى على التخلص من الاتراك ، فحاصر أتباعهم قلعة جامع الظاهر التى كان الانكشارية يقيمون بها ، ولم يزالوا بهم حتى أخرجوهم منها ونزعوا أسلحتهم وطردوهم من القاهرة ، وكذلك طردوا منها جميع الانكشارية والاتراك والدشناق ، ونادوا بتحذير الناس من ايوائهم

اعتقال خسرو باشا

كانت الصلات بين المماليك ومحمد على فى ذلك الحين على أتم صفاء ووئام ، لكن محمد على ترك السلطة ظاهرا للمماليك حتى يحتملوا تبعة الاحداث التى تقع فى البلاد ، و بالغ فى التودد اليهم فسلمهم قلعة القاهرة ، واتفق وايام على تجريد حملة على دمياط للقضاء على سلطة خسرو باشا ، وحملة أخرى للقضاء على الحامية العثمانية فى

رشيد ، فسارت الحملة الأولى الى دمياط بقيادة عثمان البرديسى واشتراك محمد على ، وجردوا الحملة الثانية الى رشيد بقيادة سليمان كاشف ، ففاز البرديسى على خسرو باشا فى دمياط وانتهت الحملة بالقبض عليه وإرساله الى القاهرة سجينا ، وقد ارتكب المماليك والارناؤد فى دمياط كثيرا من الفظائع والمظالم والنهب والسلب ، وابتهج المماليك لهذا النصر ابتهاجا عظيما وظنوا ان مصر دانت لهم ، ونادى ابراهيم بك بنفسه « قائممقام مصر »

تعيين على باشا الجزائرلى واليا

علمت الحكومة العثمانية بعزل خسرو باشا وفراره الى دمياط ودخول البكوات المماليك القاهرة وعودة السلطة اليهم ، فهالها ما أصاب هيبتها من التصدّع ، وعزمت على استرداد سلطتها ، فعينت على باشا الجزائرلى واليا لمصر بدلا من خسرو باشا وأوفدته الى مصر ليعيد الحالة الى نصابها ويكبح جماح المماليك

وعلى باشا الجزائرلى هذا كان مملوكا لمحمد باشا حاكم الجزائر ، ولذلك سمى الجزائرلى ، ويسميه الجبرتى على باشا (الطرابلسى) لانه تقلد ولاية طرابلس الغرب ، وقد اشتهر فيها بالظلم وارتكاب الجرائم ، فثار به أهلها واضطر الى الهرب وفر الى مصر ولجأ الى مراد بيك زعيم المماليك ، فظل فى حماه وضيافته الى أن جاءت الحملة الفرنسية فقاتل قليلا فى صفوف المماليك ورحل خلال الحملة الى سورية ومنها الى الاستانة الى أن اختاره الباب العالى لولاية مصر ، ولم يكن متصفاً بأى صفة تؤهله لهذا المنصب لا من جهة الاخلاق ولا من ناحية المواهب الادارية أو الكفاية الحربية ، ولكنه بلغ هذا المنصب من طريق التقرب الى الصدر الأعظم ووعده بأن يبذل الأموال الطائلة لخزانة الدولة اذا أسندت اليه ولاية مصر

جاء على باشا الجزائرلى الى الاسكندرية فى أوائل يوليه سنه ١٨٠٣ ومعه قوة من الف جندى ، وكانت هذه القوة أضعف من أن توطد سلطته فى البلاد وخاصة بعد انتصار المماليك وتحالفهم مع محمد على ، فأخذ يكاتب البكوات المماليك ويدعوهم

الى الولاء لحكومة الاستانة ويلومهم على ما فعلوه من دخول القاهرة وطرد الاتراك والانكشارية منها ، فأجابه ابراهيم بك ان المماليك لم يدخلوا المدينة إلا بناء على دعوة المشايخ والعلماء لوضع حد للفوضى التى عصفت بها وانهم يرفضون الخروج من مصر ويصرون على البقاء فيها

وقد فطن المماليك إلى أن الوالى الجديد اذا ترك وشأنه سار بجنوده الى القاهرة ليعيد الحكم العثمانى ، فاعتزموا محاربته ، وسار البرديسى بجنوده صحبة محمد على الى رشيد ليستردوها من يد الاتراك ، فاحتلوها وامتنعت الجنود التركية فى قلعتها بقيادة السيد على القبطان أخى على باشا الجزائرلى ، فحاصرها المماليك وشددوا عليها الحصار حتى سلمها الاتراك (أغسطس سنة ١٨٠٣) وفرض المماليك على رشيد غرامة فادحة بلغت ثمانين الف ريال ، ونهبوا المدينة ، وأقام البرديسى على رشيد مملوكه يحيى بيك ، وحصن فيها القلعة والبوغاز وعزم من ثَمَّ على مواصلة القتال ومطاردة الاتراك الى أن يحتل الاسكندرية

موقف محمد على

كان البرديسى موطداً عزمه على أخذ الاسكندرية لانها كانت آخر موقع للاتراك فى مصر ، لكن محمد على رغب عن الزحف اليها ، ذلك انه رأى استيلاء المماليك عليها يثبت قدمهم ويؤيد سلطانهم ويحول دون انفاذ برنامجه ، وبرنامجه يقتضى اضعافهم ليعجل بالتخلص منهم عند سنوح الفرصة ، ورأى أن بقاء الاسكندرية فى يد الوالى التركى لا يضره شيئاً لان سلطة الوالى التركى مزعزعة مضطربة لا تحتاج الى مجهود كبير للقضاء عليها والتخلص منها فى الوقت المناسب ، فآثر العودة بجنوده الى القاهرة ، وكتم عن البرديسي غايته من هذا الرجوع ، وتظاهر بأن حجته فى ذلك ان لجنوده رواتب متأخرة لم تدفع لهم ، فارتاب البرديسى فى هذا الرجوع الفجائى وتغير موقفه تبعاً لذلك وعدل عن حصار الاسكندرية ، واعتزم هو أيضا الرجوع الى القاهرة ، ذلك أنه رأى قواته نقصت بما اصطحبه محمد على من الجنود الارناؤد ،

وعلم من جهة أخرى مناعة موقع الاسكندرية وصعوبة الاستيلاء عليها ، وزاد موقفه حرجا نقص النيل فى تلك السنة (اغسطس سنة ١٨٠٣) وما أفضى اليه من غلاء الاسعار وقلق الخواطر وتبلبل الافكار ونقص الاقوات والمؤن فى معسكره وتذمر جنوده المماليك من قلة الزاد ، والحاحهم فى طلب رواتبهم المتأخرة ، وبالرغم من أنهم نهبوا الكثير من أموال الاهالى وحاصلاتهم فانهم كانوا يدعون « ان ما يأخذونه من المنهوبات لا يدخل فى حساب رواتبهم !! » (١) وكان المماليك فى أثناء ذلك لا يفتأون يفرضون الضرائب والغرامات على البلاد « حتى خرب الكثير من القرى والبلاد وجلا أهلها عنها خصوصا اقليم البحيرة فانه خرب عن آخره (٢) »

ومن ثم رجع البرديسى عن زحفه على الاسكندرية وعاد ادراجه الى القاهرة (سبتمبر سنة ١٨٠٣)

حضور المسيو ماسيو دلسبس

وبين هذه الحوادث ، فى يوليه سنة ١٨٠٣ ، حضر الى الاسكندرية المسيو ماسيو دلسبس Mathieu Delesseps قنصل فرنسا فى مصر (٣) ، فاستقبله البرديسى أثناء حصار رشيد وذهب الى القاهرة فتلقاه ابراهيم بيك بالرعاية والاكرام ، قال الجبرتى فى هذا الصدد

« وفى ثالث عشر ربيع الثانى سنة ١٢١٨ (٤) حضر (الى القاهرة) قنصل الفرنسيس فعملوا له شنكا ومدافع وأركبوه من بولاق بموكب جليل وقدامه أغات الانكشارية والوالى (رئيس الشرطة) وأكابر الكشاف وحسين كاشف المعروف بالافرنجى وعساكره الذين مثل عسكر الفرنسيس وهيئته لم يتقدم مثلها بين المسلمين . ونصب بندبرته فى بركة الازبكية من ناحية قنطرة الدكة على صارى طويل مرتفع فى الهواء ، واجتمع اليه كثير من النصارى الشوام والاقباط وعملوا جمعيات وولائم وازدحموا على بابه وحضر

---

(١) و (٢) الجبرتى الجزء الثالث

(٣) هو والد المسيو فردينان دلسبس فاتح قناة السويس

(٤) يوافق ٢ أغسطس سنة ١٨٠٣

صحبته كثير من الذين هربوا عند دخول المسلمين مع الوزير وكان المحتفل بذلك حسين كاشف الافرنجى » والجبرتى وان لم يذكر اسم القنصل الا ان التاريخ الذى أورده عن حضوره للقاهرة يدل على أنه يعنى المسيو ماسيو دلسبس

قطع سد أبو قير

وكان على باشا الجزائرلى مجدا فى تحصين الاسكندرية ليدفع عنها هجوم المماليك ، ومما تذرع به فى هـذا العمل أنه قطع سد أبو قير لتطغى الميـاه حوالى الاسكندرية ويمنع وصول المماليك اليها ، لـكنها فكرة حمقاء ، لانها حرمت الثغر من ورود المياه العذبة ، وهذا السد هو الذي قطعه الانجليز سنة ١٨٠١ كما مر بك بيانه (١) ويقول المسيو فيلكس مانجان (٢) ان المهندس السويدى ردون Redon قد باشر اصلاحه بعد جلاء الفرنسيين ، لـكن الجبرتى يقول ان الذى أصلح السد هو مهندس تركى لا سويدى يدعى صالح افندى أرسلته الدولة خصيصا لاصلاحه وقضى سنة ونصفا فى عمله الى أن قطعه على باشا ثانية ، ويلوح لنا أن رواية المسيو مانجان أرجح من رواية الجبرتى إذ يؤيدها ما ورد فى تقرير الـكولونل سباستيانى الذى جاء مصر فى اكتوبر سنة ١٨٠٢ ، فهو يقول ان الذى تولى اصلاح السد هو مهندس سويدى أوفده الباب العالى لهذا الغرض (٣)

وقد كان لقطع سد أبو قير أولا وثانياً أسوأ الاثر فى حالة الاسكندريه وقسم عظيم من مديرية البحيرة ، فان البحر طغت مياهه على شمال البحيرة وخرب كثيراً من القرى والاراضى وأتلف ترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) التى كانت تروى

---

(١) ص ٢٥٢ (٢) فى كتاب مصر تحت حكم محمد على

(٣) تقرير الـكولونيل سباستيانى الى نابليون المنشور فى الجريدة الرسمية الفرنسية بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ والوارد فى مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دى تستا De Testa الجزء الثانى

الثغر بالمياه العذبة ، فانقطعت المياه عن الاسكندرية ، وتعطلت المواصلات البها ، فأمعنت فى التقهقر وزادت حالتها سوءا واشتد الضيق بأهلها ، واضطر الكثيرون منهم الى الهجرة مما أدى الى تناقص عدد سكانها حتى بلغ عددهم فى أوائل عهد محمد على نحو ستة آلاف نسمة ، وقد ذكر الجبرتى ما اصاب الاسكندرية والبحيرة من الخراب بعد قطع السد على عهد الحملة الفرنسية وبعد انتهائها قال « فسالت المياه المالحة على الاراضى الى قرب دمنهور واختلطت بخليج (ترعة) الاشرفية ، وشرقت الاراضى ، وخربت القرى والبلاد ، فتلفت المزارع ، وانقطعت الطرق حول الاسكندرية من البر ، وامتنع وصول ماء النيل الى أهل الاسكندرية فلم يصل اليهم إلا ما يصلهم من جهة البحر فى النقاير (مراكب المياه) أو ما ماخزنوه من مياه الامطار بالصهاريج وبعض العيون المستعذبة ، فلما استقر العثمانيون بمصر حضر شخص من طرف الدولة يسمى صالح افندى معين لخصوص السد وأحضر معه عدة مراكب بها أخشاب وآلات ، وبذل الهمة والاجتهاد فى سد الجسر ، فأقام العمل فى ذلك نحو سنة ونصف حتى قارب الاتمام وفرح الناس بذلك غاية الفرح واستبشر أهل القرى والنواحى ، فما هو إلا وقد حصلت هذه الحوادث وحضر على باشا الى الثغر وخرج الاجناد المصرلية (المماليك) وحاربوا السيد على القبطان [1] على برج رشيد فخاف حضورهم الى الاسكندرية ففتحه ثانياً ورجع التلف كما كان وذهب ما صنعه صالح افندى المذكور فى الفارغ بعدما صرف عليه أموالا عظيمة ، وأما أهل اسكندرية فانهم جلوا عنها ونزل البعض فى المراكب وسافر الى أزمير وبعضهم الى قبرص ورودس والاضات وبعضهم اكترى بالايام وأقاموا بها على الثغر ولم يبق بالبلدة الا الفقراء والعواجز الذين لايجدون ماينفقونه على الرحلة وهم مستوفزون وعمها الغلاء لعدم الوارد وانقطاع الطرق »

مقتل على باشا الجزائرلى

أما على باشا فانه بقى بالاسكندرية الى أواخر سنة ١٨٠٣ ثم غادرها يوم

---

(١) هو أخو على باشا الجزائرلى كما تقدم بيانه

٢٢ ديسمبر قاصدا الى القاهرة ليتقلد منصب الولاية وذلك بناء على دعوة من الامراء المماليك تظاهروا فيها بالرغبة فى الوفاق ، ولكن هذه الدعوة كانت فخا نصبوه له للفتك به ، فلما وصل الى شلقان (١) التقى به جماعة من أمراء المماليك وعساكرهم ، وهناك أبلغوه أنهم يمنعونه من دخول القاهرة وأركبوه صحبة جماعة منهم لحراسته والذهاب به الى حدود سورية ، ولم يكتفوا بذلك بل اغروا به حراسه فقتلوه فى الطريق (يناير سنة ١٨٠٤)

موقف محمد على

كان محمد على هو الرأس المدبر للحملة على خسرو باشا ، ثم على احمد باشا ، ثم على على باشا الجزائرلى ، لكنه ظل بعيدا عن الميدان وترك عثمان بك البرديسى يأتمر بعلى باشا الجزائرلى ويتولى أمر قتله ليحتمل تبعة هذا العصيان الخطير فى نظر الباب العالى اذا ما جاء وقت الحساب ، والواقع ان مقتل الجزائرلى كان فيه القضاء على مظهر السلطة العثمانية فى مصر ، وبذلك تخلص محمد على من احدى القوتين اللتين كان يعمل على سحقهما ، ولم يبق أمامه الا قوة المماليك ، فبدأ يعمل على التخلص منها ، وتمهيدا لهذه الغاية ترك لزعماء المماليك السلطة ظاهرا حتى يحملهم تبعة الحكم ومساوئه ويجعلهم هدفا لسخط الشعب

عودة محمد بك الألفى

وفشل خطته السياسية

علمت ان محمد بك الالفى سافر الى انجلترا حين جلاء الانجليز عن الاسكندرية وغايته أن يطلب من الحكومة الانجليزية معاونة المماليك على رجوعهم للحكم

قضى الالفى فى هذه الرحلة طويلا من الزمن وقعت خلاله الحوادث الخطيرة التى تكلمنا عنها ، وكانت الرحلة على جانب كبير من الخطورة ، ولو نجح الالفى فى مهمته لتغير وجه التاريخ المصرى الحديث

---

(١) بمركز قليوب

فالألفى كان بلا نزاع أقوى زعماء المماليك شكيمة وأشدهم بأسا وأبعدهم نظرا ، وحسبك أن الجبرتى يقول عنه انه « آخر من أدركنا من الامراء المصريين شهامة وصراحة ونظرا فى عواقب الامور ، وكان وحيدا فى نفسه ، فريدا فى أبناء جنسه ، وبموته اضمحلت دولتهم ، وتفرقت جمعيتهم ، وانكسرت شوكتهم ، وزادت نفرتهم وما زالوا فى نقص وادبار وذلة وهوان وصغار ولم تقم لهم بعده راية وانقرضوا وطردوا الى أقصى البلاد فى النهاية »

فهذا الرجل البعيد النظر الذى بموته اضمحلت دولة المماليك لعب دورا خطيرا على مسرح الحوادث المصرية ، والنقطة البارزة فى تاريخه انه يمثل خطة سياسية معينة رسمها واتبعها ودعا اليها زملاءه المماليك وكان لا ينفك يسعى لنجاحها ، تلك الخطة هى الاستظلال بحماية انجلترا وتخويلها احتلال ثغور الاسكندرية ورشيد ودمياط مقابل مساعدتها المماليك على الاستقرار فى مصر والاستئثار بزمام الحكم فيها ، ولو نجحت هذه الخطة لوقعت مصر منذ نيف ومائة عام فى قبضة الانجليز ولما تكونت الدولة المصرية العظيمة التى أسسها محمد على

ان (محمد على) كان يمثل الاستقلال المصرى ، أما الالفى فكان يمثل الحماية الانجليزية ، ومن هنا تتبين لماذا ساعدت انجلترا الالفى وحاربت محمد على طوال مدة حكمه .

كان محمد بك الالفى صنيعة السياسة الانجليزية فى مصر ورسول المماليك لدى الانجليز فى الاستظلال بحمايتهم ، وكان الانجليز كما قدمنا لا يفتئون يساعدون المماليك على تولى زمام الحكم فى مصر ، وقد بذلوا لهم فوق مساعداتهم فى مصر نفوذهم السياسى فى الاستانة ليضمنوا لهم الحكم وخاصة بعد أن أبرم صلح اميان Amiens الذى يقضى بجلاء القوات البريطانية عن مصر ، فانهم عزموا اذا هم جلوا عنها أن يتخذوا المماليك صنائع وأولياء لهم فى البلاد ليضمنوا بسط نفوذهم فيها واحتلالها يوما ما ، فسعوا لدى الباب العالى لاستمالته الى المماليك ولكنهم أخفقوا فى مسعاهم ولم يرض السلطان رجوعهم الى الحكم ، ومن ثم تجددت الحرب بينهم وبين الاتراك

فى الوجه القبلى فكان النصر حليفهم وزحفوا على الوجه البحرى وفازوا على الترك فى معركة دمنهور كما قدمنا، ولما جلا الانجليز من الاسكندرية رحل معهم الالفى وولى وجهه قبلة الحكومة الانجليزية يستمد منها المعونة والنجدة ليتولى المماليك زمام الحكم فى مقابل ولائهم واخلاصهم لها واحتلالها ثغور مصر، وهذا معناه طلب الحماية الانجليزية

وصل الالفى الى لندن بعد رحلة طويلة، فأكرم الانجليز مثواه ورحبت به الصحف البريطانية، وبقى فى عاصمة الانجليز من أوائل اكتوبر سنة ١٨٠٣ الى أواخر ديسمبر من تلك السنة، وقابل خلال اقامته بها أقطاب السياسة الانجليزية وحظى بمقابلة الملك جورج الثالث وولى عهده، وعرض على الحكومة الانجليزية كتابة أن تشمل المماليك بمساعدتها وحمايتها، وكانت انجلترا وقتئذ تسعى فى كسب ثقة تركيا لتحول بينها وبين صداقة فرنسا فلم تشأ أن تغضب الحكومة التركية باعلان حمايتها للمماليك وأهملت شأن الالفى زمنا ما، لكنها ما لبثت أن غيرت خطتها حياله وأخذت توجه اليه عنايتها والتفاتها، ذلك حين تواترت الانباء الواردة من مصر بفوز المماليك واستيلائهم على زمام الحكم وتضعضع نفوذ الترك فى مصر، فتغيرت وجهة النظر البريطانية — والسياسة الانجليزية دائما تتغير بتغير الظروف وتقلب الاحوال — وأرادت أن تستخدم هذا الانقلاب الجديد لتشد ازر المماليك وتحقق ارتباطها معهم، فكتبت وزارة الخارجية الى الالفى رسالة (١) وعدته فيها بالسعى بوساطة سفيرها فى الاستانة للتوفيق بين الباب العالى والمماليك وأن تعمل كذلك على حماية مصالح البكوات فى مصر على قاعدة المزايا التى كانوا يتمتعون بها قبل الحملة الفرنسية

برت الحكومة الانجليزية بوعدها للألفى وأرسلت الى القائم بأعمال سفارتها بالاستانة مذكرة بوجهة نظرها ليفضى بفحواها الى الباب العالى أعربت فيها عن

---

(١) بتاريخ ١٥ ديسمبر سنة ١٨٠٣، انظر البحث المنشور فى مجلة المجمع العلمى المصرى الجزء السابع سنة ١٩٢٥ للمسيو دوان Douin عن (سفارة الالفى بك فى لندن)

رغبتها فى توطيد النظام والسكينة فى مصر ، ونوهت بما بذلته من الجهود فى سبيل اخراج الفرنسيين منها وما أداه المماليك من الخدمات للجيش الانجليزى بها ، وان هذه الخدمات تخول لهم الحق فى استرداد امتيازاتهم القديمة فى مصر ، وطلبت من الباب العالى تسوية علاقته مع المماليك على قاعدة اعترافهم بسيادة تركيا وادائهم الجزية السنوية لها فى مقابل استرجاعهم زمام الحكم وتمتعهم بالمزايا التى كانت لهم قبل الحملة الفرنسية ، وطلبت الحكومة الانجليزية فى مذكرتها أن يتعهد لها الباب العالى بتنفيذ هذه التسوية

هذه هى مطالب الحكومة الانجليزية من الباب العالى ، ومعناها انها اعتبرت نفسها صاحبة الحماية الفعلية على مصر ، وانها انتحلت لنفسها حق التدخل فى نظام الحكم فيها ، وتأمل فى تذرعها بالرغبة فى توطيد النظام والسكينة فى مصر ، تجد أن هذه الحجة ما فتئت تتخذها وسيلة للتدخل فى شؤون البلاد قديما وحديثا ، على انها هى التى تخلق أسباب العبث بالامن والنظام ، ولعمرى ان اعادة المماليك لهى الوسيلة الفعلية لنشر الفوضى والظلم فى مصر

أخفقت انجلترا فى مسعاها بالاستانة ، ولو انها نجحت لوقعت مصر فريسة فى أيدى المماليك ولرزحت تحت نير الظلم والتأخر أحقابا طويلة ولصارت على يدهم الى الحماية البريطانية ، لكن الحوادث خيبت ظنونهم فسلمت مصر من حكم المماليك ومن حماية الانجليز معا .

رجع الالفى من انجلترا تقله سفينة حربية جعلتها الحكومة الانجليزية تحت تصرفه ، عاد واثقا من نجاح مسعى انجلترا فى الاستانة ممتلئا أملا فى أن يكون حاكما لمصر مشمولا بحماية الدولة البريطانية

وصل الى أبو قير يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٠٤ وسار من فوره الى رشيد وهناك التقى بالمستر بتروتشى Petrucci نائب القنصل البريطانى وخلا به عدة ساعات ثم أقلته سفينة القنصل فى النيل يرفرف على مؤخرها العلم الانجليزى وانحدرت به الى القاهرة .

علم (محمد على) بعودة الالفى الى مصر ، فأوجس فى نفسه خيفة لان محمد على

كان يحسب للالفى حسابا كبيراً ويعده أقوى خصومه وأشدهم بأسا وأصعبهم مراساً ، لكن الحظ ساعده بأن سخر له عثمان بك البرديسى ليخلصه من خصمه ، ذلك ان البرديسى قد دبت فى نفسه عقارب الحسد من عودة زميله وصديقه القديم من انجلترا ، وداخله الخوف من أن يرى الالفى ينافسه النفوذ والسلطة مؤيد الجانب من احدى الدول العظمى ، فاعتزم الفتك به والتخلص منه ، وكان فى الواقع لا يخدم نفسه بل يخدم برنامج محمد على ، وهكذا كان للحظ دخل أيما دخل فى نجاح محمد على باشا .

انفذ البرديسى رجاله للقبض على الالفى وقتله ، وكاد الالفى يقع فى الشرك لولا أن لجأ الى الاختفاء والفرار واستطاع أن ينجو بنفسه وذهب الى الصعيد حيث أخذ يسعى فى تكوين حزب يناصره ، وهكذا انقسم المماليك وتفرقت أهواؤهم فكان ذلك من الاسباب التى عجلت بزوال دولتهم .

لم يكن النزاع بين البرديسى والالفى قوامه الفكرة السياسية ، بل كان منشؤه الحسد والتنافس على السلطة والحكم ، فما كان البرديسى أقل من خصمه رغبة فى الاستظلال بالحماية الانجليزية ، فقد ذكر المسيو مانجان(١) والمسيو موريه (٢) ان البرديسى قد اتصل قبل أن يتخلص من خصمه بالماجور ميست Misset قنصل انجلترا العام فى مصر وتعددت بينهما المقابلات والاجتماعات الخاصة ، وكان موضوع الحديث فيها رغبة البرديسى فى التحقق من الحماية البريطانية والثقة منها ، فوعده القنصل — كما يقول المسيو (موريه) بتأييد الحكومة الانجليزية اذا هو قبل الحماية البريطانية وان تنفذ الى مصر جيشا يجىء من الهند ليشد أزره وأن تحجز منافسه (الالفى) فى انجلترا حتى لا يزاحمه فى الحكم ، وهكذا نجحت انجلترا فى اتخاذ زعماء المماليك على اختلاف مشاربهم وأهوائهم صنائع لها لكى تضمن نجاح سياستها

---

(١) فى كتاب مصر تحت حكم محمد على

(٢) فى كتاب (تاريخ محمد على)

الاستعمارية على يد أى منهم ، ولم يحبط هـذه السياسة الا انقراض دولة المماليك والقضاء عليهم .

ثورة الشعب على المماليك

مارس سنة ١٨٠٤

تخلص عثمان بك البرديسى من منافسه وزميله القديم محمد بك الالفي ، وأمن على سلطته فى الحـكم ، على ان هـذه الحوادث انما خدمت سياسة محمد على ، لان البرديسي بدأ يحتمل تبعة الحكم أمام الشعب ويواجه مقاومة قوية أخذت تشتد وتقوى حتى انتهت بسقوط دولة المماليك ، ذلك أن الحالة فى القاهرة كانت تزداد تفاقما بسبب تذمر الشـعب من كثرة وقوع المظالم وارهاقه بمختلف الضرائب والمغارم ، وكان المماليك لا يدعون فرصة الا ويفرضون على الناس غرامة أو ضريبة جديدة ، فاشتد الضيق بالاهلين ، وزاد فى سوء الحالة مامر بك من نقص النيل فى تلك السنة (أغسطس سنة ١٨٠٣) نقصاً فاحشا ، فأثر هـذا النقص فى حالة الزراعة واستولى الذعر على الناس فى القاهرة وازدحموا على شراء الغلال ، فارتفعت أسعارها وشح الخبز فى الاسواق واشتد الضيق بالفقراء واواسط الناس ، وهم السواد الاعظم من السكان ، واجتمع الى هذا الضيق اعتداء المماليك والجنود الالبانيين على ما بأيدى الناس من الاموال والغلال والمتاع ، وفى خلال ذلك (نوفمبر سنة ١٨٠٣ — شعبان سنة ١٢١٨) شكا الناس الى كبار العلماء من ترادف هذا الاعتداء ، فذهب السيد عمر مكرم نقيب الاشراف والشيخ الشرقاوي والشيخ الامير الى البكوات المماليك يطلبوا اليهم منع اعتداء العساكر على الناس ، فوعدوهم بالتدخل وركب الاغا (المحافظ) والوالى (رئيس الشرطة) وأمامه جماعه من عسكر الارناؤد والمنادي ينادى بالامن والامان للرعية وانه اذا وقع من الجند اعتداء أو نهب فللناس أن يضربوهم وان لم يقدروا عليهم فليأخذوهم الى رؤسائهم ، على ان مثل هذه الوعود والتنبيهات ذهبت عبثا ، واستمر الجند والمماليك فى اعتدائهم على الاهالى ، وأخذ جو المدينة يكفهر منذرا بوقوع حوادث خطيرة .

بدأت هذه الحوادث بمطالبة الجنود برواتبهم المتأخرة ، وذهبوا الى دار عثمان بك البرديسى يضجون و يتوعدون ، ولم يكن محمد على بعيدا عن تدبير هذه الحركة ، فاستنجد البرديسى بصديقه محمد على ، فتدخل هذا فى الأمر وهدأ حركة الجنود فى مقابل وعد من البرديسى بأن يدبر فى بضعة أيام المال اللازم لدفع رواتبهم المتأخرة .

كانت خزانة الحكومة خالية من المال بسبب سوء الادارة وتلف الأراضى الزراعية وتعاقب الفتن وما أدى اليه الظلم من انقباض أيدى الناس عن العمل ، ففكر البرديسى فى ابتداع الوسائل للحصول على المال ، ففرض على تجار القاهرة ضريبة جديدة ، لكنه لم يحصل على المال الكافى لسد حاجة الجنود الذين كانوا يزدادون كل يوم ضجة وصخباً ، فاعتزم البرديسى فى شهر مارس سنة ١٨٠٤ (ذى القعدة سنة ١٢١٨) أن يفرض ضريبة جديدة على جميع الأهالى بلااستثناء ، ضربها على العقارات والبيوت أجرة سنة موزعة على الأملاك والمستأجرين ، وكلف عمال الحكومة بأن يحصلوها من كل فرد من أفراد القاهرة من ملاك ومستأجرين

كانت فداحة الضرائب من أهم أسباب الثورات فى مختلف العصور والبلدان ، كذلك كانت هذه الضريبة الجديدة المنطوية على الارهاق والظلم سبباً في ثورة القاهرة على المماليك ، لانها نزلت بالناس فى وقت اشتداد الضيق ووقوف حركة الأعمال .

أخذ عمال الحكومة وكتابها يعاونهم جنود المماليك يجوبون أحياء المدينة وشوارعها وحاراتها يكتبون اسماء الملاك والتجار والمستأجرين و يلزمون كل مالك وكل ساكن بدفع نصيبه فى الضريبة على النحو الذى قررته الحكومة بالاتفاق مع رؤساء التجار والطوائف ، فبدأ الناس يتذمرون ، وامتنع كثير من الناس عن دفع المطلوب منهم إما عجزهم أولاستنكارهم لهذا الظلم ، فوقعت المُلاحاة بينهم و بين عمال الحكومة ، واشتد سخطهم وعلا صياحهم ، واحتشدوا يوم ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢١٨ وجاهروا باستنكار هذه المظالم وامتناعهم عن دفع الضرائب ، وخرج الناس من بيوتهم يضجون و يصخبون ، واحتشدوا فى الشوارع حاملين الرايات والدفوف والطبول ، وأخذوا يستمطرون اللعنات

على الحكام ، وكانت صيحاتهم منصبة على الحكام المماليك الذين بيدهم الحل والعقد ، فأخذت جموعهم تنادى « ايش تأخذمن تفليسى! ياباردیسى! » واغلق التجار وكالاتهم ودكاكينهم ، واتجهت جموع الناقمين الى الازهر لمقابلة المشايخ والاحتجاج لديهم على الضريبة الجديدة ، فقام المشايخ الى الامراء المماليك يطلبون الغاءها

كان احتشاد الجماهير وغضبهم وتجمهرهم من نُذر الثورة والتمرد ، فاخذت روح الثورة تنتقل من حى الى حى حتى عمت انحاء المدينة ، فاضطرب عثمان بك البرديسى أمام رؤية الشعب الثائر يستولى على الميادين والشوارع ، وكانت الحركة موجهة ضد حكم المماليك من جهة وضد مساوئ الجنود الارناؤد من جهة اخرى

وخشى محمد على ان تصيب الثورة جنوده بالاذى ، فبادر الى كشف المماليك أمام الشعب وجعلهم وحدهم هدف الغضب الجماهير ، وجاهر بانضمامه الى العلماء والمشايخ ، ونزل فى الشوارع واختلط بالجماهير الصاخبة وقابل العلماء بالازهر وتعهد لهم بان يبذل نفوذه لرفع هذه الضريبة ، كما أنه أوصى جنوده الارناؤد بان يحترموا الشعب ، فاختلطوا بالناس وأعلنوا عدم رضاهم عن الضريبة وجاهروا أنهم انما يطلبون رواتبهم من الحكومة لا من الأهالى ، قال الجبرتى فى هـذا الصدد « وفى وقت قيام العامة كان كثير من العسكر منتشرين فى الاسواق ، فداخلهم الخوف ، وصاروا يقولون لهم انا معكم سواء ، وانتم الرعية ونحن العسكر ولم نرض بهذه الضريبة ، ورواتبنا على الميرى لاعليكم »

يتبين من رواية الجبرتى ان ثورة الشعب كانت على جانب من الخطورة وان جنود محمد على أوجسوا منها خيفة وحسبوا لها حسابا كبيرا ، ولولا ذلك لما « داخلهم الخوف » كما يقول الجبرتى ، ولما ترضوا الشعب باعلان انضمامهم اليه فى ساعة غضبه ، ويؤيد رواية الجبرتى ماذكره المسيو (فولابل) الذى عاصر تلك الحوادث . قال(١) يصف حالة القاهرة وماوقع فيها :

« انتشر عمال الحكومة ومعهم طوائف من الجنود المماليك فى احياء القاهرة

---

(١) فى كتابه مصر الحديثة

وشوارعها يطالبون كل مالك وكل تاجر بان يدفع لفوره حصته فى الضريبة التى فرضت عليهم ، وبدأت المطالبة هادئة يعقبها الدفع ، ثم مالبثت أن ثارت الاحتجاجات وامتنع كثير من التجار عن دفع مايطلب منهم امالكونهم أكثر احتياجا ممن دفعوا الضريبة أو أكثر شجاعة منهم ، فاشتدت المناقشة وعلا الصخب ، واحتشد الجيران ، ثم لم يلبث الشعب ان احتشد باجمعه فى الشوارع ، واتجهوا الى المساجد التى اتخذوها ملتقى لاجتماعاتهم ، فسرعان ماغصت المساجد بجموع الشعب ، واثار اجتماعه فى نفوس الجماهير روح الحماسة والشعور بالقوة والحق ، وقبضت الجماهير فى ساعة الغضب الاولى على بعض جباة الضرائب وقتلوهم .

« كان لهذا الموقف الجرىء الذى ركبه الشعب أثر دهشة وروعة فى نفوس الحزبين اللذين يتنازعان السلطة (المماليك والارناؤد) ، ولم يعلما عند أى حد تقف حركة الشعب الثائر يستولى على الشوارع والميادين والمبانى ويستعد للمقاومة العنيفة ، ولم يكن خافيا على زعماء الارناؤد ان جنودهم قد استهدفوا باعتداءاتهم وفظائعهم لكراهة الاهالى مثلما استهدف لها المماليك سواء بسواء ، فلجأ المماليك الى وساطة العلماء ، أما محمد على فكان اكثر منهم حزما واقداما ، ولا غرو فقد امتاز بصدق النظر فى الامور ، فألهمته قريحته ان يبادر الى اغتنام الفرصة لخدمة برنامجه وأن يستفيد من الحوادث التى لامفر من وقوعها ، فانضم الى المشايخ واتصل بالجماهير واختلط بالعامة وتعهد ببذل جهوده حتى يصل الى رفع هذه الضريبة ، فهدأت وعوده من روع الشعب الغاضب ، وتفرقت الجموع والسنتها تلهج بفضائل قائد الجنود الألبانيين وحكمته » (١)

كسب محمد على بهذه السياسة الحكيمة عطف الشعب وثقة زعمائه ، وبدأ الناس ينظرون اليه كرجل عادل يكره الظلم ويحب خير الشعب ، ونادى العلماء بابطال الضريبة ورفعها .

أما عثمان بك البرديسى فقد قابل هذه الثورة بالغطرسة والكبرياء ، ونقم على

---

(١) فولابل . مصر الحديثة

المصريين قيامهم فى وجهه وخروجهم على حكمه ، وتوعدهم بالشر والنكال ، وفى ذلك يقول الجبرتى «اظهر البرديسى الغيظ والانحراف من أهل مصر وخرج من بيته مغضبا الى جهة مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر ويقول لابد من تقريرها (الضريبة) عليهم ثلاث سنوات ، وأفعل بهم وافعل حيث لم يمتثلوا لاوامرنا »

فالبرديسى والبكوات نقموا من المصريين انهم « لم يمتثلوا لاوامرهم » وكانوا يريدون منهم الطاعة العمياء والرضوخ للظلم والقهر ، ولقد جهلوا أن روحا جديدة دبت فى نفوس المصريين وحفزتهم الى التطلع لحياة أرقى ومركز اسمى مما كانت البلاد تعانيه فى ذلك العصر ، وأخذ المماليك يستعدون لمقاومة الثورة ويجمعون جموعهم ويستدعون رجالهم الذين كانوا موزعين فى الاقاليم ، ولكنهم ابطأوا فى الحضور لانهماكهم فى نهب القرى وتحصيل الجبايات ، وانتهز محمد على فرصة غضب الشعب على المماليك وثورته عليهم وتوزع جنود المماليك فى الاقاليم ليتخلص منهم ، فأمر جنوده فهاجموا المماليك الموجودين بالقاهرة (١) وحاصروا بيت ابراهيم بك ببركة الفيل وبيت عثمان بك البرديسى بالناصرية وبيوت باقى المماليك فى أنحاء العاصمة واستمر الحصار الى اليوم التالى

أسقط فى أيدى المماليك ورأوا أنفسهم حيال قوتين ، ثورة الاهالى من جهة وجنود محمد على من جهة أخرى ، فلم يجدوا سبيلا للنجاة سوى الفرار من القاهرة بعد أن قتل منهم من قتل ، وكان أول الفارين عثمان بك البرديسى وهو كان من قبل يشمخ بأنفه ويهدد ويتوعد ، ومع أن بيته (٢) كان أشبه بقلعة تحيط بها الابراج المحصنة وفيها الجنود وآلات الحرب والقتال الا أنه لاذ بالفرار الى مصر القديمة ومنها الى ناحية البساتين ثم الى حلوان ، وفر كذلك ابراهيم بك الى الرميلة ثم الى الصحراء ،

---

(١) يوم ٢٨ ذى القعدة سنة ١٢١٨ ـ ١١ مارس سنة ١٨٠٤

(٢) هو قصر حسن كاشف الذى كان من قبل دارا للمجمع العلمى فى عهد الحملة الفرنسية (ومكانه الآن المدرسة السنية)

وكان جنود المماليك يحتلون قلعة الجبل ويطلقون القنابل على الازبكية ، فلما علموا بفرار زعيميهم عثمان بك البرديسى وابراهيم بك وقع الرعب فى قلوبهم وأبطلوا الرمى وأخلوا القلعة ونزلوا من باب الجبل ولحقوا بابراهيم بك فى فراره ، وتسلم القلعة جنود محمد على وخرج المماليك من المدينة على أسوأ حال ، وذهبوا الى الوجه القبلى يستعدون لاستئناف الحرب والقتال ، وينهبون القرى ويفرضون عليها الغرامات والاتاوات ، وكانوا فى فرارهم من القاهرة على غير الشجاعة التى كانوا يتفاخرون بها فى أيام الرخاء ، وفى ذلك يقول الجبرتى « غلب عليهم الخوف والحرص على الحياة والجبن ، وخابت فيهم الظنون ، وذهبت نفختهم فى الفارغ ، وجازاهم الله ببغيهم وظلمهم وغرورهم ، ونزل بهم مانزل ، ولايحيق المكر السيىء الا بأهله »

قتل من المماليك وأجنادهم فى ذلك اليوم نحو ثلثمائة وخمسين وارتحل الباقون منهم عن المدينة ، وانتقض الشعب فى رشيد ودمياط وسائر العواصم على الحكام المماليك فهربوا الى الصعيد ودالت دولتهم وانقضى حكمهم من البلاد ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة

وفى اليوم التالى أبطلت الضريبة التى كانت سببا فى اشتعال نار الثورة

ثورة الشعب
على الوالى التركى
مايوسنة ١٨٠٥

الحالة السياسية فى القاهرة

كانت الفرصة سانحة ليحقق محمد على آماله ويتولى سلطة الحكم فى مصر ، فالمماليك قد دالت دولتهم ، والقوة التركية قد تلاشت من البلاد ، والوالى التركى خسرو باشا فى القلعة سجين ، وليس ثمت قوة حربية سوى الالبانيين (الارناؤد) الذين تحت قيادته ، لكن محمد على كان طويل الاناة ، بعيد النظر ، فرأى ألا يصل الى سلطة الحكم بقوة الجند وآثر أن ينتظر حتى يصل الى تلك الغاية بارادة الشعب ، وبذلك يبرهن انه لم

يناوىء المماليك لمطامع شخصية بل لمحض الصالح العام فيزداد الشعب تعلقا به

وهنا لابد أن نعرض لرواية ذكرها بعض المؤلفين الفرنسيين واليها يرجعون صعود نجم محمد على وتقلده ولاية مصر ، فيقولون ان المسيو ماسيو دلسبس لما عين قنصلا لفرنسا في مصر أخذ يبحث عن رجل تؤيده فرنسا وتشد أزره وتساعده على تقلده حكم مصر وانه لم يكن يعرف أحدا فى مصر فسأل قواس القنصلية واسمه عمر أغا عن الرجل المنشود فدله على محمد على لانه يعرفه من قبل فكتب دلسبس الى حكومته يوصيها بشد أزر محمد على ومساعدته على تقلده ولاية مصر ، ويقيناً ان هذه رواية خيالية لا أصل لها ولا يؤيدها منطق الحوادث ولا تستند الى مصدر موثوق بصحته ولم ترد فى المصادر المعتمدة ككتاب المسيو مانجان أوكتاب كلوت بك وكلاهما عاصر (محمد على) وبهمهما وهما فرنسيان أن يذكرا تلك الرواية لو أن لها أصلا ، على أن تسلسل الحوادث التى بسطناها تدل بجلاء على أن محمد على لم يصل الى منصب الولاية إلا بفضل تحببه الى الشعب المصرى وزعمائه واختيارهم إياه واليا ، ولم يكن للمسيو ماسيو دلسبس ولا لعمر اغا أى دخل فى وصوله الى ذلك المنصب ، أما كون فرنسا رأت من مصلحتها السياسية أن تشد أزر محمد على بعد تقلده الولاية وتؤيده ضد دسائس السياسة الانجليزية فهذه مسألة أخرى لا علاقة بينها و بين حكاية عمر اغا

والآن نعود الى موضوع الحالة السياسية فى القاهرة ، اختار محمد على خسرو باشا الوالى القديم الذى كان سجيناً منذ ثمانية أشهر ليعيده الى مركزه ، ويتولى هو ادارة الشؤون باسمه ، فذهب الى القلعة وفك أسار الباشا ونزل به الى المدينة معلنا أنه صاحب الولاية فى البلاد ، ونادى المنادى بالامان « حسبما رسم محمد باشا خسرو ومحمد على » فازداد الشعب تعلقا بمحمد على لما رأى فيه من التعفف وعدم الرغبة فى تولى سلطة الحكم ، وكسب محمد على مغنما آخر ، ذلك أنه باعادته الوالى التركى الى ولايته يكسب عطف الباب العالى ويبرهن له أنه لم تكن له يد فى الفتن التى أدت الى عزل خسرو باشا وقتل على باشا الجزائرلى ، على أن أقرباء طاهر باشا لم يرضوا

بتعيين خورشد باشا لانهم لم ينسوا عداءه القديم لقريبهم فثاروا عليه وعزلوه وأرسلوه الى رشيد ومنها الى الاستانة ، فلم يعارضهم محمد على فى فعلهم لكنه أصر على رغبته فى أن يجعل زمام الولاية بيد أحد الباشوات الاتراك ، ولذلك سعى فى تعيين خورشد باشا محافظ الاسكندرية [1] والياً على مصر ، فاجتمع الشيوخ وزعماء الجند وأجمعت آراؤهم على تعيين خورشد والياً وتعيين محمد على قائمقاما ، وأوفدوا الى الاسكندرية رسولا يدعو خورشد باشا الى الحضور للقاهره ليتولى منصب الولاية

ولاية خورشد باشا

وصل خورشد باشا الى بولاق فى أواخر مارس سنة ١٨٠٤ ، وهو خامس من تقلد ولاية مصر فى نحو سنتين ، فأولهم خسرو باشا وقد خلع ، ثم طاهر باشا وقد قتل ، ثم احمد باشا وقد طرد ، ثم على باشا الجزائرلى وقد قتل ، ثم جاء خورشد باشا وفى عهده قامت الثورة التى سنتكلم عنها فيما يلى ، ولا جرم ان هذه التعيينات والتقلبات تدلك على مبلغ تزلزل النفوذ التركى فى البلاد وما آلت اليه سلطة الوالى من الضعف والانحلال ، والواقع ان الوالى العثمانى لم تكن سلطته تتعدى حدود مدينة القاهرة وكانت أبدا عرضة لتمرد الجنود وعصيانهم

لم يفقد المماليك أملهم فى استعادة سلطتهم القديمة بالرغم من طردهم من القاهرة وعواصم الوجه البحرى وتشتتهم فى الوجه القبلى ، فجمعوا شملهم وعادوا الى الجيزة بقيادة عثمان بك البرديسى وابراهيم بك يريدون فتح القاهرة ، وتفرقت جماعات منهم فى الشرقية والقليوبية والمنوفية والغربية يعيثون فى البلاد فساداً وينهبون حاصلات الأهالى ومواشيهم ويفرضون عليهم الاتاوات والغرامات ، وأصبحت القاهرة فى شبه حصار واستمرت الحرب سجالا بين المماليك وجنود الوالى ومحمد على عدة أشهر الى أن ارتدوا عن القاهرة ، وكان فيضان النيل من أهم أسباب ارتدادهم

---

(١) كان محافظا للاسكندرية منذ شهر ذى الحجة سنة ١٢١٦ فى عهد ولاية خسرو باشا

لان المياه غمرت البلاد التى كانوا مرابطين فيها فاضطروا الى الرحيل عنها وانسحبوا ثانية الى الصعيد ، وفى أثناء ذلك أخذ خورشد باشا يدبر الوسائل للتخلص من محمد على ، فاستصدر من الاستانة فرمانا بعودة الالبانيين ورؤسائهم الى بلادهم وجاء الفرمان بحمله رسول الى القاهرة ، فأدرك محمد على سر هذه المكيدة وعلم ان الغرض منها ابعاده عن مصر ، على انه تظاهر بالاذعان وأعد عدته للرحيل ، بيد أن العلماء لما علموا بأمر هذا الفرمان طلبوا الى محمد على البقاء بمصر لما عهدوه فيه من العدل والاستقامة وردع الجنود عن الاعتداء على الأهالى ، واضطربت القاهرة لنبأ هذا الرحيل ، وأقفلت الاسواق والدكاكين وكاد حبل الامن يضطرب ، فقبل محمد على طلب العلماء وأعلن بقاءه إرضاء للرأى العام ، فلما تحقق خورشد باشا عدول محمد على عن السفر أدرك ان مكيدته قد أخفقت واضطر للاذعان مؤقتاً للامر الواقع والاستعانة بمحمد على فى محاربة المماليك بالصعيد ، ورأى فى تكليفه هذه المهمة ذريعة لابعاده هو وجنوده عن القاهرة ليخلو له الجو فيها

سار محمد على من القاهرة على رأس جنوده الارناؤد وعددهم نحو ثلاثة آلاف مقاتل يوم ١٧ اكتوبر سنة ١٨٠٤ (١٢ رجب سنة ١٢١٩) وكان يعاونه جيشان آخران جردهما الوالى الاول بقيادة سلحداره وعدده نحو أربعة آلاف والثانى بقيادة حسن باشا وعدده نحو ١٢٠٠ مقاتل ، فأخذت هذه القوات تطرد المماليك فى الصعيد واستولت على المنيا يوم ١٥ مارس سنة ١٨٠٥ بعد حصار دام ستة وخمسين يوماً

كان محمد على منهمكا فى قتال المماليك بالصعيد ، لكنه علم بما كان يدبر ضده فى القاهرة من المكايد بتدبير خورشد باشا ، ذلك ان خورشد أراد ان يتخلص من منافسه فى السلطة فطلب من الحكومة العثمانية امداده بقوات جديدة ، فصادف هذا الطلب هوى فى نفسها لانها لم تنظر بعين الرضا الى تضعضع نفوذ ممثلها الرسمى فى مصر فأنفذت اليه جيشاً من الدلاة (١) احتشد فى سورية وسار منها الى مصر ،

(١) جمع ديلى وهى كلمة تركية معناها المجنون ، وأطلقت كلمة دلاة أو دلاتية على هذا الجيش لشهرة رجاله بالتهور فى البسالة ، ومعظمهم من الأكراد

فلما وصل الى محمد على نبأ وصول هذا الجيش ورأى بثاقب نظره انه هو المقصود بقدومه عجل بالعودة هو وزميله حسن باشا الى القاهرة ليحبط سياسة خورشد باشا قبل ان ترسخ قدم الدلاة فى البلاد

كان غرض خورشد ان يستعين بجيش الدلاة ليتغلب على محمد على لكن هذا الجيش كان السبب فى القضاء المبرم على سلطة الوالى كما سيجىء بيانه

سوء سياسة خورشد باشا ونفوذ العلماء

كان خورشد باشا سيء الرأى فاسد التدبير ميالا الى الظلم غير مكترث بميول الشعب معتمداً على القوة الغشوم ، سكن القلعة من اليوم التاسع من صفر سنة ١٢١٩ (٢٠ مايو سنة ١٨٠٤) فكان انتقاله اليها نذيراً بالتجائه الى القوة المسلحة فى اخضاع المدينة ، تعددت مظالمه فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس ، ومن أجل هذا عظم نفوذهم فكانوا موئل الشعب يفزع اليهم عند وقوع الملمات ، وكانت مساوىء خورشد باشا هى الباعثة على ذلك ففى عهده قوى سلطان العلماء و بلغ نفوذهم أقصى مداه حتى أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالى عن كرسى ولايته وأجلسوا (محمد على) مكانه ، ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل ، كما لم يخلص لهم مثله بعد انقضاء هذا العصر .

مقدمات الثورة

فرض خورشد باشا فى شهر مايو سنة ١٨٠٤ اتاوة جديدة على ارباب الحرف والصنائع ، فضجوا منها لما كانوا فيه من الضيق وسوء الحال واقفلوا حوانيتهم وحضروا الى الجامع الازهر يشكون أمرهم الى العلماء ، وكان اقفال الحوانيت من نذر الثورة ، فمر المحافظ ورئيس الشرطة فى الاسواق ينادون بالامان وفتح الحوانيت فلم يفتح منها الا القليل

وظلت الخواطر فى هياج يومى السبت والاحد (١٦ — ١٧ صفر سنة ١٢١٩)

وفي يوم الاثنين (١) اشتد الهياج، واقفلت جميع الدكاكين والاسواق، واحتشدت جموع الصناع وأرباب الحرف وجماهير الناس بالجامع الازهر ومعهم الطبول، وصعد كثير منهم الى المنارات يصرخون ويدقون الطبول، فوصل دوى ندائهم الى نواح بعيدة فى المدينة وسمعه الوالى وهو بالقلعة، ووصله خبر التجمهر، فارسل الى السيد عمر نقيب الاشراف رسولا ينبئه بأنه رفع الاتاوة عن الفقراء منهم ويطلب اليه فض الجماهير فقال السيد عمر مكرم «ان هؤلاء الناس وارباب الحرف والصنائع كلهم فقراء وما كفاهم ماهم فيه من الكساد وسوء الحال حتى تطلبون منهم مغارم لرواتب العسكر» ومعنى هذا ان السيد عمر مكرم طلب رفع الاتاوة عن الجميع فرجع الرسول بذلك الى الوالى وحضر الاغا (محافظ المدينة) ومعه عدة من الجنود وجلس بالغورية يأمر الناس بفتح الدكاكين، ويتوعد من يتخلف، فلم يحضر أحد ولم يسمعوا لقوله، فاضطر الوالى امام هذه الحركة الى رفع الاتاوة فى ذلك اليوم وأعلن ابطالها ونادى المنادى بذلك فاطمأن الناس وتفرقوا

كان الشعب اذا مستعدا للهياج متحفزاً للانتقاض والثورة، وقد كان لهذه الحركة اثرها فى نفوس الناس لانهم أيقنوا ان فى استطاعتهم رفع المظالم باجتماعهم وتقرير الاضراب العام وامتناعهم عن دفع الضرائب، فانظر ماذا جرى بعد ذلك وكيف تطورت الحوادث

فظائع الجنود الدلاة

وهياج الشعب

كان جيش الدلاة الذى جلبه خورشد باشا مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل من اردأ عناصر السلطنة العثمانية، فأخذوا يعيثون فى الارض فسادا ويرتكبون الجرائم ويعتدون على الاموال والارزاق والارواح، قال الجبرتى: «ودخلوا بيوت الناس

---

(١) ١٨ صفر ١٢١٩ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٨٠٤

بمصر و بولاق وأخرجوا منها أهلها وسكنوها ، وكانوا اذا سكنوا داراً أخربوها وكسروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم فاذا صارت خرابا تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها كذلك ، وهـذا دأبهم من حين قدومهم الى مصر حتى عم الخراب سائر النواحى وخصوصاً بيوت الامراء والأعيان و باقى دور بركة الفيل وما حولها من بيوت الاكابر وقصورهم » (١)

وقعت هذه المظالم وترادف اعتداء الجنود الدلاة ، واضطر الوالى الى الاغضاء عن سيئاتهم ليستعين بهم على محاربة محمد على ، ومد لهم فى حبـل السلب والنهب وعلم خورشد أن محمد على راجع الى القاهرة

سعى خورشد باشا فى استمالة العلماء اليه ولـكنه أخفق فى مسعاه فأراد أن يجعلهم تحت رقابته فطلبهم وطلب السيد عمر مكرم والوجاقلية فى اليوم الحادى عشر من شهر محرم سنة ١٢٢٠ (١١ ابريل سنة ١٨٠٥) فلما اجتمعوا به قال لهم ان محمد على وحسن باشا راجعان من الوجه القبلى من غير اذن وطالبان شراً ، فاما أن يرجعا من حيث أتيا و يقاتلا المماليك وأما أن يذهبا الى بلادهما أو يتوليا ولايات ومناصب فى غير مصر ، وقال ان لديه أمرا من السلطان « أعزل من أشاء وأولى من أشـاء وأعطى من أشاء وامنع من أشاء » وطلب اليهم أن يبقوا عنده (بالقلعة) يقيمون معه صحبة كبار الضباط ، ففهم العلماء أن الوالى يريد أن يبقيهم فى القلعة ليكونوا رهائن تحت يده ، فاعتذروا بأن بعضهم وهم الشرقاوى والبكرى والمهدى غائبون عن مصر فقال إذاً نرسـل لهم بالحضور ، وانتهى الاجتماع على أن يبيت بالقلعة كل ليلة اثنان من المشايخ واثنان من الوجاقلية (الجهادية) وأعدوا لهم مكاناً بالضربخانة (دار الضرب)

رجوع محمد على الى القاهرة

وفيما كان الوالى يستعد للائتمار بخصمه رجع محمد على وحسن باشا بجنودهما الى

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث

طره ، وكان خورشد باشا قد أنفذ اليها قوة من الدلاة لصدهما عن التقدم لكن محمد على تمكن بدهائه وحسن سياسته من أن يجتاز هذا المعقل دون أن يلقى أية مقاومة ، ذلك انه لما اقترب من قلعة طره طلب أن يقابل بعض ضباط الحامية للتحدث اليهم ، فأجابوه الى طلبه ، فلما اجتمع بهم تبسط فى الكلام معهم وحادثهم حديثاً وديا ، وقال لهم ان الباشا لم يدفع للجنود رواتبهم المتأخرة وقد جئنا لنطالبه بها ، فهل يضركم ذلك ، فقالوا كلا ، والحق أن حجة (محمد على) كانت قوية ومقنعة وقد ارتاح لها الضباط الدلاة لانهم رأوا أن المطالبة بالرواتب لانهم الجنود الالبانيين وحدهم بل تهم الدلاة أيضا وانه اذا وجب قتال جنود محمد على لانهم يطالبون بحقهم فكذلك يفعل الوالى معهم اذا هم طالبوا برواتبهم ، فأجمعوا رأيهم ألا يتعرضوا لجيش محمد على وأخلوا له الطريق ، فواصل سيره حتى بلغ القاهرة سالما ونزل بداره بالازبكية يوم ١٩ أبريل سنة ١٨٠٥ ، فبدأ الصراع بينه وبين الوالى وجها لوجه ، وأخذ كل منهما يعد العدة لينتصر على خصمه

وجد محمد على أن القوة التى يستطيع أن يكسب بها المعركة ويصل بها الى قمة السلطة هى قوة الشعب ، فبالغ فى استمالة علماء المدينة وأعيانها واستنكار تصرفات الوالى ، وكان الشعب يعتبر الوالى مسئولا عن فظائع الدلاة ومظالمهم لأنه هو الذى جلبهم لتأييد سلطته ، فأخذ تيار السخط العام ينحدر نحو الوالى وعب عبابه ، ولم يبق بين السخط والثورة الا أن تقع حادثة تشعل نار البركان

أيام الثورة

أول مايو — ٩ يوليه سنة ١٨٠٥

فى يوم الاربعاء أول مايو سنة ١٨٠٥ اعتدى الجنود الدلاة على أهالى مصر القديمة وأخرجوهم من بيوتهم ونهبوا مساكنهم وأمتعتهم وقتلوا بعض الأهالى الآمنين ، فعظم الهياج فى مصر القديمة وحضر جميع سكانها رجالا ونساء الى جهة الجامع الازهر وانتشر خبر الاعتداء والهياج بسرعة البرق فى أنحاء المدينة ، واجتمع العلماء وذهبوا

الى الوالى وخاطبوه فى وضع حد لفظائع الجنود الدلاة ، فأصدر الوالى أمراً للجنود بالخروج من بيوت الناس وتركها لاصحابها ، وكان هذا الأمر صوريا لأن الجنود لم يخضعوا ولم ينفذوه ، فخوطب الوالى ثانيا فى الامر فطلب مهلة ثلاثة أيام ليرحل الجنود من المدينة قاطبة ، فلما علمت الجماهير بهذا الجواب اشتد ضجيجهم وتضاعف سخطهم وتألبت جموعهم وبدأت علائم الثورة تلوح فى أفق المدينة ، وفى اليوم التالى (الخميس ٢ مايو) عمت الثورة أنحاء العاصمة فاجتمع العلماء بالازهر وأضربوا عن القاء الدروس وأقفلت دكاكين المدينة وأسواقها ، واحتشدت الجماهير فى الشوارع والميادين يضجون ويصخبون ، فأدرك الوالى خطر الحالة ، وأرسل وكيله صحبة رئيس الانكشارية (المحافظ) الى الازهر لمقابلة العلماء ومفاوضتهم لوقف الهياج ، فلم يجدهم بالازهر فذهب الى بيت الشيخ الشرقاوى وهناك حضر السيد عمر مكرم وزملاؤه فأغلظوا له فى القول فانصرف على غير جدوى ، ومضى يقصد القلعة ، لكن الجماهير لم تكد تبصره حتى انهالوا عليه رجما بالاحجار ، ورفض العلماء أن يتدخلوا لايقاف الهياج ، وطلبوا جلاء الجنود الدلاة عن المدينة ، وكانت إجابة هذا الطلب صعب التحقيق لأن الوالى يستحيل عليه أن يبعد الجنود عن القاهرة وهم من جهة عدته فى القتال ومن جهة أخرى فان لهم رواتب متأخرة والخزانة خالية من المال ، فظل العلماء مضربين عن القاء الدروس ، وبقيت الدكاكين والاسواق مقفلة أكثر من أسبوع ، وامتنع العلماء عن مقابلة الوالى طوال هذه المدة

تبين لك مما تقدم أن حركة شعبية قوية قامت تناوىء سلطة الوالى التركى ، كانت هذه الحركة قوامها الشعب وزعماؤه ، ومن الخطأ أن يظن أحد أن محمد على هو الموعز بهذه الحركة فان منطق الحوادث يدل يقينا على أنها نتيجة تذمر الجماهير وتبرمها من مظالم الحكم ، وانما اغتنم محمد على تلك الحركة لتحقيق وجهة نظره ، ورأى بثاقب رأيه أن يؤيدها ويناصر الشعب وزعماءه ليكسب تأييدهم كما فعل فى ثورة الشعب على حكم المماليك ، واليك ما قاله المسيو (فولابل) فى هذا الصدد ، قال يسرد حوادث القاهرة فى ذلك الحين وكلامه كما ترى لا يختلف فى مجموعه عن رواية

الجبرتى : « اجتمع العلماء بالازهر وحولهم الجموع الحاشدة من الناس فخشى خورشد باشا أن يسفر هـذا الاجتماع عن حركة ثورية وأراد أن يتلافى عواقبه ، فأوفد الى الأزهر كتخداه (وكيله) وأغا الانكشارية (المحافظ) ، ولكن سيلا من الاحجار انصب على الرسولين من كل صوب ، فاضطرا الى الرجوع وتمكنا مع ذلك من المخابرة فيما جاءا من أجله واتفقت جمعية العلماء على أن يضعوا حداً لهذه الحركة بشرط أن يطرد خورشد باشا الجنود الدلاة من القاهرة وضواحيها فى مدة ثلاثة أيام ، وكان إنفاذ هـذا الشرط من الصعوبة بمكان ، لأن خزانة الوالى كانت خالية من المال والدلاة يطالبون برواتب ثلاثة أشهر متأخرة ، وكان العلماء يعلمون ذلك فانتظروا أن تنتهى المدة التى حددوها ، فالنزاع كما يتضح مما تقدم كان منحصراً بين خورشد باشا والشعب ، وقد بقى الالبانيون بعيدين عنه ، لكن محمد على اتبع فى هذه الظروف الخطة التى سلكها منذ حين ، ذلك أنه فى خلال فترة الانتظار لم ينفك يتردد على كبار الشيوخ و يضم صوته الى شكواهم و يعدهم ببذل جهوده و وساطته لتأييدهم[1] »

تعيين محمد على والياً لجدة

ومحاولة ابعاده عن مصر

و بين ذلك ماقىء خورشد باشا يبذل الوسائل لاقصاء محمد على عن مصر ، وكان من قبل يسعى سعياً حثيثاً لدى الباب العالى لهذه الغاية ، وقد نجح فى مسعاه إذ ورد فرمان سلطانى بتقليد محمد على ولاية (جدة) ، وكان الغرض من هذا التعيين إبعاد محمد على عن مصر بأية وسيلة ولو بترقيته ، فابتهج خورشد باشا لورود هـذا الفرمان وظن أنه سيخلصه من خصمه اللدود ، وأرسل الى محمد على يستدعيه الى القلعة ليسلمه الفرمان و يخلع عليه خلعة الولاية الجديدة ، لكن محمد على أدرك مافى هـذا التعيين من الدسيسة وخشى الغـدر به اذا هو صعد الى القلعة تلبية لدعوة الوالى ،

---

(١) فولابل ، مصر الحديثة

فأرسل ينبئه أنه مستعد لتلقى أمر التعيين فى المدينة فى أى منزل يختاره الوالى ، فغضب خورشد باشا من هذا الجواب ، وكاد الأمر يستفحل لولا تدخل الشيوخ فاتفقوا على أن يكون الاجتماع فى منزل سعيد اغا وكيل دار السعادة وصديق محمد على ، فرضى خورشد باشا بهذا الحل مرغما ، وذهب فى الميعاد (٣ مايو سنة ١٨٠٥) الى دار سعيد اغا بالازبكية ، وأمر بتلاوة الفرمان القاضى بتعيين محمد على والياً لجدة ، وكان ذلك بحضور علماء المدينة وكبرائها ، ولما انتهى الاجتماع خرج محمد على ومضى الى داره فرحاً مبتهجاً ، وعاد الوالى الى القلعة بعد أن كاد الجنود المطالبون برواتبهم المتأخرة يفتكون به ، ولم ينل خورشد باشا من وراء هذه الدسيسة سوى الخيبة والفشل فان محمد على قد زادت مرتبته بتقلده الولاية دون أن يبتعد عن الميدان أو يذهب الى جدة

اجتماع زعماء الشعب

ومطالبهم

١٢ مايو سنة ١٨٠٥

انتهت الفترة التى حددها العلماء لجلاء الجنود الدلاة عن المدينة يوم السبت ١١ مايو ، واستطاع الوالى أن يبعد رهطا منهم تهدئة للخواطر الثائرة ولكن بقى منهم بالقاهرة نحو ألف وخمسمائة ، وعلم زعماء الشعب انهم ممتنعون عن الجلاء حتى تدفع رواتبهم وأن الوالى لايريد اخراجهم حتى تؤدى لهم تلك الرواتب وانه لا سبيل الى دفعها مع خلو خزانة الحكومة من المال إلا بفرض ضريبة جديدة على المدينة

أحدثت هذه الأنباء هياجا عظيما فى الخواطر ، وبات الناس ليلة الأحد فى هرج ومرج ، والزعماء يتشاورون فيما يعدونه للغد ، وعند ماتبلج صبح يوم ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ (١٢ صفر سنة ١٢٢٠) اجتمع زعماء الشعب واتفقوا رأيا على الذهاب الى دار المحكمة الكبرى (بيت القاضى) لاختصام الوالى واصدار قراراتهم فى مجلس الشرع ولم تكد تعلم الجماهير بما استقر عليه رأى الزعماء حتى احتشدت جموعهم واتجهت

الى دار المحكمة ، أقبلت الجموع من كل صوب على دار العدل واحتشدت بفنائها وحولها ، و بلغت عدتها أربعين ألف نسمة ، فكان اجتماع هذا البحر الزاخر من الخلائق هو الثورة بعينها ، وظهرت روح الشعب قوية ناقمة على الوالى وعلى الحكم التركى ، ويكفيك لتتعرف نفسية الشعب فى ذلك اليوم العصيب أن تتأمل فيما ذكره الجبرتى عن صيحاتهم التى كانوا ينادون بها فقد كانوا يصيحون « يارب يامتجلى ، اهلك العثملى » فهذا النداء يدلك على ما كان يجيش بنفوس المصريين من روح السخط على الحكم التركى واعتزام التخلص منه ، وهـذا يعطيك صورة لما أحدثته الروح القومية من الاثر البالغ فى النفوس

اجتمع زعماء الشعب فى دار المحكمة وطلبوا من القاضى أن يرسل باستدعاء وكلاء الوالى ليحضروا مجلس الشرع ، فأرسل يستدعيهم على عجل ، فحضروا وعندما انعقد المجلس عرض الزعماء ظلامة الشعب وحرروا مطالبهم وهى

ألا تفرض من اليوم ضريبة على المدينة إلا اذا أقرها العلماء وكبار الاعيان

أن تجلو الجنود عن القاهرة وتنتقل حامية المدينة الى الجيزة

ألا يسمح بدخول أى جندى الى المدينة حاملا سلاحه

أن تعاد المواصلات فى الحال بين القاهرة والوجه القبلى

هذه هى المطالب التى أملاها وكلاء الشعب فى اجتماع ١٢ مايو وسلموا صورتها الى القاضى وقام وكلاء الوالى ليبلغوها الى خورشد باشا بالقلعة

نقلنا بيان هذه المطالب عن المسيو فولابل الذى دونها فى كتابه وأسماها « وثيقة الحقوق » تشبيهاً لها « بوثيقة اعلان الحقوق » التى قررها البرلمان البريطانى سنة ١٦٨٨ وأيد فيها حقوق الشعب الانجليزى وأهمها أن لايجوز للملك أن يفرض ضريبة إلا بعد موافقة البرلمان

وقد رجعنا الى الجبرتى فرأيناه يوردها بصيغة أخرى تختلف قليلا عن رواية فولابل وان كانت تتفق واياها فى مجموعها قال « فحضر الجميع واتفقوا على كتابة عرضحال

بالمطلوبات ، ففعلوا ذلك وذكر فيه تعدى طوائف العسكر والايذاء منهم واخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد (الضرائب) ، وقبض مال الميرى المعجل ، وحق طرق المباشرين ، ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك واخذوه (وكلاء الوالى) ووعدوا برد الجواب فى ثانى يوم »

رأى الوالى أن الحركة خطيرة ، وأن الثورة تؤذن أن تقتلعه من مقره ، وكان السيد عمر مكرم نقيب الاشراف فى مقدمة زعماء الحركة وأكبرهم نفوذاً ، وفى ذلك يقول فولابل « ان السيد عمر مكرم ظهر فى الصف الأول من صفوف المجاهدين الذين رآهم الشعب لأول مرة يدافعون عن مصالحه » فأراد الوالى أن يلتى القبض عليه ويعتقله بالقلعة ليشل الحركة القائمة فى المدينة ، فلما وصلته رسالة القاضى أرسل اليه يستدعيه ويستدعى السيد عمر مكرم والعلماء الى القلعة ليتشاور معهم فى الأمر ، لكن السيد عمر فطن الى مقاصد الوالى وخشى الغدر فأشار برفض الذهاب الى القلعة ، وكان محقا فى حذره لانهم علموا بعد ذلك أن الوالى أعد أشخاصاً لاغتيالهم فى الطريق

خلع خورشد باشا

والمناداة بمحمد على والياً لمصر

١٣ مايو سنة ١٨٠٥

لم يجب أحد من زعماء الشعب دعوة الوالى ولم يذهبوا الى القلعة ، فخنق عليهم وعد امتناعهم عن الذهاب اليه تمرداً وعصياناً ، وتلقاء ذلك رفض إجابة المطالب التى قرروها

كان هذا الرفض معجلا لسير الحوادث ، فاجتمع وكلاء الشعب من العلماء ونقباء الصناع فى اليوم التالى (الاثنين ١٣ مايو — ١٣ صفر سنة ١٢٢٠) بدار المحكمة ليتداولوا فى الموقف ، واحتشدت الجماهير فى فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم ، وهناك اتفقت كلمة نواب الشعب وأجمعوا رأيهم على عزل خورشد باشا وتعيين

محمد على واليا بدله ، وعندئذ قاموا وانتقلوا الى دار محمد على لتنفيذ قرارهم وأبلغوه ما اتفقوا عليه وقالوا :

« اننا لا نريد هذا الباشا واليا علينا ولا بد من عزله من الولاية »

ونادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم وقال :

« اننا خلعناه من الولاية »

فقال محمد على : « ومن تريدونه واليا »

فقال الجميع بصوت واحد : « لا نرضى الا بك وتكون واليا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير »

فأظهر محمد على ترددا وامتناعا حتى لا ينسب اليه انه المحرض على هذه الثورة ، وقال انه لا يستحق هذا المنصب وان هـذا التعيين قد يمس حقوق السلطان ، فألح وكلاء الشعب عليه وقالوا جميعا قد اخترناك برأى الجميع والكافة ، والعبرة برضا أهل البلاد ، وأخذوا عليه العهود والمواثيق أن يسير بالعدل وألا يبرم أمراً الا بمشورتهم

فقبل محمد على ولاية الحكم ونهض السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى وألبساه خلعة الولاية وكان ذلك وقت العصر

وبذلك تمت مبايعـة نواب الشعب لمحمد على وأمروا بأن ينادى به فى أنحاء المدينة واليا لمصر

هذا هو اليوم المشهود الذى تولى فيه محمد على باشـا حكم مصر بارادة الشعب ، وهو من الايام التاريخية المعدودة فى تاريخ الحركة القومية ، ففيه تم انقلاب عظيم فى نظام الحكم ، فيه وضعت مصر لنفسها أساس حريتها واستقلالهـا ، فيه أعلنت عن حقها فى تقرير مصيرها ، فيه تجلت سلطة الأمة ممثلة فى أشخاص زعمائها وذوى الرأى فيها ، تجلت سلطة الامة فى خلع الوالى الذى لم ترتض حكمه واسناد ولاية الامر الى من انتخبه زعماء الشعب ووكلاؤه ، وتلك أول مرة فى تاريخ مصر الحديث يعزل الوالى ويختار بدله بقوة الشعب وارادته ، لقد كان الولاة يعزلون بقوة الجند وارادة رؤسائهم من المماليك ، لكن هذه المرة كان الانقلاب شعبيا فوقع بارادة

الشعب و بقوة الشعب ، ثم انتخاب محمد على للولاية على الرغم من صدور الفرمان السلطانى باسناد ولاية جدة اليه ، وكان معروفا ان الحكومة التركية تؤيد خورشد باشا وتناصره فى موقفه ، فخلع خورشد باشا وانتخاب محمد على واليا لمصر فيه معنى الاستقلال عن الحكومة التركية ومقاومة تدخلها فى حكم مصر

ويمتاز هذا الانقلاب بأنه لم يكن مقصورا على مجرد انتخاب وكلاء الشعب لولى الامر بل كان مقرونا باشتراطهم أن يرجع اليهم فى شؤون الدولة ، فوضعوا بذلك قاعدة الحكم الدستورى فى البلاد ، وفى ذلك يقول الجبرتى عن ولاية محمد على : « تم الامر بعد المعاهدة والمعاقدة على سيره بالعدل واقامة الاحكام والشرائع والاقلاع عن المظالم وألا يفعل أمرا الا بمشورته ومشورة العلماء وانه متى خالف الشروط عزلوه »

وثمت ميزة أخرى أكسبت ذلك الانقلاب بهاء وجلالا ، ذلك انه تم فى دار المحكمة ، فى ساحة القضاء ، فاتخذ معنى الاحتكام الى العدالة والتمسك بالحق ، وهى فكرة جليلة امتازت بها الثورة المصرية ، ولا نظن ثورة أخرى غربية أو شرقية تسامت الى هذا المعنى البديع ، فالثورة اذاً كان قوامها المطالبة بالحق والاحتكام الى العدل ، كان أساسها الحق ومن ورائه قوة الشعب تسنده وتؤيده . وما أحوج الثورات والحركات القومية الى أن تحافظ فى كل أدوارها على معانى الحق والعدل والنزاهة ، فانها بذلك تسلم من الانحدار فى مهاوى الرذيلة والفساد ، والفوضى والطغيان

القتال بين الشعب والوالى

ابلغ زعماء الشعب قراراتهم الى خورشد باشا ، وذهب وفد منهم الى القلعة لمقابلته فاجابهم « انى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بامر من الفلاحين ، ولا أنزل من القلعة الا بأمر من السلطنة »

ومعنى ذلك أنه رفض الاذعان لمطالب وكلاء الشعب وكبر عليه أن يصدر منهم أمر أو نهى وانكر عليهم هذا الحق بأسلوب يدل على مبلغ ما كان يشعر به الحكام من الازدراء بارادة الشعب ، فلم يكن بدٌّ من نشوب القتال بين الشعب والوالى

وقد حرر نواب الشعب يوم اجتماعهم محضرا بعزل خورشد باشا وتعيين محمد على بدله، ولم يذكر الجبرتى انهم حرروا محضراً الا فى يوم ١٦ صفر (١٦ مايو) حينما طلب منهم خورشد باشا سندا شرعيا بالعزل ، لكن (فولابل) يقول أنهم حرروا محضرا يوم ١٣ مايو اى قبل المحضر الثانى، ويقول ان الذى تولى تحريره هو الشيخ محمد المهدى واقتبس منه العبارة الآتية وقال عنها انها جديرة بالتفات النظر اليها، وهى « ان للشعوب طبقا لما جرى به العرف قديما ولما تقضى به أحكام الشريعة الاسلامية الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم اذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لان الحكام الظالمين خارجون على الشريعة »

واخذ الوالى يحصن القلعة ويتزود من الميرة والذخيرة ويستعد للقتال لاخضاع المدينة واخماد الثورة ، وأخذ زعماء الشعب من ناحيتهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لاجبار خورشد باشا على التسليم ، فدعوا الاهالى الى حمل السلاح، واحتشد الثائرون فى ميدان الازبكية حتى ملئوه، واعتزم الزعماء، أن يعيدوا ابلاغ الوالى قرارهم ويطلبوا اليه احترامه منعا للفتنة وحقنا للدماء ، فبعثوا برسالة الى عمر بك وصالح قوش (١) يذكرون فيها « ما اجتمع عليه رأى الجمهور من عزل الباشا وأنه لاينبغى مخالفتهم لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الاقليم (٢) »

فارسل عمر بك وزميله يطلبان سندا شرعيا مثبتا لعزله ، فاجتمع الزعماء فى يوم الخميس (١٦ مايو — ١٦ صفر) بدار المحكمة (بيت القاضى) وحرروا محضرا فى شكل سؤال وجواب على نحو الفتاوى التى كانت تصدر بخلع السلاطين فى الاستانة ووقعوا على المحضر وأرسلوه الى الوالى ومستشاريه، فلم يقتنعوا به ولم يتعقلوه، واستمر الوالى على عناده، فاخذ السيد عمر مكرم يحرض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال ولبى الاهالى الدعوة متطوعين حاملين ما وصلت اليه أيديهم من الاسلحة والعصى ،

---

(١) هما من خاصة مستشارى الوالى وكانا من ضباط الأرناؤد

(٢) الجبرتى الجزء الثالث

فاقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة وتحصنوا بها « وحمل السلاح كل قادر على حمله، وخلت مخازن الاسلحة مما فيها من آلات الكفاح »[١] واشتركت جميع طبقات الشعب في حمل السلاح على اختلاف أعمارهم ومراكزهم وطوائفهم، وبلغ عدد الثوار أربعين الفا حاملين الاسلحة والعصى[٢] «وكان الفقراء من العامة يبيعون ملابسهم أو يستدينون ويشترون الاسلحة »[٣]

وارسل خورشد باشا الى القاضى يطلب الرواتب المتأخرة لجنوده وبقاءه فى القلعة الى أن يرد جواب الدولة وقال فى رسالته ان إقامته بالقلعة ليس فيها ضرر على الرعية ، فاجابه القاضى «ان إقامتكم بالقلعة هى عين الضرر فانه حضر يوم تاريخه نحو الاربعين الف نفس بالمحكمة طالبين نزولكم أو محاربتكم ، فلا يمكننا دفع قيام هذا الجمهور ، وهذا آخر المراسلات بيننا وبينكم والسلام »[٤]

هذا ماذكره الجبرتى عن المفاوضات بين زعماء الشعب وخورشد باشا ، ولم يذكر لنا فى هذه النقطه مركز محمد على خلال تلك المفاوضات ، لكن فولابل يلقى على هذه الناحية شيئا من الضوء فيقول فى كتابه ان (محمد على) كان يميل بعد المناداة بمبايعته الى أخذ خورشد باشا بالحسنى لان اقتراب المماليك من القاهرة فى خلال تلك الايام قد أقلق باله ، هذا فضلا عن أنه لم يكن ينظر بعين الارتياح الى استمرار الشعب ثائرا حاملا السلاح لانه رأى فى ذلك مصدر قلق على سلطته الجديدة ، فرغب الى الشيوخ أن يفاوضوا خورشد باشا فى طريقة سلمية ترضى الفريقين، فأجاب خورشد بأنه لايسلم القلعة كما صرح بذلك من قبل الا اذا جاءه أمر من السلطان ، على أنه مع ذلك يكف عن ضرب المدينة اذا تعهد له الشيوخ بانهم لايتمسكون بمحاسبته على

---

(١) الجبرتى الجزء الثالث

(٢) فولابل ، مصر الحديثة

(٣) و(٤) الجبرتى الجزء الثالث

الاموال التى دخلت خزانته وأن يمكنوه من تزويد القلعة بالمؤونة اللازمة لجنود الحامية ، ويقول فولا بل ان الشيوخ قبلوا الشرط الثانى أما الشرط الاول فكان محمد على ميالا الى قبوله لكن زعماء الثورة رفضوه بتاتا وأصروا على ضرورة محاسبة خورشد على الضرائب التى جباها ، فلما علم بنتيجة المفاوضة أصر على رفض أى اتفاق على غير الاساس الذى عرضه ، فعاد الفريقان الى استئناف الحرب والقتال ، وبعث خورشد باشا الى سلحداره ليغادر الصعيد بجيشه ويجىء الى القاهرة لنجدته

عمر مكرم

روح الحركة

كان للشعب زعماء عديدون يجتمعون ويتشاورون ويشتركون فى تدبير الامور ، ولكل منهم نصيبه ومنزلته ، ولكن من الانصاف أن يعرف للسيد عمر مكرم فضله فى هذه الحركة ، فقد كان بلا جدال روحها وعمادها ، كان أكثر الزعماء شجاعة واقداما ، وأقواهم اخلاصا وايمانا ، وأكثرهم عملا ، وأبعدهم نظرا ، كان يتقدم الصفوف ، ويشدد العزائم ، ويدعو الى مواصلة الجهاد ، ويتلافى أسباب الخلاف والانقسام ، تتجلى شخصيته فى كلماته ومواقفه وأعماله ، فهو أول من دعا الى الاجتماع فى دار المحكمة الكبرى لاعلان خلع خورشد باشا واختيار محمد على باشا بدله ، وهو أول من دعا الى محاصرة القلعة بعد أن أبى خورشد النزول منها ، وأول الثابتين فى ايمانهم بعدالة قضية الشعب ، التقى يوما بعمر بك أحد مستشارى خورشد باشا ، فوقع بينهما جدل طويل فى صدد القرارات التى أصدرها زعماء الشعب ، ومن جملة ما قاله عمر بك اعتراضا على تلك القرارات « كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم؟ » فأجابه عمر مكرم على الفور « أولو الامر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم ، وقد جرت العادة من قديم الزمان ان أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شىء مألوف من زمان ، حتى الخليفة والسلطان اذا سار فى الناس بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونه » فقال عمر بك

« وكيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا ؟ أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك ؟ » فقال عمر مكرم « قد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحاربتكم لانكم عصاة »

فهذه الكلمات التى فاه بها بداهة تدل على ما يجيش فى صدره من المبادىء والافكار العالية .

وكان عمر مكرم قائما على تنظيم حركة المقاومة يتعهدها ويتولى قيادة الصفوف فيها ، فتاريخها مرتبط بجهاده وأعماله

حرض الجماهير على الاجتماع والاستعداد لحصار القلعة ، وركب هو والعلماء الى بيت محمد على باشا بالازبكية يتبعهم الكثير من الوجاقلية والعامة مسلحين بالاسلحة والعصى ، وواصلوا السهر ليلا فى الشوارع والحارات وأقاموا المتاريس بالقرب من القلعة بجهات الرميلة والصليبة والحطابة والطرق النافذة اليها مثل باب القرافة والحصرية (درب الحصر) وغيرها ، ومنعوا الصعود الى القلعة والنزول منها ، وأخذ الفريقان يترامون بالبنادق ، وصعد جماعة من الثوار الى منارة جامع السلطان حسن يرمون منها القلعة ومن فيها

وصف الجبرتى وقائع الثورة فى تلك الايام وصف شاهد عيان فذكر ما خلاصته انه فى يوم الاربعاء ٢٢ صفر (٢٢ مايو سنة ١٨٠٥) ركب السيد عمر مكرم والمشايخ ومعهم جمع كثير من الناس الى الازبكية ، وبعد ركوبهم حضر الجمع الكثير من العامة وطوائف الاجناد من سائر النواحى وخاصة الحسينية والعطوف والقرافة والرميلة والحطابة والصليبة ومعهم الطبول والبنادق حتى غصت بهم الشوارع وذهبوا الى الجامع الازهر ثم رجعوا الى الازبكية

وكان الغرض من هذه الحركات وما تخللها من ذهاب ومجىء إذكاء نار الحماسة فى نفوس الشعب ودعوة طبقاته الى تأييد الثورة والانضواء تحت لوائها ، قال المسيو (فلكس مانجان) فى هذا الصدد « ان هذه الجولات الحربية وما بدا على الجموع من روح القوة أثرت فى نفوس جند الوالى الذين انكمشوا أمام هذه المظاهرات »

ولحقت الجموع بالمشايخ وخرج هؤلاء من عند محمد على واستمرت الحال كذلك الى ليلة الجمعة ٢٤ مايو سنة ١٨٠٥ ، وفى تلك الليلة فيما بين المغرب والعشاء خرج جنود الوالى من القلعة يريدون الاستيلاء على متاريس الثوار ، فتبادل الفريقان اطلاق الرصاص الى ما بعد العشاء ، ثم ارتد جند الوالى على أعقابهم الى داخل القلعة ، ويقول الجبرتى ان العساكر الارناؤد من جنود محمد على كانوا فى هذه الملاحم يحاربون جنود الوالى بفتور مراعين انهم « من أجناسهم لان غالبهم منهم » ، فهذه الشهادة قوية الدلالة على ان الثورة التى انتهت باجلاس محمد على على عرش مصر قامت على أكتاف الشعب دون جنود محمد على أنفسهم ، وملاحظة الجبرتى يؤيدها ان أكبر أعوان خورشد باشا وأخص مستشاريه وهما عمر بك وصالح قوش كانا من الرؤساء الارناؤد يعملان بكل الوسائل لمناصرته وضم الارناؤد الى جانبه ، فلو لم يجد محمد على التأييد والاخلاص من زعماء الشعب وأفراده لما وصل الى قمة السلطة ، ويؤيد هذا المعنى قول الجبرتى في موطن آخر « انتصر محمد على بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضى وأهل البلدة والرعايا » ويقصد بالرعايا جمهور الشعب

استمرت الحرب سجالا ، ففى يوم الجمعة ٢٤ مايو نزل عمر بك من القلعة وأشاع بين الجماهير ان خورشد باشا عزم على النزول من القلعة والتسليم ، ولم يكن ذلك القول الا خدعة أراد بها أن يفت فى عضد الثوار ويضعف من عزائمهم وليتزود من الذخيرة والميرة ، فلما كان يوم الاثنين ٢٧ مايو تجدد القتال وشدد السيد عمر مكرم فى حصار القلعة ، قال الجبرتى يصف ما رآه فى هذا الصدد

« ركب السيد عمر مكرم وصحبته الوجاقلية وأمامه للناس بالاسلحة والعدد والاجناد ، وأهل خان الخليلى والمغاربة شىء كثير جدا ، ومعهم بيارق ولهم جلبة وازدحام ، بحيث كان أولهم بالموسكى وآخرهم جهة الازهر ، وانفصل الامر على رجوع عمر بك الى القلعة ونزول عابدى بك[1] بعد أن قضوا (اى جنود خورشد) اشغالهم وعبوا

(١) هو اخو حسن باشا احد قواد الجنود الالبانيين وقد ذهب الى القلعة موفدا من قبل أخيه لاقناع خورشد باشا بالكف عن المقاومة فلم يوفق

ذخيرتهم واحتياجهم من الماء والزاد والغنم ليلا ونهارا مدة ثلاثة أيام ، وقد كانوا أشرفوا على طلب الأمان وتبين أنهم انما فعلوا ذلك من باب المكر والخديعة واتفق الحال على اعادة المحاصرة» ثم ذكر الجبرتى مابذله السيد عمر مكرم فى اعداد معدات الحصار، قال « ورجع السيد عمر الى منزله وأخذ فى اسباب الاحاطة بالقلعة كالاول وذلك بعد العشاء ليلة الثلاثاء (٢٨ صفر) ووقع الاهتمام فى صبحها بذلك ، وجمعوا الفعلة والعربجية وشرعوا فى طلوع طائفة من العسكر والعرب وغيرهم الى الجبل (المقطم) ـ لضرب القلعة ـ وأصعدوا المدافع ورتبوا عدة جمال لنقل الاحتياجات والخبز وروايا الماء تطلع وتنزل كل يوم مرتين ، وطلع اليهم الكثير من باعة الخبز الكعك والقهاوى وغير ذلك ، واستهل شهر ربيع الأول والأمر على ذلك مستمر من تجمع الناس وسهرهم بالليل فى سائر الاخطاط »(١) أى أن حالة الثورة صارت حالة عادية ألفها الناس ، وكان الفتور قد تسرب الى جنود الارناؤد الذين يشاركون الثوار فى القيام على المتاريس ، وطلبوا راتبهم من محمد على باشا، فاستمهلهم حتى يسلم خورشد باشا فأبوا «ولم يمتثلوا وتركوا المتاريس التى حوالى القلعة وتفرقوا فذهب جماعة من الرعية وتترسوا فى مواضعهم»(٢)، هذه شهادة الجبرتى، وهى صريحة فى أن الشعب هو صاحب اليد الطولى فى تلك الثورة وانه كان يسد الفراغ الذى يحدث فى الصفوف بانصراف الجنود الارناؤد عن القتال .

كان السيد عمر مكرم شديد اليقظة والحذر ، يرقب تطور الحوادث بنظر ثاقب وجنان ثابت ، رأى أن بعض المفسدين يسعون فى الايقاع بين الشعب وجنود محمد على لاحباط الحركة لان هؤلاء الجنود لم يكتفوا بالتقاعد عن القتال بل كان كثير منهم يهاجمون الثوار فى منازلهم وينهبون ويعتدون، فسعى جهده فى احباط الفتنة وحال دون استفحال الشر، وكان له الصوت المسموع والكلمة التى لاترد فى تلك الايام التاريخية، تعقد الاجتماعات فى داره وينادى باسمه فى الاسواق وتعلن الاوامر منسوبة اليه ، قال الجبرتى فى حوادث يوم السبت عشرة ربيع الاول سنة ١٢٢٠ (٨ يونيه سنة ١٨٠٥)

(١) و (٢) الجبرتى الجزء الثالث

« حضر حسن نجاتى المحتسب وأمر الافندى بالمناداة ، فمر وأمامه المنادى يقول حسبما رسم السيد عمر الأفندى والعلماء لجميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ويحترسوا فى أماكنهم وأخطاطهم » ، من ذلك يتبين أن سلطة الحكم فى تلك الايام التاريخية كانت فى يد السيد عمر مكرم والعلماء وكان هو المرجع لحل المعضلات فى تلك الحركة ، فكان محمد على يتوددا اليه ويراسله ويتردد على بيته ويرجع اليه فى مهمات الامور.

وحدث أن خورشد باشا بعث برسالة الى الجنود الدلاة يستنجد بهم و« يطلبهم للحضور ويذكر لهم انه يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة وإقامة لناموسها وناموس الدين وان الفلاحين محاصروه ومانعون عنه الاكل والشرب » فلما وصلت الرسالة الى الدلاة فى قليوب أعرضوا عن تلبية الدعوة وبعثوا بالرسالة الى محمد على فأرسلها الى السيد عمر مكرم النقيب

وقال الجبرتى عن الاجتماعات التى عقدت فى داره : « وفى ليلة الاربعاء رابع عشر ربيع الاول (١٢ يونيه سنة ١٨٠٥) حضر كتخدا (وكيل) محمد على وجرجس الجوهرى (كبير المباشرين الاقباط) الى بيت السيد عمر وحضر أيضاً الشيخ الشرقاوى والشيخ الامير والقاضى ، وتشاوروا على أمر ورأى رآه محمد على باشا » ولم يذكر الجبرتى ذلك الرأى الذى كان موضوع الاجتماع والتشاور ، ولعله كان سرا لم يبح به المجتمعون ، فلم يصل الى علم الجبرتى ، على أن المسيو (فلكس مانجان) قد ذكره فى كتابه[1] فقال انهم اتفقوا فى هذا الاجتماع على مضاعفة الجهد لاجبار خورشد باشا على تسليم القلعة ، فمن ذلك أنهم قرروا زيادة عدد المخافر فى الاستحكامات والمتاريس وعهدوا الى السيد عمر ارسال المؤونة والماء كل يوم الى المقاتلة المرابطين بالمقطم

وكان ليقظة السيد عمر مكرم وانتباهه فضل كبير فى نجاح الحركة ونجاتها من الفشل ، فقد حدث فى مدة الحصار أن حضر على باشا السلحدار[2] بجنوده من (المنيا) لنجدة خورشد باشا ورابط بمصر القديمة وماجاورها ، وأمكنه أن يتصل بالقلعة من

---

(١) تاريخ مصر فى عهد محمد على . الجزء الاول

(٢) قائد الجيش التركى فى الصعيد

طريق الجبل وأن يمد حاميتها بالمؤونة والذخيرة ، وأخذ يعمل من جهة أخرى على الاتصال بجنود محمد على ليفسدهم ويصرفهم عن تأييد الحركة، فانضم اليه فعلا كثير منهم ، واعتزم أن يركب فيمن معه من الجنود ويهجم على متاريس الاهالى جهة الصليبة ، فأرسل ليلة السبت ١٥ يونيه (١٧ ربيع الأول) الى خورشد باشا ينبئه بعزمه ويطلب اليه فى حالة هجومه من تلك الناحية أن يساعده هومن القلعة بضرب المدينة والمتاريس بالمدافع ، فينزعج الناس ويدب فى صفوفهم الرعب ويستولى جنود الوالى على المتاريس ويتم مادبره ، وأراد أن يحكم تدبيره بالمكر والخداع ، فأوعز الى اثنين من كبراء ضباطه أن يكتبا الى السيد عمر مكرم خطابا مضمونه انهما يريدان الحضور الى جهة القلعة ليسعيا فى الصلح ، وانهما يطلبان الاذن لهما بالذهاب الى القلعة ويلتمسان اصدار الأمر الى المرابطين فى المتاريس من الاهالى باخلاء الطريق لهما ، ولكن رجلا صادقا أميناً من رجال عمر مكرم علم بهذه المكيدة وجاءه بعد الفجر وأخبر بها فأخذ أهبته لاحباطها

قال الجبرتى « فأرسل السيد عمر افندى الى من بالنواحى والجهات وأيقظهم وحذرهم ، فاستعدوا وانتظروا وراقبوا النواحى ، فنظروا الى ناحية القرافة فرأوا الجمال التى تحمل الذخيرة الواصلة من على باشا السلحدار الى القلعة ، ومعها أنفار من الخدم والعسكر ، وعدتها ستون جملا ، فخرج عليهم (حجاج الخضرى) ومن معه من أهالى الرميلة فضربوهم وحاربوهم وأخذوا منهم تلك الجمال وقتلوا شخصين من العسكر وقبضوا على ثلاثة وحضروا بهم وبرءوس المقتولين الى بيت السيد عمر ، فأرسلهم الى محمد على باشا ، فأمر بقتل الآخرين ، فلما رأى من بالقلعة ذلك فعندها رموا بالمدافع والقنابل على البلد وبيت محمد على وحسن باشا وجهة الأزهر ولم يزالوا يراسلون الرمى من أول النهار الى بعد الظهر فلم ينزعج أهل البلد من ذلك لما ألفوه من أيام الفرنسيس وحروبهم السابقة »

و(حجاج الخضرى) الذى وردذكره فى هذه العبارة هو شيخ طائفة الخضرية فى ذلك العصر ، واليه تنسب البوابة المعروفة ببوابة حجاج ، وتسمى أيضاً بوابة الخلاء

قبلى مسجد السيدة عائشة بشارع باب القرافة، وقد ذكره الجبرتى غير مرة ، فقال عنه انه « الشهير بنواحى الرميلة ، وكان مشهورا بالاقدام والشجاعة طويل القامة عظيم الهمة وكان شيخاً على طائفة الخضرية صاحب صولة وكلمة ومكارم أخلاق بتلك النواحى، وهوالذى بنى البوابة بآخر الرميلة عند عرصة الغلة أيام الثورة ، وشنق مظلوما» وقال عنه انه خرج من القاهرة عقب رحيل خورشد باشا خوفا على نفسه من اعتداء العسكر (الارناؤد) وذهب الى بلده (المنوات) ثم عاد وأرسل الى السيد عمر مكرم « فكتب له أماناً من الباشا (محمد على) فحضر بذلك الامان وقابل الباشا وخلع عليه ونادوا له فى خطته بانه على ماهو عليه فى حرفته وصناعته ووجاهته بين أقرانه فصار يمشى فى المدينة وصحبته عسكرى ملازم له »

ثم ذكر الجبرتى أنه اختفى بعد ذلك بسبب ماداخله من الوهم والخوف من العسكر والظاهر أنه اعتقد أنهم ينوون قتله غيلة

وقد ذكره المسيو (فلكس مانجان) (١) وقال عنه انه كان يتولى القيادة فى الاستحكامات القريبة من القلعة وانه علم من أحد أعوانه بقدوم الحملة التى بعث بها السلحدار الى خورشد باشا ، وقال لهذه المناسبة انه اشتهر ذكره فى حصار القلعة وانه جمع رجاله وهجموا على الحملة واستولوا على الجمال وروى الواقعة كما ذكرها الجبرتى

استمر القتال متراسلا بين الشعب والوالى الى أوائل شهر يوليه سنة ١٨٠٥ ، وفى غضون ذلك أشار محمد على على السيد عمر مكرم أن يأمر رجاله بنقل مدفع كبير من طابية قنطرة الليمون (٢) وتركيبه بالجبل لضرب أسوار القلعة كى يكون الضرب أشد أثرا من المدافع التى كان الثوار يستعملونها فى القتال ، فجمع السيد عمر رجاله وجلب الأبقار لجر هذا المدفع الثقيل ونقلوه من مكانه وأخرجوه من باب البرقية وركبوه عند باب الوزير ، واستمروا فى جره يومين كاملين ، وبعد أن تم تركيبه أخذ

---

(١) فى كتابه مصر تحت حكم محمد على

(٢) من القلاع التى أنشأها الفرنسيون بالقاهرة انظر الجزء الاول ص ٣١٢

القواد يضربون به القلعة واستمر الضرب من الجانبين شديدا متراسلا ، وحاول بعض جنود الوالى أن يهجموا على ذلك المدفع لتعطيله فردهم الثوار وضربوهم وقتلوا كبيرهم ، وكانت مدافع القلعة تصوب قنابلها على حى الأزهر وعلى بيت محمد على باشا وبيت حسن باشا

يتبين من الحوادث المتقدمة أن السيد عمر مكرم هو المنظم للثورة الشعبية فى ذلك العصر ، وقد شهد له بذلك كتاب الافرنج فيما دونوه من وقائع تلك الثورة ، قال (فولابل) فى هذا الصدد

« كان من الصعب أن يسود النظام وتدبر التدابير المحكمة بين الجنود الذين اعتادوا عيشة الفوضى ، والأهالى الذين لم يألفوا من قبل حركات القتال ومتاعبه ، ولكن السيد عمر مكرم قد سدّ هذا النقص من جميع النواحى بهمته ونشاطه وشجاعته ، فكان دائما دائب العمل واليقظة ، يحرك الجموع ويرتب مواقفهم ويبعث الحمية نفوسهم فى ويشعل فى كل لحظة نار الحماسة كلما خمدت جذوتها أو دب اليها دبيب الفتور . »(١)

سرد الجبرتى حوادث الثورة الشعبية ومر عليها كأنها حوادث عادية لاتختلف عن الوقائع والانباء التى كان يدونها فى تاريخه العظيم ، ومع أنه كان دقيقا فى تدوينها وفاق فى بيانه واستقرائه جميع الكتاب والمؤرخين الافرنج الذين كتبوا عنها سواء أكانوا ممن شهدوها أم سمعوا بها فانه لم يلفت نظر قارئه الى ماتنطوى عليه من السمو والعظمة ، على أنها مجموعة وقائع تاريخية رائعة ، ولاغرو فهى تمثل نفسية جديدة للشعب المصرى ولدتها الحركة القومية التى ظهرت فى أفق البلاد أواخر القرن الثامن عشر ، ولقد كانت هذه الحوادث رابع ثورة قام بها الشعب فى تاريخ مصر الحديث فى فترة من الزمن لاتتجاوز تسع سنوات ، فالثورة الأولى قاوم بها نابليون ، والثورة الثانية قاوم بها كليبر ، والثالثة قام بها فى وجه المماليك ، والرابعة فى وجه الوالى التركى ، كل ذلك يدل على مبلغ حيوية الشعب فى تلك الحقبة من الزمن

ولقد فطن الكتاب الافرنج الى ما فى ثورة مايو سنة ١٨٠٥ من معان سياسية

---

(١) فولابل . مصر الحديثه

كبيرة ، فلم يفتهم أن ينوهوا بها فيما كتبوه عن وقائعها ، قال (فولابل)[١] فى هذا الصدد:

«ان الحوادث التى سردناها تسترعى النظر ، فلأول مرة وقع تغيير سياسى خطير فى ولاية من ولايات السلطنة العثمانية بارادة الشعب و باسم الشعب ، ولا جدال أن المطالب التى فرضها الشيوخ على خورشد باشا تدل على ما يجيش بصدورهم من الاحساس بالحرية وما يشعرون به من الحاجة الى أخذ الضمانات الكافية التى تكفل مراقبة الحكومة ، ولقد كان هذا الشعور الى ذلك العصر مجهولا فى الشرق ، واذا كانت أنظار الشعب قد اتجهت فى تلك الآونة الى محمد على واجمعت آراء زعمائه على تقليده سلطة الحكم فما ذلك إلا لأن (محمد على) قد دعا الى مبادىء الحرية وأعان فى كل لحظة دفاعه عن حقوق الشعب ومصالحه ونادى بأن علة المحن التى حلت بالبلاد راجعة الى سوء سياسة الولاة الاتراك وعدم وجود أية رقابة على الحكومة »

هذا ما كتبه (فولابل) ، وفيه كما ترى اطراء للثورة الشعبية وتمجيدها ، ولذلك لم يفت الكاتب أن ينوه بأن ظهور هذا الشعور الجديد يرجع الفضل فيه الى اقامة الفرنسيين فى مصر وما نشروه فيها من مبادىء الحرية

ونحن من ناحيتنا نفهم هذا الفضل بمعنى آخر غير المعنى الذى قصده المسيو (فولابل) ، نفهم أن هذا الشعور المجيد يرجع الفضل فى ظهوره الى روح المقاومة الشعبية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، فان المقاومة الاهلية من شأنها أن تثير فى نفوس الشعب روح التطلع الى الحرية و إباء الضيم ، والأخذ بأسباب الحياة القومية والنظم السياسية ، فالروح التى حفزت الأمة الى مقاومة الاحتلال الفرنسى هى التى أهابت بها الى مقاومة حكم المماليك ثم مقاومة الحكم التركى

و يقول كاوت بك[٢] وهو من أصدقاء محمد على وأخص مستشاريه «لقد أغرى الشيوخ (محمد على) بتقلد زمام الاحكام ، وهم بما لهم من النفوذ الادبى والدينى والسلطة التقليدية كانوا بالبداهة نواب الأمة ووكلاءها ، وغنى عن البيان انه لو لم يستوثق محمد على

(١) فى كتابه (مصر الحديثة)

(٢) فى كتابه (لمحة عامة الى مصر)

من تأييد الجمهور له لسقط تحت اعباء المهمة التى أخذ على نفسه القيام بها »

ختام الثورة

ظلت الحرب بين الشعب والوالى سجالا الى ان جاء القاهرة من الاستانة يوم ٩ يوليه سنة ١٨٠٥ (١١ ربيع الثانى سنة ١٢٢٠) رسول يحمل فرمانا يتضمن الخطاب لمحمد على باشا « والى جده سابقاً » بتثبيته واليا على مصر « حيث رضى بذلك العلماء والرعية وان خورشد باشا معزول عن ولاية مصر »

فبطل الضرب من القلعة و أبطل الثوار الضرب من الجبل مع استمرار الحصار وبقاء المتاريس ومرابطة الثوار بالجبل الى ان اذعن خورشد باشا وسلم القلعة يوم الاثنين ٥ اغسطس سنة ١٨٠٥ (٩ جمادى الاولى سنة ١٢٢٠) ونزل منها ثم رحل عن البلاد ، فكان آخر وال عثمانى حكم مصر بارادة الاستانة وأوامرها

و بذلك توجت الثورة بفوز ارادة الأمة ، واستقر فى الحكم من اختاره نواب الشعب وليا للأمر ، ولله عاقبة الأمور

الفصل الرابع عشر

وثائق تاريخية

وثيقة رقم ١

منشور نابليون باعادة الديوان

(انظر ص ١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم . من أمير الجيوش الفرنساوية خطاباً الى كافة أهالى مصر الخاص والعام ، نعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول الخالين من المعرفة وادراك العواقب سابقا أوقعوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصر فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة ، والبارى سبحانه وتعالى أمرنى بالشفقة والرحمة على العباد ، فامتثلت أمره وصرت رحيما بكم شفوقا عليكم ، ولكن كان حصل عندى غيظ وغم شديد بسبب تحريك هذه الفتنة بينكم ، ولاجل ذلك أبطلت الديوان الذى كنت رتبته لنظام البلد وصلاح أحوالكم من مدة شهرين ، والآن توجه خاطرنا الى ترتيب الديوان كما كان لان حسن أحوالكم ومعاملتكم فى المدة المذكورة أنسانا ذنوب الأشرار وأهل الفتنة التى وقعت سابقاً ، أيها العلماء والاشراف اعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذى يعادينى ويخاصمنى انما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره ، فلا يجد ملجأ ولا مخلصا ينجيه منى فى هذا العالم ، ولا ينجو من بين يدى الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى ، والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ، ومن يشك فى ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة ، واعلموا أيضا أمتكم أن الله قدر فى الأزل هلاك أعداء الاسلام وتكسير الصلبان على يدى ، وقدر فى الازل انى أجىء من المغرب الى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الأمر الذى أمرت به ، ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه ، واعلموا أيضا أمتكم أن القرآن العظيم صرح فى آيات كثيرة بوقوع الذى حصل وأشار فى آيات أخرى الى أمور تقع

فى المستقبل ، وكلام الله فى كتابه صدق وحق لا يتخلف ، اذا تقرر هـذا وثبتت هذه المقالات فى آذانكم فارجعوا أمتكم جميعا الى صفاء النية واخلاص الطوية فان منهم من يمتنع عن الغى واظهار عداوتى خوفا من سلاحى وشدة سطوتى ، ولم يعلموا أن الله مطلع على السرائر يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والذى يفعل ذلك يكون معارضا لأحكام الله ومنافقا وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب ، واعلموا أيضا أنى أقدر على اظهار ما فى نفس كل أحد منكم لاننى أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه وان كنت لا اتكلم ولا انطق بالذى عنده ولكن يأتى وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم الهى لا يرد ، وان جتهاد الانسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذى قدره وأجراه على يدى ، فطوبى للذين يسارعون فى اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام (١) »

وثيقة رقم ٢

منشور الديوان الخصوصى الى الشعب
لمناسبة اعادة الديوان
(انظر ص ٢٠)

الحمد لله وحده . هذا خطاب الى جميع اهل مصر من خاص وعام ، من محفل الديوان الخصوصى من عقلاء الانام علماء الاسلام والوجاقات والتجار الفخام ، نعلمكم معاشر اهل مصر ان حضرة سارى عسكر الكبير بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية ، صفح الصفح الكلى عن كامل الناس والرعية ، بسبب ماحصل من اراذل أهل البلد والجعيدية ، من الفتنة والشر مع العساكر الفرنساوية ، وعفا عفوا شاملا ، وأعاد الديوان الخصوصى فى بيت قائد اغا بالازبكية ، ورتبه من أربعة عشر شخصا اصحاب معرفة واتقان ، خرجوا بالقرعة من ستين رجلا كان انتخبهم بموجب فرمان ، وذلك

---

(١) نشر يوم ١٦ رجب سنة ١٢١٣

لاجل قضاء حوائج الرعايا وحصول الراحة لاهل مصر من خاص وعام ، وتنظيمها على اكمل نظام واحكام ، كل ذلك من كمال عقله وحسن تدبيره ، ومزيد حبه لمصر وشفقته على سكانها من صغير القوم قبل كبيره ، رتبهم بالمنزل المذكور كل يوم لاجل خلاص المظلوم من الظالم ، وقد اقتص من عسكره الذين أساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهرى (١) وقتل منهم اثنين بقراميدان ، وأنزل طائفه منهم عن مقامهم العالى الى ادنى مقام ، لان الخيانة ليست من عادة الفرنسيس ، خصوصا مع النساء الارامل فان ذلك قبيح عندهم لايفعله الا كل خسيس ، ووضع القبض بالقلعة على رجل نصرانى مكاس ، لانه بلغه انه زاد المظالم فى الجمرك بمصر القديمة على الناس ، ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمتنع غيره من الظلم ومراده رفع الظلم عن كامل الخلق ويفتح الخليج الموصل من بحر النيل الى بحر السويس لتخف أجرة الحمل من مصر الى قطر الحجاز الاخم وتحفظ البضائع من اللصوص وقطاع الطريق وتكثر عليهم أسباب التجارة من الهند واليمن وكل فج عميق ، فاشتغلوا بامر دينكم وأسباب دنياكم ، واتركوا الفتنة والشرور ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم ، وعليكم بالرضا بقضاء الله وحسن الاستقامة لاجل خلاصكم من اسباب العطب والوقوع فى الندامة ، رزقنا الله وايا كم التوفيق والتسليم ، ومن كانت له حاجة فليأت الى الديوان بقلب سليم الا من كان

---

(١) هم جماعة من الجنود الفرنسيين تسللوا ليلا الى دار الشيخ محمد الجوهرى أحد علماء مصر الاعلام فى ذلك العصر وكانت داره بالازبكية ولم يكن بها سوى الخدم من رجال ونساء ، فشعر الخدم بدخول الجنود واستيقظ النسوة فضربهن الجنود وقتلوا واحدة منهن وأرادوا هتك عرض فتاة أخرى ففرت منهم وسرقوا ما وصلت اليه أيديهم من متاع الدار ، وقد وقعت هذه الحادثة اثناء رحلة نابليون بالسويس وكان للشيخ الجوهرى منزلة كبيرة لدى اعضاء الديوان لما اشتهر عنه من العلم والتقوى ، فلما عاد نابليون شكوا اليه أمر هذا الاعتداء فأمر نابليون باعدام اثنين من المعتدين عقابا لهما على ما اقترفاه ، وكانت وفاة الشيخ محمد الجوهرى سنة ١٢١٥ هجرية .

له دعوى شرعية فليتوجه الى قاضى العسكر المتولى بمصر المحمية ، بخط السكرية ، والسلام على أفضل الرسل على الدوام » (١)

وثيقة رقم ٣

منشور نابليون الى اعضاء الديوان

عن انتخاب قاضى قضاة مصر

(١) نص المنشور كما عربناه عن الاصل الفرنسى الوارد فى مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقه رقم ٤٢٢٤

« المعسكر العام بالقاهرة فى ٩ مسيدور من السنة السابعة (٢٧ يونيه سنة ١٧٩٩)

« تلقيت رسالتكم صباح اليوم ، واخبركم انى لم اعزل القاضى ، بل القاضى نفسه هو الذى نقض عهده بعد أن أوليته المعروف والاحسان ونسى واجباته فانفصل عن شعبه وغادر مصر ذاهبا الى الشام ، وقد رضيت أن ينيب عنه ابنه ليقوم مقامه مؤقتاً اثناء مهمته التى كان عليه أن يقوم بها فى الشام ، لكنى ما قبلت قط أن يتولى هذا الشاب منصب القاضى على الدوام لصغر سنه وعدم كفايته ، وعلى ذلك صار منصب قاضى القضاة شاغرا ، فماذا كان ينبغى على عمله اتباعا لتعاليم القرآن الصحيحة ؟ رأيت من الواجب أن اعهد الى جمعية العلماء اختيار القاضى ، وهذا ما قمت به ، والآن وقد نال الشيخ العريشى ثقتكم فان مقصدى ان تتم توليته و يتقلد منصب القضاء ، وليس ذلك بدعا فان الخلفاء الراشدين كانوا يتولون الخلافة بانتخاب جمعية المؤمنين عملا بتعاليم القرآن

« واخبركم انى عند ما جاء ابن القاضى للقائى قد تلقيته بالرعاية والاكرام ، ولا أبغى أن يناله أذى ما ، واذا كنت قد أمرت باعتقاله بالقلعة — حيث يلقى بها من حسن الوفادة والاكرام مثلما يجد فى بيته ، فانى لم افعل ذلك الا محافظة على الامن

---

(١) نشر يوم ٢١ شعبان سنة ١٢١٣

ومنعا للفتنة ، وفى عزمى بعد تنصيب القاضى الجديد وتوليه اعباء عمله ان اطلق سراح ابن القاضى السابق وأردله امواله واسهل له ولعائلته الذهاب أنى شاءوا لانى قد جعلت هذا الشاب فى امانى وحمايتى الخاصة وانا على يقين ان اباه الذى عرفت صفاته وفضائله لم يفعل فعلته الا مسوقا بعامل التضليل والغواية

«وعليكم يا أعضاء الديوان أن تهدوا الناس الحسنى القصد الى الصواب ، وان تعرفوا اهل مصر كافة ان قد آن الوقت لانتهاء حكم العثمانيين ، فان حكومتهم أشد قسوة من حكومة المماليك ، وهل يوجد انسان يعتقد أن علماء مصر المولودين بها ليس فيهم من تؤهله كفايته وفضائله الى الاضطلاع بمنصب قاضى القضاة !

«أما الذين تسوء مقاصدهم وتحدثهم أهواؤهم بالخروج على ارادتى فعليكم أن تعرفونى عنهم لا اقتص منهم فان الله قد وهبنى القوة على معاقبتهم ويجب أن يعرفوا ان يدى قوية ليس بها ضعف ولا وهن

« ومرادي أن يجد الديوان ويجد الشعب المصرى فى خطتى هذه دليلا قائما على ما يكنه فؤادى من عواطف الخير وتمنيات السعادة والرخاء لهم ، واذا كان النيل هو أكبر أنهار الشرق فجدير بالشعب المصرى أن يكون تحت حكمى أسعد الشعوب وأعظمها .

« بونابرت »

(٢) نص المنشور كما عربه تراجمة نابليون وتلى فى الديوان ونشر فى الجبرتى الجزء الثالث

« جواب الى محفل الديوان من حضرة سارى عسكر الكبير بونابارته أمير الجيوش الفرنساوية محب أهل المنة المحمدية خطابا الى السادات العلماء ، انه وصل لنا مكتوبكم من شأن القاضى نخبركم ان القاضى لم أعزله وانما هو هرب من اقليم مصر وترك أهله وأولاده وخان صحبتنا من المعروف والاحسان الذى فعلناه معه ، وكنت استحسنت ان ابنه يكون عوضا عنه فى محل الحكم فى مدة غيبته ويحكم بدله ، ولم يكن ابنه قاضيا متوليا للاحكام على الدوام لانه صغير السن ليس هو أهلا للقضاء ، فعلمتم أن محل حكم الشريعة خال الآن من قاض شرعى يحكم بالشريعة واعلموا انى لا احب

مصر خالية من حاكم شرعى يحكم بين المؤمنين ، فاستحسنت أن يجتمع علماء المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضيا شرعيا من علماء مصر وعقلائهم لأجل موافقة القرآن العظيم باتباع سبيل المؤمنين ، وكذلك مرادى ان حضرة الشيخ العريشى الذى اخترتموه جميعا أن يكون لابد من عندى وجالسا فى المحكمة ، وهكذا كان فعل الخلفاء فى العصر الاول باختيار جميع المؤمنين ، واخبركم انى تلقيت ابن القاضى بالمحبة والاكرام لما حضر لى وقابلنى ولم أزل لهذا الوقت أكرمه ولم أحب أن يضره أحد حكم أمانتنا له ، ولما رفعناه الى القلعة لم نرد ضرره بل رفعناه مكرما مثل ما يكون فى بيته بالراحة والاكرام ، وسبب ما رفعناه الى القلعة سكون الفتن والاصلاح بين الناس ، وبعد لبس القاضى الجديد وجلوسه فى محل الحكم مرادى أن أطلق ابن القاضى وأنزله من القلعة وأرد له كامل تعلقاته وأطلق سبيله هو وعياله يتوجهون حيث أرادوا باختيارهم ، لانه فى أمانى وتحت حمايتى ، وأعرف أن أباه ما كان يكرهنى ولكنه ذهب عقله وفسد رأيه ، وأنتم يا أهل الديوان تهدون الناس الى الصواب والنور من جنابكم لأهل العقول ، وعرفوا أهل مصر أنه انقضت وفرغت دولة العثمانلى من أقاليم مصر ، وبطلت أحكامها منها ، واخبروهم ان حكم العثمانلى أشد تعبا من حكم المملوك (١) وأكثر ظلما والعاقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية وأهلية للاحكام الشرعية يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم فى سائر الاقليم ، وأنتم يا أهل الديوان عرفونى عن المنافقين المخالفين أخرج من حقهم لان الله تعالى أعطانى القوة العظيمة لأجل ما أعاقبهم فان سيفنا طويل ليس فيه ضعف ، ومرادى أن تعرفوا أهل مصر ان قصدى بكل قلبى حصول الخير والسعادة لهم مثل ما هو بحر النيل أفضل الانهار وأسعدها ، كذلك أهل مصر يكونون أسعد الخلائق أجمعين باذن رب العالمين والسلام »

---

(١) المراد المماليك كما هو اصل المنشور بالفرنسية ولعل هذا التحريف من ناقل نسخة الجبرتى الاصلية

وثيقة رقم ٤

معاهدة العريش (١)

٢٤ يناير سنة ١٨٠٠

« معاهدة للجلاء عن مصر محررة بين الستويان (٢) (ديزيه) قائد فرقة والستويان (بوسليج) مدير الشؤون المالية المفوضين عن الجنرال كليبر القائد العام للجيش الفرنسى ، و بين مصطفى رشيد افندى الدفتردار ومصطفى راسخ افندى رئيس الكتاب المفوضين عن الصدر الاعظم

« ان الجيش الفرنسى فى مصر رغبة منه فى الاعراب عن مقاصده فى حقن الدماء ووضع حد للمنازعات الضارة التى قامت بين الجمهورية الفرنسية والباب العالى قد قبل أن يجلو عن مصر طبقا لشروط هذه المعاهدة آملا أن يكون ذلك تمهيدا للصلح العام فى أوروبا

المادة ١

ينسحب الجيش الفرنسى بأسلحته وأمتعته ومنقولاته الى الاسكندرية ورشيد وأبوقير ومن هناك ينتقل الى فرنسا على سفنه أو السفن التى يقتضى أن يقدمها الباب العالى لهذا الغرض ، ويرسل الباب العالى الى قلعة الاسكندرية بعد شهر من التصديق على هذه المعاهدة مندوبا (قوميسيرا) يصحبه خمسون شخصا لتعجيل تهيئة هذه السفن للنقل

المادة ٢

تعقد هدنة ثلاثة أشهر فى مصر تبتدىء من يوم التوقيع على المعاهدة واذا انقضت هذه المدة قبل أن يعد الباب العالى السفن فتمد الهدنة الى أن يتم نقل

---

(١) صرفنا النظر عن الترجمة العربية الواردة فى الجبرتى لكثرة ماحوته من اغلاط وعبارات ركيكة غير مفهومة وعربنا المعاهدة عن الاصل الفرنسى الوارد فى مجموعة المعاهدات لدى مارتانس الجزء السابع

(٢) كلمة فرنسية تؤدى معنى (مسيو) وهى من مصطلحات الثورة الفرنسية

الجنود بحرا ، ويلاحظ الطرفان أن يبذلا كل الوسائل لعدم الاخلال بطمأنينة الجيش والاهالى وراحتهم خلال الهدنة

المادة ٣

يتبع فى نقل الجيش الفرنسى النظام الذى يضعه مندوبون يختارهم الباب العالى والجنرال كليبر لهذا الغرض واذا حصل خلاف بين المندوبين اثناء انتقال الجنود الى السفن فيختار الكومودور السرسدنى سميث مندوبا من قبله ليفصل فى الخلاف طبقا للوائح البحرية البريطانية

المادة ٤

تخلى الجنود الفرنسية موقعى (قطية) و (الصالحية) فى اليوم الثامن وعلى الاكثر فى اليوم العاشر بعد التصديق على هذه المعاهدة، ومدينة (المنصورة) فى اليوم الخامس عشر ، و (دمياط) و (بلبيس) فى اليوم العشرين ، والسويس قبل إخلاء القاهرة بستة أيام ، والبلاد الاخرى الواقعة بالبر الشرقى للنيل فى اليوم العاشر ، وتخلى بلاد الدلتا بعد خمسة عشر يوما من اخلاء القاهرة ، ويبقى البر الغربى للنيل وملحقاته فى يد الفرنسيين الى حين الجلاء عن القاهرة، وبما ان هذه الجهات يحتلها الجيش الفرنسى إلى أن تجىء الجنود الفرنسية من الوجه القبلى فيجوز أن تبقى محتلة إلى تمام الهدنة إذا لم يتيسر اخلاؤها قبل ذلك ، وتسلم الجهات التى يصير اخلاؤها الى الباب العالى بالحالة التى هى عليها الآن

المادة ٥

يصير اخلاء القاهرة بعد أربعين يوما أو على الاكثر خمسة وأربعين يوما من التصديق على المعاهدة

المادة ٦

يتعهد الباب العالى بان يبذل كل عنايته ليضمن للجنود الفرنسية التى تخلى مواقعها بالبر الغربى وتنسحب باسلحتها وبامتعتها نحو معسكر الجيش العام أن لا تضار

ولاتؤذى فى أشخاصها ولا فى أموالها وكرامتها سواء من أهالى مصر أم من المعسكر السلطانى العثمانى

المادة ٧

تنفيذا للمادة السابقة ومنعا لكل خلاف وخصام تتخذ الوسائل اللازمة لتكون الجنود التركية بعيدة البعد الكافى عن الجنود الفرنسية

المادة ٨

بمجرد التصديق على المعاهدة يطلق سراح الترك والرعايا العثمانيين على اختلاف أجناسهم المحجوزين أو المحبوسين في فرنسا أو الذين اعتقلتهم السلطة الفرنسية فى مصر ، وكذلك يطلق سراح الفرنسيين المحجوزين أو المحبوسين فى مدن السلطنه العثمانية وثغورها والاشخاص التابعين للوكالات والقنصليات الفرنسية على اختلاف اجناسهم

المادة ٩

الاشخاص الذين صودرت أموالهم وأملاكهم من الجانبين يستردون هذه الاملاك والاموال أو تردلهم قيمتها، ويبدأ بذلك فوراً بعد الجلاء عن مصر ، وتتم تسوية ذلك فى الاستانة بوساطة لجان تؤلف لهذا الغرض من الجانبين

المادة ١٠

لايضارّ أحد من سكان مصر من أى دين كان ولايؤذى فى ملكه ولافى شخصه بسبب اتصاله أو ارتباطه بالفرنسيين مدة احتلالهم مصر

المادة ١١

تعطى للجيش الفرنسى جوازات سفر وعهود بعدم التعرض لافراده فى الطريق من تركيا وحلفائها أى انجلترا والروسيا وكذلك تقدم له السفن اللازمة لرجوعه الى فرنسا

المادة ١٢

عند ما ينزل الجيش الفرنسى بالسفن يتعهد الباب العالى وحلفاؤه أن لايحصل

له أى تعرض حتى يصل من فرنسا ، ويتعهد الجنرال كليبر والجيش الفرنسى من ناحيتهما أن لا يحصل منهما خلال هذه المدة أى تحرش أو عمل عدائى ضد أساطيل تركيا أو حلفائها أو أى بلد من البلدان التابعة لها وأن لا ترسو السفن المقلة للجيش فى أى جهة عدا الشواطىء الفرنسية ما لم تقض بذلك الضرورة القصوى

المادة ١٣

ينتج عن الهدنة التى تقرر عقدها لمدة ثلاثة أشهر لجلاء الجيش الفرنسى عن مصر انه اذا وصلت خلال هـذه المدة بعض السفن الفرنسية الى الاسكندرية بغير علم قواد أساطيل الحلفاء فقد اتفق الطرفان على أن تقلع منها بعد أن تتزود مما يكفيها من الماء والمؤونة وتعود الى فرنسا مزودة بجوازات مرور من الحكومات المتحالفة ، وفى حالة احتياج بعض هذه السفن الى الترميم فلها دون سواها أن تبقى الى أن يتم ترميمها ومن ثم تقلع فورا الى فرنسا حينما تطيب لها الريح

المادة ١٤

للجنرال كليبر أن يرسل من فوره نبأ معاهدة الجلاء عن مصر الى الحكومة الفرنسية ويعطى للمركب المقلة للرسالة جواز المرور اللازم الوصول الى فرنسا

المادة ١٥

نظرا لما اتضح من حاجة الجيش الفرنسى الى المؤونة اليومية مدة الثلاثة الاشهر التى يجب أن يتم فيها جلاؤه عن مصر وثلاثة أشهر أخرى ابتداء من يوم نزوله السفن فقد تم الاتفاق على أن يقدم له الباب العالى الكميات اللازمة من القمح واللحم والارز والشعير والتبن وذلك بموجب القوائم التى تقدم من المفاوضين الفرنسيين مما يكفى لمدة اقامة الجيش فى مصر ومدة سفره ويخصم من ذلك ما يأخذه الجيش من المخازن بعد التصديق على المعاهدة

المادة ١٦

لا يسوغ للجيش الفرنسى ابتداء من يوم التصديق على المعاهدة أن يجبى أى ضريبة فى مصر ، وعليه بالعكس أن يترك للباب العالى قيمة الضرائب العادية التى يحل موعد تحصيلها لغاية يوم رحيله ، وكذلك الجمال والهجن والذخائر والمدافع وغير ذلك من الاشياء التى يملكها ولا يرى أن يأخذها معه ، وكذلك شون الغلال التى جبيت نوعا من ضرائب الاطيان ومخازن المأكولات ، فجميع هذه الاشياء يصير حصرها وتقدير قيمتها بمعرفة مندوبين يرسلهم الباب العالى لهذا الغرض على يد قائد القوات البريطانية بالاتفاق مع وكلاء الجنرال كليبر القائد العام ويتسلمها المندوبون المذكورون بقيمتها لغاية ثلاثة آلاف كيس وهو المبلغ المتفق على ادائه للجيش الفرنسى بمثابة نفقات لازمة لتعجيل الجلاء والرحيل فاذا لم تف تلك الاشياء بهذه القيمة فعلى الباب العالى اداء الفرق بصفة سلفة ترد لها الحكومة الفرنسية طبقا لسندات الاستلام التى تحرر بقيمتها من وكلاء الجنرال كليبر

المادة ١٧

بما أن الجيش الفرنسى يلزمه انفاق المصاريف اللازمة للجلاء فيتسلم بعد التصديق على المعاهدة المبالغ المتفق عليها لهذا الغرض على النحو الآتى : خمسمائة كيس فى اليوم الخامس عشر بعد التصديق على المعاهدة ، وخمسمائة أخرى فى اليوم الثلاثين ، وثلثمائة كيس فى اليوم الاربعين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم الخمسين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم الستين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم السبعين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم الثمانين ، وخمسمائة فى اليوم التسعين ، بواقع الكيس خمسمائة قرش عثمانى

وتؤدى هذه المبالغ بصفة سلفة بواسطة مندوبين يوفدهم الباب العالى لهذا الغرض ، وتسهيلا لتنفيذ هذه العهود يرسل الباب العالى بعد تبادل التصديق على المعاهدة فورا مندوبين عنه الى القاهرة والمدن الاخرى التى يحتلها الجيش الفرنسى

المادة ١٨

الضرائب التى يمكن أن يجبيها الفرنسيون بعد التصديق على المعاهدة وقبل اذاعة هذه المعاهدة فى أنحاء القطر المصرى تخصم قيمتها من الثلاثة آلاف كيس المنصوص عنها آنفا

المادة ١٩

تسهيلا وتعجيلا لاخلاء المدن والمواقع تخول لسفن النقل الفرنسية التى توجد بالثغور المصرية حرية الانتقال والملاحة من دمياط ورشيد الى الاسكندرية ومن الاسكندرية الى رشيد ودمياط مدة الثلاثة الاشهر المتفق على جعلها مهلة للجلاء

المادة ٢٠

بما أن سلامة أوروبا من الاوبئة تقتضى اتخاذ الاحتياطات التامة لمنع انتشار عدوى الوباء اليها فلا يباح لأى شخص مصاب بالطاعون أو مشتبه فى اصابته به النزول الى السفن ، والجنود الموبوءون أو المصابون بأى مرض آخر يحول دون امكان نقلهم فى الموعد المحدد للجلاء يبقون بالمستشفيات التى يعالجون بها فى أمان الصدر الاعظم وحمايته ويعالجهم أطباء من الجيش الفرنسى يبقون لهذا الغرض بجانبهم الى أن يتم شفاؤهم ويتسنى لهم السفر بحيث يتم ذلك فى أقرب وقت ممكن ، وتسرى عليهم أحكام المادتين ١١ و ١٢ من هذه المعاهدة كما تطبق بالنسبة لباقى الجند ، ويتعهد القائد العام للجيش الفرنسى بأن يصدر تعليماته المشددة الى ضباط الفرق التى تنزل بالسفن بأن لا يسمح لسفن النقل بالرسو فى غير الثغور التى يعينها أطباء الجيش ويتوخون فى اختيارها أن تتوافر فيها الوسائل الضرورية للحجر الصحى

المادة ٢١

كل ما يحدث من المشاكل مما لا تتناوله أحكام هذه المعاهدة يحسم بالطرق الودية بمعرفة مندوبين يعينهم لهذه الغاية الصدر الاعظم والقائد العام الجنرال كليبر بالطريقة التى تؤدى الى تسهيل وتعجيل الجلاء

المادة ٢٢

لا تسرى أحكام هذه المعاهدة الا بعد التصديق عليها من الجانبين ويتم تبادل التصديق فى خلال ثمانية أيام ، وعندئذ يتحتم على الطرفين مراعاة تنفيذ أحكامها بتمام الدقة

« تحررت هذه المعاهدة ووقع عليها بأختامنا الخاصة بنا بالمعسكر الذى وقعت به المفاوضات بالقرب من العريش يوم ٤ بلوفيوز من السنة الثامنة للجمهورية الفرنسية الموافق ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ ميلادية و ٢٧ (١) من شهر شعبان سنة ١٢١٤ هجرية

« امضاءات (دبزيه) قائد فرقة ، (بوسليج) المفوضين عن الجنرال كليبر ، و (مصطفى رشيد) الدفتردار و (مصطفى راسخ) رئيس الكتاب المفوضين عن الصدر الاعظم »

« طبق الاصل المحرر بالفرنسية والمسلم الى المفوضين الترك فى مقابل النسخة التركية المسلمة منهما : امضاء دبزيه ، بوسليج »

تصديق كليبر (٢)

أنا الموقع أدناه القائد العام للجيش الفرنسى فى مصر أوافق وأصدق على أحكام المعاهدة المذكورة أعلاه لتنفذ بفحواها ومعناها ، وللتحقق من مطابقة الصيغة التركية المدون فيها الاثنان وعشرون شرطا للترجمة الفرنسية الموقع عليها من مفوضى

---

(١) جاء فى الجبرتى ان تاريخ المعاهدة ٢٨ شعبان لا ٢٧ ، وكذلك فى مجموعة المعاهدات لدى مارتانس ، ولكن يلوح لنا أن هذا تحريف فى النقل لانه مما لا نزاع فيه ان التاريخ الميلادى للمعاهدة هو ٢٤ يناير ١٨٠٠ وهذا يطابق ٢٧ شعبان سنة ١٢١٤ لا ٢٨. فضلا عن أن النسخة الواردة فى كتاب ريبو (التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السابع) فيها ان التاريخ العربى ٢٧ شعبان لا ٢٨

(٢) لم ترد صيغة هذا التصديق فى مجموعة (دى مارتانس) فرجعنا فيها الى ريبو الجزء السابع

الصدر الاعظم والمصدق عليها من سموه فسيصير الرجوع الى صيغة الترجمة الفرنسية فى حالة وجود أى خلاف

«المعسكر العام بالصالحية يوم ٨ بلوفيوز من السنة الثامنة (٢٨ يناير سنة ١٨٠٠) امضاء «كليبر»

وثيقة رقم ٥

معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك

انظر ص ١٦٧

بسم الله القدير

نظرا لما أبداه الامير سامى المقام الحائز لكمال الشرف والاعتبار مراد بك محمد من الرغبة فى أن يعيش فى سلام ووفاق مع الجيش الفرنسى بمصر، ولما يرغبه القائد العام كليبر من الاعراب عماله فى نفوس الفرنسيين من الاحترام الذى استوجبته شجاعته واقتضاه مسلكه حيالهم، فقد تم الاتفاق على ما يأتى

المادة ١

يعترف القائد العام للجيش الفرنسى بالنيابة عن الحكومة بمراد بيك محمد أميراً وحاكما للوجه القبلى ويخوله بهذا الوصف سلطة الحكم والانتفاع فى البلاد الكائنة بالبر مشرقى والبر الغربى للنيل ابتداءً من ناحية بلصفورة بمديرية جرجا الى أسوان فى القابل أن يؤدى للجمهورية الفرنسية الخراج الواجب دفعه عن تلك الجهات لصاحب الولاية على مصر

المادة ٢

يحدد هذا الخراج السنوى بمبلغ ٢٥٠ كيس بواقع الكيس ٢٠٫٠٠٠ باره علاوة على ١٥٫٠٠٠ أردب قمح و٢٠٫٠٠٠ أردب شعير وغلال أخرى

المادة ٣

الخراج الذى يدفع نقداً يؤدى على أربعة أقساط متساوية كل ثلاثة أشهر قسط، وتبدأ السنة بحساب التقويم الفرنسى، أما الخراج الذى يؤدى نوعا فيورد فى شون القاهرة من أول فلوريال الى ٣٠ فركتيدور، ويحاسب مراد بك على مصاريف نقل

الغلال بواقع الاردب اربعين بارة وتخصم من الخراج الذى يدفع نقداً

المادة ٤

يكون لمراد بك دخل جمرك القصير وجمرك اسنا ، وتحتل ميناء القصير حامية فرنسية لا تقل عن مائتى جندى وعلى مراد بك أن يؤدى نفقات هـذه الحامية ويصرف لها ضعف ما يدفع عادة للجند ، وعليه أن يخصص كتيبة من المماليك ترابط في القصير لمساعدة الحامية الفرنسية ، وما يدفعه لنفقات الحامية يخصم له من الخراج المذكور فى المادة الثانية

المـادة ٥

بما ان أمير الوجه القبلى ليس له الا الدخل الناتج من الضرائب فليس له أن يتصرف فى ملكية أى بلد الى حاشيته المتصلين به، ولكن له ادارة هذه البلاد بالطريقة التى يراها مرضية ، والحكومة الفرنسية تضمن للاهالى ملكية الاراضى التى يملكونها بالطرق المشروعة وتمنع وقوع أى اعتداء عليها

المـادة ٦

على كل طرف أن يرد الى الطرف الآخر الجنود اللاجئين اليه من جيش الطرف الآخر ، وليس لمزارعى القرى التابعة لأى من الفريقين أن يلجأوا الى البلاد التابعة للفريق الآخر بقصد التخلص من أداء الضرائب أو لاى سبب آخر من هذا النوع

المـادة ٧

يجعل الامير حاكم الصعيد مدينة (جرجا) مقراله ، وعليه أن يرسل للقائد العام حرسا من خمسة وعشرين مملوكا ، وعليه أن يوفد أحد البكوات من أتباعه مندوبا مفوضا عنه يقيم باستمرار فى القاهرة

المـادة ٨

يضمن قائد الجيش الفرنسى لمراد بك الانتفاع بدخل حكومته ويتعهد بحمايته فى حالة مهاجمته

واذا استهدفت الجهات التى تحتلها الجنود الفرنسية لهجوم عدائى أيا كان نوعه

فعلى مراد بك أن ينفذ عددا من جنوده يبلغ على الاكثر نصف قواته لمعاونة القوات الفرنسية ، وعليه أن يقدم بالثمن المعتاد أدوات النقل المطلوبة ، ومؤونة الجنود التي ينفذها تكون على نفقة الحكومة الفرنسية

المادة ٩

يعد القائد العام كليبر بأن لا يوافق على أى اقتراح أو اتفاق يحرم مراد بك من المزايا المبينة أعلاه وعليه أن يبلغ المعاهدة الحالية الى الحكومة الفرنسية لتراعى مصالح مراد بك فى المعاهدات التى قد تبرم بشأن مصر

المادة ١٠

ان الشروط الواردة فى المعاهدة الحالية والتى تقررت بمعرفة كل من الجنرال داماس قائد فرقة ورئيس أركان الحرب العام والستويان جلوتييه قوميسير الحكومة (لدى الديوان) ومدير الشؤون المالية المفوضين عن القائد العام كليبر، وعثمان بك البرديسى المفوض عن مراد بك يصير ، التوقيع عليها من القائد العام كليبر ومن الامير المعظم والملاذ الافخم مراد بك محمد

وثيقة رقم ٦

وثيقة زواج الجنرال منو بالسيدة زبيدة المصرية

كما اكتشفها العلامة على بك بهجت فى دفتر خانة محكمة رشيد الشرعية (انظر ص ٢١٤)

« بمحضر كل من مولانا العلامة السيد احمد الخضرى المفتى الشافعى ، ومولانا الشيخ محمد صديق النائب والمفتى الحنبلى ، ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى ، والسيد احمد بدوى نقيب الاشراف حالا ، والامير محمد بدوى جوربجى سردار مستحفظان ، واحمد آيق جاويش مستحفظان ، والحاج احمد جاويش العسال ، والحاج محمود اللومى المغربى ، وابراهيم الجمال الرزاز ، والحاج محمد ميتو ، وعبد الله بربير ، والحاج بدوى الشناوى ، وازون اسماعيل السلانكلى ، وعلى جاويش كتخدا البيك دام كالهم

بعد ان أقر واعترف منو باشا صارى عسكر بالقطر المصرى حالا بصريح لفظه وفصيح نطقه بكلمتى الشهادتين وهما اشهد ان لااله الاالله واشهد ان محمدا رسول الله عارفا معتقدا معناهما ومصدقا بمضمونهما تاركا لدين النصرانية والاديان الرديئة على الترتيب والولاء واعادة التشهد واستيفاء الشروط المعتبرة فيهما شرعا طائعا مختارا من غير اكراه ولا اجبار وبمقتضى ذلك صار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وظهر منه الرغبة والحب للمسلمين والميل اليهم وسمى نفسه عبد الله باشا واشهد على نفسه الجماعة المذكورين بجميع ذلك اشهادا شرعيا ثم بعد ذلك رغب عبد الله باشا المذكور فى تزوجه بامرأة مسلمة فخطبها خطبة شرعية واجيب الى ذلك بعد ابرازه لفتيا شريفة لفظ سؤالها ما قولكم دام فضلكم فى رجل احب الاسلام وأهله ورغب فيهما تاركا لدين النصرانية ناطقا بكلمتى الشهادتين مصدقا على الوجه الاكمل ثم اراد ان يتزوج امرأة مسلمة على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم فهل يجوز له حينئذ التزوج بها والعقد عليها بشروطه الشرعية افيدوا الجواب وبأدناه الحمد لله حيث كان الحال ما شرح فى السؤال فيجوز للرجل المسلم المذكور خطبة المرأة المسلمة والعقد عليها بشروطه الشرعية والله اعلم كتبه العبد الفقير احمد الخضرى الشافعى لطف الله به وبادناه الحمد لله حيث أقر الرجل المذكور بالشهادتين بشروطهما الشرعية فيجوز له ان يعقد على المرأة المسلمة عقدا شرعيا مستوفيا لشرائطه الشرعية والله سبحانه وتعالى هو الموفق كتبه الفقير محمد صديق الحنبلى عفى عنه وبادناه الحمد لله حيث رغب الرجل المذكور فى الاسلام ونطق بكلمتى التوحيد جاز له أن يتزوج المرأة المسلمة وأن يعقد عليها العقد الشرعى بشروطه الشرعية والله اعلم كتبه الفقير محمد غرا المالكى غفر له وعفى عنه ، فبمحضر كل من ذكر اعلاه تزوج عبد الله باشا المذكور بمخطوبته زبيدة المرأة بنت محمد البواب التى كانت زوجا لسليم اغا نعمة الله وطلقها وانقضت عدتها منه شرعا على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم وصداق جملته الفا ريال اثنان معاملة ومائة دينار ذهبا محبوبا فالحال لها من ذلك المائة دينار

المذكورة اقبضها لوكيلها الحاج حسين بن السيد محمد الموقت فقبض منه ذلك عددا بالمجلس بمعاينة من ذكر اعلاه وعليه الخروج من عهدة ذلك لها شرعا والباقى الفا ريال الاثنان يحلان لها عليه بموت او فراق زوجها له بذلك ، وعقد نكاحها عليه وكيلها الحاج حسين الموقت المرقوم باذنها له فى ذلك بشهادة كل من اخيها لامها السيد على الحمامى بن حسن البواب والسيد احمد وشقيقه السيد ابراهيم المكلف كل منهما ابنى السيد سليمان النقرزان تزويجا شرعيا قبله للزوج المرقوم وكيله الحاج احمد شهاب حسبما وكله صريحا بالمجلس بشهادة شهوده المذكورين ، وعلى عبد الله باشا الزوج المذكور القيام لزوجته المذكورة فى كل سنة تمضى من تاريخه ادناه بقضاء كسوة اقمشة شتاء وصيفا لائقين بحالهما القيام الشرعى ، وثبت ذلك لدى مولانا افندى بعد ان ثبت لديه معرفة زبيدة المذكورة المعرفة الشرعية التى لا جهالة معها شرعاً بشهادة كل من شهود توكيلها المذكورين ثبوتاً شرعياً وحكم بموجبه حكما شرعياً فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ثلاثة عشرة ومائتين والف (نسختان متطابقتان)

صورة عقد الاتفاق

بين منو وزوجته

ولديه بمحضر كل من مولانا الشيخ احمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا الشيخ محمد صديق النائب المفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى والسيد احمد بدوى نقيب الاشراف والامير محمد بدوى جربجى سردار مستحفظان واحمد آيق جاويش مستحفظان والحاج احمد جاويش العسال والحاج محمود اللومى المغربى وابراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد ميتو وعبد الله بربير والحاج بدوى الشناوى واوزن اسمعيل السلانكلى وعلى جاويش كتخدا البيك ولوى جوسف ويكتور جليان صارى عسكر حاكم ولاية الثغر ولوى اوجست دورى رئيس طائفة عسكريه وكتخدا صارى عسكر الآتى ذكره فيه وجان فرنسوا لوى لويكه مهندس وميقاتى الجيش الفرنساوى ولويزى واتولى باش حكيم القرنتينه دام كالهم صدر التوافق

والتراضى بين الحاج حسين بن السيد محمد الميقاتى الوكيل الشرعى عن زبيدة المرأة بنت السيد محمد البواب الثابت معرفتها وتوكيله عنها فيما يذكر فيه بشهادة كل من أخيها لامها السيد على الحمامى بن حسن البواب والسيد احمد وشقيقه السيد ابراهيم ابنى السيد سليمان النقرزان الثبوت الشرعى وبين الحاج احمد شهاب الحاضر معه بالمجلس القائم فى ذلك بوكالته الشرعيه عن عبدالله باشا منو صارى عسكر القطر المصرى حالا الثابتة صريحا بالمجلس وبتصديقه على ذلك التصديق الشرعى وهو زوج زبيدة الموكله بموجب كتاب الزوجية المسطر بمحكمة الثغر المؤرخ بخامس عشرين شهر تاريخه أدناه على شروط تكون وتوجد بين عبد الله باشا منو وبين زوجته زبيده باقرار الوكيلين المذكورين

الشرط الأول منها أن زبيدة الزوجة أقامت وأذنت زوجها المذكور وكيلا عنها فى سائر ما تملكه يدها الآن وفيما يوجد لها من المال يتصرف لها فى ذلك بحسن نظره السعيد

(الثانى) أن عبد الله باشا منو الزوج المذكور أقر بأن كامل ماهو تحت يدها من متاع ومصاغ وحلى فهو ملك لها بمفردها

(الثالث) عبد الله باشا منو الزوج المرقوم أعطا لوكيله الحاج أحمد شهاب المذكور مائة محبوب كل واحد منها بمائة وثمانين نصفا فضه فى نظير صداق زوجته المذكورة وأن الحاج احمد شهاب سلم جميع ذلك ليد وكيلها الحاج حسين المذكور فسلمها ذلك عداً بالمجلس وذلك على حسب عادة عقودات المسلمين

(الرابع) أن الزوج المذكور شرط على نفسه انه ان حصل بينه وبين زوجته فراق يدفع لها الفا ريال اثنان معاملة فى نظير فراقه لها وكل ما كان تحت يدها وقت ذاك يكون جميعه ملك لها حسب عادة دفع مؤخر صداق المسلمين

(الخامس) أن زبيده الزوجة المذكورة ان كانت تطلب طلاقها من زوجها المذكور بحسب شرع المسلمين لم يكن لها من الألفين ريال المذكورة ولا نصف فضه ماعدا ماتحت يدها من مصاغ وغيره فهو لها

(السادس) زبيدة لم تزل وارثة فى كل ماكانت ترثه شرعا

(السابع) أن زبيدة أقرت بنفسها انه إن مات زوجها المذكور وهى فى عصمته تأخذ من ماله الألفين ريال المذكورة وليس لها مقارشة ولا طلب فى تركته وذلك فى نظير إرثها الشرعى حسب رضاها بذلك

(الثامن) انه إن مات الزوج المذكور وخلف أولاداً من زوجته المذكورة وهم قصر يقام عليهم رجلان ناظران ووصيان واحد فرنساوى والثانى ابن عرب يتصرفان فى أموالهم بحسب المصلحة فى طريقة الفرنساوية وطريقة المسلمين

(التاسع) أن الزوجة المذكورة ان ماتت وخلفت أولادا من زوجها المذكور فى حياته يكون أبيهم هو الوكيل الشرعى على أولاده وعلى مالهم

(العاشر) الناظر الوصى الفرنساوى المذكور فى الشرط الثامن يقام من طرف حكام الفرنساوية الموجودين فى بر مصر وقت ذاك والناظر الوصى الثانى يقام بحسب عادة المسلمين وان حصل تداعى بسبب اختلاف تقام على يد الحاكم الشرعى إن كان ببر مصر أو ببر الفرنسوية

(الحادى عشر) عبد الله باشا منو وزوجته ان ماتا جميعاً وخلفا أولادا تكون أولادهما تحت حماية جمهور الفرنسوية والزوجين المذكورين يقصدا فضل الحكام الخمسة التى ببلاد فرنسا يكونوا نظارا على أولادهما وأن الزوج والزوجة أقرا واعترفا برضاهما على هذه الشروط المذكورة على يد وكيليهما الاقرار والاعتراف الشرعيين الصادرين منهما بالمجلس بحضرة من ذكر أعلاه وأنهما التزما بهذه الشروط ليفعلانها وقت الاحتياج اليها من غير اكراه ولا اجبار التزاماً مرضياً وثبت ذلك لدى مولانا أفندى ثبوتاً شرعياً وحكم بموجبه فى سابع عشرين رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين والف .

نسختان متطابقتان » (١)

---

(١) وقد راجعنا الوثيقتين على الأصل الموجود فى دفترخانة محكمة رشيد الشرعية ونقلناهما عنه حرفيا بما فيهما من الاغلاط اللغوية والنحوية

وثيقة رقم ٧

معاهدة الجلاء عن مصر — انظر ص ٢٦٦ —

(أبرمها الجنرال بليار قائد الجيش الفرنسى فى القاهرة)

٢٧ يونيه سنة ١٨٠١

« معاهدة لجلاء الجيش الفرنسى بقيادة الجنرال بليار عن مصر ، أبرمت بين كل من البرجادييه جنرال هوب Hope بالنيابه عن القائد العام للجيش الانجليزى فى مصر ، وعثمان بك بالنيابه عن الصدر الاعظم ، واسحق بك بالنيابه عن قبطان باشا ، والجنرال دنزلو Donzelot والجنرال موران Morand والكولونل تارير Tarayre بالنيابه عن الجنرال بليار قائد فيلق الجنود الفرنسية ومن يتبعه ، اجتمع المندوبون المذكورون أعلاه فى مكان المفاوضات ، وبعد تبادل الصفات والسلطات المخولة لهم اتفقوا على الشروط الآتية :

المادة ١

ان الجنود الفرنسية من كافة الأسلحة والملحقين بهم بقيادة الجنرال بليار يجلون عن القاهرة والقلعة وحصون بولاق والجيزة وعن كل الجهات التى يحتلونها الآن فى القطر المصرى

المادة ٢

ينتقل الجنود الفرنسيون والملحقون بهم بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم الى رشيد بطريق البر الغربى للنيل ومن هناك يبحرون الى الثغور الفرنسية بالبحر الأبيض المتوسط ومعهم أسلحتهم ومدافعهم ومنقولاتهم على نفقة الدول المتحالفة ، ويتم اقلاعهم فى أقرب ما يمكن من الوقت بحيث لا يتأخر عن الخمسين يوماً التالية لتاريخ التصديق على هذه المعاهدة ومن المتفق عليه أن ينقل الجنود المذكورون الى الثغور الفرنسية بأقرب وأسرع طريق

المادة ٣

تقف الاعمال العدائية من الجانبين بمجرد التوقيع والتصديق على هذه المعاهدة وتسلم قلعة سلكوسكى (١) وباب مدينة الجيزة المسمى باب الاهرام الى جيش الحلفاء ، ويحدد خط المخافر الامامية لجيوش الطرفين بمعرفة مندوبين يعينون لهذا الغرض وتعطى الأوامر المشددة للجنود بأن لا يجتازوا هذا الخط وذلك منعا لكل اصطدام بين جنود الطرفين ، واذا وقع أى اصطدام فيحسم بالطرق الودية

المادة ٤

يخلى الجنود الفرنسيون والملحقون بهم مدن القاهرة والقلعة و بولاق وقلاعها فى اليوم الثانى عشر بعد التصديق على هذه المعاهدة ، وينسحبون الى قصر العينى والروضة والجيزة ، ومن هناك يرحلون الى الثغور المعدة لاقلاعهم و يكون هذا الرحيل فى أقرب وقت ممكن بحيث لايزيد عن خمسة أيام ، ويتكفل قواد الجيوش البريطانية والتركية بنفقات نقل الجنود الفرنسيين بطريق النيل من الجيزة

المادة ٥

تنظم طريقة رحيل الجنود الفرنسيين باشتراك قواد جيوش الطرفين أو ضباط أركان الحرب الذين ينتدبون لهذا الغرض من الجانبين ، ولكن من المتفق عليه أنه طبقا لهذه المادة يكون لقواد جيوش الحلفاء تحديد عدد الأيام التى يقتضيها احتشاد الجيش الفرنسى ورحيله و بناء على ذلك يصحب الجيش الفرنسى فى رحيله مندوبون من الانجليز والترك يكلفون تقديم المؤن اللازمة له أثناء الرحيل

المادة ٦

تعهد حراسة الأمتعة والاثقال والذخائر وسائر المهمات التى ينقلها الجنود

---

(١) جامع الظاهر بيبرس

الفرنسيون بطريق النيل الى شراذم من الجيش الفرنسى والى السفن المسلحة التابعة لدول الحلفاء

المادة ٧

تقدم المؤن الكافية للجنود الفرنسيين والملحقين بهم من يوم رحيلهم من الجيزة الى حين وصولهم الى فرنسا وتتبع فى هذا الصدد لوائح الجيش الفرنسى فى المسافة بين الجيزة والثغر الذى يقلعون منه ، واللوائح البحرية البريطانية فى طريقهم بحراً لغاية وصولهم الى فرنسا

المادة ٨

يقدم قواد القوات البرية والبحرية الانجليزية والتركية مراكب النقل اللازمة لنقل الجنود الفرنسية الى ثغر رفرنسا الواقعة على البحر الابيض المتوسط وكذلك لجميع الفرنسيين والاشخاص الاخرين الملحقين بالجيش الفرنسى ، ويعهد فى هذه المهمة وفى تدبير المؤن الكافية الى مندوبين يعينهم لهذا الغرض الجنرال بلبار وقواد الحلفاء البريين والبحريين بعد التصديق على هذه المعاهدة مباشرة ، ويتوجه هؤلاء المندوبون الى رشيد وأبو قير لتدبير الوسائل اللازمة للنقل

المادة ٩

يقدم الحلفاء أربع سفن (أو أكثر من هذا العدد عند الامكان) خاصة لنقل الجياد والمياه والعلف الكافى لمدة السفر

المادة ١٠

يعود الجنود الفرنسيون والملحقون بهم الى فرنسا فى حراسة سفن الحلفاء ، وتضمن الدول المتحالفة للذين يركبون السفن منهم أن لا يصابوا بأذى ما الى أن يبلغوا الشواطىء الفرنسية ويتعهد الجنرال بلبار هو والجنود الذين تحت قيادته بأن لا يصدر عنهم أثناء رحلتهم أى عمل عدائى ضد السفن أو البلاد التابعة لصاحب الجلالة البريطانية أو الباب العالى وحلفائهما

ولا يجوز للسفن المقلة للجنود أو للرعايا الفرنسيين أن ترسو فى أى ثغر آخر غير الثغور الفرنسية ما لم تقض بذلك الضرورة القصوى

ويتعهد قواد القوات البريطانية والتركية والفرنسية بالعهود المبينة أعلاه مدة اقامة الجيش الفرنسى فى مصر من يوم التصديق على المعاهدة الى حين نزوله الى السفن ويتكفل الجنرال بليار قائد القوات الفرنسية بالنيابة عن حكومته بأن السفن التى تقل الجنود الفرنسية أو تتولى حراستها فى البحر لا تحجز ولا تضبط فى موانىء فرنسا بعد نزول الجنود منها وأن يكون لقباطينها الحق أن يشتروا على حسابهم حاجتهم من الزاد والمؤونة مما يكفيهم للعودة ويتكفل الجنرال بليار أيضا بالنيابة عن حكومته أن لا تضارَّ هذه السفن فى عودتها الى ثغور الحلفاء ما دامت لا تحاول القيام بحركات حربية عدائية أو المشاركة فيها بأى وسيلة ما

المادة ١١

جميع الرجال الاداريين وأعضاء لجنة العلوم والفنون وبالجملة كل الاشخاص الملحقين بالجيش الفرنسى يتمتعون بالمزايا المخولة فى هذه المعاهدة لافراد الجيش

ولرجال الادارة وأعضاء لجنة العلوم والفنون أن يأخذوا معهم الاوراق المتعلقة بوظائفهم وأعمالهم وأوراقهم الخاصة والاشياء الاخرى التى تتعلق بهم

المادة ١٢

يحق لأى من سكان مصر على اختلاف أجناسهم اذا رغب اللحاق بالجيش الفرنسى فى رحيله أن يرحل معه ولا يجوز بعد رحيله أن تؤذى عائلته أو تصادر أملاكه

المادة ١٣

لا يضار أحد من سكان مصر من أى دين كان ولا يؤذى فى شخصه ولا فى ماله بسبب علاقته اثناء الاحتلال الفرنسى بالسلطات الفرنسية ما دام يخضع من الآن لقوانين البلاد (١)

---

(١) فى النص المنشور فى مجموعة دى مارتانس ان هذه المادة تنصرف الى

المادة ١٤

المرضى الذين لا يستطيعون السفر يبقون فى مستشفى حيث يتولى علاجهم أطباء من الفرنسيين أو أشخاص من مواطنيهم الى أن يتم شفاؤهم وعندئذ يرسلون الى فرنسا طبقا للاحكام التى تسرى على الجنود ، وعلى قواد الحلفاء أن يقدموا لهم حاجاتهم فى ذلك المستشفى وعلى الحكومة الفرنسية أن ترد قيمة هذه الحاجات

المادة ١٥

عند تسليم المواقع والقلاع المقتضى تسليمها طبقا لهذه المعاهدة يعين مندوبون لتسلم المدافع والذخائر والمخازن والاوراق والمحفوظات والرسوم وغير ذلك من الاشياء والمنقولات التى يجب على الفرنسيين تركها للحلفاء

المادة ١٦

يرسل قائد القوات البحرية للحلفاء سفينة تبحر فى أقرب وقت الى طولون وعليها ضابط ومندوب من الجيش الفرنسى يعهد اليهما ابلاغ الحكومة الفرنسية نص هذه المعاهدة .

المادة ١٧

جميع ما ينشأ من الخلاف فى شأن تنفيذ هذه المعاهدة يحسم بالطرق الودية على يد مندوبين يعينون لهذا الغرض من الجانبين

المادة ١٨

بعد التصديق على هذه المعاهدة يصير الافراج فوراً عن الأسرى الانجليز والعثمانيين المحبوسين فى القاهرة وعلى قواد الحلفاء أن يفرجوا من ناحيتهم عن الأسرى الفرنسيين الذين فى معسكراتهم

الاشخاص الذين يرحلون مع الجيش الفرنسى لكن هذه الاضافة لم ترد فى النص الوارد فى ريبو وقد اعتمدنا على الصيغة التى فى ريبو لأن الاضافة لا تستقيم مع المعنى المستفاد من ختام المادة

المادة ١٩

يتبادل الحلفاء والفرنسيون الرهائن لضمان تنفيذ هذه المعاهدة من الجانبين وتكون الرهائن من ضباط من الطرفين متساوين فى الرتبة ويطلق سراح الرهائن بمجرد وصول الجنود الفرنسية الى موانى فرنسا

المادة ٢٠

يبلغ أحد الضباط الفرنسيين هذه المعاهدة الى الجنرال منو بالاسكندرية، ولهذا الاخير أن يقبلها بالنسبة للجنود الفرنسيين ومن يلحق بهم ممن تحت امرته برا وبحرا فى تلك المدينة، وعليه فى حالة القبول أن يبلغ ذلك الى قائد القوات البريطانية المرابطة أمام الاسكندرية فى مدة اليومين التاليين لتبليغه نص المعاهدة

المادة ٢١

يصير تبادل التصديق على هذه المعاهدة من قواد الطرفين فى مدة أربع وعشرين ساعة بعد التوقيع عليها

حرر من هذه المعاهدة أربع نسخ بالمكان الذى حصلت فيه المفاوضات بين مندوبى الطرفين ظهر يوم ٢٧ يونيه سنة ١٨٠١ الموافق ١٦ صفر سنة ١٢١٦ هجرية أى ٨ مسيدور من السنة التاسعة للجمهورية الفرنسية

امضاءات : هوب Hope بريجادير جنرال . عثمان بك وكيل الصدر الاعظم . اسحق بك وكيل حسين قبطان باشا . دنزلو Donzelot قائد لواء . موران قائد لواء . تاربر Tarayre كولونل

نوافق ونصدق على هذه المعاهدة، ٩ مسيدور (٢٨ يونيه سنة ١٨٠١) لميار قائد فرقة — نوافق : هلى هتشنسون القائد العام (للجيش الانجليزي) — نوافق بالنيابة عن اللورد كيت : ستفنسن قبطان بالبحرية الملكية — صدقنا على مواد هذه المعاهدة : الحاج يوسف ضيا . حسين باشا قبطان

ملحق اضافى وتفسيرى للمعاهدة

١ — ان مدافع الميدان التى يسوغ للجيش الفرنسى تحت امرة الجنرال بليا أن ينقلها معه فى انسحابه من القاهرة ويأخذها لفرنسا هى : مدفعان من مدافع الميدان عن كل طابور ومدفع عن كل سرية وما يتبعها من العربات والذخيرة

٢ — من المتفق عليه أيضا ان الجنود الفرنسيين الذين يركبون سفنا حربية من سفن الحلفاء يودعون أسلحتهم وذخيرتهم في الامكنة المخصصة لها على ظهر تلك السفن تحت رقابة قباطينها ثم تسلم للجنود الفرنسيين عند نزولهم من السفن فى الموانى الفرنسية ، أما الجنود الذين يركبون سفنا غير حربية وغير مسلحة فيستبقون أسلحتهم وذخيرتهم مدة رحلتهم ويكونون تحت رقابة ضباطهم

٣ — تنتقل زوجة الجنرال منو وابنه وياوره من القاهرة الى الاسكندرية بطريق النيل على سفينة يعدها الحلفاء لهذه الغاية وترسل معهم منقولات الجنرال منو

٤ — بما أنه يوجد بالقاهرة الآن بعض زوجات الضباط والجنود وباقى الفرنسيين المرابطين فى الاسكندرية فلهن كامل الحرية فى الانتقال الى تلك المدينة، وتعد لهن وسائل الانتقال اللازمة لهذا الغرض وفى حالة عدم قبولهن فى الاسكندرية ينتقلن الى فرنسا عند اقلاع الجيش الفرنسى الذى تحت قيادة الجنرال بليار أو فى أى وقت ممكن، ويخولن جميع المزايا المنصوص عنها فى هذه المعاهدة

٥ — الفرنسيات من نساء ضباط الجيش الفرنسى وجنوده أو نساء الموظفين الفرنسيين الملحقين بهذا الجيش ينتقلن مع أزواجهن الى فرنسا ويعطين المؤونة الكافية ويخولن المزايا المبينة فى هذه المعاهدة وتتبع فى ذلك اللوائح البحرية البريطانية

٦ — اذا وجد بالقاهرة منقولات وأمتعة تابعة لافراد الحامية الفرنسية المرابطة فى الاسكندرية تنقل وتودع فى رشيد أو ترسل الى فرنسا اذا أمكن ذلك

٧ — يجوز لمدير الايرادات العامة للجيش الفرنسى أن ينتقل الى الاسكندرية

أو يرسل اليها مندوبا عنه ويُعطى كل التسهيلات الممكنة لهذا الغرض

٨ — اذا كان من بين الرهائن التى تعطى من الجانبين ضباط من الجيش البرى فلقواد الجيوش الثلاثة أن يستبدلوا بهم عند نزول الجيش الفرنسى الى السفن ضباطا بحريين من مرتبتهم

٩ — الخيول والجمال التى يتركها جيش الجنرال بليار فى مصر تسلم عند الجلاء الى مندوبين يعينهم قواد جيوش الحلفاء

١٠ — من المتفق عليه ان الحصون التى يصير تسليمها تسلم بحالتها دون أن يمسها أى هدم أو تخريب ويلفت نظر الضباط والمهندسين الى الالغام التى بها

حرر فى معسكر المفاوضات يوم ٨ مسيدور من السنة التاسعة (٢٧ يونيه سنة ١٨٠١ ـ ١٦ صفر سنة ١٢١٦)

(الامضاءات السابقه)

وثيقة رقم ٨

معاهدة الجلاء عن الاسكندرية (انظر ص ٢٤٧)

«شروط التسليم المعروضة يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٨٠١[١] من عبدالله جاك فرنسوا منو القائد العام للجيش الفرنسى بالاسكندرية على قواد القوات البرية والبحرية التابعة لصاحب الجلالة البريطانية وللباب العالى

الشرط ١

ابتداء من اليوم لغاية ٣٠ فركتيدور (١٧ سبتمبر سنة ١٨٠١) تمتد الهدنة بين الجيش الفرنسى والجيوش الانجليزية والتركية بالشروط المتبعة الآن وتحدد خطوط المخافر الامامية بين الجيشين تحديداً جديداً بمقتضى اتفاق ودى يبرم بين قوادالجانبين منعا لوقوع أى تصادم بين الجنود

(الجواب) — مرفوض

الشرط ٢

اذا لم يصل المدد الكافى للجيش الفرنسى قبل الميعاد المحدد فى المادة السابقة ينسحب من الاسكندرية وقلاعها واستحكاماتها بالشروط الاتية

(الجواب) — مرفوض

الشرط ٣

ترتدالجنود الفرنسية يوم ١٨ سبتمبر الى داخل الاسكندرية والقلاع المجاورة لها ، وتسلم الى الحلفاء المعاقل والاستحكامات الواقعة أمام سور المدينة وكذلك قلعتى لتورك ودفيفييه[٢] ومافيهاذلك من المدافع والذخائر

(الجواب) — تسلم جميع الاستحكامات وقلعتا لتورك ودفيفييه الى قوات الحلفاء بعد التوقيع على معاهدة التسليم بثمان وأربعين ساعة أى ظهر يوم ٢ سبتمبر وكذلك

---

(١) عرضت الشروط يوم ٣٠ اغسطس وتم الاتفاق يوم ٣١ اغسطس كما بينا ذلك ص ٢٧٤

(٢) هما قلعتا القمرية والركنه انظر ص ٨١

يسلم مابها من المدافع والذخائر وينسحب الجنود الفرنسيون من الاسكندرية وباقى قلاعها وملحقاتها بعد التوقيع على المعاهدة بعشرة أيام بحيث ينزل الجنود الفرنسيون فى هذا الموعد الى السفن المعدة لرحيلهم

الشرط ٤

كل فرد من أفراد الجيش الفرنسى أو الملحقين به من العسكريين والملكيين وكذلك أفراد الجنود على اختلاف أجناسهم وبلدانهم وأديانهم ممن كانوا بمصر قبل مجىء الحملة الفرنسية يستبقون ممتلكاتهم وأمتعتهم وأوراقهم بحيث لا يسوغ فحصها وتفتيشها .

(الجواب) — مقبول ، بشرط ان لا يأخذوا شيئاً من أملاك حكومة الجمهورية الفرنسية عدا المنقولات والامتعة والاشياء الأخرى ملك الفرنسيين والتابعين لهم ممن اشتغلوا في خدمة الجيش الفرنسى مدة ستة أشهر وكذلك الاشخاص الملحقين بخدمة الجيش الفرنسى فى الوظائف الملكية أو العسكرية على اختلاف أجناسهم وبلدانهم وأديانهم

الشرط ٥

تنزل القوات الفرنسية ومن يتبعها من الاشخاص المشار اليهم فى البند السابق الى السفن فى ثغر الاسكندرية بين ٥ و ١٠ من شهر فاندمير من السنة العاشرة للجمهورية (من ٢٧ سبتمبر الى ٢ اكتوبر سنة ١٨٠١) على الاكثر باسلحتهم وذخائرهم وأمتعتهم ومنقولاتهم وجميع ما يمتلكونه من الاوراق الرسمية والودائع ، ويلحق بكل طابور وسرية مدفع من مدافع الميدان وذخيرته ، وتقلع السفن بكل ذلك الى ميناء فرنسية بالبحر الابيض المتوسط يعينها قائد الجيش الفرنسى

(الجواب) ـ ينزل الجنود الفرنسيون ومن يتبعهم من الجنود والاشخاص المشار اليهم فى البند الرابع الى السفن من ثغر الاسكندرية الا اذا تم الاتفاق الودى على اقلاع جزء منهم من أبوقير ، ويكون نزولهم الى السفن عقب اعداد السفن لهم ، وتتعهد دول الحلفاء بنقل الجنود فى عشرة أيام بعد التوقيع على معاهدة التسليم اذا أمكن ذلك ، ويؤدى الى الجيش الفرنسى الاحترام العسكرى ، ويأخذ معه أسلحته وأمتعته

ولا يعتبر أفراده اسرى حرب ، ويأخذ معه كذلك عشرة مدافع من عيار ٤ بوصات ومن الذخيرة ثمانى طلقات أوعشر لكل مدفع ويقلع الى احد الثغور الفرنسية بالبحر الابيض المتوسط

الشرط ٦

تقلع السفن الحربية الفرنسية كاملة الاسلحة مع الجيش الفرنسى وكذلك السفن التجارية مهما اختلفت جنسية أصحابها ولو كانوا من رعايا الدول المعادية للحلفاء أو كانوا من التجار أو البحارة التابعين لدول الحلفاء قبل مجىء الحملة الفرنسية بحيث تعاد السفن الحربية الى الحكومة الفرنسية وتعاد السفن التجارية لاصحابها

(الجواب) — مرفوض وتسلم جميع السفن الى الحلفاء بالحالة التى هى عليها

الشرط ٧

كل سفينة فرنسية تصل الاسكندرية ابتداءً من اليوم لغاية ٣٠ فركتيدور (١٧ سبتمبر) قادمة من ثغور فرنسا أو حلفائها تسرى عليها احكام هذه المعاهدة ، والسفن الحربية أو التجارية التابعة لفرنسا أو حلفائها التى تصل فى مدة العشرين يوما التالية للجلاء عن المدينة لا تعتبر غنيمة حربية بل يطلق سراحها هى وركبها وحمولتها وتعطى جواز مرور من الحلفاء .

(الجواب) — مرفوض

الشرط ٨

الجنود الفرنسيون والموظفون العسكريون والملكيون التابعون للجيش وجميع الاشخاص المنوه بهم فى البنود السابقة يبحرون على ظهر السفن الفرنسية الراسية فى ثغر الاسكندرية اذا كانت صالحة للسفر أو على ظهر السفن الانجليزية أو التركية فى المواعيد المحددة بالبند الخامس

(الجواب) — يختار الاميرال الانجليزى مايشاء من هذه السفن

الشرط ٩

يعين مندوبون من الجانبين لوضع نظام النقل من جهة عدد السفن اللازمة

ومقدار حمولتها من الرجال وبالجملة تسوية كل مايمكن أن ينشأ من الصعوبات في تنفيذ هـذه المعاهدة ويعهد الى هؤلاء المندوبين تحديد مواقع السفن الموجودة في الميناء والسفن التى يقدمها الحلفاء بحيث تكون الوسائل التى تتبع كافية لمنع وقوع أى نزاع بين البحارة المختلفة اجناسهم

(الجواب) — كل هذه التفاصيل تعهد تسويتها الى الاميرال الانجليزى والى ضابط بحرى فرنسى يختاره القائد العام للجيش الفرنسي

الشرط ١٠

التجار وأصحاب السفن على اختلاف اجناسهم وأديانهم وكل من يرغب من سكان مصر أو من رعايا البلاد الأخرى المقيمين الآن فى الاسكندرية كالسوريين والاقباط والاروام والعرب واليهود الخ فى مصاحبة الجيش الفرنسى في رحيله يركبون السفن مع الجنود الفرنسية وتسرى عليهم المزايا المقررة للجيش الفرنسى ولهم الحق فى أن يأخذوا معهم ماشاءوا من أموالهم من اى نوع كانت وان يوكلوا من شاءوا في التصرف فيما لايستطيعون نقله وتحترم تصرفاتهم ومعاملاتهم والعقود الصادرة منهم بشأن ممتلكاتهم ويضمن قواد الحلفاء نفاذها، والذين يفضلون منهم البقاء فى مصر فترة من الزمن لتسوية معاملاتهم يسمح لهم بذلك ويكونون مشمولين بحماية الحلفاء ، أما الذين يؤثرون الاقامة فى مصر الى ماشاء الله فيتمتعون بكافة الحقوق والمزايا التى كانت لهم قبل الحملة الفرنسية

(الجواب) — جميع المتاجر التى توجد فى الاسكندرية أو على ظهر السفن الراسية فى الميناء تسلم مؤقتا الى الحلفاء الى أن يبت فى شأنها طبقا للقواعد المرعية ولاحكام القوانين المتبعة بين الدول ولمن يشـاء من الافراد ان يصحبوا الجيش الفرنسى أو يبقوا فى مصر فى أمن وطمأنينة

الشرط ١١

لا يضارّ أحد من سكان مصر أو من رعايا أمة أخرى مهما كان مذهبه بسبب مسلكه مدة الاحتلال الفرنسى وخاصة لمحاربته فى صفوفهم او استخدامهم اياه

(الجواب) — مقبول

الشرط ١٢

مؤونة الجنود والملحقين بهم فى البحر لغاية الوصول الى فرنسا تكون علي نفقة الحلفاء وطبقا للوائح البحرية الفرنسية وعلى الحلفاء ان يقدموا كل مايلزم لتسهيل النزول الى السفن

(الجواب) — مؤونة الجنود ومن يركب السفن معهم تكون علي حساب الحلفاء لغاية بلوغهم فرنسا و تتبع فى ذلك القواعد المرعية فى البحرية البريطانية

الشرط ١٣

القناصل والممثلون للدول المتحالفة مع فرنسا وكذلك الموظفون القنصليون التابعون لتلك الدول يستمر تمتعهم بالمزايا والحقوق المخولة لموظفى السلك السياسى طبقا للقواعد المتبعة بين الدول المتمدنة وتكون املاكهم ومنقولاتهم وأوراقهم موضع الرعاية والاحترام فى كفالة دول الحلفاء ولهم الحرية فى أن يرحلوا أو يبقوا فى البلاد كما يشاءون

(الجواب) — للقناصل ولباقى الموظفين القنصليين التابعين لحلفاء الجمهورية أن يرحلوا أو يبقوا فى البلاد حسبما يرغبون وتحفظ لهم أملاكهم ومنقولاتهم على اختلاف أنواعها وكذلك أوراقهم مادامو يسيرون سيرة صادقة و يتبعون القواعد المقررة فى القانون الدولى

الشرط ١٤

المرضى الذين تقرر اللجان الصحية للجيش أن فى استطاعتهم السفر يركبون السفن مع باقى الجنود، وتخصص لهم سفن مستشفيات تتوافر فيها الادوية الكافية والاغذية وكل مايلزم للمرضى و يتبعهم صيدليون فرنسيون ، أما المرضى الذين لا تسمح حالتهم بالسفر فيبقون فى رعاية دول الحلفاء وعنايتهم و يبقى معهم بعض الاطباء الفرنسيين ، وتخصص لهم وسائل العناية الكافية وتكون نفقاتهم على حساب دول الحلفاء ، وعلى هذه الدول أن تبعث بهم الى فرنسا عندما تسمح لهم صحتهم بالسفر، ولهم أن يأخذوا معهم كل مايملكون من المنقولات طبقا للقاعدة المتبعة بالنسبة لباقى الجنود

(الجواب) — مقبول وتعد بعض السفن لتكون مستشفيات ينتقل اليها الجنود الذين يطرأ عليهم المرض فى مدة السفر وعلى اللجان الصحية لجيوش الطرفين أن تتفق على الوسائل الواجب اتخاذها بالنسبة للمرضى المصابين بامراض معدية بحيث يمنع اتصالهم بباقى الجنود

الشرط ١٥

تخصص بعض سفن النقل لحمل الخيول بحيث تسع كل سفينة ستين جوادا والعلف الكافى لهذه الجياد مدة السفر

(الجواب) — مقبول

الشرط ١٦

يحق لاعضاء المجمع العلمى المصرى ولجنة العلوم والفنون أن يأخذوا معهم جميع الاوراق والرسوم والمذكرات ومجاميع التاريخ الطبيعي وجميع آثار الفنون والعاديات القديمة التى جمعوها فى مصر

(الجواب) — أعضاء المجمع لهم أن يأخذوا معهم جميع الآلات الفنية والعلمية التى جاءوا بها من فرنسا، ولكن المخطوطات العربية والتماثيل و باقى المجاميع التى جمعت للجمهورية الفرنسية تعتبر من الاملاك العامة ومن ثم تسلم لقواد الحلفاء

(وقد اعترض الجنرال منو على هـذا التعديل ولكن الجنرال هوب صرح أنه لا يمكن العدول عنه واتفق القائدان على عرض الأمر على القائد العام للجيش الانجليزى)

الشرط ١٧

مراكب النقل التى ستخصص لنقل الجيش الفرنسى ومن يتبعه تسير بحراسة السفن الحربية التابعة للحلفاء وتتعهد هذه الدول ان لا تضار هذه المراكب مدة سفرها، أما المراكب التى قد تنفصل عن عمارة النقل بفعل العواصف أو لاى حادثة ما فعلى قواد الحلفاء أن يضمنوا سلامتها، وعلى المراكب التى تنقل الجيش الفرنسى أن لا ترسو بأى شاطىء غير شواطىء فرنسا مالم تقض بذلك الضرورة القصوى

(الجواب) — مقبول وعلى القائد العام للجيش الفرنسى ان يتعهد من ناحيته أن لا تضار أى سفينة من سفن الحلفاء أثناء اقامتها فى فرنسا أو فى عودتها وأن تتزود فى فرنسا بكل ما يلزمها طبقا للعرف الجارى بين الدول الاوروبية

الشرط ١٨

عند ما تسلم القلاع والاستحكامات طبقا لنص الشرط الثالث يصير اطلاق سراح الاسرى من الجانبين

(الجواب) — مقبول

الشرط ١٩

يعين مندوبون لتسلم المواقع الموجودة فى المدينة والقلاع وكذلك الذخائر والمخازن والمدافع والاشياء الاخرى التى تترك للحلفاء وتحرر قوائم بكل ذلك يوقع عليها مندوبون من الطرفين كما يجرى تسليم القلاع والمخازن للحلفاء

(الجواب) — مقبول وعلى الفرنسيين تسليم الخرط المحتوية على تخطيط مواقع الاسكندرية وقلاعها وتخطيط مدن القطر المصرى الى المندوبين الانجليز وتسلم البطاريات والثكنات والمبانى العامة الاخرى بالحالة التى هى عليها الآن

الشرط ٢٠

يعطى جواز سفر لسفينة حربية فرنسية تبحر الى طولون بعد تسليم المدينة وقلاعها تقل الضباط الذين يعهد اليهم القائد العام للجيش الفرنسى ابلاغ نبأ هذه المعاهدة الى الحكومة الفرنسية

(الجواب) — مقبول ولكن اذا كانت السفينة فرنسية فلا تكون مسلحة

الشرط ٢١

عند تسليم القلاع والاستحكامات المنوه بها فى المواد السابقة يجرى تبادل الرهائن من الجانبين لضمان تنفيذ هذه المعاهدة ويختارون من بين ضباط الجيش من مرتبة واحدة بحيث يكون عددهم أربعة من ضباط الجيش الفرنسى واثنين من ضباط

الجيش الانجليزى واثنين من الجيس التركى وينزل الضباط الفرنسيون الاربعة ببارجة الاميرال قومندان عمارة الحلفاء والضباط الانجليز والترك باحدى السفن المقلة للقائد العام أو نواب القائد العام للجيش الفرنسى ويجرى تبادل أولئك الضباط عند وصولهم الى فرنسا

(الجواب) — يسلم للقائد العام للجيش الفرنسى أربعة ضباط كرهائن أحدهم من ضباط البحرية الانجليزية والثانى من الجيش الانجليزى والثالث والرابع من الجيش التركى وعلى القائد العام للجيش الفرنسى أن يسلم قائد الجيش الانجليزى أربعة ضباط من مرتبة الضباط المذكورين وتسلم الرهائن وقت نزول الجنود الى السفن

الشرط ٢٢

اذا قام أى خلاف أثناء تنفيذ هذه المعاهدة فيحسم بالطرق الودية على يد مندوبين من الطرفين

(الجواب) — مقبول

توقيعات — هلى هتشنسن لفتننت جنرال قائد عام ، حسن قبطان باشا ، عبدالله جاك فرنسوا منو القائد العام للجيش الفرنسى ، جمس كمت لفتننت Kempt كولونل وسكرتير

تصحيح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١١	١٩	اللدودة	اللدود
١٥	٢٣	Divant	Divan
٢١	٤	والى عكا	والى عكا (١)

(١) تسمى الولاية ولاية صيدا ولكن اسم عكا غلب عليها لشهرتها

٢٩	١٦	المعسكر	العسكر
٣٧	٣	روى نابليون	روى عن نابليون
٤١	٢٠	٢١ مايو	٣١ مايو
٨٧	١١	ونَمْت	ونَمَّة
١١٢	١٠	تحبب إليه	تحببه الى
١٧٤	١٤	أن يمكن	يمكن أن
١٨٤	٢٢	أثنا عشرة مليون	اثنا عشر مليون
١٩٤	٢	غذاء	غداء
٢٠٤	٣	ليترافع	لترافع
٢٠٨	١١	فأعيد فتحه فى غايه محرم	فأعيد فتحه فى ١٩ صفر بعد أن صرح بفتحه فى غاية محرم
٢٧٦	٢٤	١٧١٠	١٨١٠
٣١٢	٣	تخصهم	يخصهم

(استدراك) الملزمة **٢١** ابتدأت ارقام صفحاتها برقم ٣٥٩ وانتهت برقم ٣٧٤ وذلك خطأ والصواب أولها رقم ٣٢٩ وآخرها رقم ٣٤٤

فى الجزء الاول

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦٤	٣	١٧٩٦	١٧٦٩
١٦٣	١٧	النذر	النزر
٢٤٩	٦	الفرنسيين	الفرنسيون
٣٢٣	١٤	الفصل الرابع عشر	الفصل الثالث عشر

فهرست الجزء الثانى

صفحة

مقدمة الجزء الثانى ١
خلاصة الجزء الاول . . . . . .

الفصل الاول

اعادة الديوان ٩

أسباب اعادة الديوان ٩
احتلال السويس ورحلة نابليون اليها ١١
رواية الجبرتى عن احتلال السويس ١٢
رواية الجبرتى عن رحلة نابليون اليها ١٣
منشور نابليون باعادة الديوان ١٤
نظام الديوان الجديد ١٥
الديوان العمومى وأعضاؤه ١٥
الديوان الخصوصى وأعضاؤه ١٨

الفصل الثانى

الحملة على سورية ٢١

مقدمات الحملة وأسبابها ٢١
احتياطات نابليون وسياسته ازاء الشعب المصرى ٢٥
اجتماع نابليون بأعضاء الديوان ٢٧
الاحتفال برؤية رمضان ٢٨
سير الحملة ٢٩
احتلال العريش ٣٠

صفحة

احتلال يافا ٣٠
المصريون فى يافا ٣٢
حصار عكا والارتداد عنها ٣٣
خسائر الفرنسيين فى الحملة على سورية ٣٨
موقف نابليون بعد هزيمة عكا ٣٨
انسحاب الجيش الفرنسى الى مصر ٤١

الفصل الثالث

الحالة فى مصر أثناء الحملة على سورية ٤٣

حالة الشعب النفسية ٤٣
مركز الديوان ٤٤
احتفال الفرنسيين بانتصاراتهم ٤٦
حالة القاهرة فى شهر فبراير سنة ١٧٩٩ . . . . . ٤٧

بوادر الثورة فى الاقاليم ٤٨

الثورة فى الشرقية ٤٨

واقعة بردين ٤٨
ثورة أمير الحج ٥٠
رواية الجبرتى ٥١
امتداد الثورة ٥١
رواية الجبرتى ٥٢
خطورة الثورة ٥٣
عزل أمير الحج ٥٤
رواية الجبرتى ٥٤
اخماد الثورة ٥٥

صفحة

معركة كفور نجم ٥٦
احراق ميت غمر ٥٦

الثورة فى غرب الدلتا ٥٧

الثورة فى البحيرة ٥٨
معركة سنهور ٦٠
احتلال الفرنسيين دمنهور ٦١
النهب والفظائع فى دمنهور ٦١

الفصل السابع

سياسة نابليون فى مصر

بعد عودته من سورية

عودة نابليون الى القاهرة ٦٤
منشور أعضاء الديوان ٦٦
تغيير نظام القضاء وانتخاب قاضى قضاة مصر ٦٦
عود الى المجمع العلمى ٦٩
خرطة مصر (راجع الجزء الاول ص ١٢٨) ٧٠
اكتشاف الآثار المصرية القديمة ٧١
الموقف السياسى وتجدد القتال ٨١
مقتل الجنرال دومارتان ٧٣
نزول الجنود العثمانية في أبو قير ٧٤
احتلال الاتراك قلعة أبو قير ٧٤
تعليمات نابليون ٧٥
معركة أبو قير البرية ٧٧
حصار قلعة أبو قير ٧٩

صفحة

رواية الجبرتى عن معركة أبو قير ٧٩
حالة الافكار فى القاهرة والاقاليم ٨١
رجوع نابليون الى القاهرة ٨٥

الفصل الخامس

اضطراب الأحوال فى فرنسا

ورحيل نابليون ٨٧
الاستعداد للرحيل ٩٠
سفر نابليون من القاهرة ٩٢
عرض الصلح على تركيا ٩٣
من القاهرة الى الاسكندرية ٩٤
رسالة نابليون الى الديوان ٩٥
رسالته الى الجيش ٩٦
رسالته الى الجنرال كليبر عن الحالة فى مصر ٩٧
رأى نابليون فى الجلاء عن مصر ٩٨
رأيه في حالة مصر الداخلية ٩٩
حصون مصر ٩٩
الادارة المالية ومشروعات أخرى ١٠٠
ختام الرسالة ١٠٠
اقلاع السفن ١٠١
الاحتفال بوفاء النيل بعد سفر نابليون ١٠٢

الفصل السادس

صفحة

قيادة الجنرال كليبر ١٠٥

شخصية كليبر ١٠٥
الجفاء بين كليبر ونابليون ١٠٥
موقف كليبر بعد اسناد القيادة العامة اليه ١١٠
مقابلته لاعضاء الديوان ١١١
أعضاء الديوان في عهد كليبر ١١٣
التقسيم الادارى للمديريات ١١٤
الحالة فى القاهرة والاقاليم ١١٤
حقيقة الموقف الحربى فى مصر ١١٧
الحالة المالية والاقتصادية ١١٩
حالة الشعب النفسية ١٢٥
مساعى كليبر فى عقد الصلح ورأيه فى مركز مصر السياسى . . . ١٢٦
تجدد القتال وهزيمة الاتراك فى عزبة البرج ١٢٩
أعمال كليبر العلمية ١٣٠

الفصل السابع

معاهدة العريش ١٣١

مفاوضات الصلح في دمياط وغزه ١٣٢
زحف الجيش العثمانى واحتلال قلعة العريش ١٣٤
المجلس الحربى الفرنسى لاقرار الصلح ١٣٥
التوقيع على المعاهدة ١٣٦
شروط المعاهدة ١٣٧
نظرة فى معاهدة العريش ١٣٩
الاستعداد للجلاء ١٤٠

مظالم الحكم التركى . . . . . صفحة ١٤١

الفصل الثامن

نقض المعاهدة ومعركة عين شمس ١٤٤

نقض الانجليز للمعاهدة ١٤٤
معركة عين شمس ١٤٦
رواية الجبرتي عن معركة عين شمس ١٥٠

الفصل التاسع

ثورة القاهرة الثانية ١٥١

بدء الثورة ١٥٢
هجوم الثوار على معسكر الفرنسيين ١٥٣
اشتداد الثورة ١٥٥
اعتداءات يؤسف لها ١٥٧
وصول الجنرال كليبر ١٥٨
خطة كليبر فى اخماد الثورة ١٥٩
اخضاع الوجه البحرى ١٦١
الاتفاق مع مراد بك ١٦٢
معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك ١٦٧
اخماد ثورة القاهرة ١٧١
الوساطة في الصلح واخفاقها ١٧٣
مأساة بولاق ١٧٦
الهجوم على مواقع الثوار ١٧٨
فظائع الفرنسيين فى اخماد الثورة ١٧٩
المفاوضة فى التسليم ١٨١

عودة السلطة الى الفرنسيين . . . . . صفحة ١٨٢
بعد اخماد الثورة — غرامات فادحة — اعتقال واضطهاد . . ١٨٤
اضطهاد الفرنسيين للسيد السادات ١٨٧
موقف كليبر بعد اخماد ثورة القاهرة ١٩١

الفصل العاشر

مقتل الجنرال كليبر ١٩٣

تفاصيل الواقعة ١٩٣
رواية الجبرتى ١٩٥
القبض على القاتل واعترافاته ١٩٦
قضية مقتل كليبر ١٩٩
تأليف المحكمة العسكرية ١٩٩
التحقيق مع المتهمين ٢٠٠
المحاكمة ٢٠٣
الحكم ٢٠٤
جنازة كليبر ٢٠٥
افقال الازهر ٢٠٧

الفصل الحادى عشر

قيادة الجنرال منو ٢٠٩

شخصية منو ٢٠٩
سياسة منو ازاء الجيش الفرنسى ٢١١
مسألة اسلام منو وزواجه ٢١٣
سياسة منو ازاء المصريين ٢١٥
ضرائب واتاوات فادحة ٢١٥

نهب وارهاق وتخريب صفحة٢١٧
اعادة الديوان ٢٢٠
تأليف الديوان ٢٢٠
موظفو الديوان ٢٢٣
سلسلة التاريخ ٢٢٣
دار الديوان ٢٢٤
وصف احدى جلسات الديوان ٢٢٤
اختصاص الديوان ٢٢٥
مشروعات منو ٢٢٧
استعداد الانجليز والاتراك للزحف على مصر ٢٣٠
سياسة انجلترا أزاء مصر ٢٣٠
مساعى نابليون في امداد الحملة الفرنسية ٢٣١
موقف منو ٢٣٤
وصول الحملة الانجليزية العثمانية الى أبو قير ٢٣٤
نزول الانجليز الى البر ٢٣٦
معركة سيدى جابر ٢٣٦
ارتباك الجنرال منو ٢٣٨
حالة الافكار فى القاهرة ٢٣٩
اعتقال واضطهاد ٢٤١

الفصل الثانى عشر

هزيمة الفرنسيين وجلاؤهم عن مصر ٢٤٥

معركة كانوب ٢٤٥
احتلال رشيد ٢٤٩
استطراد الى قلعة رشيد وأهميتها التاريخية ٢٥٠

صفحة

قطع سد أبو قير وعزلة الاسكندرية ٢٥٢
معركة الرحمانية والزحف على القاهرة ٢٥٣
انتقام منو من خصومه ٢٥٥
رواية الجبرتى ٢٥٥
زحف الجيش العثمانى — معركة الزوامل ٢٥٦
تحرج موقف الفرنسيين فى القاهرة ٢٥٧
موت مراد بك ٢٥٧
انتشار الوباء ٢٥٨
اجتماع الجنرال بليار بأعضاء الديوان ٢٦١
تقدم الحلفاء ٢٦٢
المجلس الحربي الفرنسى وقرار الجلاء عن مصر ٢٦٣
توقيع اتفاقية الجلاء ٢٦٥
اطلاق سراح المعتقلين ٢٦٦
آخر جلسة للديوان ٢٦٧
خلاصة تاريخ الديوان ٢٦٨
جلاء الفرنسيين عن القاهرة ٢٧٠
موقف منو فى الاسكندرية ٢٧٠
المفاوضة فى الجلاء ٢٧٣
اتفاقية الجلاء عن الاسكندرية ٢٧٤
رواية الجبرتى ٢٧٥
جلاء الفرنسيين عن الاسكندرية ٢٧٥

الفصل الثالث عشر

نتائج ظهور العامل القومى على مسرح الحوادث السياسية

صفحة

الحالة السياسة فى مصر بعد جلاء الفرنسيين ٢٧٨
الاتراك ٢٧٨
الانجليز ٢٧٩
المماليك ٢٨٠
العامل القومى ٢٨٢
قادة الشعب وزعماؤه ٢٨٤
السيد عمر مكرم ٢٨٤
السيد محمد السادات ٢٨٧
الشيخ عبد الله الشرقاوى ٢٩٠
« محمد الامير ٢٩٥
« سلمان الفيومى ٢٩٦
« مصطفى الصاوى ٢٩٨
« محمد المهدى ٢٩٩
السيد احمد المحروقى ٣٠٥
ظهور محمد على الكبير ٣١١
الصراع بين القوات الثلاث ٣١٤
تعيين خسرو باشا واليا لمصر ٣١٤
مؤامرة الاتراك على المماليك ٣١٥
رواية الجبرتى عن مؤامرة الاسكندرية ٣١٧
مؤامرة القاهرة ٣١٨
رواية الجبرتى ٣١٩
تغير وقتى فى وجهة النظر الانجليزية ٣٢٠
استنجاد المماليك بنابليون واخفاقهم ٣٢٢

جلاء الانجليز عن الجيزة . . . . . صفحة ٣٢٣
الحرب بين الاتراك والمماليك ٣٢٤
هزيمة الأتراك فى هو ٣٢٥
معركة دمنهور ٣٢٦
رواية الجبرتى ٣٢٧
جلاء الانجليز عن مصر ورحيلهم عن الاسكندرية . . . ٣٢٨
حضور الكولونل سباستيانى الى مصر ٣٢٨
موقف المماليك بعد جلاء الانجليز ٣٣٠
تجدد الحرب بين المماليك والاتراك ٣٣٢
احتلال المماليك المنيا ٣٣٢
ثورة الجنود على الوالى ٣٣٥
تعيين طاهر باشا قائمقاما ثم مقتله ٣٣٧
مظالم طاهر باشا ٣٣٨
مقتل طاهر باشا ٣٣٩
تعيين احمد باشا ٣٤٠
تحالف محمد على والمماليك ٣٤٠
اعتقال خسرو باشا ٣٤١
تعيين على باشا الجزائرلى واليا ٣٤٢
موقف محمد على ٣٤٤
حضور المسيو ماسيو دلسبس ٣٤٤
قطع سد أبو قير ٣٤٥
مقتل على باشا الجزائرلى ٣٤٦
موقف محمد على ٣٤٧
عودة محمد بك الالفى من لندن وفشل خطته السياسية . . . ٣٤٧
ثورة الشعب على المماليك ٣٥٢
ثورة الشعب على الوالى التركى ٣٥٧

الحالة السياسية في القاهرة . . . . . صفحة ٣٥٧
ولاية خورشد باشا ٣٥٩
سوء سياسة خورشد باشا ونفوذ العلماء ٣٦١
مقدمات الثورة ٣٦١
فظائع الجنود الدلاة وهياج الشعب ٣٦٢
رجوع محمد على الى القاهرة ٣٦٣
أيام الثورة ٣٦٤
تعيين محمد على واليا لجدة ومحاولة ابعاده عن مصر ٣٦٦
اجماع زعماء الشعب ومطالبهم ٣٦٧
خلع خورشد باشا والمناداة بمحمد على واليا لمصر ٣٦٩
القتال بين الشعب والوالى التركى ٣٧١
السيد عمر مكرم روح الحركة ٣٧٤
ختام الثورة ٣٨٣

الفصل الرابع عشر

وثائق تاريخية ٣٨٤
وثيقة رقم ١ — منشور نابليون باعادة الديوان ٣٨٤
وثيقة رقم ٢ — منشور الديوان الخصوصى الى الشعب لمناسبة اعادة الديوان ٣٨٥
وثيقة رقم ٣ — منشور نابليون الى أعضاء الديوان عن انتخاب قاضى
قضاة مصر ٣٨٧
(١) نص المنشور كما عربناه عن الاصل الفرنسى ٣٨٧
(٢) نص المنشور كما عربه تراجمة نابليون ٣٨٨
وثيقة رقم ٤ — معاهدة العريش ٣٩٠
وثيقة رقم ٥ — معاهدة الصلح بين الجنرال كليبر ومراد بك . . ٣٩٧

وثيقة رقم ٦ — وثيقة زواج الجنرال منو بالسيدة زبيدة المصرية صفحة ٣٩٩
عقد الاتفاق بين منو وزوجته ٤٠١
وثيقة رقم ٧ — معاهدة الجلاء عن مصر — أبرمها الجنرال بليار قائد الجيش
الفرنسى فى القاهرة ٤٠٤
وثيقة رقم ٨ — معاهدة الجلاء عن الاسكندرية — ابرمها الجنرال منو ٤١٢
تصحيح خطأ ٤٢٠
فهرست الجزء الثانى ٤٢٢
فهرست الخرائط والرسوم ٤٣٥

مراجعات تاريخية

سياسة انجلترا ازاء مصر

ص ١٢٨ و ١٤٤ و ١٤٦ و ٢٣٠ و ٢٧٩ و ٢٨٠
و ٣٢٠ و ٣٢٣ و ٣٢٨

فهرست الخرائط والرسوم

بين بلبيس والصالحية . . . . . مقابل ص ٤٨
مصطفى بك أمير الحج . . . . . » »
بين شبرا خيت ورشيد (تخطيط سنة ١٨٠٠) . . . » ٥٨
بين الاسكندرية وأبو قير — (تخطيط سنة ١٨٠١) . . مقابل ص ٧٨
بين القاهرة وبلبيس (تخطيط سنة ١٨٠٠) ١٤٧
معسكر الفرنسيين بالازبكية سنة ١٨٠٠ . . . . مقابل ص ١٥٤
بركة الفيل بالقاهرة فى أواخر القرن الثامن عشر . . . ٢٢١
خرطة معركة سيدى جابر ٢٣٨
خرطة معركة كانوب ٢٤٨
سراى عثمان بك الطنبورجى خليفة مراد بك بالقاهرة . . ٢٥٩
قادة الشعب وزعماؤه فى فجر النهضة القومية. . . . مقابل ص ٢٨٤
محمد على باشا . . . . . مقابل ص ٣١٢
المنيا كما كانت فى أوائل القرن التاسع عشر . ٣٦٣

***

فى الصفحة ٣٥٩ سطر ١ وردت كلمة (خورشد) وصوابها (خسرو).

حقوق الشعب

هو كتاب وضعناه سنة ١٩١٢ يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الانسان ، تخيرنا فى وضعه أسلوب فريق من المؤلفين الغربيين الذين أفرغوا المبادىء السياسية والوطنية فى قالب محاضرات ومحاورات لتعليم الشعب حقوقه وواجباته

نقابات التعاون الزراعية

نظامها وتاريخها وثمراتها فى مصر وأوربا

كتاب بسطنا فيه تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته ونظمه فى أوروبا والثمرات التى عادت منه على البلاد الاوروبية ، وبحثنا فيه عن نشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ونقاباته ومنشآته ومزاياه وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية طبع سنة ١٩١٤

كتاب الجمعيات الوطنية

صحيفة من تاريخ النهضات القومية

يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها طبع سنة ١٩٢٢

ذكرى فقيد الوطن

المغفور له

أمين الرافعي بك

(بقلم الاستاذ محمد صادق عنبر)

كتاب يتضمن ترجمة حياة الفقيد وما قيل فى رثائه نظما ونثراً

طبع سنة ١٩٢٨ فى نيف وسبعمائة صفحة

وثمنه ١٥ قرشا صاغا ويطلب من مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر
ومن سائر المكاتب

تاريخ الحركة القومية

وتطور نظام الحكم

في مصر

الجزء الاول

يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الاول من أدوارها وهو عصر المقاومة الاهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر وتطور نظام الحكم فى ذلك العهد

DATE DUE

JAFET LIB.
1 JUN 1980

JAFET LIB.

J. LIB.

J. Lib.
- 2 DEC 1985

الرافعي ،عبد الرحمن
تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الح
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01059446